صلب السيرة

تنويه وتحذير وإشارة

سنبدأ هذا الجزء بنشر الجزء الأول الذي جرت طباعته خارج المملكة، حيث تقدم لنا أحد أهل مكة باقتراح، تصميمه على الشكل الصالح للنشر التجاري. لكن لما وصلني القسم الأول منه، وجدته لا يتفق مع رؤيتي لتحاشي، جعل السيرة مشابهة للمطبوعات المعدة للبيع. حيث ان هذه السيرة تحوي بعض المعلومات التي "لم يقلها التاريخ" وخشية الوقوع في مأزق "من قال لك تقول هذا" ؟ اخترت الاكتفاء بسرد السيرة على شكل مسودة للمراجعة الداخلية، وبعد التنقيح يمكن النظر في ذلك. كما احتوت طبعة بيروت (أو القاهرة) على تعديلات واضافات، لا داع لها في هذه المرحلة. كما ان الشروحات المضافة من الناشر، يمكن الحصول عليها من انسيكلوبيديا بريتانيكا، أو من الجوال في الشبكة العامة. وما أريده ان أحصن السيرة عن أية إضافات خارجية، كم احتوت الطبعة أخطاء في فهم العبارات الدارجة في وسط جزيرة العرب. لذا نرجو الحذر من تداوال هذه، حيث قررنا إيقاف تكملتها مع الناشر، وسددنا أتعاب ما قاموا بانجازه، وفي الفصل اللاحق سأعيد سرد هذا الجزء، حسب النص والطريقة التي اخترتها، لتكون ملائمة لمسودة أولية ليست للنشر، ولا يحق لغير القرابة مطالعتها أو النقل والاقتباس منها أوالثرثرة عنها، والله الموفق إلى سواء السبيل.

صلب السيرة

مقدمة

هذا الجزء هو الأساس الأول لهذا المكتوب "سيرة وعبرة"، وقد بوشر في اعداده مطلع ستينات القرن العشرين، حينما كان صاحب هذه السيرة في مصر، بغرض العلاج والدراسة لنفسه وأسرته، وقد رأيته متأثر المشاعر لما تلقى رسالة من أحد الرفاق في جدة، بها عبارة "صاحبك يريد ان تعود" مما جعله ساخطاً لأيام. ثم أمرني بإحضار أحد دفاتر المدرسة، وباشر يدون الكثير من الصفحات، عن أحواله وما أحاط به من أحداث خلال الفترة الماضية، واستمر يملأ المزيد من الدفاتر في الشهور التالية. أما الأجزاء السابقة على هذا الفصل، فقد باشرت اعدادها بعد عودتنا من مصر في مطلع سبعينات ذلك القرن، وبقيت متناثرة في عدة مخطوطات، تشمل أجزاء متفرقة من مراحل حياته يرحمه الله أملاها علي. وبعض من ذلك بقي محفوظاً لعدة سنوات، والآخر لم أتمكن من احضاره معنا من مصر، نظراً لبعض التعريضات الحساسة فيها، خاصة ما يتعلق ببطولات عبدالناصر في بداية الستينات، وجهوده للنهضة بمصر ولتوحيد العرب، وصواريخه لتحرير نصف فلسطين الذي استولى عليه الصهاينة. ثم قيام طيارين سعوديين بالفرار بطائراتهم، وحتى بعض أبناء الملك عبدالعزيز، الذين القوا جوازاتهم في بيروت، وتوجهوا مع المطرب "لبيك لبيك يا ناصر" بدون حساب. لكن والدي أبى الاختلاط معهم فقد أحس في وقت مبكر بالتضليل، خاصة لما احتلت عساكر ناصر اليمن، وبدأت طائراته تقصف الأراضي السعودية، ثم تكررت المأساة في صحراء المغرب، وعادت قواته في هزيمة وخذلان، وتبينت أكاذيب صوت العرب. وبعد خيبته الكبرى (حزيران 67م) وخسارة بقية فلسطين واراضي مصر وسوريا والأردن، لم يبقى أي شك في تهوره، وسوء تفكيره وقلة تدبيره وخيانته لمن وثقوا به، والإساءة لمن أحسنوا اليه.

في النصف الأول من سبعينات القرن 20، كانت لي جلسة يومية مع والدي رحمه الله، كل بعد عصر حينما أكون في مكة عند الأهل، وفي بعض الأيام يشاركنا بعض القرابة. حيث يملي علي انطباعاته وذكرياته، بالقدر الذي تسمح به حالته الصحية، وانشغاله باستقبال الزوار أثناء المواسم في رمضان وذوالحجة. وقد اتممت تدوين الكثير مما بقي، من سرد ما مر به في فترات مختلفة من حياته، أو ما سمعه من عمه زيد بن عبدالله، الذي قص عليه ما عرفه من جده علي بن حمد بن راشد، رحمهم الله

جميعا. وقبل منتصف تلك السبعينات، بدأت أرتب أوراق السيرة، وحفظتها في صندوق معدني (شنطة) وعهدت بها لأكبر اخوتي (زيد) عند سفري لخارج البلاد للدراسة. لكنه بعد سنة سافر لأمريكا للدراسة أيضا، واستودعها عند احدى القريبات المتقدمة في السن، مما أثر على المحتوى الورقي. أما صاحب السيرة فبلغ التسعين آنذاك، وتأثرت قدراته السمعية والبصرية والحركية ثم الفكرية، بعدة أحداث كان أهمها خلاف أسري حول عقارات قديمة، ونكبة إطلاق الرصاص على الملك فيصل في الديوان، والذي جمعته بوالدي علاقة امتدت لأكثر من نصف قرن.

بعد وفاته بشهور انتقل الأهل للرياض، حيث الإمكانيات التعليمية أفضل من مكة المكرمة، ولملاحظة أداء الصغار مع متابعة عملي، في التنمية الصناعية التي شهدت ازدهار مبهر خلال الثمانينات الشمسية، مما أشغلني عن تنقيح مسودات السيرة. كما ان الانغماس في مشاريع استثمارية خاصة، استغرق معظم وقتي لعشرين سنة، ولم أعد أستطيع العمل على الكتابة إلا في أوقات متباعدة. في نهاية القرن (20م) تطورت وسائل التواصل الالكتروني، وبدت الثورة (القفزة) المعلوماتية تؤتي ثمارها، بعضها يانع حلو وأخري كريهة مرة، وظهرت رغبات الكثير في الحصول على معلومات وبيانات إضافية، تساعد على فهم الأحداث سريعة التغير. نشر احد أعضاء مجلس الشورى في صحيفة يومية (الشرق) وجوب بيان تجارب وسيرة بعض من شاركوا في المراحل الأولى لتأسيس المملكة، الذين لم يجد في مصادره بيان عنهم، ومن بينهم صاحب هذه السيرة. الذي يوجد ذكر له في الصحيفة الرسمية (أم القرى) منذ مرحلة مملكة الحجاز وسلطنة نجد. ثم لما قامت أمانة العاصمة قبل سنوات، بالترتيب لمناسبة مرور قرن على تأسيسها، أدرجوا نبذة عن من تولوا رئاستها، لكنها احتوت معلومات بعضها مخالف للصواب، مثل انه من أهل القصيم. كما يوجد ذكر له في تاريخ العقيلي عن المخلاف السليماني، وفي شخصيات مكية للفريق المعلمي، وفي مصادر أخرى متفرقة في (انترنت) شبكة المعلومات الدولية.

أوصى بعض القرابة والمحبين بنشر خلاصة لسيرته رحمه الله، حيث ان أساسها ينوف على 1000 صفحة، فسارعت بتجميع بعض مما تبقى من الأوراق القديمة، التي لم ينالها التلف وصورنا منها نسخ ورقية قليلة، ووزعت على بعض القرابة والمحبين وذوي العلاقة عام 1437هـ. ولقيت استحسان الغالبية منهم، لكن البعض خالفوا ذلك ورأوا وجوب التركيز على الإنجازات وتلافي الإخفاقات، على ان ذلك سيجعلها مجرد مكتوب للمديح والتفخيم، وليس لاستخلاص العبرة وتوفير المعلومات. حيث ان ما واجهه من عثرات واساءات، هي المصدر الرئيس للعبر والتنبيهات للذرية، ولا تنتقص من قدره بل توضح السرد الأمين لأحداث حياته. آخرون رأوا ان ذكر أسلافهم وقرابتهم، لابد ان يكون في أطار وصفهم بالشموخ والعلو، لذا قررت إزالة أي ذكر لأسماء ذوي العلاقة، والاكتفاء بسرد الأحداث بدون التطرق للشخصيات. وأشار البعض ان الملخص يقع في اكثر من 200 صفحة، ويريدون نبذة

موجزة وضعتها على شبكة الحاسوب، في أقل من 50 صفحة لمن يرغب مجرد سرد الأحداث، لكنها لا تصلح لاستخلاص العبرة.

أراد بعض الأحبة ادراج جزء عن سيرة أسلاف المرحوم، لمعرفة خلفية عما جرى لقرابته وعشيرته في الزمن القديم، وتم استخلاص ذلك في خمسة عشر فصل، توجد في نفس هذا الموقع. وهي معتمدة كلياً على ما رواه عمه زيد بن عبدالله، نقلا عن الجد علي بن خثلان، وتحوي سرد لأحداث قديمة، نعرف منها ما كان القدماء يعلمونه وما يجهلون. ويمكن استخلاص كثير من العبر، من احداث السنين الماضية قبل ولادته، لمن يرغب التعرف على وجهات نظر السلف حول شؤون حياتهم. ولما قرر الملك سلمان حفظه الله، التذكير "بيوم تأسيس" الحكم السعودي (1139هـ) طلب البعض، معرفة جوانب وصول الأمير محمد بن سعود المقرن للسلطة في وادي حنيفة، فأعددت عشر ورقات تبين خلاصة ذلك، ونشرتها في عام 1443هـ، ومدرجة في نفس النطاق على شبكة الانترنت. وها أنا الآن اقدم لكم أيها الأحبة الفصول الأولى، من حياة جدكم عبدالله بن خثلان رحمه الله، وهي ليست معدة للنشر ولا للاقتباس أو التداول لغير القرابة، وفق الله الجميع للعمل الصالح.

أمناء العاصمة المقدسة

تاريخ ما لم يقله التاريخ

والدي عبد الله بن عبد الرحمن بن خثلان

حياته ورؤيته لأحداث عصره

المجلد الأول

عبد العزيز بن عبد الله بن خثلان

دار الاختراع الدولية للنشر

الرياض – القاهرة- بيروت

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول: عبد الله بن خثلان ابن البيئة التي ولد فيها	2
مدينة الحريق، ذكريات وتاريخ.	3
الفصل الثاني: مرحلة الشباب وأحداثها التاريخية.	11
القرن العشرون: ثورة العلم والتكنولوجيا.	12
إرهاصات إشراقة عصر جديد.	14
فوائد معطيات العصر الحديث.	15
لطمة كف أسقطت فرسًا	17
خيبة أمل أهل العارض.	19
الأوضاع الصحية في ذلك الزمان.	21
السفر والغربة والموت.	24
أحزان رمضان.	27
ليلة العيد.	30
البشارة القادمة من الرياض.	33
روايات مجلس أبي عن ليلة 5شوال 1319هـ.	35
الشخص الثالث الأكثر أهمية.	38
قصة ظهور فكرة دارة الملك عبد العزيز.	42
لابد من مواجهة الحقيقة.	44
بلدة الحريق بعد دخول عبد العزيز الرياض.	48
الفصل الثالث: مشاعر وخواطر وذكريات.	53
من أين لنا بمثل الشيخ خزعل أمير عربستان..؟!	54
بعثة صنيتان.	56
زوار قبيل منتصف الليل.	58
بيعة أهل الحريق.	62
والدي وأحداث الخامسة عشرة من عمره.	66
الأمير الشاعر.	72
استعداد الحريق للدفاع عن الرياض .	76
فطنة عبد العزيز الحربية.	82
كأنك تعطيه الذي أنت سائله.	86

بعثة سعد	90
الفصل الرابع: عبد الله بن خثلان تأسيس حياة واكتساب خبرات.	94
الوعي بالتحولات التاريخية.	95
تداعيات سقوط الخلافة العثمانية.	101
الحريق في مواجهة العاصفة.	105
الموقف من الحملة التركية.. المعركة الأولى.	107
الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخرج.	112
أهل الحريق على ركائب العم زيد.	115
مَن؟ وماذا؟ ومتى؟ وكيف؟	117
الثيران أنواع عدة.	122
الفصل الخامس: عبدالله بن خثلان ووالده في أتون المعركة.	125
الفصل السادس: راعي القومة لله ولقاء أبو عقلين	155
اللقاء الثاني بالرجل الأول.	157
توجس واستعداد.	160
وقفة تأمل.	163
ختام وليمة سبعان الخرج.	165
إنك أفضل مما قالوا عنك.	167
المسيرة للصحنة.	171
هدية عبد العزيز آل سعود.	174
عبقرية الظفر.	179
خطة الهجوم المضاد.	181
جدي عبد الرحمن مع الفرسان.	185
سياسة مواجهة البائس.	191
الدفاع عن الخرج.	196
تقهقر ابن الرشيد.	202
مشهد أثار تقزز جدي.	207
ثناء عبدالعزيز آل سعود على أهل الحريق.	210
كلمة جدي عبدالرحمن.	211
مهمة عبدالله بن خثلان.	214
تمحيص معادن الرجال.	217
الفصل السابع:	229

مشاعر النضج والاستواء.	230
أحاديث شرعية وفقهية.	234
منعطف العيد.	249
مخافة الخيلاء والغرور.	251
وصف سوق الحريق.	254
فكرة والدي عن أوضاع سوق الحريق.	260
ظهور فكرة العمل بالتجارة.	262
آمال عريضة.	264
العيب والحرام.	271
هواجس ومخاوف.	275
التحريم والتحوط.	283
حال الكتب والمطبوعات في الحريق.	290
الوعي الشرعي.	295
وقفة مع ثقافة والدي الشرعية.	301
قصة وعبرة.	306
أحاديث ومناقشات فلسفية.	309
ملقى المذنب.	317
قصة غار آل سعود.	360
الطريق إلى الدرعية.	364
توالي الحشود للقتال.	368
ما بين وادي نساح إلى بلدة ليلى العامرية.	372
تنازع الأقارب يجلب العقارب.	377
حملة إبراهيم باشا.	381
منازل امرؤ القيس.	384
والدي وسر علاقته بأسرة الجميح.	387
مخبأ الإمام تركي بن عبدالله.	390
اتجاه سير القافلة.	395
ملاحظة الأمير الصنيتان على والدي.	398
أهمية الأمر الذي أصدره عمي حمد لوالدي.	404
الاستعداد لمواجهة ابن الرشيد.	409
رؤية عمي حمد لسير المعركة.	410

حكمة عبد الله الفضل.	416
صوت امرأة مثيرة للفضول.	418
كل عجاجة وراها عجاج.	426
ظهور موكب متجه لبريدة.	430
والدي ومداولات مجلس الجماعة.	434
لقمة و نقمة .	440
ابن صنيتان ينادي ابن خثلان.	448

الفصل الأول

عبد الله بن خثلان
ابن البيئة التي ولد فيها

للمكان .. جغرافيته وتاريخه وثقافته وبيئته وتقاليده علاقة وتأثير على حياة الانسان الذي يولد فيه، لهذا تصبح معرفة المكان ودراسته جزءًا من معرفة الإنسان الذي عاش فيه وفهم العوامل التي أثرت في نشأته وأحداث حياته. ولما كان ميلاد والدي الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن خثلان- رحمه الله- في مدينة الحريق فلابد من الوقوف عند أطراف من تاريخها وبيئتها وقفة تُعين القارئ على فهم ما سيمر به من أحداث في حياة والدي وطريقة تفكيره، خاصة أن ما سأورده عن تاريخ المنطقة هو من التاريخ الشفهي الذي سمعته من والدي نفسه ومن أصحابه في مجالسه رحمه الله جميعا.

مدينة الحريق، ذكريات وتاريخ.

أصبحت مدينة الحريق اسمًا لمحافظة تتبع الآن إمارة منطقة الرياض، وتبعد عنها (200 كم) باتجاه الجنوب الغربي، ويتبعها عدة مدن مثل نعام والمفيجر. ومدينة الحريق حديثة حيث تأسست نحو عام (991هـ)، وأما المدينة الأقدم في المحافظة فهي نعام، التي كانت معروفة منذ العصر الجاهلي، وقد سميت بذلك لوجود الكثير من الحيوانات البرية مثل الوعول والظباء وطائر النعام الضخم.

وتقع نعام على خط السفر بين الأحساء[1] ومكة المكرمة، وتتميز بجودة تربتها وطيب مائها وهوائها، وكذلك مناعة موقعها الذي تحيط به جبال متوسطة العلو بها عدة حصون. وهي على خط عرض مدار السرطان (23 درجة و30 دقيقة)، مع خط الطول الشرقي (46 درجة و 33 دقيقة).

ومن المفيد أن نذكر نبذة عن تأسيس مدينة الحريق كضاحية لمدينة نعام، حيث أن مما سمعته من مداولات أثناء جلسات ضيوف الوالد- رحمه الله، أن القواودة أمراء المنطقة هم من قبيلة سبيع التي تتكون من أحلاف من عدة فخوذ من هوازن المنحدرين من عامر بن صعصعة[2].

ومناطق سبيع في نجد على شكل قوس أسفله في الأفلاج[3] ويمتد شمالًا إلى الدلم شرق الحريق ثم الحائر (25 كم جنوب الرياض) ثم يتجه نحو الشمال الشرقي إلى رماح (85 كم عن الرياض)، وصولا إلى حفر

(1) الأحساء: هي اليوم تطلق على محافظة تقع في شرقي المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، وفي الوقت ذاته هي اسم لمركز تلك المحافظة التي تتألف من مدينتي الهُفوف والمبرَّز (مدينة الأحساء). محافظة الأحساء هي أكبر المحافظات السعودية مساحةً إذ يبلغ إجمالي مساحتها مع المراكز التابعة لها (534000 كم^2) أي ما يقارب ربع مساحة المملكة تقريبًا، وتمتد حدود محافظة الأحساء الإدارية إلى محافظة بقيق شمالًا، والخليج العربي وخليج سلوى شرقًا، وعمان جنوبًا، وصحراء الدهناء غربًا.

(2) عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر من العدنانية، جد جاهلي. بنوه بطون كثيرة.

(3) الأفلاج هي إحدى محافظات منطقة الرياض العشرين، وقاعدتها مدينة ليلى. تقع الأفلاج على بعد أكثر من (300 كم) عن الرياض، وتتألف من مجموعة من القرى الزراعية الواقعة على جبل طويق (جبل العارض سابقًا) ابتداءً من سفحه الشرقي وحتى حافته الغربية. ويعود سبب تسمية الأفلاج إلى كلمة: فلج وهي واحد الأفلاج، والفلج هو الماء الجاري من العين تلقائيا، وقد اشتهرت الأفلاج بوفرة مياهها حيث كانت هذه المياه تسيح فوق سطح الأرض.

العتش[1] والصمان[2]، وهم على علاقة وطيدة مع بقية القبائل المجاورة مثل تميم وقحطان وحنيفة. وتوجد مناطق أخرى لقبيلة سبيع مثل القصيم (عنيزة) وشرق جبال الحجاز (رنية) وغيرها من المناطق في المملكة والدول المجاورة.

وتذكر الروايات أنه في عام (984هـ) جاء إلى نعام رجل من منطقة سدير ورغب في الإقامة فيها لوجود ظروف خاصة في منطقته، وكان اسمه مسعود الجلاسي الهزّاني من عِنَزَة، واستقر فيها وكان ذا مناقب طيبة وتزوج قريبة أمير البلدة ابن ذَوَّاد، إلا أنه بعد بضع سنوات من وصوله حدث هجوم على قافلة للحجاج في منطقة الخرج. وأرسل أمير مكة محمد بن بركات[3] جيشًا بقيادة ولده الأكبر الشريف حسن أبانمي[4] لتأديب قطاع الطرق وتأمين السبل إلى البيت الحرام، وقد حاصر الشريف مدينة نعام نحو عام (989هـ) لخلاف حول علوفة الدواب. وتمكن أمير نعام الذوَّاد من تسوية الأمر سلميًّا معه، ثم غادر الشريف المنطقة وترك بعض أقاربه. إلا أن الحرس أخبروا الأمير لاحقًا بوجود اتصال أثناء الحصار بين الشريف حسن والهزّاني. وحرصا على سلامة مسعود وأطفاله وزوجته، لم يؤمر بالرحيل عن المنطقة كما أوصى البعض، ولكن أشير عليه بالبحث عن مكان مجاور للإقامة فيه مع عائلته.

---

(1) حفر العتش: مركز حفر العتش هي إحدى المراكز التابعة لمحافظة رماح، وتبعد عن مدينة الرياض حوالي (١٠٠ كيلو متر)، وتتميز حفر العتش بوجود قلبان وأبار للمياه بها منذ مئات السنين، وسكانها من قبيلة سبيع، وهي تبعد عن محافظة رماح(80 كيلو متر) تقريبًا.

(2) الصمان: هي الهضبة المستطيلة التي تفصل بين نجد والأحساء، وتقع في شرق شبه الجزيرة العربية، وتمتد من شمال الربع الخالي جنوبا حتى جنوب حفر الباطن شمالا، وذلك بطول (1000 كيلومتر) تقريبًا، وتمتد من الدهناء غرباً ومن السهل الساحلي للخليج العربي شرقاً وذلك بعرض مابين (80 إلى 250 كيلومتر تقريباً)، ويبلغ ارتفاع الهضبة مابين (25 مترا) عند حافتها الشرقية و (400 مترا) عند حافتها الغربية. ويسمى القسم الجنوبي من الصمان بالصلب والشمالي بالصمان ومدينة: الرفيعة هي عاصمة الصمان وكانت تسمى جرارة في الماضي.

(3) محمد بن بركات (840 - 903 هـ = 1437 - 1497م): محمد بن بركات بن حسن بن عجلان: شريف حسني من أمراء مكة. ولد فيها، ووليها بعد وفاة أبيه (سنة 859 هـ) وكان على شيء من العلم، وفيه فضائل. بنى بمكة عمارات لم يسبق إلى مثلها. واستمر في الإمارة إلى أن توفي.

(4) الشريف حسن (932 - 1010 هـ = 1525 – 1601م) حسن بن أبي نمي محمد بن بركات بن محمد، الحسني الهاشمي: من أشراف مكة شارك أباه في إمارتها. ثم انفرد بها بعد وفاته، واستمر ضابطا شؤونها إلى أن توفي بها.

وفي عام (991 هـ) وبعد إجراء عدة اختبارات بواسطة اللحوم ومدى تعفنها[1]، تم اختيار وادي الفُرَّع (بضم الفاء وتشديد الراء) وهو يقع غرب نعام بحوالي (15 كم)، وتوجد به أشجار كثيفة. وتوجه الهزَّاني لإحراق بعض الأشجار، ومعه رجال من سبيع بقيادة سعد بن رشيد بن خثلان، للمساعدة في الأعمال وللحماية من البادية المُدَّعين أن المنطقة مرعى مواشيهم. وتم تأسيس مدينة الحريق هناك، وكانت مساكن السبعان في الجهة الشرقية الجنوبية من البلدة، ومساكن العنوز في الجهة الغربية الشمالية بعيدا عن نعام لتفادي الاحتكاكات.

وأخذت البلدة في النمو، وفي عام (1040هـ) وبعد وفاة مسعود الهزَّاني، جرى خلاف بين أحد أبنائه: (رشيد بن مسعود) وأهالي نَعَام، وحدثت مصادمات سانده فيها بعض البادية المناوئين لقبيلة سبيع. ويلاحظ هنا أن حداثة إنشاء بلدة الحريق لم يمنعها من النمو والازدهار لتنافس مدينة نعام ثم تصبح أكبر منها، وذلك بسبب تعدد العوائل فيها واتباع أسلوب الانفتاح العملي للوافدين من أصحاب الحرف الإنتاجية وذوي المهارات في صناعة أدوات الزراعة والنقل، وكذلك المستلزمات الحربية والمنزلية مثل الأقفال والمسامير والأواني، كما تواجد فيها الصاغة العاملين في المشغولات الذهبية والفضية واللؤلؤ. وبذلك استمر نمو وتطور مدينة الحريق، مع قدوم العديد من العاملين سواء من قبائل الجزيرة العربية أو من غيرهم.

(1) كان القدماء يجرون العديد من الاختبارات لاختيار أفضل الأماكن لبناء المدن والقرى أو حتى المستشفيات وأماكن السكنى، وتروي كتب التاريخ أن الخليفة العباسي (المقتدر بالله جعفر بن المعتضد) طلب من الطبيب الشهير أبي بكر الرازي إنشاء مستشفى في مدينة (بغداد) عاصمة الخلافة ففكر الرازي طويلاً واستشار كثيرًا من أطباء عصره وتلامذته، وأخذ يناقش معهم أنسب الأماكن لإقامة المستشفى، وبعد طول بحث ونقاش أدهش الجميع بفكرته الرائعة، حين أخذ عدة قطع من اللحم، ووضعها في أماكن مختلفة من ضواحي مدينة بغداد، وانتظر بضعة أيام، ثم طاف على الأماكن التي وضع القطع فيها ليرى تأثير الجو والزمن عليها، فإذا تَلِفَتْ القطعة بسرعة اعتبر أن هذه المنطقة لا تصلح لإقامة المستشفى، أما إذا ظلت قطعة اللحم كما هي دون أن يصيبها التلف، أو تأخر، فهذا دليل على طيب هواء المنطقة، وصلاحيتها لإقامة المشروع، وهكذا وقع اختياره على المكان المناسب لإقامة مستشفاه.

لقد استمر الحال كذلك إلى عام (1157هـ) حين بدأ تأسيس الدولة السعودية الأولي على يد الأمير محمد بن سعود[1]، والتي لاقت ترحابا كبيرا في منطقة الحريق، ومساندة بالرجال والسلاح. وتأثر الجميع سلبا عند حدوث نكبة إبراهيم باشا[2]، الذي قدم من مصر في جيش ضخم مندوبا من إسطنبول، ودمر الدرعية، وأسقط الدولة السعودية عام (1233هـ).

إلا أن الأمير تركي بن عبد الله آل سعود تمكن من الإفلات من القوات الأجنبية ولجأ إلى حائر سبيع، ثم إلى بعض الجبال الحصينة القريبة من الحريق، حتى سكنت الأمور في نجد[3]، وتمكن بدعم من أهالي المنطقة

---

(1) محمد بن سعود (000 - 1179 هـ = 000 - 1765 م) محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن ربيعة بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي الدرعي اليزيدي الوائلي، من عدنان: أول من لقب بالإمامة من آل سعود في نجد. كان مقامه بالدرعية، وولي الإمارة بعد وفاة أبيه، وحسنت سيرته وقويت شوكته، وكان يساعده أخوه (ثنيان) وانفرد بعد وفاته بالحكم (سنة 1160هـ) وفي أيامه وفد على الدرعية الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الإصلاحية، فتعاهدا على أن يكون ابن سعود (حارسا للدين وناصرا للسنة) وأن يستمر ابن عبد الوهاب على الجهر بدعوته. واتسعت الإمارة فشملت أكثر نجد، ولم يبق خارجا عن حكمه منها غير الرياض والأحساء والقصيم. وكان شجاعًا حازمًا؛ توفي بالدرعية.

(2) إبراهيم باشا (1204 - 1264 هـ = 1790 - 1848 م) إبراهيم (باشا) بن محمد علي (باشا): قائد، بعيد المطامح، من ولاة مصر. ولد في (نصرتلي) بالقرب من قولة باليونان، وقدم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة (1220 هـ) فتعلم بها. وأرسله أبوه سنة (1231هـ) بحملة إلى الحجاز ونجد، ثم جعله قائدا للحملة المصرية في حرب المورة سنة (1239هـ) وفي سنة (1247هـ) سيره بجيش إلى سورية، فاستولى على عكة ودمشق وحمص وحلب، وانقادت له بلاد الشام. فوجهت حكومة الآستانة جيشا لصده، فانتصر عليهم إبراهيم في الإسكندرونة، وتوغل في الأناضول فتجاوز جبال طوروس وقارب الآستانة، فتدخلت الدول الأجنبية، وعقدت معاهدة (كوتاهية) وأمضيت في 24 ذي القعدة (1248هـ= 1833م) وهي تقضي بضم سورية إلى مصر وتولية إبراهيم عليها. فعاد إلى سورية وجعل عاصمته أنطاكية. ثم نقض الترك المعاهدة فقاتلوه بجيش ضخم، فانتصر عليهم إبراهيم. وفي سنة (1254هـ) تولى السلطان عبد المجيد فاتفق مع الانكليز على إخراج إبراهيم من سورية فانتهى الأمر بخروجه وعودته إلى مصر سنة (1256 هـ= 1840 م) ونزل له محمد علي عن إمارة الديار المصرية سنة (1264 هـ= 1848 م)؛ فزار الآستانة، ومرض بعد رجوعه فتوفي بمصر، قبل وفاة أبيه. ومدة حكمه سبعة أشهر و ثلاثة عشر يومًا.

(3) نجدٌ إقليمٌ من جزيرة العرب، وهو أوسعها وأكثرها صحاري وفجاجًا ورمالًا، والعرب تطلق اسم نجدٍ على كل ما علا من الأرض، ففي اليمن يسمَّى كل ما بين السراة والربع الخالي نجدًا، أما نجدٌ العلَم فهو قلب الجزيرة العربية، تتوسطه مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، ويشمل أقاليم كثيرةً منها: القصيم وسديرٌ والأفلاج واليمامة والوشم وغيرها، وهو يتصل بالحجاز غربًا، وباليمن جنوبًا، وبإقليم الأحساء شرقًا، وببادية العرب شمالًا، وليست هناك حدودٌ تحدد أقاليم =

وغيرهم من إقامة الدولة السعودية الثانية عام (1235هـ) [1] وبقيت بعد ذلك علاقات قوية بين ذريته وتلك المنطقة وحتى الوقت الحاضر.

ويبلغ عدد سكان الحريق حاليا (1435هـ / 2014م) أكثر من (15000) نسمة، ومن الأسر الأخرى التي تسكن الحريق الآن وكانت لي معرفة بهم، الكثران والشبانات والهويدي والسليمان والهلال والسعيد والزعاقي والطلاس والقعود والحيدر والدبل. كما سكن الحريق في بعض الأوقات أسر من آل سعود وآل الشيخ. ويتميز معظم أهل محافظة الحريق بالانسجام والتعاون بينهم لمصلحة المنطقة والبعد عن الحزازات والضغائن القروية الفاسدة.

الجزيرة بعضها من بعضٍ، وكل ما قاله الأقدمون يرحمهم الله هو فرضٌ وحدسٌ، غير أن العرب اليوم تعرف بالتوارث ما يشبه الحدود، فهم يقولون لك- مثلًا - حائل من نجدٍ وليست من بادية الشام، ويقولون: تيماء من الحجاز وليست من الشام ولا من نجدٍ، وهكذا. ونجدٌ اليوم كثير المدن العامرة، فبالإضافة إلى الرياض، هناك مدن القصيم الثلاث: بريدة وعنيزة والرس. وهناك مدينة حائلٍ قاعدةٌ شمال نجدٍ، والخرج جنوب الرياض، وشقراء ومراة وضِرما من إقليم الوشم، وليلى: قاعدة إقليم الأفلاج، والمَجْمَعة قاعدة سديرٍ، وحريملاء والعينية والجبيل: مدنٌ قديمةٌ وما زالت حيةً شمال الرياض، والدرعية: العاصمة القديمة للدولة السعودية شمال غربي الرياض في وادي حنيفة. وأحداث هذا الكتاب تقع جميعها في إقليم نجدٍ، لذا أردنا أن يعلم القارئ ما نعنيه بإقليم نجدٍ.

(1) الدولة السعودية الثانية، هي الدولة التي أنشأها تركي بن عبد الله بن محمد آل سعود في سنة (1818م) بعد سقوط الدولة السعودية الأولى على يد القوات العثمانية بقيادة إبراهيم باشا. خلال سنوات هذه الدولة تغيرت العاصمة من الدرعية إلى الرياض، وتوسعت بشكل محدود على عكس سابقتها، كما أن الصراع والحروب الداخلية أضرت بها، حيث تسبب في إضعاف الدولة والتسبب بسقوطها على يد آل رشيد حكام إمارة جبل شمر في سنة (1891م).

الفصل الثاني
مرحلة الشباب وأحداثها التاريخية

في ربيع السنة الأولى من القرن العشرين (1901م)، كان الفتى عبد الله بن خثلان مشغولًا طيلة نهاره في أعمال الزراعة، وبخاصة متابعة لقاح النخل وتهيئة حملها للموسم الجديد، وفي المساء كان يمضي الوقت مع أقرانه في تذاكر بعض دروسهم والتحادث حول شؤون البلدة وأوضاعها، ويحلو للبعض التعبير عن طموحاتهم وآمالهم، وهم في هذه المرحلة العمرية المرهقة، أما الساعات الأولى من الليل، فتمضي أيضًا

في نقاش حول مصباح الكيروسين بشأن انتظار الجميع نهاية محنة حكم آل الرشيد، واستعادة آل سعود لدولتهم التي سقطت قبل عقد من الزمن.

القرن العشرون: ثورة العلم والتكنولوجيا.

الآمال كبيرة والتمنيات لا حدود لها، ولكن الاطلاع على العالم الخارجي كان محدودا للغاية، لم يكن أولئك الفتية على إدراك بأن هذا القرن الذي استهل قبل شهر يحمل معه تطورات أعظم بكثير مما حدث في القرن الماضي أو الذي سبقه منذ بداية النهضة الصناعية في قارة أوروبا، لم يدرك أي منهم، أن أديسون[1]قد اخترع المصباح الكهربائي الذي سيحيل الليل إلى نهار، وسيضيء الطرقات والمنازل، ولم يعلموا أن كارل بنز[2] اخترع قبل سنوات قليلة محركًا صغيرًا يصلح لتسيير المركبات الشخصية الصغيرة، حيث أن الآلة البخارية ضخمة للغاية ولا تصلح إلا للسفن أو القطارات الضخمة.

أما محاولات الأخوان (رايت)[3] في مصنع الدراجات الهوائية (البسكلتات) في كارولينا بأمريكا لاختراع آلة معدنية أثقل من الهواء تستطيع الطيران وبداخلها أشخاص، فذلك أمر لم يخطر على بالهم، رغم أنه حدث فعلًا بعد ثلاث سنوات. ولو أخبرهم شخص عن الأسلحة الفتاكة الحديثة مثل البنادق الرشاشة، أو كيماويات تسميم الهواء وجعله قاتلا، كما

---

(1) توماس ألفا إديسون (1931-1847م)، مخترع ورجل أعمال أمريكي؛ اخترع العديد من الأجهزة التي كان لها أثر كبير على البشرية حول العالم، مثل تطوير آلة التصوير السينمائي بالإضافة إلى المصباح الكهربائي؛ يعتبر إديسون من أوائل المخترعين الذين قاموا بتطبيق مبدأ الإنتاج الشامل والعمل الجماعي على نطاق واسع لعملية الاختراع، لذا كان يُعرف بأنه أول من أنشأ مختبرًا للأبحاث الصناعية. يُعَد إديسون رابع مخترع أكثر إنتاجاً في التاريخ، ويمتلك (243) براءة اختراع أمريكية تحمل اسمه، فضلا عن العديد من براءات الاختراع في فرنسا وألمانيا. ووضع إديسون نظام توليد القوة الكهربائية وتوزيعها على المنازل والشركات والمصانع.

(2) كارل فريدريش بنز (25 نوفمبر 1844, كارلسروه – 4 أبريل 1929، لادنبرغ، ألمانيا) مصمم محركات ألماني ومهندس سيارات يعرف بأنه مخترع السيارات المعتمدة على البنزين كوقود، كما أنه منشئ شركة مرسيدس بنز الرائدة في صناعة السيارات. موتور فاغن استطاع بنز عام (1885م) أن ينتج أول سيارة تجارية باسم موتور فاغن. وهي سيارة تعمل بمحرك بنزين رباعي الأشواط من تصميمه، وتتحرك على ثلاث عجلات. وقد حصل على براءة الاختراع عن هذه السيارة في 29 يناير (1886م) واستطاع أن يبيعها عام (1888م) قبل أي مصنع آخر بأربع سنوات.

(3) الأخوان رايت: هما أورفيل (19 أغسطس 1871 - 30 يناير 1948) ويلبر (16 أبريل 1867 - 30 مايو 1912).أورفيل وويلبر رايت هما مخترعان أمريكيان ينسب إليهما معظم المؤرخون اختراع أول طائرة والقيام بأول تجربة طيران ناجحة عن طريق آلة أثقل من الهواء في 17 ديسمبر (1903م).

يحدث منذ زمن من تسميم الغذاء أو الماء فما كانوا ليصدقوه. أما التطور الطبي وبخاصة في مجال الجراحة، وعلاج الميكروبات فإنه أمر لا يمكن تصديقه في ظل الغياب التام لوسائل الاتصال بالعالم الخارجي.

إرهاصات إشراقة عصر جديد:

في غياهب ذلك الظلام الدامس، كانت بلدة الحريق تعيش عند مطلع القرن العشرين غير عابئة إلا بتقوى الله والحرص على الأمن والسكينة وتوفير المستلزمات الأساسية للمعيشة التي حرم منها بعض سكان قرى غير بعيدة عنهم. وفي ذلك الموسم استهل عليهم عام هجري جديد (1319 هـ) لم يلتفت إليه أحد، باحتمال أن يكون عام القفزة العظمى للجزيرة العربية. لم يدرك أولئك الفتية أن هناك فتىً آخر في مدينة تبعد عنهم مئات الأميال كان يستعد للقيام بدور تاريخي مجيد، يعيد الحكم لمن ارتضاهم أهل البلاد وعرفوا ورعهم وحسن تدبيرهم. لقد كان ذلك الفتى لا يزيد عن فتية الحريق في السن سوى عشر سنوات، ولكنه يفوقهم رأيا وشجاعة وتوفيقا من الله. إنه شاب آمن بالله فزاده هدى، وضع نصب عينيه أن يبدأ بتحرير وطنه من النفوذ الأجنبي وأعوانه، ثم يبسط الأمن في ربوع جزيرة العرب، ويحكم بالعدل والقسطاس المستقيم، وينشر الرخاء والثراء للجميع. لقد أمضى ذلك الفتى أكثر من نصف قرن يحارب الفتن، ويوحد البلاد، ويقضي على مظاهر التخلف من جوع ومرض وجهل، يدحر أعداء الاستقرار، ويوطد أسس العدل للجميع.

وعندما لقي ربه كانت دولته تمتد على مساحة قارة، تقطعها الطائرة في ساعات، وبها السكة الحديدية والطرق المرصوفة، وتنتشر السيارات ووسائل الاتصال الهاتفي والبرقي والبريدي، وتطبع فيها صحف تنشر أخبار العالم، وخلفه في الحكم عدد من أبنائه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبايعتهم الأمة للعمل بالكتاب والسنة، ولم يمض نصف قرن آخر إلا وقد اكتملت المعجزة، ففي مطلع القرن الحادي والعشرين كانت في البلاد أفضل مراكز التعليم التي يفد إليها الطلاب ليس من الداخل فحسب ولكن من عدة دول أخرى، ومراكز علاجية لخدمة الجميع، ويفد إليها زعماء بعض الدول وعائلاتهم، مع رخاء اقتصادي واسع الانتشار جعل البلاد ضمن المجموعة الاقتصادية العالمية المميزة (مجموعة العشرين)[1]، ولها

(1) مجموعة العشرين هو منتدى تأسس سنة (1999م) بسبب الأزمات المالية في التسعينات. يمثل هذا المنتدى ثلثي التجارة في العالم وأيضا يمثل أكثر من 90% من الناتج العالمي الخام. إنها تهدف إلى تعزيز التضافر الدولي، وترسيخ مبدأ الحوار الموسع بمراعاة زيادة الثقل الاقتصادي الذي أصبحت تتمتع به عدد من الدول. فإن مجموعة العشرين يمثل ثلثي التجارة وعدد السكان في العالم وأكثر من 90% من الناتج العالمي الخام (وهو مجموع الناتج المحلي الخام لجميع بلدان =

نفوذ إداري وسياسي في المحافل الدولية، ومساهمات واضحة في أعمال الخير ونجدة المنكوبين في سائر أرجاء المعمورة.

فوائد معطيات العصر الحديث:

ذلك كله لم يدر بخلد تلك المجموعة من الفتية المراهقين، الذين يجلسون للسمر في المساء وكان أحدهم قد أشار إلى الاختراع الحديث الواصل لهم (مصباح الكيروسين) ومدى الفائدة الجمة منه، بينما يشير الآخرون إلى أهمية مادة الكيروسين التي لا يعرفون إذا كان أصلها نباتي أو حيواني، ولكن يعرفون فوائدها واستخدامات عبواتها الفارغة، حين كانت تصل إلى قريتهم في عبوة متوسطة (4-5 لترات) مصنوعة من معدن لامع وعليها كتابة (رطناء) لا يستطيعون فك رموزها، ولكنهم يستفيدون من العبوة في تخزين دهن الأغنام والأبقار (الذوب) ونقله للأسواق. أما العبوة الكبيرة فحجمها لا يتجاوز (18-20 لترًا)، وتستخدم لخزن ونقل التمور الجيدة. وهذه العبوات هي ما يمكن نقله بالركائب، أما الحاويات الضخمة (150 لترا) وأكثر فلم تصل حتى ذلك الحين.

لقد كانت التمور ثمينة للغاية في ذلك الزمان والمكان، وكانت تخزن للاستخدام طيلة السنة، وتعتبر كنزًا للأسرة لا يمكن التفريط فيه، حين توضع في حوض متوسط الحجم (3×5 ذراع) مصنوع من الحجر والطين، ومطلي من الداخل بالجص (جبس غير مكتمل التصنيع) وتغطى من الأعلى بالحصير المصنوع من سعف النخل، وتوضع عليه أحجار ثقيلة، وفي أسفل الحوض (ميزاب) لإخراج الدبس الفائض، ويتم رعايته بدقة لتلافي القوارض والديدان. أما نقل التمر فكان يتم في ربطات ثقيلة (50 -60 كجم) من ألياف النخيل والحصير. وبعد توافر أوعية الكيروسين الفارغة أصبحت التنكة (الصفيحة) تستوعب (25-30 كجم) من التمور المكنوزة وتنقل بسهولة للأسواق.

لم يدر بخلد فتيان الحريق في ذلك الزمن أن ذلك المصباح سيكون شبه منقرض بعد اختراع المصباح الكهربائي، ولم يكونوا يعلمون شيئًا عن المكان الذي يأتي منه الكيروسين، لم يعرفوا أي شئ عن شركة النفط البريطانية الفارسية (بريتش بتروليوم)، ولا شركة شل الهولندية (رويال دوتش)، ولم يخطر ببال أحدهم أن الكيروسين ما هو إلا منتج من تصفية القطران، ذلك السائل الثقيل الذي يسيح على أطراف الأرض في أطراف الربع الخالي جنوب شرق بلدتهم بمسافة غير بعيدة، وكان ذلك السائل ذو الرائحة غير المستحبة، ليس له أي فائدة سوى تكسية جلود بعض المواشي

العالم).

المصابة بأمراض (الجرب) أو الطفيليات، ويستخدم كوسيلة بدائية للاستشفاء منها، أما رجال البلدة فقد كانوا يتناقشون باستمرار حول سبل إنهاء حكم آل رشيد وعودة الحكم كما كان زمن الإمام فيصل بن تركي، قبل قيام الفتنة بين أبنائه وأحفاده.

لطمة كف أسقطت فرسًا ..! :

من المعلوم أن الإمام فيصل بن تركي كان له عدد كبير من الأبناء، ولكن في ذلك الوقت لم يبق من ذريته سوى الإمام عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز الموجود في الكويت، وسلالة ابنه سعود بن فيصل (العريف) الموجودين في حائل وعلى رأسهم عبد العزيز بن سعود وأبناء إخوته.

مل الجميع من امتداد حكم آل رشيد، وتأخر آل سعود في العودة لعاصمة حكمهم الرياض، وانتشرت الأقاويل أن عبد العزيز بن سعود يخطط للانقضاض على الرشيد في حائل وإسقاط حكمهم واستعادة الدولة السعودية، لقد كان عبد العزيز بن سعود كبيرًا في السن، ويصغر عبد الرحمن بسنين قليلة، وله خبرة ودراية بأساليب الحكم الشرعية. بعض الرجال يتمنى عودة الإمام عبد الرحمن من الكويت في جيش قوي للاستيلاء على الرياض، وإعادة تأسيس الدولة السعودية، التي كان حاكمها قبل معركة المليدا[1]. سبب الضيق لدى أهل الحريق ومعظم سكان وسط الجزيرة،أنه في عام (1314هـ) قبل هذا الوقت.

توفي محمد بن عبد الله الرشيد (محمد الكبير) ولم يكن له ذرية ذكور، فتولى الحكمَ ابنُ أخيه عبد العزيز بن متعب، الذي يصفه الكثيرون بأنه ظلوم غشوم، ولا أتطرق بالذكر لما كان البعض في مجلس والدي رحمه الله يذكرون عنه من المساوئ الفاحشة، وبخاصة إذا كان في اللقاء بعضُ أبناء وأحفاد عبيد الرشيد (أخو عبد الله وعم محمد)، حيث كانوا يدافعون بحدة عن أبناء عمومتهم، وأسلوب حكمهم الشديد حسب متطلبات تلك الحقبة.

ومما سمعته من روايات عن عبد العزيز بن متعب، أمور بعضها لا يصدقه العاقل، مثلا قولهم: أن قوة لطمة كفه أسقطت فرسا أصيلة

(1) معركة المليداء هي معركة وقعت في 13 من جمادى الثاني عام (1308 هـ=24 يناير 1891م) بين الأمير محمد بن عبد الله الرشيد أمير حائل ومعه أهل حائل وبعض من قبيلة شمر ضد الأمير حسن آل مهنا أبا الخيل أمير بريدة ومعه البرزان من مطير والشيابين من عتيبة وبعض من الدهامشة من قبيلة عنزة المتواجدين في أطراف شمال القصيم وزامل بن سليم أمير عنيزة ومعه أهالي عنيزة. والمليداء مكان يقع في غرب مدينة بريدة، انتهت المعركة بانتصار قوات محمد بن عبد الله الرشيد.

مغشيا عليها، أو أنه كان يحمل عدل نصف وزنة (حوالي 1 كيلوجرام) من جمر الغضى[1] في كفيه ينقلها إلى الوجار الصغير، كما ذكر البعض أن العقرب دخلت ملابسه وهو مع ضيوفه ولسعته ولكنه صبر على الآلام حتى غادروا.

والمتفق عليه أنه كان يترك الحرية الشخصية لمن يرغب في تدخين العظم والتنباك[2] مع التتن، ولا يلزم الناس بتفقد المصلين وعدهم في فريضتي العشاء والفجر. لقد كان الوضع غير مريح لأهل الورع والتقوى الذين يرون إلزام أنفسهم بالعمل الصالح والأمر على الآخرين بذلك الإنكار على من يخالف أحوالهم، حتى وإن كان بعضها من السنن غير الواجبة، أو المكروهات التي يثاب تاركها ولا يعاقب فاعلها. لقد مضت أكثر من عشر سنوات على بداية العهد الرشيدي في وسط نجد، نصفها في حكم عبد العزيز بن متعب، الذي لم يلزم طريقة محمد ومندوب الأتراك في العمل على التقيد بالسنن الشرعية، ومجاملة أهل الورع ومسايرتهم، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الله.

نقاشات أهل البلدة مع بعضهم البعض، أو مع أهل القرى المجاورة، ومع المشايخ والعلماء كانت تقترب من وجوب وضع نهاية للحالة المتردية للقائمين بالحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشجيع الممارسات المأخوذة من غير المسلمين، سواء في العراق أو الشام أو البحرين، والتي كانت تؤثر على بعض أهل العارض بل أكثرهم، وتجعلهم يتوقون للقيام بحركة تدفع عن المنطقة شر أولئك الطغمة.

خيبة أمل أهل العارض:

لقد تأثر الجميع سلبًا حين علموا بالخطة التي وضعها الإمام عبد الرحمن بن فيصل والشيخ مبارك الصباح بالهجوم من الكويت على معسكر لابن رشيد في منطقة الصريف الواقعة شرق القصيم، على أن يتجه الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن إلى الرياض في قوة مسلحة لتحريرها من حكم ابن رشيد، ولكن أهل الرياض لم يدركوا ذلك واشتبهوا أن تلك القوة قد تكون من الأشرار وقاوموهم بشدة وأصيب عبد العزيز في كفه بطلقة نارية، ووردت إليه الأنباء أن والده وابن صباح[3] قد انهزموا

(1) الغضى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمانا طويلا لا ينطفئ، واحدته غضاة، وأهل الغضى: أهل نجد لكثرته هنالك.
(2) التنباك (الطباق) الدخان وهو نبات عشبي معمر من الفصيلة المركبة الأنبوبية الزهر.
(3) هو الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت حينها.

في الصريف[1] وانسحبوا للكويت، فتراجع هو أيضًا وعاد إلى والده، لقد خابت آمال أهل العارض في أن تأتي النجدة من الكويت، وبخاصة أن الرياض في حكم عجلان بن عجلان مندوب الرشيد، وبتوجيه من الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وكلاهما لا يريدان إلا السكون في الرياض وترك أهلها في أعمال التجارة والإدارة، أكثر من اهتمامهم بالزراعة والرعي، ولم تكن الآمال قوية من ناحية الجبل، فإن ذرية الإمام سعود بن فيصل (ولده عبد العزيز وأبناء إخوته) قد نقلهم عبد العزيز بن متعب من الإقامة الجبرية المفروضة من عمر محمد، إلى التوقيف المشدد، وهو ما يشبه الحبس ولكن دون زنازين ولا قيود، لذلك كان من الصعب على أي من آل سعود في حائل التفكير في محاولة الهرب.

انعقدت الآمال في الله وحده ثم في جهود أهل العارض للتنسيق بينهم للقيام بحركة تضعف من سطوة ابن رشيد والأتراك على مناطقهم، وتقلل من تواجد الفساق في نواحي قراهم، الإمكانيات محدودة والتطلعات بعيدة والعزيمة ثابتة، والليالي حبلى بأحداث جليلة في الشهور القادمة.

وفي أول صيف بعد استدارة القرن العشرين كانت الحرارة شديدة والآبار قليلة المياه، وأمضى الفتى عبد الله بن خثلان أيامه ولياليه في عمل شاق لمتابعة المحاصيل في ذلك الوقت الصعب حرصًا على تفادي أشعة الشمس الحارقة نهارًا، كان المزارعون يعمدون إلى السقيا ليلا، في الليالي المقمرة يهون الأمر، أما في غيرها فهو صعب يحتاج المرء لاستخدام أطرافه للتأكد من وصول القدر الأدنى الكافي من المياه للنخيل أو بقية المزروعات، لتفادي تبديد المياه، أو التأثير سلبيًّا على المحصول. وذلك الأمر يتطلب تحمل المشقة والمخاطر، من بينها التعرض للإصابات والهوام الحقلية، حيث لا تتوافر أسباب العلاج والرعاية الطبية.

الأوضاع الصحية في ذلك الزمان:

لم يكن العلاج من الأمراض في ذلك الزمن سوى الكي أو مشروب داوود يحضرونه من مكة أثناء الحج، يدّعون أنه علاج لكل العلل الباطنية، وكذلك سفوف أم صويلخ (بودرة) تبلع لعلاج المشاكل في الصدر، ومروخ (مرهم) لتخفيف آلام العضلات أو الأمراض الجلدية، أما الكي بقطعة حديد ساخنة على الرأس أو الرقبة فهي لعلاج الصداع أو

(1) معركة الصريف هي معركة حدثت في (18 مارس 1901م) بين قوات حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح ومعه عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وسعدون باشا السعدون وصالح الحسن وآل محيا من عتيبه وآل مهنا وسلطان بن الحميدي الدويش ضد قوات عبد العزيز المتعب الرشيد أمير حائل وشمر في الصريف شمال شرق بريدة وانتهت بانتصار ابن رشيد.

الاضطرابات النفسية، ويضاف إلى ذلك الحجامة أو القراءة على المريض وغيرها من الوسائل القديمة للعلاج مثل: المساهرة، وهي استعمال الدفوف والأصوات المزعجة لمنع الملدوغ من النوم، حتى لا يذهب السم إلى المراكز العصبية الحساسة أو المخ وإنما يتوزع على خلايا الجسد السفلية ويقل أثره. كما يلجأ البعض إلى أساليب علاج غير شرعية، يرفضها سكان الحريق من أهل الورع والتقوى، فالموت خير من الوقوع في المحظور شرعًا.

معدل الوفيات كان مرتفعا في تلك الأماكن وذاك الزمن، وحسب أقوال المعاصرين فإن واحدا من كل خمسة رضع كان يموت قبل بلوغ السنتين، وكثير من الأسر التي لديها خمسة إلى ثمانية أطفال لا يبلغ سن الأربعين منهم إلا النصف، هذا عدا عن الأحياء المشوهين أو ذوي العاهات الدائمة مثل الرجز (الطاعون الرملي) الذي ينشر بثورا على الجلد تصبح بؤر صديد فاسدة تتلف الدم؛ أو الرئوي الذي يسبب تقيح الرئة فكانت تعني الموت السريع ويسمونها رحمة من عذاب الموت البطيء المؤلم.

الآبار ذات المياه القليلة كانت مأوىً لطيور مهاجرة أو هوام وقوارض وبعوض وهاموش وبرغش، تسبب أمراضًا خطيرة مثل الملاريا والتهابات الكبد. أما سيوح الماء في الخرج (شرق الحريق) فكانت أكثر ضررًا، وبخاصة أنها على طريق حجاج وسط وجنوب آسيا، الحاملين معهم أوبئة مثل: الكوليرا والحمى الصفراء والاضطرابات المعوية مثل: الدوسنتاريا والتيفوئيد، ولا سبيل للعلاج إلا ما ذكرنا آنفا.

يسرد الجميع وجود دار طب حديثة في البحرين، توفر علاجًا متطورًا لبعض تلك الأمراض، ولكن كيف الوصول إليها؟ ولمعرفتهم أن القائمين عليها هم من أعضاء الإرسالية البروتستانتية التبشيرية كانوا لا يرتاحون إليها بأي حال.

وفي ظل تلك الأوضاع الكالحة، ذكر البعض في مجلس والدي، قصصا عن التقدم الملموس في مجال تجبير الكسور، فلقد كان لبعض العرب معرفة جيدة بعلاج الكسور، وروى أحدهم قصة عن شخص أصيب بكسر في الجمجمة أدت إلى غيبوبته، وكيف قام المعالج بطلب طحين ناعم من البن المحمص بشدة مع إناء من السمن، وقصبة خشبية رفيعة، وقام بإخراج كتلة دموية من الرأس، ثم سد مكان النزف، وأعاد عظم الجمجمة إلى مكانه، وشد الرباط عليها، مع غسلها مرتين يوميًّا بالسمن الساخن حتى أفاق المصاب وبرئ مما حدث له.

انتهى الصيف وكان الكثيرون مسرورين لوفرة المحصول، ولسلامتهم من الأمراض الشائعة في تلك الفترة، باستثناء بعض حالات الرمد التي أصابت أشخاصًا بتدهور البصر أو العمى. إن موسم الأمراض (زمن السخائن) قد أوشك على الانتهاء في منتصف الخريف، وكان قد بدأ في منتصف الربيع في وقت يسمونه: كنة الثريا[1]، حينما يغيب ذلك النجم شديد السطوع لمدة شهرين، وتنتشر فيه أمراض يربطها البعض بثمار النخل، إن وفرة المحصول قد شغلت الرجال والفتيان والخدم والعمالة في أعمال الجني والكنز، وشبع الجميع من تناول الرطب أو التمور. كما أن تنظيف المخازن من باقي محصول العام الماضي والذي يسمى: الحويل، يزود السكان بتمور صالحة لتجهيز وجبات خاصة مثل الحنيني والمحلي وغيرها من الأطعمة المصنوعة من التمور، إضافة إلى السحن وطحين البر وبعض البهارات، بينما ينشغل الأطفال والنساء والعبيد في نزع النوى من الثمار القديمة لإنتاج العبيط والدبس، وبعضها لا يصلح إلا كعلف للمواشي.

جاء رجال من البادية لشراء احتياجاتهم لشهور الشتاء من التمور الجيدة، مختلفة الأنواع والدرجات كُلٌّ حسب رغبته واختياره، وقدرته على الدفع، مقابل الأنواع الفاخرة، حيث يتم تجهيز صفائح زنة: (25-30 كجم) من نوعيات جيدة، وبعضها يكنز مع الحبة السوداء أو الشمر أو السمسم، أو يوضع معها أوراق شجر الأترج (الترنج) لإعطاء التمور نكهة مميزة. وكان الفتية يتسامرون بترداد طرفة الأعرابي الذي انقض على تمور نبت السيف الطازجة يلتهمها معجبًا بحلاوة طعمها غير عابئ بالتحذير من عواقب الإكثار منها فيقول: جعله الله سيف الجنة. وبعد أن أحرقته معدته أخذ يصيح: عساه سيف في النار..!

السفر والغربة والموت:

عندما أوشك برج الميزان على الانتهاء واقترب موسم الأمطار الجيدة (الوسمي) بدأت نسائم الخريف المنعشة تهب ليلا، اجتمع الفتية للسمر، وتناول الثمار من تمور وعنب ورمان وتين، ورغم شحها وتردي

(1) كنة الثريا: هي فترة زمنية بين 28 إبريل إلى 7 يونيو، بدايتها تتزامن مع بدء استتار الثريا أو غيوبها، وهي لفظة مأخوذة من الشيء المكنون أي المخفي، وهو من مواسم السنة التي تتصف بالمفاجآت الجوية من حر ومطر ورياح وغبار، ويقع ضمن مدة كنة الثريا ثلاثة من منازل القمر، وهي الرشا والشرطان والبطين.

نوعيتها، إلا أنهم بالمقارنة مع الكثيرين في وسط الجزيرة العربية كانوا في بحبوحة نسبية. كانت تغطي على الأصوات البشرية، أزيز بكرات المنحاة الخشبية التي تدور عليها الحبال المعلقة فيها الدلاء، والتي تسحبها الإبل لرفع المياه من الآبار المكشوفة (القلبان)، ولا يمنع ذلك من استمرار الحوار شبه الدائم عن المتطلبات نحو ما وراء القرية، بخاصة ناحية البحر الشرقي، حيث التجارة والصيد والغوص، بعضهم يشطح به الخيال فيتحدث عما وراء الخليج، وعن زيارات قام بها أفراد من البلدة إلى عبدان في فارس أو إلى بومباي وبوبهال في الهند، حيث يوجد تجار من نجد يعيشون في ثراء غير معهود لدى العرب، ويوفرون فرص العمل للقادمين من نجد سواء في الأعمال اليدوية أو إدارة المكاتب أو الحسابات الدفترية.

كان الجميع يتمنى السفر والحصول على عمل في تلك البلاد، ويرى أنه خير من حضور الدراسة في الكُتَّاب أو متابعة أعمال الزراعة والمواشي، وقد تبقى عدة أسابيع قليلة حتى يعود المهاجرون إلى بلدتهم، محملين بالمال والسلع المستوردة، وقبل ذلك التقصي عن أحداث وقعت لهم.

في الخليج كان النواخذة (قادة السفن) يبدءون تقليل الإبحار في الخليج أثناء برج الميزان خوفا من رياح الطبعة التي تؤدي إلى الإضرار بالسفن، وسواء كانت (جلبوت) أو (دو) أو (سنبوك) فإنهم يعمدون إلى إدخالها لأماكن آمنة بعيدا عن مخاطر الرياح والأمواج الخريفية، ويستغلون الفرصة لإجراء إصلاحات أو تعديلات على مراكبهم.

إن كثرة العائدين للبلدة من الخليج لا تقتصر أسبابها على مشاكل البحر في ذلك الوقت، بل يعود أيضًا البعض ممن لا يعملون في البحر وذلك بسبب اقتراب حلول شهر الصيام الفضيل. الكثيرون يفضلون قضاء رمضان في بلدتهم ومع أفراد أسرهم، ليتفرغوا لأداء الواجبات والفرائض والسنن من قيام وتهجد وسحور، في محيط من الحنان والورع والإخلاص للخالق سبحانه وتعالى حيث أن الصيام عند الأجانب كان من الأمور غير المستحبة لأهل الحريق، لما يحدث هناك من ممارسات قد تجرح شعائرهم. لقد كان شهر رمضان المبارك في تلك السنة يقع بالكامل في موسم المربعانية[1] (أربعانية الشتاء) والبرد فيها أشهب قارص، حيث تهب

(1) المربعانية: هي فترة يشتد فيها البرد وتستمر أربعين يومًا، ومن هنا أتى الاسم. وتحديدًا هي الفترة الممتدة من 22 كانون الأول (ديسمبر) إلى 31 كانون الثاني (يناير)، وتسمى في بعض المناطق الأربعينية، تمتاز هذه الفترة بالبرد القارص وقد تسقط الثلوج فيها وتقل الحركة في أيام المربعانية وخاصة في الليل.

الرياح الجافة الباردة مثل الزمهرير وتسبب تيبس البشرة، وما من سبيل للوقاية إلا بدهن الجلد بودك البعارين (شحم الإبل) لتفادي التشقق والنزيف. ورغم ذلك فإن الصيام في ذلك الوقت أسهل منه صيفًا حيث الحرارة شديدة والنهار طويل، لذلك بدأت أفواج العائدين من الشرق تصل الحريق، ويستمتع العائدون بلقاء أهلهم يضمون ويشمون أطفالهم، ويستأنسون بالاطمئنان على أقاربهم، ويقدمون الهدايا اللطيفة ويقصون الروايات الخفيفة والكل في سرور وبحبوحة.

تلك الأيام نداولها بين الناس، ومن سَرَّه زمن ساءته أزمان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان، لقد ارتفع نحيب في أحد البيوت، والبكاء على مفقود لن يعود، صُدِم الفتى عبد الله بن خثلان وهو يعلم خبر وفاة أحد أقاربه العزيزين عليه في البحر، وانجرحت مشاعره، وامتلأت نفسه بالحزن لذلك الخبر الصاعق الذي نزل عليه وهو ما زال غض العود لم يبلغ الخامسة عشر من عمره. زاد الألم حينما شاهد زملاء الفقيد يحضرون متروكاته التي لا تتجاوز أسمالا بالية، وبقايا أدوات السفر، وتجهيز الطعام. انكسرت الأحلام والتطلعات الوردية، فإن الذهاب للبحر لم يكن كله عملًا ممتعًا، بل فيه من المخاطر ما رآه بعينه لا ما سمعه بأذنه فقط.

أخذ الجميع في الترحم على الفقيد، وذكر محاسنه، وندب الصدف التي قادته إلى ذلك، ويأسفون ليس على موته، فهم أهل ورع ويعرفون أن الموت حق، ولكنهم ما كانوا يودون أن يقضي نحبه في الغربة، ولا تجهز جنازته بالحنوط وتكفن على السنة النبوية، ولم يقبر في لحد حسب الشرع الحنيف.

كان عبد الله بن خثلان كثير التحدث عن تلك الصدمة في السن المبكرة، التي أثرت على مسار حياته لاحقًا، فقد أصبح ينطوي على نفسه وحيدًا في ظل حائط أو شجرة، ويتمنى أن تفيض المزيد من الدموع لتغسل الأحزان وتهدئ الخواطر وتبرد القلب. أخذ يذكر الأزمان الماضية مع الفقيد الذي كان يعامله كأخ له وليس من أعمامه رغم فارق السن، وسرح في مشاعره إلى المودة والإعزاز الذي كان يعامل به، والسخاء في تقديم العطايا له وللآخرين من أقرانه، مراجعا ما سمعه من حكم وأشعار في مجالس الغربة أو في الكتاب وعرف معنى: الجود يفقر والإقدام قتال، وعن دور قضاء الله وقدره في تحديد مسار حياة البشر، فإن الفقيد لم يكن أخرقا ولا سيئ التدبير، بل يمتلئ بالفطنة والحزم والذكاء، ولكن الدهر مليء بالنكبات.

أحزان رمضان:

تصادفت غرة الشهر الكريم مع بداية أربعانية الشتاء، وفي الحريق حيث تهب رياح شمالية باردة لم يستعد لها الكثيرون، حيث يعتبرون الزمن خريفًا فيصاب الناس بالأمراض وتتلف المزروعات في بعض السنين. لكن الفتى عبد الله- وقد أوشك على بلوغ منتصف العقد الثاني- كان مشغولا ليس ببرودة الهواء ولكن بحرارة الأفكار، لقد استمر الحزن على وفاة القريب في البحر الشرقي، وكان يتذكر رمضان الماضي وهو معهم يتسامرون ويصلون، وتملأ الهواجس خاطره حول غدر البحر الذي يعد الناس بالربح والثراء ثم ينقلب عليهم ويسلبهم أموالهم وأرواحهم.

استرجاع الروايات السابقة يزيد الألم وبخاصة ما ذكروه له عن إصابة بعض الغواصين بالرعاف الشديد، وعدم تمكن الزورق من سحبهم للأعلى،حيث تجذب رائحة الدم الأسماك وبخاصة المتوحشة منها مثل الجرجور(1)، وتبدأ في تمزيق والتهام اللحم البشري، أفكار تثير الخوف في النفس وتثبط الآمال والطموحات في الحصول على الثروة. لا يبدأ الفتية في الحريق الصيام الكامل إلا بعد العاشرة، وقبل ذلك يكون الصيام كما يقول أهل الحجاز ممن «وراء الزير» حيث يسمح للأطفال بقليل من الماء أو الطعام في منتصف النهار ثم يتم الصيام حتى المغرب. ورغم وجود أعمال في متابعة المزروعات والمواشي إلا أن الصيام في تلك السنين كان ميسرًا،حيث النهار قصير فلا يشتد الجوع، والحرارة غير مرتفعة فيمكن احتمال الظمأ. بعد عصر كل يوم تزداد الحركة في المنزل لإعداد الطعام، كما يسارع والد عبد الله وأعمامه للعمل تحت توجيه العم الأكبر زيد الذي كان في محل والدهم نظرًا لفارق السن الكبير، وكان زيد من ذوي الأملاك الواسعة ولا تشغله زوجة ولا عيال عن تكريس وقته وجهده وماله لعمل الخير في ذلك الموسم المبارك.

كان العم زيد بن عبد الله- رحمه الله- قد خصص كمية من التمور لبعض المساجد للإفطار الرمضاني، إضافة إلى أطعمة أخرى تعتمد أساسًا على الحنطة واللحوم والدهون، يحدد لكل من الفتيان مكانًا يتجه إليه لتوصيل الإفطار في الوقت المحدد، فهذا عليه نقل خمسة عشر وزنة إلى مسجد العقيلي، وآخر يحمل ثمان وزنات إلى مسجد الحمادي، وهكذا ينشغل الفتية في آخر النهار بأعمال المناولة للمساجد وأحيانا إلى بعض المنازل. وهنا أود أن أذكر أني سمعت نقاشا في مجلس أبي- رحمه الله- في سبعينيات القرن الرابع عشر الهجري في مكان حول «الوزنة» وذلك

(1) الجرجور: سمك القرش.

حينما كان أمينا للعاصمة المقدسة وقرر تطوير مراجعة الأعمال التجارية بإلغاء العمل بالأُقَّة واستعمال (الكيلو غرام) بدلا منها. وذلك حرصًا على تلافي التلاعب في الأوزان، حيث تقرر استعمال الموازين الزنبركية التي لا تنضبط أثقالها وتكون عرضة للعبث والغش من بعض التجار المطففين ضعاف النفوس.

يحاول البعض التشبث بأمور شكلية للترويج بأنهم من أهل الورع، فقالوا أن الكيلو وحدة وزن غير المسلمين ويلزم الاستمرار على الأُقَّة، أو لماذا لا تكون وزنة أهل الحريق هي المعيار، وقد أوضح لهم أن الموازين الحديثة لا تعمل إلا بوحدة الكيلو، وهو مشتق من المكيال.

ودارت نقاشات أيضًا حول مقدار الوزنة ذُكر أنها اثنين كيلو، وآخر يقول إنها كيلو ونصف فقط، أو بين أربعة إلى خمسة أرطال، والرأي الأرجح أن الوزنة وحدة حجم، ويختلف مقدار الوزن حسب كثافة ونوعية السلعة التي تقاس، وهي تشبه الصاع أو الكيلة، حيث يختلف وزن ما تحتويه إذا كان دقيقا مطحونا أو ذرة غير مجروشة، ولكن الأمر يجب حسمه ولا يُسمح للمتلاعبين في استمرار الغش في الموازين اليدوية، أما مسألة زوال البركة عند التعامل بالكيلو، فهذا أمر غير شرعي فالبركة من الله وحده ولابد من إصلاح النية قبل إصلاح العمل حتى يحدث النجاح.

ونعود إلى بلدة الحريق في تلك السنين، حيث أخذ شهر رمضان في الانقضاء ودخلت العشر الأواخر، حيث يحي الأهالي الليل بالقيام لصلاة التهجد حتى قريب من وقت السحور. كان في المنزل ضيف أعرابي جاء لشراء مستلزمات له من البلدة، وتوجه معهم للمسجد، وبعد انقضاء الصلاة سأل: يا عبد الله ما هذه الصلاة التي تطول فيها القراءة كثيرًا، وكذلك الركوع، أما السجود فهو الأكثر طولًا؟

فأجابه الفتي: إنها صلاة القيام، ألا تعرفها؟

تمعض الأعرابي وقال: الآن عرفتها، إنها الصلاة التي تكفيني إلى يوم القيامة، ولن أعود لها.

لقد قهقه الفتي عبد الله بملء شدقيه لأول مرة منذ عدة أسابيع، منذ ورود أنباء قناة قريبة في الخليج، بدأت آثار الحزن تزول، وما يسمى الإنسان كذلك إلا لكثرة النسيان.

ليلة العيد:

مضت الليالي سريعة، وأهلَّت بالخير والسرور ليلة عيد الفطر، وانشغل الجميع بتجهيز متطلبات ذلك من ملابس جديدة وإعداد إفطار العيد. من عادة أهل البلدة التوجه إلى مصلى في البرية قبل طلوع الشمس ليؤدوا زكاة الفطر ويكبروا الله ثم يؤدوا الصلاة ويستمعوا للخطبة، وبعد ذلك يعانق بعضهم البعض مع التمنيات بقبول العمل الصالح وعودة الأيام الفضيلة في خير حال. بعد ذلك يتجه كل سكان حي إلى منازلهم، وتقوم الأسر بإخراج طعام العيد وقت الضحى، حيث يتفنن الجميع في عمل أفضل المأكولات وأطيبها، وتصف المائدة في الشارع عليها طعام كل بيت على حدة، ويأتي الأفراد البالغين لتناول القليل من كل صحن ثم ينتقلون إلى طبق الأسرة المجاورة. أن الطبخات الجيدة يتناول فيها القوم أكثر من لقمة، أما ما دون ذلك فتكفي لقمة واحدة، ويجري الانتقال للصحن المجاور. ويلي ذلك الأطفال لتناول الطعام على المنوال نفسه، وعندما تعود الأوعية إلى المنازل فارغة فإن ذلك دليل نجاح الطبخة، أما الأوعية التي تعود وما زال بها كمية من الطعام لم يقبل عليها الرجال ولا الصغار، فإنها إشارة لأهل البيت لتحسين مهارتهم الطبخية.

في ظل ذلك الاحتفال الذي يستمر حتى قريب من الزوال، يتم توزيع الهدايا أو الصلات، وهي عطايا بسيطة قد لا تتجاوز بعض قطع الكيك (كليجا) أو حلوى الزنجبيل أو صافرة وغيرها مما يدخل السرور على الأطفال والفتيان. يذكر الجميع أحد الأقارب الذي كان مصابا بوسواس النظافة، فكان إذا أخرج طعام العيد من بيته أحضر وسادة وجلس بجوار الصحن الذي أعدته أمه أو أخته وزوجته وابنته تحت إشراف دقيق منه للتأكد من النظافة الشاملة، ولا يتناول من أطعمة الآخرين خوفًا من تلوثها، والبعض يأخذها على سبيل المزاح والآخر يقاطع وجبته من باب المعاملة بالمثل. وفي تلك السنة قرر بعض الفتية القيام بحركة تنقض الوسواس الذي ابتلي به، فانتهزوا فرصة سلام أحد الأقارب عليه ودسوا في صحنه خنفساء ميتة كانت في جيب أحدهم، وعندما انتهى من السلام وعاد إلى الطعام وقعت يده على الحشرة فأصابه الهلع وانطلق والجميع يضحكون ويعدونه بالأمراض لتناوله الطعام الملوث، ولكنه تجاوز ذلك قائلاً: قبح الله ذلك الذي وضع هذا القذر من بيته في صحني. وغادر الجميع مناسبة العيد مسرورين وكلهم أمل في عام سعيد مقبل، ويستعدون للعودة إلى أعمالهم صباح الغد، بعد الاستراحة في يوم العيد الذي يسمونه يوم

الجوائز، حيث يحصل الصائمون على أعظم جائزة من رحمة ومغفرة وعتق من النار، وعطلة العيد هي يوم واحد فقط.

لم يكن أحد في تلك البلدة الوادعة يتصور أنه خلال أيام سوف يأتي خبر يغير حياتهم بشكل كلي ليس فقط في الحريق والقرى المجاورة بل في جزيرة العرب كلها، لا بل في المنطقة ويؤثر على العالم بنشوء دولة كبيرة مؤثرة، تستمر عدة قرون كما كانت سالفتها منذ قرنين.

البشارة القادمة من الرياض:

لم يمض سوى أسبوع واحد بعد نهاية رمضان، إلا وجاء رجل مسرع من الرياض، وهو يهتف بالبشارة، أن عبد العزيز بن سعود دخل الرياض، وتقدم له البيعة بعد أن قتل ابن رشيد. توجه الكثيرون إلى دار الإمارة، وكان الحاكم محماس غير واثق من دقة رواية الرجل، فهو ليس من النجَّابين ولا رجال البريد، بل كان يتبضع في الرياض ويزور أقاربه أثناء العيد، وفي خامس يوم من الشهر عزم على العودة للحريق ظهرًا، وجاءه خبر مقتضب بما ذكره آنفًا.

عند سؤاله عن التفاصيل، وما إذا كان أبناء إخوة عبد العزيز بن سعود معه؟ وهل جاء معهم رجال آخرون من حائل؟ وهل قام مندوب ابن رشيد في الرياض بالتسليم لهم؟

لم يكن عارفًا بأي من ذلك، بل ذكر أن إخوة عبد العزيز كانوا معه. وأهل الحريق كلهم يعلمون أن جميع إخوة عبد العزيز بن سعود قتلوا على يد السبهان منذ سنين طويلة، ومع ذلك عم الفرح والسرور، واستبشر الناس خيرًا بزوال حكم آل رشيد عن العارض الذي استمر أكثر من عشر سنين، عانوا فيها من انتشار الفسوق.

أخذ أعيان البلدة في الإعداد للركوب إلى الرياض ومبايعة ابن سعود، وتجهز موكب الركاب وحملت الركائب للانطلاق نحو دعم ومساندة الحكم الجديد الذي سوف ينهي أكثر من عقد من الظلام والفساد والجور.

ما هي إلا أيام حتى ورد البريد إلى الإمارة، وتبين أن الوضع مختلف كليًّا عما أبلغه ذلك التاجر الرحال، حيث حقيقة الأمر هي كما يلي: «جاء عبد العزيز (بن عبد الرحمن بن فيصل) آل سعود ومعه عدد قليل من الرجال إلى الرياض ليلًا وتربصوا لعجلان (مندوب بن رشيد) وقتلوه، ونادوا في الناس للبيعة». ولكن الرحالة أسقط ما بين القوسين ربما لأنه لم يفهم القول أو نقل إليه خطأً، ثم تعجل في السفر قبل تبين الأمر. لقد خابت آمال الجميع، فلقد كانوا يأملون أن عبد العزيز بن سعود بن فيصل هو الذي قضى على ابن رشيد في حائل وتوجه للرياض لأخذ البيعة من أهل العارض. وعبد العزيز بن سعود هذا كبير في السن بل يقارب سن عمه عبد الرحمن، وأبوه سعود بن فيصل معروف لأهل الحريق وكذلك بعض أبنائه، وبخاصة عبد الله بن سعود الذي قتله رجال ابن رشيد غدرًا في الحريق، ونشأ أبناؤه تركي وسعود في الحريق قبل أخذهم للأسر في حائل.

أما عبد العزيز بن عبد الرحمن فهو غير معروف لدى أهل الحريق، ويقدرون أنه فتى صغير نشأ في ظل والده ووالدته في الكويت، ذات المجتمع المختلط الذي يوجد فيه كثير من أهل الصلاح وبعض من أهل الفسوق، ويجوز فيه للمرء أن يعمل ما يشتهيه، أي إنه حر لاختيار طريق الورع أو طريق الفساد، بلا رادع من السلطة ولا مانع من النظام، مما يثير الريبة في نفوس أهل الحريق. إضافة إلى ذلك فالجميع يذكرون المحاولة التي قام بها عبد العزيز بن عبد الرحمن قبل شهور، بتخطيط غير محكم، وأدت إلى هزيمته وتوليه هاربًا للالتحاق بأفراد أسرته في الكويت، ويخشى الكثيرون أن تكون هذه الحركة مشابهة لتلك، وما أن يحضر ابن رشيد من الجبل للرياض بجحافل قواته المدعومة من الدولة العثمانية (تركيا) حتى يعود عبد العزيز للهرب إلى الكويت، تاركًا من ساندوه تحت تصرف ابن رشيد يقتل من يشاء، ويسلب أموال ومواشي من يشاء، ويحرق مزروعات من يشاء، كما فعل سابقًا لإثبات جبروته وسطوته.

روايات مجلس أبي عن ليلة 5شوال 1319هـ :

مضت أسابيع والكل يترقب حسم الموقف، والأخبار ترد بشكل شبه يومي من الرياض. وتتركز حول أمر واحد فقط وهو ما جرى في يوم: (10/5 /1319هـ) الموافق: (1902/1/16م) وكل يسرد روايات متضاربة حول ما جرى في ذلك اليوم، وتفاصيل ثانوية مع إضافة بعض التلميحات أو الطرائف التي يسبغها البعض على روايته، حسب ما يظن أنه يوافق هوى السامعين، بل وتختلف رواية أحدهم في نفس اليوم عندما يقصها لدى إحدى أسر الحريق عن رواية في ديوانية أسرة أخرى. لم يكن أحد يعلم أنه بغض النظر عن التفاصيل الثانوية، فإن ما جرى في ذلك اليوم المشهود هو بداية التأسيس الناجح للدولة السعودية الثالثة، التي سوف تزدهر لتؤثر على الرياض ومنطقة العارض إضافة لتأثيرها على الجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي، بل وحتى المجتمع الدولي المتحضر، عبر مواقف مميزة للدولة السعودية الثالثة في المحافل العالمية وهيئة الأمم المتحدة ومنظمة الدول المتقدمة اقتصاديًّا.

لقد استمرت هذه الدولة أكثر من الدولتين السعوديتين السابقتين، وأصبح لها نفوذ أعظم منهما، وإن كانت لم تبلغ المساحة الجغرافية الواسعة للدولة الأولى، إلا أن نفوذها وحسن تدبيرها لأمورها، ومساهماتها في الحضارة العالمية والأمن الدولي لا يمكن إنكاره. كل ذلك كان خافيًا على ناقلي روايات ما حدث في ذلك اليوم. ولسنا هنا في محل البحث في تفاصيله، لأن المراجع والمطبوعات تحفل بكثير من ذلك، ولم

يكن صاحب هذه السيرة أو أحد من أعمامه أو أخواله ذا علاقة مباشرة بما حدث بجوار مصمك الرياض في يومها.

قد يكون من المفيد لاستخلاص العبرة ذكر بعض الروايات التي وصلت للحريق عن تفاصيل أحداث ذلك اليوم، فقد نقل البعض أن رفاق عبد العزيز تعدوا بالضرب على بنات جويسر بائع الأبقار، حينما رفضن فتح الباب لهم بعد منتصف الليل للتسلل إلى منزل عجلان الملاصق لهم. وأنهم بعد أن دخلوا استخدموا بول بعض المماليك لإذابة الطين، وعمل فتحة في الجدار الفاصل بين البيتين، ووجدوا عجلان وزوجته نائمين فقتلوهما، وعندما أشرقت الشمس سحبوا جثة عجلان أمام المصمك وطلبوا من الحراس الاستسلام وفتح الأبواب لقاء تأمين حياتهم، ولكنهم رفضوا وحاولوا الهروب والتجئوا إلى منزل شمال المصمك (الظهيرة) أحرقه ابن جلوي.

هذه روايات فردية متناثرة، سمعت في مجلس والدي في السبعينيات الهجرية أنها غير صحيحة. ومن الروايات المتناقضة أيضًا ما ذكره البعض أن الملك عبد العزيز كان مضطربا للغاية، ويداه ترتعشان أثناء انتظار خروج عجلان من المصمك متوجها لمنزله للإفطار، وأنه اندفع قبل الأوان خارجا من المنزل ولولا أن تدارك الأمير محمد بن عبد الرحمن وعبد الله بن جلوي الأمر لتمكن عجلان من التقهقر ثانية والعودة للمصمك وإفساد الخطة. وذلك قد لا يكون صحيحًا. أما من ناحية اهتزاز الأيدي أثناء التحفز للقيام بعمل مهم فيرجع لارتفاع هرمون الأدرينالين[1] الذي يجعل العضلات تقوم بأعمال فوق العادية أثناء الظروف الطارئة، ولا علاقة لها برباطة الجأش المعروفة عن عبد العزيز. ومن الروايات الأخرى، أن الإقبال على البيعة كان ضعيفًا مما اضطر الملك عبد العزيز للذهاب بجثة ابن عجلان من المصمك إلى الجامع عند صلاة العصر، حيث واجهه البعض بأمور سلبية، ويقال أن شخصا اسمه الخشيقي أو ربما (القعيشي) سأله لماذا تسمي نفسك عبد العزيز بن سعود وأنت عبد العزيز بن عبد الرحمن؟ وأين ركائبكم؟ وهل تركتموها خارج الرياض للفرار عند أول حادثة؟ وجعل أهل الرياض تحت رحمة بن رشيد؟ ولماذا لم يحضر أبوك من الكويت؟

(1) الأدرينالين (بالإنجليزية: adrenaline) ويسمى أيضًا إبينيفرين (بالإنجليزية: Epinephrine) هو هرمون وناقل عصبي تفرزه الغدة الكظرية وهي تقع فوق الكلية، وهو يعمل على زيادة نبض القلب وانقباض الأوعية الدموية وبالمجمل يؤدي إلى تحضير الجسم لحالات الكر والفر. يعد الإبينفرين ونورإبينفرين أهم الناقلات العصبية في الجهاز العصبي الودي .

وقد كاد الملك عبد العزيز أن يجهز عليه ويجعله يلتحق بعجلان. ومما سمعته في المجلس أن هذه روايات غير دقيقة. ومن الأمور التي نوقشت أيضًا هو عدد أفراد حملة عبد العزيز، وهل كانوا خمسين كما ذكر البعض، أو سبعين شخصاً؟ ومن هم؟ ادعى البعض أن العدد قريب من الستين وأن نصفهم من آل سعود ومماليكهم من شرق إفريقيا وأتباعهم من جنوب آسيا، وهم الذين دخلوا الرياض في تلك الليلة. والواقع أن عددا من أبناء قبيلة سبيع مثل: المجفل والمرعيد وابن هديب وأبو دريب وأبو ثنين وابن جفال والمليحي البالغ عددهم عشرة أو أكثر شاركوا في الحملة، وكذلك من قبيلة الدواسر وأتباعهم حيث شارك منهم حوالي سبعة، وقحطان الواسعة (العجمان ويام) شارك منهم أربعة، وثلاثة من قبيلة عنزة، وشخص واحد على الأقل من مطير وتميم الواسعة وحرب.

كان مجلس الوالد في منتصف سبعينات القرن الرابع عشر الهجري يشهد سجالا حول ذلك الصباح وما جرى فيه، حيث لم يكن قد مضى على وفاة الملك عبد العزيز إلا أقل من ثلاث سنوات، وسبق ذلك بقليل الاحتفال بمرور خمسين عاما على إنشاء الدولة السعودية الثالثة، وصدرت عدة مطبوعات أخرى تحوي روايات مختلفة ومتناقضة أحيانا عن تلك الأحداث.

الشخص الثالث الأكثر أهمية:

من الروايات التي وصلت الحريق آنذاك كانت عن أهم من رافق عبد العزيز، حيث أجمعت على أن أولهم أخوه محمد بن عبد الرحمن، وثانيهم ابن عمه عبد الله بن جلوي، وفي مجلس والدي سمعت روايات مختلفة عن الشخص الثالث الأكثر أهمية، ومما كان يشبه الأغلبية أن ذلك الشخص هو الأمير ناصر بن فرحان، وهو ليس من ذرية محمد بن سعود مؤسس الدولة الأولى، ولكن جده الأعلى كان أحد إخوة محمد بن سعود (مشاري وثنيان) وقد التحقوا بعد ذلك بالعشيرة السعودية بصفتهم إخوة الأمير المؤسس محمد بن سعود.

لقد ذكرت الكثير من الروايات عن مساهماته الإيجابية في نجاح حملة فتح الرياض، لا يتسع المجال هنا إلا لذكر ثلاث منها.

أما الأولى: فهي حينما أوشك الركب على الوصول إلى الرياض في أواخر رمضان، اقترح الكثيرون أن يتم الهجوم على عجلان أثناء صلاة العيد التي تقام خارج أسوار المدينة، ولكن الأمير ناصر- وكان كبيرا في السن- حذر عبد العزيز أن يبدأ حكمه بالقتل في المصلى، فلن يسلم الأمر من تبادل إطلاق النار وإصابة الأبرياء، لذلك صرف النظر عن هذه الخطة.

أما الثانية: فكانت حين تسللهم من منزل جويسر إلى منزل عجلان فقد وجدوا شخصين في الفراش ولم يميزوا عجلان عن زوجته في الظلام، واقترح البعض قتلهما جميعًا بالخناجر لتفادي الضوضاء، وانبري الأمير ناصر بحكمته وحصافة رأيه أن البدء بقتل امرأة مسألة مخزية، واقترح الهجوم على الشخصين وتكميمها ثم التعرف على المرأة وإبقائها وقتل الرجل، وعندما تم ذلك همس كلا الكشافة إنها امرأة! واندهش الحضور لوجود امرأتين في فراش واحد، وعند تحذيرهما من عدم الصراخ، تحدثت إحداهن بالسؤال أولا: هل معكم عبد العزيز بن عبد الرحمن؟ فاستغربوا من ذلك! فأفادتهم أن أهل الرياض يترقبون وصوله، منذ أن وردت الأنباء إلى الأمير عجلان بمغادرته الكويت متجها إليه، كما صرحت لهم إنها زوجة غير راضية عن عجلان، وهذه أختها تؤنسها، وهم من أهل الرياض المخلصين للدولة السعودية، وأن زوجها خائف من عودة عبد العزيز، لذا لم يذهب إلى مصلى العيد، ولا ينام إلا في داخل الحصن الواقع أمام منزله والمسمى المصمك، بسبب سماكة جدرانه.

أعجب عبد العزيز ببعد نظر الأمير ناصر، فلو قتلوا مَن في الفراش لما عرفوا حقيقة الأمر. وبالتحقيق مع الزوجة وصفت لهم عادة عجلان كل صباح، بأنه يخرج بعد طلوع الشمس بقليل لتفقد الإسطبل ثم يدخل منزله للإفطار، ومعه عدد قليل من المرافقين والبقية ينتظرون داخل المصمك. كما عرف عبد العزيز أن هناك خادمة تقف عند الباب قبل وصول عجلان ورفاقه لتدخلهم إلى المنزل. وما حدث أن الخادمة عندما طلبوا منها الوقوف كالعادة في انتظار دخول الأمير، أصابها الذعر وهي تشاهده قادمًا تجاهها، وسمعت قرقعة سلاح عبد العزيز ورفاقه خلفها، فاندفعت هاربة تصيح قبل أن يصل عجلان إلى ثلثي المسافة الفاصلة بين المصمك والمنزل، مما دفع عبد العزيز ورفاقه للاندفاع نحوه قبل أن يتمكن من العودة للحصن والتمترس داخله. وجرى ما هو معلوم للجميع بفضل الله أولا، ثم بهمة عبد العزيز ورفاقه وحصافة الرأي.

والموقف الثالث للأمير ناصر، كان عندما ذهب عبد العزيز عند صلاة العصر إلى الجامع الكبير للاستفسار عن منع البيعة، وكاد يخرج غدَّارته ليبطش بذلك الرجل الذي لمز من سيرة الملك عبد العزيز، ولكن الأمير ناصر أمسك بقوة عبد العزيز ومنعه من قتل ذلك الذي تعرض لسيرته وسيرة والده الإمام عبد الرحمن بن فيصل آخر حكام الدولة السعودية الثانية. (ذكرت أحاديث أن الأمير محمد بن فيصل حكم الرياض لفترة قصيرة، ويدعي البعض وجود وثائق تركية بذلك)، ولكن الثابت هو أن الأمير ناصر بن فرحان كان له دور مميز في ذلك اليوم التاريخي. كما كانت له أدوار فعالة في الأحداث اللاحقة لذلك بعدة سنين.

ومن الروايات المتضاربة حول ما جرى في ذلك اليوم المشهود، هو خطة توزيع العمل بين الرجال وأماكن تواجدهم، فقد ذكر البعض أنهم كانوا مساء يوم الرابع من شوال على بعد خمسة كيلومترات جنوب شرق الرياض، ثم انقسموا إلى ثلاث مجموعات أو أكثر، فالبعض بقي في تل الشقيب والآخرون توجهوا عبر بساتين العود وتسللوا إلى منزل عجلان، وآخرون كمنوا في موقع شمال شرق الرياض، بينما قامت مجموعة أخرى بالاختباء جوار تل أبو مخروق في الملز، كما ذكر بعض الرواة أن مجموعة أخرى اتجهت شرقًا إلى مسافة بعيدة نحو تلال النظيم التي كانت تبعد عن الرياض آنذاك (25 كم)، بينما اتسع العمران حتى بلغ تلك المنطقة الآن. ومعظم الرواة في المجلس وبخاصة ذوي المعرفة والثقة، أوردوا أنهم أناخوا بعد العيد في المنطقة الواقعة عند مخرج (19) على الطريق الدائري الجنوبي، شمال مصنع الإسمنت الحالي، ثم اتجهوا بعد ثلث ليلة الخامس من شوال في ثلاث فرق فقط: الأولى دخلت الرياض، والثانية كمنت في موقع شمال شرق عمارة الخالدية الآن (شارع الخزان). والثالثة توجهت بالركائب نحو الشمال الشرقي واختبأت حتى ظهر اليوم التالي في مكان يقع شرق وزارة المواصلات حاليًا.وعدا تلك الروايات عما جرى في ذلك اليوم فلم ترد أية أنباء من الرياض سوى أن عبد العزيز يعمل على إصلاح الجزء المتهدم من سور الرياض في انتظار قدوم ابن رشيد، وبقي الوضع كذلك لأسابيع مليئة بالقلق والترقب.

إن أهم عبرة نستخلصها من تلك الأحداث، هو صدق قوله تعالى: **[وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ]** [الروم 47] فإن عبد العزيز ومعه كوكبة من آل سعود، ويسانده ثُلَّةٌ من رجال القبائل الملتزمة بالنهج الشرعي الإسلامي، والمُحِبة للصالحين من آل سعود، تمكنوا بمساندة من بعض أتباع الملك عبد العزيز من بدء تأسيس الدولة السعودية الثالثة، وتم ذلك بفضل الله خلال خمس عشرة ساعة. وللأسف أن الكثير من تفاصيل تلك الساعات، غير موضح حتى الآن بدقة، ومازال هناك تناقض في بعض الروايات لم يتم حسمه. وحبذا لو يتم ذلك قريبا، حتى يستطيع الجيل الحالي والأجيال القادمة استخلاص المزيد من العبر.

قصة ظهور فكرة دارة الملك عبدالعزيز:

في السطور السابقة اتضح لنا أن تلك الساعات الواقعة في يوم (10/5/1319هـ) والتي كانت بداية تأسيس هذه الدولة العملاقة في حجمها وإنجازاتها، لم يكن يعلم عنها معلومات دقيقة قبل أكثر من خمسين عاما من الآن، عندما لم يمر عليها سوى خمسين عامًا. وللأسف إنه حتى اليوم لا توجد معلومات دقيقة، والكثير من المطبوعات التي تحدثت عنها، ما زالت ترد فيها روايات متناقضة. وأود هنا أن أشير إلى ما سمعته في مجلس والدي رحمه الله في مطلع شهر ذي الحجة عام (1389هـ)، حينما زاره معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ، والذي كان في ذلك الوقت إمام جامع الحج في عرفات نمرة وسبق له أن عمل وزيرًا للمعارف وقبل ذلك وكيلا للوزارة. لقد كان والد الشيخ عبد العزيز هو مفتي الحجاز على زمن الملك عبد العزيز ثم في عهد الملك سعود حتى وفاته نحو عام (1378هـ). لقد كان فضيلة المفتي في آخر حياته يسكن في شارع المنصور بمكة المكرمة، ويفصله عن مسكننا المسجد من جهة الشمال. وقد كان ابن الشيخ عبد العزيز من المحبين للوالد ولم ينقطع عن الزيارة حتى وفاة والدي، كما كان الوالد دائم الزيارة له والاستئناس بآرائه الطيبة.

قبل تلك الزيارة (1389هـ) بشهور كان فضيلة المفتي في الرياض قد توفي وهو الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، وجرى نقاش حول بعض الأمور المتعلقة بذلك وبخاصة ما يتعلق بإنشاء وزارة للعدل لأول مرة في المملكة. حيث كانت الدولة في تلك السنة تعاني انخفاض إيرادات النفط (واحد دولار أمريكي للبرميل) وبسبب إقفال قناة السويس، وكثرة توقف خط التابلاين لوجود إشكالات في مناطق مروره بالشام، وبسبب شح الموارد والتزام المملكة لدعم المجهود الحربي لدول المواجهة بعد هزيمة حزيران (يونيو) (1967م) واحتلال القدس من الصهاينة، فقد تقرر عدم إنشاء أو إحداث أي مستجدات على الدولة تؤدي إلى احتمال زيادة النفقات، بل ولتغطية بعض العجز فرضت ضريبة جهاد على الدخل.

وتطرق النقاش بينهما في تلك الجلسة إلى مسألة توثيق بعض الأحداث، بخاصة في إطار وفاة كثير من المعاصرين لبداية تأسيس المملكة. وقد أفاد الشيخ عبد العزيز أن أخاه الشيخ حسن الذي تولى وزارة المعارف بعده، ثم تولى وزارة التعليم العالي لحين وفاته، قد أعد خطة لإنشاء دائرة في الوزارة تعنى بتاريخ المملكة والملك عبد العزيز. إلا أن قلة الدخل جعلت هناك إحجاما عن إنشاء إدارات جديدة. وبعد ذلك عاد الشيخ حسن لطلب إنشاء تلك الدائرة لأهميتها، ولوجود تضارب في

روايات تأسيس الدولة السعودية الثالثة، وقد استفسر الملك فيصل رحمه الله من عدد مِن المهتمين بذلك مثل ابن خميس وابن رويشد، ووجد أن هناك ما يستدعي إنشاء تلك الإدارة، وعلى مستوى ضيق لضغط النفقات. وبعد توسع الدخل تم فصلها عن الوزارة في مبنى مستقل صغير في المعذر، وسميت: دارة الملك عبد العزيز. ثم توسعت وتشرفت بأن ترأسها الملك سلمان (الأمير سلمان) حيث كان ما يزال أميرا للرياض وقتها.

ولقد قامت تلك الدائرة بجهود طيبة لإصدار عدة مطبوعات عن تاريخ المملكة، وبخاصة في الآونة الأخيرة، حينما توفرت لها الإمكانيات المادية والبشرية، وخصص لها مبنى لائق يقع بجوار قصر المربع التاريخي، ولا ننسى جهود القائم عليها الأستاذ النشيط والمخلص فهد السماري الذي ما زال مستمرا في محاولة تطوير سجلات تاريخ الدولة السعودية في كافة مراحلها.

وبعد مرور نحو خمسين عاما على ذلك النقاش بين عبد العزيز آل الشيخ وعبد الله بن خثلان، من المؤلم أننا ما نزال نعيش في ضبابية المعلومات عن تاريخ المملكة، وتضارب الروايات حولها. وفي يقيني أن السبب الرئيس لذلك يكمن لدى بعض صغار الموظفين الموكل لهم الإشراف على النشر، حيث يظنون أن أفضل ضمانة للبقاء والترقي هي اللجوء لأقصى أساليب التحوط وتفادي ما قد يثير أي إشكال. للأسف ما نزال نرى في بعض المنشورات المعتمدة ما يوحي بأن الملك عبد العزيز هز عصاه في تاريخ (10/5 /1319هـ)، ونادى الجميع: أن الملك لله ثم له، وبعد ذلك استمتع بالحكم أكثر من خمسين عاما حتى وفاته عام (1373هـ). لقد ناضل عبد العزيز خمسين عاما بعد فتح الرياض وعانى الكثير، وواجهته صعاب جمة، ووقف ضده الأقارب والأباعد، حتى تمكن من بسط الأمن ونشر الرخاء.

لابد من مواجهة الحقيقة:

إن تعريف الجيل الجديد بتفاصيل الآلام التي مرت على البلاد في أحقاب مختلفة، ليس فيه إشكالات، وإنما هو لنشر الحقيقة وإن كانت مؤلمة، إلا أن التغاضي عن الحقائق أمر خطير وسلبياته عميقة.

عندما بدأ عبد العزيز استعادة الحكم في المنطقة الوسطى من دولة أجداده، لم يحاربه عامل الأتراك فقط، وإنما قام ضده الكثيرون يشككون في كفاءته، ويحملونه مسؤولية ما جرى في الصريف من سوء تخطيط مبارك الصباح.

لقد رفض معظم الأهالي مبايعته ويفضلون عليه غيره من آل سعود أو من علماء الدين أو زعماء القبائل، وعندما استعاد الحكم في المنطقة الشرقية لم يقف ضده القائم مقام الوالي التركي في الأحساء والقطيف، وإنما حاربته قبائل مثل العجمان، كان يفترض أن تواليه نظرا للارتباط التاريخي، واستغلوا خلافه مع ابن عمه سعود بن عبد العزيز بن سعود بن فيصل، وزوج شقيقته نورة لإثارة فتنة داخل البيت السعودي عام(1332هـ)، وقبيلة مطير تنهب معسكر عبد العزيز ثم تفر إلى الكويت لبيع الأسلاب تحت سمع وبصر آل صباح، وأما آل ثاني في قطر فقد كان موقفهم معه أسوأ.

لما استعاد عبد العزيز الحكم في الحجاز وقف ضده إمام اليمن وملك مصر فؤاد وأمير شرق الأردن عبد الله بن الحسين، وأشعلوا فتنة الإدريسي جنوبًا، واضطرابات ابن رفادة شمالا، إضافة إلى تأليب بعض المواطنين ضده. أن مجرد الذكر السريع لتلك الأحداث، وإيهام القارئ أن عبد العزيز هز عصاه السحرية فأنهى كل ذلك في لحظات أمر مسيء للغاية، لأنه يوحي للجيل الجديد سلبيات لا تلائم الزمن الحاضر. لقد عانى عبد العزيز من المؤامرات والخطط الكيدية ضده، واضطر إلى الاستدانة لإرضاء البعض وتعرض للإصابة بالرصاص في بطنه وأخرى في ركبته، كما انكسرت عظام كتفه (الترقوة) وسقطت به الفرس، ولا توجد تفاصيل موثقة أو روايات لأشخاص معروفين توضح حقيقة بناء الدولة السعودية الثالثة.

قبل شهور من وفاة عبد العزيز، كان يحضر افتتاح أول خط سكة حديد في وسط صحراء الجزيرة العربية[1]، حاملا الغذاء والدواء والكساء ومواد البناء للعاصمة، حيث لا توجد طرق معبدة بعد، فهل كان ذلك بمجرد هز العصا السحرية؟! أتمنى إلا يترك الأمر لصغار الموظفين، الخائفين على وظائفهم ومراكزهم، في حجب الحقائق. وما الضير في

(1) انطلقت فكرة إنشاء سكة الحديد بالمملكة في منتصف الستينات الهجرية (الأربعينات الميلادية)، عندما برزت الحاجة إلى إنشاء ميناء تجاري على ساحل الخليج لنقل البضائع المستوردة عن طريقه إلى مستودعات شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو). اشتملت الفكرة التي تقدمت بها شركة (أرامكو) لإنشاء خط للسكة الحديد من الدمام إلى الرياض على إنشاء ميناء تجاري كبير يمكنه استقبال السفن الضخمة التي تنقل مستلزمات أعمال صناعة النفط ومعداتها، فضلًا عما سيكون لهذا الميناء من فوائد كثيرة للاقتصاد الوطني.
وعندما عُرض الأمر على الملك عبد العزيز آل سعود- يرحمه الله- أمر جلالته بتنفيذ المشروع كاملا ليصل إلى العاصمة الرياض. وتم بالفعل البدء في تنفيذ المشروع (21 أكتوبر 1947م)، وفي (30 أكتوبر 1951م) أقيم احتفال رسمي بافتتاح الخط في الرياض بحضور الملك عبد العزيز.

السماح بنشر بعض الروايات مع وضع تعليق في الهامش يوضح ما يعارضها ولا يتفق معها؟ وما الخطورة في تلافي ذكر الصعوبات والمكائد أمام تأسيس الدولة، حتى تستشف منه العبرة للمستقبل، وتكتم هذه الأقوال النشاز التي نشاهدها على شبكة التواصل الاجتماعي الآن، أو في بعض مواقع الإنترنت، كما يتحدث شبابنا عن تلك الأمور بدون معرفة جوانبها المتعددة، ويصلون إلى استنتاجات ضبابية تسيء أولا للوطن ثم لحكامه ولبقية أفراده.

إن على الجميع أن يكفوا عن تغطية الرؤوس في الرمال، أملا في أن تذهب الأيام بالحقيقة وتبقى المناصب، بينما النار تتقد تحت الرمال. أن لنا في كتاب الله أسوة حسنة، من ذكر: **[امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا]** [التحريم 10]، وذكر قصة آزر والد سيدنا إبراهيم، وابن نوح الذي كفر برسالة أبيه، وأبو لهب العم الشقيق الوحيد للمصطفى عليه الصلاة والسلام، الذي كفر برسالة ابن أخيه، بينما آمن أعمامه الآخرون. أن مرارة الحقائق وإن كانت غير موثقة تماما هي أخف ضررًا من حرارة السكوت عن الحقيقة.

ولا يسعني أن أختم هذه الوقفة، إلا أن أعرج على شخصية معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن الذي بدأنا الفقرة بسرد خلاصة أحد لقاءاته مع الوالد، فلقد كان نعم الصديق الصادق الصدوق ونعم الجار ونعم المستشار، لا يتوانى عن التصريح بالحق قولا والعمل به فعلا في كل وقت. كما تعرفت لاحقا وبشكل طفيف على أخيه الشيخ حسن، الذي تولى الوزارة بعد أخيه، ورغم أني لم يسبق أن رأيته في مجلس والدي ولا أذكر أن والدي قام بزيارته- ربما لفارق السن الكبير- إلا أنه رحمه الله كان دائم السؤال عن أحوال والدي أثناء حياته، ومترحما عليه بعد وفاته، ويقابلني وأفراد الأسرة ببشاشة غير عادية، عارضا العون في كل ما له علاقة به. أما معالي الدكتور عبد الرحمن نجل الشيخ عبد العزيز فقد تشرفت بتلقي مبادئ علم الاقتصاد الزراعي في محاضراته لنا في الجامعة، فور عودته من البعثة، وكان أيضًا يكثر الثناء على والدي، والتقينا به (مع والدي) في مجلس والده أيضًا.

وتولى الدكتور عبد الرحمن بعد ذلك عمادة كلية الزراعة ثم أصبح رئيسا لجامعة الأحساء. وفي منتصف السبعينات الميلادية تولى وزارة الزراعة نحو عشرين عاما، نرى الآن آثارها في توفر اللحوم والألبان والبيض والقمح بنوعيات جيدة وكُلْفه مناسبة بدلا من استيراده. وبعد مغادرته امتدت يد المشككين، وبأعذار غير ثابتة لإلغاء تلك المشاريع العملاقة، والتوجه للاعتماد في غذائنا على ما تصدره لنا دول أخرى لا نضمن حسن العلاقة معهم. وأثناء تولي معالي الدكتور عبد الرحمن وزارة

الزراعة باشر أعمال وزير الصحة مؤقتا، كما كان رئيس مجلس إدارة شركة صناعية كبرى للمنتجات الغذائية، تقوم بالاستفادة من فائض المنتجات الزراعية المحلية، وتوفير مشتقات تسد حاجة المواطنين ويصدر ما يزيد منها، ولقد تشرفت عندما كلفني معاليه بإدارة تلك الشركة، حيث قمنا خلال سنوات عملي معه بدراسة ثم تصميم وإنشاء وتشغيل مجموعة من المصانع الغذائية، التي ما زالت تقدم السلع المناسبة للمواطنين وبأسعار تنافسية.

بلدة الحريق بعد دخول عبدالعزيز الرياض:

إذا عدنا إلى بلدة الحريق بعد مرور شهر على دخول عبد العزيز الرياض، فإننا سنرى أن الجد عبد الرحمن كان متوترًا للغاية، فهو يرى أن من العجز أن يبقى في عمله وبين أسرته، ولا يمد يد الدعم لذلك الفتى الذي يحاول إنهاء حكم الأتراك وأعوانهم. لقد أخذ يحدث أهله وأصدقائه من الأهالي، حول أهمية التوجه للرياض لمساندة الحركة الجديدة، والتخلص من حكم ابن رشيد، ولكن للأسف كان الكثيرون لا يوافقونه الرأي، ويحثونه على التريث وانتظار جلاء الموقف، وكانت وجهة نظرهم تتلخص فيما يلي: الحكمة السائدة في العارض هي: «اتركوا الترك إذا تركوكم» ولا داعي للتحرش بهم وهم قوة عظمى تتوفر لها الأسلحة الأوروبية المتطورة.

الصراع بين ذرية الإمام فيصل بن تركي موطد الدولة السعودية الثانية، مازال فيه شعاع خطر، ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على سقوط حكمهم، إلا أن الخلاف مستمر بين الإمام عبد الرحمن بن فيصل وأحفاد أخوه الإمام سعود بن فيصل. ولم يتدخل أهل الحريق في النزاع السابق، ولا يريدون التدخل الآن بمساندة طرف ضد الآخر.

ابن رشيد يركز اهتمامه على سلامة قوافل الحجاج ولا يتدخل في الأمور المحلية، فلم يأمر أحدًا بالمنكر قط، ولم ينهِ أحدًا عن عمل المعروف قط، ورغم جبروته وبطشه إلا أنه يترك لكل بلدة تدبير أمورها الخاصة، ويكتفي بجمع المكوس والضرائب، ويجبي الزكاة عن خليفة المسلمين في الأستانة (إسطنبول حاليا)، لذا فلا داعي لإثارة فتنة يخسر فيها الناس دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الفتى عبد العزيز غير معروف قطعيا لدى أهل البلدة، ويُخشى عند استفحال الصعوبات أن يغادر للكويت حيث والده ووالدته وزوجته وأطفاله وإخوته، ويترك العارض لابن رشيد. كما أن المعرفة قليلة بوالده عبد

الرحمن بن فيصل، ولم يتول حكم المنطقة سوى مدة قصيرة اتسمت بالنزاع مع أبناء أخيه سعود، ومع ابن رشيد.

الإمام سعود بن فيصل (العريف) حكم جنوب العارض (الخرج والدلم والحوطة) سنين طويلة أثناء حياة والده الإمام فيصل بن تركي، ثم في ولاية أخوه الأكبر عبد الله بن فيصل، ثم تنازع معه وبويع له وبقي يحكم العارض لحين وفاته، وتولى أبناؤه السلطة بعده. وبالتالي فهو وأبناؤه معروفين جيدًا لدى أهل المنطقة ولهم مكانة وتقدير لدى الكثيرين.

الأتراك شبه غائبين عن المنطقة، ولا يوجد إلا عمال لهم من بعض القبائل (مثل شمر) أو مندوبين من دول عربية مثل مصر والشام والمغرب الأدنى.

أما الجد عبد الرحمن فقد كان متحمسا للغاية، للقيام بعمل يدعم ذلك الفتى الذي غامر بحياته وتمكن من استرداد عاصمة أجداده، ويتعرض لمخاطر جسيمة حاليا، وهو في موقف يستدعي الأمر معه تقديم المساندة له، وقد كان يرد على أقوال أقاربه أو أصدقائه من أهالي الحريق بما يلي:-

النزاع بين آل سعود غير قائم الآن، وكما إننا لم نشارك فيه سابقا، فإنه إذا قام لاحقا فلن نشارك فيه، وذرية الإمام سعود مازالوا في التوقيف بحائل، ولا يسيغ الانتظار لحين تمكنهم من الهروب، مادام أن هناك شخصًا آخر من العشيرة السعودية يقوم حاليا بجهود لتحرير المنطقة من السيطرة العثمانية، والحاضر أبدأ (أولى) من الغائب.

الترك لم يتركونا، فما زال عمالهم يسومون الأهالي العذاب، ولا يأخذون على أيدي الفساق ويمنعوهم من الأعمال الفاسدة. وإذا كان بعض عمالهم معتدلين، فإن هناك القليل من الأرناؤوط[1] وهم من أهل الفواحش، ويجاهرون بالمعاصي، وينشرونها بين الشباب والجهال.

الجهاد واجب لدعم كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

---

(1) الأرناؤوط: هو في الأصل اسم يطلق على سكان ألبانيا (بلاد البلقان) الواقعة على بحر الأدرياتيك بعد اليونان، كان ينطق أرناؤودس باللغة اليونانية ثم حور إلى أرناؤوط بالتركية، ومع الفتح العثماني للبلاد العربية هاجر الكثير من أبناء هذه القومية شأنهم شأن الشركس والبوشناق والأباظة إلى أنحاء الإيالات العثمانية، وقد استوطنوها واندمجوا مع السكان، ولا يزال بعضهم يحتفظون بلقبهم الأرناؤوطي، ولذا نجد الاسم في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق والأردن ومصر وتونس والجزائر وليبيا.

وبقي النقاش محتدما بين عبد الرحمن وأهل البلدة، وللأسف لم يؤيده في وجهة نظره سوى قليل، وكانت الغالبية ترى عدم الركوب بالسلاح والتوجه للرياض. وخلال تلك الفترة طرأت بعض الأشغال للجد عبد الرحمن فاصطحب الوالد معه إلى الحوطة مع العمال، وهناك عرض وجهة نظره على بعض كبار البلدة من آل حسين وآل مرشد، وقد فوجئ أن آراءهم تكاد تكون مجمعة على عدم التوجه للرياض؛ فقد كان أهل الحوطة من تميم على علاقة مع الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في الرياض وهو تميمي أيضا، وقال له البعض إننا لم ندعي للمساندة، ولا نريد أن نبدو متطفلين، فلا نستطيع التصرف في هذه الحالة، والأمور غير واضحة، ولم يطلب منا أي مساعدة.

وفي النهاية وفي جلسة خاصة مع أخوه الأكبر زيد بن عبد الله، الذي كان يعتبره محل والده، بسبب فارق السن الكبير، فلقد قطع العم زيد كل ذلك قائلًا: «يا أبا عبد الله الزم السكون الآن ولا داع لأن تدخل نفسك وأهلك في المكان الضيق وهم الآن في واسع»، وزاد على ذلك بالإشارة إلى أن أهل البلدة بدؤوا الركوب إلى مكة لأداء فريضة الحج، واقترح عليه أخذ زوجته وعياله والتوجه إلى هناك قبل فوات الوقت حيث يستغرق المسير نحو: (20 يوما) للوصول إلى المشاعر المقدسة. وقد وعد الجد عبد الرحمن أخاه الأكبر زيد بالسكون، والتفكير في أداء فريضة الحج العام القادم بعون الله. لقد انتهز الجد الفرصة للإشادة بحسن تدبير الفتى عبد العزيز، حيث اختار وقت دخول الرياض بعد عيد الفطر، وعندما بلغت أخبار ذلك عبد العزيز بن رشيد كان شهر ذي القعدة على وشك أن يهل، فخشي أن يتوجه جنوبا للعارض، فتنكشف خاصرته لهجوم من الكويت، أو أن تتعرض قوافل الحجاج التي بدأت المسير لأي أذى يؤدي إلى فقدان الثقة فيه عند الدولة، وقد يخسر خفارة الحج التي كانت توفر له قدرًا هائلًا من النفوذ إضافة إلى النقود لغرض سيطرته على وسط جزيرة العرب. والآن مع انشغاله بترحيل الحجاج من البصرة إلى المدينة المنورة عبر مدينة حائل وأجزاء من درب زبيدة القديم، ثم إعادتهم بعد الموسم، فإنه لن يتمكن من الهجوم على الرياض إلا بعد شهرين من انتهاء شعائر الحج، أي في نهاية صفر من العام التالي.

لقد أعطى ذلك فرصة لعبد العزيز لتدبير أموره المالية والحربية وإعادة بناء أجزاء السور المتهدم. لقد اعتبر عبد الرحمن ذلك من ملامح عبقرية التخطيط لدى الفتى عبد العزيز، وهو مازال في هذه المرحلة المبكرة من حياته.

الفصل الثالث
مشاعر وخواطر وذكريات

من أين لنا بمثل الشيخ خزعل أمير عربستان..؟! :

مرت الأيام والليالي بشكل وتير والفتى عبد الله بن خثلان يترقب قلق والده نحو ما يجري في الرياض، وكثير من أقاربه يساورهم شيء من ذلك، والبعض الآخر فهم أن من أهل الحريق من لا يبالون بالوضع، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء؛ وكانت لقاءات الفتية المسائية حول مدفأة الحطب تحوم حول الأعمال الزراعية والرعوية، وبخاصة مع إقبال موسم

الربيع، وهطول الأمطار، وانتعاش المراعي والمحاصيل البعلية، وسكان العارض إذا دخل برج الحوت[1] قالوا: «بدأ البرد يموت».

كانت البلدة ساكنة، ذهب بعض الناس للحج، وآخرون يجهزون للعودة إلى أعمالهم في الشمال أو إلى البحر الشرقي، كما بدأ البعض يتحدثون عن وجهة جديدة للترحال هي المحمرة. ونشير هنا باقتضاب أن تلك المدينة يصلون إليها عن طريق الكويت ثم البصرة ثم عبدان، وكان حاكمها الشيخ خزعل بن جابر الكعبي[2]، ويقال إنهم من العوامر والناس أمناء على أنسابهم، إلا أن ذلك الرجل كان محبًا لعشيرته من العرب، وسمى منطقته الواقعة في بلاد فارس عربستان، ورغم أنه شيعي، إلا أنه لم يكن يأخذ بالمجوسية الذين يدعون التشيع لأهل البيت وهم يسبونهم، ويسبون أمهات المؤمنين والخلفاء الراشدين والصحابة المقربين الذين حفظوا لنا القرآن والسنة، مما يتهمهم بخروجهم على الملة الإسلامية والعياذ بالله، رغم مزاعمهم الباطلة.

رحب الشيخ خزعل بالعرب في المحمرة، وسمح لهم بمزاولة الأعمال، والاستفادة من المتاجرة في السلع الفارسية والهندية حتى قامت حكومة بهلوي[3] بعزله وإلغاء استقلال إقليم عربستان. لقد قص عليَّ العمُّ سعود بن ناصر رحمه الله، تفاصيل رحلته إلى المحمرة نحو منتصف

---

(1) برج الحوت هو آخر برج من الأبراج السماوية الإثني عشر في دائرة البروج، أي قوس من دائرة مسار الشمس . تمر الشمس من برج الحوت من 19 فبراير إلى 20 مارس وتكون الشمس في هذا البرج عند أواخر الشتاء.

(2) خزعل بن جابر بن مرداو بن علي بن كاسب (24 يونيو 1861 - 24 مايو 1936)، أمير عربستان الخامس ويلقب بأمير المحمرة , هو الابن الخامس للشيخ جابر بن مرداو أمير عربستان الثالث وأمه نورة بنت الشيخ طلال العلوان رئيس قبيلة الباوية، ولد في قرية كوت الزين في قضاء أبي الخصيب في جنوب البصرة، استلم الحكم بعد مقتل أخيه مزعل بن جابر الكعبي (عام 1897م)، يعتبر من أهم المؤثرين في منطقة الخليج العربي أثناء حكمه ولُقب بشيخ مشايخ الخليج. حاول الشيخ خزعل المنافسة على عرش العراق وضم الأحواز إليه إلا أن البريطانيين نصبوا الملك فيصل الأول ابن الشريف حسين أول ملك للمملكة العراقية (عام 1339 هـ=1921 للميلاد) أي قبل أربع سنوات من نهاية إمارة الكعبيين في الأحواز.أسر الشيخ خزعل مع ابن عمه الشيخ موسى الذي كان حاكم عبادان آنذاك وابنه الشيخ عبد الحميد وقتل الشيخ خزعل عام (1937م) داخل قصره في طهران، حيث أن الأمير خزعل كان محتجزا به، ودفن في طهران وفي عام (1947م)، تم نقل جثمان الأمير خزعل إلى العراق ودفن في النجف.

(3) رضا بهلوي (15 مارس 1878 - 26 يوليو 1944), مؤسس الدولة البهلوية، حكم ما بين أعوام (1925 و1941م) قام بخلع آخر شاه من الأسرة القاجارية الشاه أحمد شاه قاجار في (12 ديسمبر 1925م) وأنهى حكم القاجاريين. خلفه ابنه محمد رضا بعد أن أجبره غزو بريطاني - سوفييتي مزدوج في (25 أغسطس 1941م) على التنحي في (16 سبتمبر 1941م).

القرن الرابع عشر الهجري، حيث ذهب إلى هناك هاربًا من إشكال جرى له مع أحد الأشخاص، فنصحه الجد عبد الرحمن «أن يرفع رجله حتى تهدأ الأمور»، وكان المجلس يدور عما رآه وسمعه في المحمرة من مباهج وتجارة وفرص استثمار، وملابس حرسهم المزركشة وقبعات الريش، والموائد الخضراء، والمراقص، والمسجد المرتب، وقص عليَّ أكثر من ذلك، مما لا يتسع المجال الآن لذكره، وأتمنى مستقبلًا أن يقوم ابنه البار عبد العزيز بالمساعدة في كتابة شيء عن ذلك لاستخلاص العبرة، وأسوق هنا في عجالة طرفة حدثت في العقد الأخير من القرن الرابع عشر، حينما تمكن التلفاز السعودي من بث وقائع الحج عبر الأقمار الصناعية لبعض الدول العربية، حيث كان الأخ عبد العزيز من القائمين على ذلك العمل، وعندما ظهر اسمه على الشاشات تلقيت عدة اتصالات من معارفي ومعارف والدي، بعد سنوات من الانقطاع عن أصدقائنا في الدول الأخرى.

بعثة صنيتان:

جاء عيد الحج (الأضحى) في الحريق، أثناء موسم طيب، حيث شارفت أعمال تلقيح النخل على الانتهاء لمعظم الأصناف، وأغدق الله على الأسرة من الخير شيئًا كثيرًا، وجرى طبخ عدد من المأكولات المفضلة آنذاك، وبخاصة ما تتكون من لحم الضأن والحنطة؛ ولابد من الإشارة هنا أن منطقة العارض وعالية نجد (الدوادمي) وسدير، يوجد بها الأعشاب والنباتات، ويصبح لحمها شهيا ومتعافية البدن، على عكس الخراف التي تربى أسيرة في الحظائر، وتأكل الأعلاف المخزنة، وهي عادة سوداء الجسم بيضاء الرأس، كبيرة الحجم، كما تزرع في تلك المناطق أفضل أنواع الحنطة وهي الصمة وبخاصة بذور ضرماء، الواقعة شمال الحريق بنحو (100 ميل). وهنا لا أمدح منتجات محددة لي علاقة بأرضها وإنما الشهادة من هيرودوت[1]- أبي التاريخ- الذي جاء من بلاد اليونان قبل قرون من الميلاد، وزار جزيرة العرب وكتب عنها أقدم مؤلف معروف في الرحلات(تاريخ وجغرافيا) حيث أوضح أن أفضل لحم ضأن ذاقه حول العالم هو الأغنام العربية، ومدح أيضًا قمح وسط الجزيرة العربية، وأخذ منه كمية من البذور وزرعه في جنوب أوروبا (البلقان وإيطاليا)،

(1) هيرودوت كان مؤرخا إغريقيا يونانيًّا آسيويًّا عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي 484 ق.م - 425 ق.م). اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدَّة زارها حول العالم المعروف آنذاك، وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسية على اليونان. عرف هيرودوت بفضل كتابه تاريخ هيرودوت الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص التي لاقاها في ترحاله حول حوض البحر المتوسط.

وكان قد وضع لها اسم: «دوردم» لأنها من ضرماء ومازالت معروفة إلى الآن بجودة حبوبها وصلاحيتها للمأكولات المطبوخة أكثر من الخبز، ولابد من الإشارة إلى أن هيرودوت أثناء زيارته لبلاد العرب قبل أكثر من 23 قرنًا، قد أدرج في كتابه بعض المعلومات التي استقاها من الأهالي، مثل القول بأن اللبان العربي يستخرج من حيات وثعابين ضخمه تعيش في وادٍ سحيق بين الجبال، ولا يجرؤ أحد على النزول إليه، ماعدا طائر ضخم ينفث اللهب من منقاره، فتخافه الحيات، وهو يشبه طائر الفينيق الأسطوري، وأنهم يلقون في ذلك الوادي من أعلى الجبال، جثة ماعز ملطخة بالدماء والغراء، فتلتقط حبات اللبان، ثم يأتي ذلك الطائر فيأخذها ويطير، فيرشقونه بالسهام فيسقط البعض منها من بين مخالبه، فيجمعون مكورات اللبان، كما ذكر هيرودوت قصص وأساطير أخرى، عن وجود نهر كبير يقطع جزيرة العرب من الجنوب الغربي متجها للشمال الشرقي، وربما أنه أثناء موسم أمطار غزيرة شاهد وادي بيشة أو وادي الرمة، إضافة إلى أوصاف لبعض الأشياء في المنطقة العربية السعيدة (فيلكس أرابيا)، وهو يقصد الركن الجنوبي الغربي لجزيرة العرب أي بلاد اليمن حاليًّا.

لقد شبع أهل القرية أثناء موسم الحج من اللحوم والحنطة ومعها الخضار المطبوخ مثل: الباقلاء واليقطين وقرع الدباء وبيض الجان (باذنجان)، وشيء من البصل، والبهارات الهندية التي تصلح طعم الأكل سواء من ثريد (قرصان) أو جريش أو مطازيز وغيرها. أما الرز (التِمَّن) فقد كان نادر الوجود مرتفع الثمن ومتوسط الجودة. وجرى تجفيف قليل من اللحوم الفائض (قفر) بعد أن وزع على الأقارب والجيران وأعطي القانع والمعتر. ولم تكد تصل مواكب المتعجلين العودة من الحج، إلا وامتلأت القرية بالهدايا من مكة مثل القريض (الحمص) والحلوى وبعض الملبوسات، وعم الفرح والبهجة أرجاء البلدة، والكل يرجو الله أن يتقبل صالح العمل في العام الفائت، وأن يسبغ البركة والعافية في العام الجديد، وأخذ الجميع يستعدون لمباشرة تجهيز محاصيل الصيف من خضر وفواكه، ويتولون البذر والتشذيب وخدمة المزارع.

زوار قبيل منتصف الليل :

بعد قليل من العودة من أداء فريضة العشاء وقبيل منتصف إحدى الليالي قبل اكتمال أول بدر في عام (1320 هـ)، طرقَ طارقٌ بابَ الدار، فأمر العم زيد بالسكون، وأرسل اثنين من العمال، أحدهما قوي الجسم اسمه سعيد، والآخر في سن صغير يقال له بريه، وأمرهم بالخروج من باب القوع الجانبي، والتوجه من الخلف لإدخال الطارق إلى غرفه القهوة الخارجية. عاد سعيد وقال: إنهم ثلاثة رجال ذكروا أنهم من سبيع ويريدون

محادثة العم زيد، وقد تركوا سلاحهم وأغراضهم خارج المقهاة، كما طلب منهم، لقد كان الأمن مستتبا في الحريق أثناء الحكم السعودي، والناس لا يخافون ليلاً أو نهارًا إلا الله والذئب على غنمهم، ولكن عندما جاء أعوان الدولة العثمانية للحكم، بدأت أعمال اغتيال دنيئة لم يعهدها أهل البلدة، حيث يطرق الباب طارق ليلا وهو ملثم ويدعي أنه حامل رسالة من قريب أو صديق، ويخفي في جلابيبه دبوسًا، ويستغل الفرصة للاعتداء به على من أُمِر بالتخلص منه، والهرولة في الظلام بعيدًا عن الأعين. أن الدبوس إحدى آلات القتال التركية، حيث يتكون من قضيب معدني ثقيل يبلغ طوله نحو ذراعين، وفي رأسه كرة حديدية بحجم البرتقالة، ومنغرس فيها مسامير يبلغ طول الواحد قدر الأصبع الوسطى، وتستخدم لتهشيم جمجمة العدو، كما تتحطم بيضة الحمامة تحت خف جمل على أرض صخرية.

توجه عبد الله بأمر من عمه لمقابلة الرجال واستطلاع ما لديهم، فوجد بريه قد باشر إعداد القهوة، وقد شعر القادمون بالوجل لدى أهل الدار، وبذلوا الجهد لإزالة الشك، وبينوا أنهم مرافقون للأمير عبد الله صنيتان آل سعود، الذي خيم خارج الحريق، على مسافة ساعتين.

جاء العم زيد ورحب بهم واستفسر منهم عن نسبهم ومعارفهم، واطمأن بصدق نواياهم، وأعلن ترحيبه بالعشيرة من سبيع وبالأمير من آل سعود، ودعاهم لتناول عشاء خفيف والمبيت، والتوجه بعد الصبح إلى مخيم الأمير، مع أحد أفراد الأسرة للترحيب به، وأفادهم أنه سيدعو الأمير محماس وبعض أعيان البلدة لتناول الغداء قبل الظهر، والاستماع إلى ما جاء به. توافد وجهاء الحريق من آل خثلان والكثران والهزازنة، ومن بينهم الأمير محماس، وأفادهم ابن صنيتان أن جده الأكبر هو ابن الأمير إبراهيم بن عبد الله آل سعود الأخ الأصغر للإمام تركي بن عبد الله مؤسس الدولة السعودية الثانية، وأنه كان في الكويت مع عمه عبد الرحمن بن فيصل قبل ثلاثة أشهر، وأنهم تمكنوا من إكمال إصلاح الجزء المهدم من السور، وأصبحوا على استعداد للدفاع عن الرياض، إذا حاول عبد العزيز

الرشيد دخولها. وأن الشيوخ قد بعثوه إلى بعض البلدان لاستنفار أهلها للدفاع ضد غارة مندوب الأتراك، واستعادة الحكم السعودي وبسط الأمن والعدل وتطبيق الأحكام الشرعية. وهناك غيره اتجهوا إلى بلدان أخرى، للحث على الجهاد والوقوف ضد البغاة الذين أسقطوا الحكم السابق، وأن الدفاع عن الرياض سيحتاج لما لا يقل عن ألف رجل إضافي مجهزين بالسلاح والمئونة، بما يضمن دحر الهجوم الرشيدي المتوقع.

لقد أشرف الفتى عبد الله بن خثلان على العمالة المباشرة للضيافة وخدمة الحضور، وبعد ذلك بقي واقفا في المجلس المزدحم يسمع النقاش، فقد لاحظ وجود بعض الوجوه المكفهرة، التي لم يعرف عنها أنها تقدم الخير لنفسها ناهيك أن تفعله للآخرين، وهناك وجوه تبدو غير مكترثة بما يجري وكأنها لا يعنيها في شيء، بينما البعض الآخر متحفز يود إتاحة الفرصة له بالمشاركة فعليا في إنهاء السيطرة الأجنبية على المنطقة. بادر أحد الحضور بالحديث مرحبًا بابن صنيتان ومن معه، وأفاد أنهم يعرفون الأمير إبراهيم بن عبد الله آل سعود وأبناءه فهد وعبد الله وغيرهم ممن كان لهم دور في تأسيس الدولة السعودية الثانية والدفاع عنها ضد الهجمات العثمانية، وبخاصة أثناء حملة خورشيد باشا، ووجه الدعوة للصنيتان ومرافقيه لزيارتهم وتناول العشاء لديهم، ودخول أماكنهم، وزيادة التعرف بهم. لكن شخصًا آخر تدخل داعيًا للبعد عن المجادلة والحديث في «الزبدة» أي: صلب القضية، وبادر بالسؤال عن القصد من الشيوخ الذين أشار لهم الصنيتان، وهل يقصد بهم فقهاء الرياض في الديرة ودخنه أو آخرين، فرد عليه أنه يقصد الأمراء عبد العزيز ومحمد أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله. انبرى شخص آخر للحديث بأسلوب مندفع وفج عن أن هؤلاء فتية صغار لم يبلغوا العشرين، وقد كانت تربيتهم بعد الطفولة في الكويت القريبة من البصرة وعبدان والمحمرة، حيث توجد أماكن العبادة بجوار دور الفسوق، وكل له الحرية في فعل ما يشاء، لقد كان ابن صنيتان على قدر جم من الذكاء والأدب، ويتحدث باتزان، تعلوا البشاشة وجهه، ويقلب نظره أثناء الحديث في الحضور كأنه يحدث كل واحد منهم بشكل خاص، إشارات يديه محدودة ومنضبطة، هادئ الطباع، يوحي بالصدق والإخلاص، ولم تأخذه العجلة للرد على ذلك بالمثل، وإنما بادر بالقول: أن أولئك الأمراء قد شارفوا على الثلاثين، وكانت نشأتهم في دار عز وشرف وورع لدى والدهم الإمام، ولم يغادروا الكويت، وعبد العزيز لديه أسرة من ثلاثة أولاد وبنت، ويضرب المثل بالتزامه بالواجبات الشرعية، وكذلك أخوه محمد له صفات مشابهة. وقد أيد ذلك بعض رجال القبائل المرافقين للصنيتان قائلًا: إنهم لو علموا عنهم أي مخالفة شرعية ما غامروا بحياتهم لاقتحام الرياض معهم، كما

سانده آخر مشيدًا بتوفر قدر هائل من الذكاء وحسن التدبير لدى عبد العزيز، إضافة إلى التزامه التام بالأصول الشرعية، ولولا ذلك- بعد توفيق الله- لما تمكن مع نحو خمسين رجلًا فقط من استعادة عاصم دولة أجداده في ساعات قليلة وبعدد قليل من الرجال وقليل من العتاد.

بيعة أهل الحريق:

شعر الفتى عبد الله بحنق مما يسمعه من ملاحظات وتعليقات سطحية، كان الهدف منها هو التخلص من مساندة المرحلة المقبلة لتحرير العارض من الحكم العثماني وأعوانه. لقد سمع والده عبد الرحمن يهمس لشقيقه الأكبر حمد حول التدخل لإيقاف هذه المواقف المتخاذلة، والذي رد عليه بوجوب الصمت لأنهم مكبورين في حضور أخوهم الأكبر زيد، وأن هؤلاء ممن ينطبق عليهم قوله تعالى: ☎✂❑↗☜❑→①♦③ ♌♑①◆❑↓ ↗☠✍●♑▭↗❑♦①✍☜ ⇧↗♎☺⇔○■✍ ↗☠✍&❑✖❑☎☒✍ ☎ ↑<❑♎⑨❑☪✹○⑩✎✍❑→⌖↗⌘ [المنافقون: 4]

ازداد الوضع سوء، حينما انبرى أحد الحضور للقول بعدم أحقية الدعوة للجهاد واستنفار الأهالي، إلا لمن حصل على البيعة، وأن أهل الحريق لم يبايعوا الإمام عبد الرحمن خلال فترة حكمه القصيرة في الرياض، وإنما سبق أن بايعوا أخاه الأكبر الإمام سعود، ثم مِن بعده بايعوا أبناءه أثناء نزاعهم مع عمهم على الحكم. وأجاب على ذلك الصنيتان بأن حضورهم للرياض سيكون مناسبة لتقديم البيعة والمشاركة في الدفاع عن العاصمة السعودية.

دار الجدل الذي يستشف منه عدم رغبة بعض الثرثارين في مبايعة أبناء الإمام، وكانت الإجابة بأن لا إكراه في البيعة، وأنها تكون من نية خالصة وعزيمة صادقة على المساندة في المنشط والمكره، وعلى كتاب الله وسنة نبيه. المشكلة في مثل هذه الجلسات، أن الأغلبية الصامتة تترك المجال لأهل الكلام الأجوف وتوفر لهم فرصة بعثرة النجاح بجعجعة لا طائل فيها، وتبين هذا حينما أشار أحدهم عن أسباب كون معظم مرافقي الأمير من قبيلة سبيع، لذا فقد سارع بالرد عليهم أن الشيوخ قد عرضوا على عبد الله بن عثمان- وهو من الهزازنة- مرافقتهم، ولكنه اعتذر بدعوى أنه من أهل نعام ويسكن مع أسرته الإحساء، ولهم إشكال مع بعض أهل الحريق منذ أن نزعت منهم الإمارة قبل أكثر من مائة سنة. لم يستحسن كثير من الهزازنة وعلى رأسهم الأمير محماس الجدل حول ذلك، وبخاصة أنه جرى الاستشهاد بأبيات من قصائد أمير الشعر النبطي محسن العثمان الهزاني، الذي جرى في زمن النزاع على الإمارة، لقد كانت النظرات الحادة الموجهة من الغالبية تجاه من أثار ذلك الأمر كافية لإسكاته عن الاستمرار في حوار غير إيجابي.

لكن ذلك لمن يكن كافيا لكف أولئك المتكلمين، فقد أخذوا ينصحون وينتقدون خطة الدفاع عن الرياض، وأخذوا بالتساؤل عما إذا كان أبناء الإمام عبد الرحمن سيسارعون بالفرار من الرياض بمجرد وصول طلائع ابن رشيد، ويلتحقون بأهلهم في الكويت وبخاصة أن كثير من أهل الرياض يميلون لمساندة الرشيد، وقاموا قبل شهور بإرسال كتيبة من قرابة ثلاث مائة رجل للقتال معه ضد قبيلة مطير في شرق القصيم بسبب خلاف حول الزكاة، وأن عبد الله بن عبد اللطيف هو الذي رتب خروج تلك الكتيبة، وإذا جاء الرشيد فقد ينقلب أهل الرياض من داخل السور.

كان أحد الحضور من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب القاطنون في الحريق منذ سقوط الدولة السعودية الأولى، وتدخل غاضبًا لإفادة الجميع بعدم علاقة الشيخ عبد الله بتلك الحملة، وأنهم إنما خرجوا طمعًا في كرم عبد العزيز بن متعب والحصة من الأسلاب. عند ذلك شعر المضيف زيد بن عبد الله بأن الحديث يسير على غير ما هو مستحب، وتوجه بالحديث غاضبًا إلى الأمير محماس الدحملي قائلًا: يا محمد بن عبد الله الهزاني هل يرضيك هذا؟ ولكن اثنين من وجهاء آل خثلان تدخلوا متحدثين للعم زيد، أن القوم في داره وعلى كرامته وفي ضيافته، وسوف يكفونه مئونة الرد، وأيدهم بعض عقلاء أهل الحريق من الكثران والهزازنة وأفراد العائلات الأخرى قائلين للمشككين:

أين مساهماتكم الإيجابية أنتم وآباؤكم في الماضي والحاضر؟

هل حاولتم نزع فتيل الأزمة التي قامت بين أبناء الإمام فيصل بن تركي؟ أو سكب مزيد من زيت الوقود على نيرانها؟

وإذا كنتم تدَّعون أنكم مساندون للإمام سعود بن فيصل فأين كنتم وآباؤكم حينما هاجمه الأتراك في الأحساء وأخرجوه منها؟

وماذا عملتم للدفاع عنه في نزاعه مع مسلط العتيبي الذي تسبب في إصابة الإمام سعود بجراح خطيرة أدت إلى وفاته بعد أشهر قليلة؟

وبعد ذلك، ما دوركم الإيجابي في لجم الفتن بين أبناء الإمام سعود وأعمامهم عبد الله ومحمد وعبد الرحمن؟ و ألم تشجعوهم على سجن عمهم، ثم تخليتم عنهم بعد أن جاء ابن رشيد وأخرجه، وطارد أبناء سعود بن فيصل، واغتالهم غدرًا الواحد تلو الآخر، ولم تحركوا ساكنا؟ بل لم توفروا لهم حتى ملجأً آمنًا من البطش الرشيدي. ثم بعد قتل أبناء سعود وأسر المتبقي منهم، ماذا عملتم لأحفاد الإمام سعود؟ ألم تتخلوا عنهم وتركتموهم يساقون للسجن في إمارة الجبل؟ والآن ماذا تريدون؟ إثارة فتن أخرى؟ أو استمرار حكم أعوان الأتراك في العارض؟

توجه البعض بالنقد الشديد على أولئك المتخاذلين، لأنهم لا خير فيهم لأنفسهم، فمن يؤمل فيهم خيرًا للقريب أو البعيد، وهم مجرد طفيليون يتعرضون لذوي النفوذ والنقود لينالوا من كرمهم، ويستعطون الأموال مُدَّعين إنهم وجهاء القوم ورؤوسهم! وهم ممن لا خير فيهم، ولو كانوا حقًا على مستوى الشرف الذي يدعونه، لأنجزوا لأنفسهم ولأهلهم المكانة الطيبة العزيزة، بدلاً من التخاذل عن دعم أي خطة لدحر الحكم التركي وأعوانه. ورغم التأييد لهم من بعض الحضور، إلا أن أولئك الثرثارين كانوا يخيفون القوم بحدة ألسنتهم، فهم يسبُّون هذا، وينقصون ذاك، ويهمزون ويلمزون ويعايرون ويستهزئون، وينقدون عاجزين عن تقديم أي اقتراح فيه فائدة لأنفسهم أولا ثم لأقاربهم وبقية أهل البلدة.

شعر الأمير محماس بتوتر الجو، ولم يكن يرغب في إحراج المضيف أو الضيوف ويرغب في المغادرة، ولكن ليس قبل إيضاح رأيه بإيجاز، والذي تلخص فيما يلي:

● لا يحق لأحد التدخل في أي أمور بين أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل وأبناء وأحفاد أخيه الإمام سعود بن فيصل، وكف اليد واللسان عن أي مشاركة في ذلك.

●حكم الأتراك وأعوانهم غير مقبول، ويلزم دعم أي جهود للتخلص منهم.

●إذا حضر الإمام عبد الرحمن من الكويت فعلى الجميع مبايعته ومساندته بالرجال والمال والسلاح.

ثم قام مغادرًا المكان ومودعًا الصنيتان ومرافقيه، مؤملا اللقاء معهم قريبًا في فرصة أفضل. أعد العم زيد مجموعة من الإبل الأصيلة ومن الخيل المدربة على العمل الحربي والتي لا تهاب أصوات طلقات النار وقدمها هدية للأمير عبد الله بن صنيتان ومرافقيه، وكلف أخاه الأصغر عبد الرحمن لمرافقتهم إلى المخيم الذي يقيمون فيه خارج البلدة.

والدي وأحداث الخامسة عشرة من عمره:

طلب الفتى عبد الله من عمه أن يأذن له في الذهاب معهم، فوافق على ذلك مكافأة له على حسن ترتيبه لأعمال الضيافة وإشرافه على العاملين في خدمة الحضور، رغم أنه حينها لم يبلغ الخامسة عشرة بعد.

ركب الوالد مع والده والأمير الصنيتان ومرافقيه من سبيع والقبائل الأخرى، واتجهوا نحو الشمال الشرقي للحريق، حيث معسكر القوم، وكان

الوالد يمتطي ناقة ذلولا، وهي المطيعة لأوامر قائدها والصابرة على عناء الطريق.

أثناء التوجه إلى هناك دار نقاش بين الجد عبد الرحمن والأمير عبد الله بن صنيتان، استهله الجد بالاعتذار عما بدر من البعض، الذين يحسبون أنفسهم من الوجهاء، ويدسون ألسنتهم بالقول السيئ في كل مناسبة، عاملين على أثارة الفتن، وإيقاف أي جهود للإصلاح أو التحسين، ظانين أن سلاطة وحِدَّة كلامهم سيرفع مقامهم، وهم يعانون من الخطأ المركب، وهو سوء التفكير وسوء التدبير وسوء التعبير. ولو كانوا من أهل الخير لفعلوا مثل آبائهم وأجدادهم بدلاً من بقائهم عالة على الآخرين. لا يحسنون سوى الكلام البذيء، والجعجعة الفارغة، وإثارة النعرات الفاسدة، فإن أهل الخير يتفوقون على أسلافهم وينجزون أكثر منهم، لقد كان الأمير الصنيتان شامخًا في حسن تفهمه للوضع، وإدراكه للصعوبات التي تواجه الجميع في ذلك الظرف الحرج، وشرح أنه لاحظ ذلك في بعض قرى العارض منذ قيامهم باسترداد الرياض قبل شهور، وأن مثل تلك الأفكار والأقوال الرديئة منتشرة لدى البعض. وعند الوصول إلى المخيم أشار الجد عبد الرحمن، بأن هناك أكثر من مائة رجل من أهل الحريق مستعدون بسلاحهم وقوتهم للتوجه للدفاع عن الرياض حال طلب ذلك منهم، كما تمنى أن يبلغ الصنيتان تحياته للشيوخ، وأنه مستعد للقتال حتى لو مع طفل من العشيرة السعودية، مادام أنه يعمل على إعادة الحكم بكتاب الله وسنة نبيه، واستبعاد الأتراك وأنصارهم عن منطقة العارض[1].

---

(1) **العارض:** أحد الأقاليم التاريخية التي كانت تتألف منها منطقة نجد في المملكة العربية السعودية. وقد كان اسم العارض أو (عارض اليمامة) يطلق قديمًا على جبل طويق الممتد من حدود إقليم القصيم الجنوبية شمالًا وحتى مشارف وادي الدواسر جنوبًا، وكان يسمَّى أيضًا: العروض. وهي، أي (اليمامة) معدودة من نجد، إلا أنه أصبح يطلق في القرون الأخيرة على القسم الأوسط منه المتركز حول مدينة الرياض الحالية.

ويقصد بالعارض حاليًّا: الرياض والدرعية وضرماء والعيينة والجبيلة وسدوس والعمارية ومنفوحة والمصانع وعرقة والحائر . ويعتبر البعض أيضًا أن شعيب حريملاء ضمن العارض.

و قد كانت العارض منشأ الحركة الإصلاحية والدول السعودية المتعاقبة، ويرجع البعض ذلك إلى قدم ظاهرة التحضر في العارض مقارنة ببقية أقاليم نجد، بالإضافة إلى وجود اهتمام قديم بالعلوم الشرعية وبالأخص فيما يخص المذهب الحنبلي. وقد شكل أهل عماد جيوش الدولة السعودية بمراحلها الثلاث، كما لحق بها النصيب الأكبر من الدمار (خصوصا الدرعية وضرماء) أثناء حملة إبراهيم باشا العثماني على نجد عام 1818 م.

وتتميز لهجة سكان العارض بعدة خصائص تميزهم عن بقية أهل نجد وعن بقية أنحاء الجزيرة العربية.

في الأجواء الربيعية تقتصر جلسات فتيان الحريق على ما قبل وبعد صلاة المغرب، أما بعد فريضة العشاء فيكون الجو مائلا للبرودة قليلًا، كما تأتي سرايا السحب من الشمال الغربي، بعضها ممطر مما يستدعي البقاء في المنازل، وبعد تلك الزيارة للصنيتان كان أول لقاء للفتية يحمل كثيرًا من التساؤلات عن هذه الزيارة لأول أمير سعودي عرفوه في حياتهم، لقد كانوا يسمعون من أهلهم عن وجود بعض أفراد الأسرة السعودية في الحريق ولكن انقطع ذلك منذ سنين حينما سقطت الدولة السعودية الأولى(1)، لقد كان الفتى عبد الله بن عبد الرحمن هو الوحيد بينهم الذي رأى وسمع ما دار من نقاش، وأوضح للجميع إعجابه الشديد بالأمير السعودي، وكيف يختلف أمراء المناطق عن أمراء القرى، انبرى أحد الفتية بالرد أن الصنيتان من أمراء الصف الأخير من العشيرة السعودية، ولكن جرى إيضاح أنه حفيد الأمير إبراهيم بن عبد الله أحد إخوة الإمام تركي بن عبد الله آل سعود مؤسس الدولة الثانية(2)، وصاحب الدفاع المشهود عن الدرعية أثناء حصار إبراهيم باشا لها، وأن جد عبد الله بن إبراهيم الملقب صنيتان وأخوه فهد بن إبراهيم، كان لهما مساهمات قوية في توطيد دعائم الدولة السعودية الثانية بعد استشهاد الإمام تركي بن

(1) **الدولة السعودية الأولى**: تأسست عام (1744م) في الدرعية وشملت أجزاءً كبيرة من شبه الجزيرة العربية بعد عدة معارك مع حكام المناطق وبعض الأمراء الآخرين، وانتهت الدولة السعودية الأولى بسقوط عاصمتها الدرعية بيد القوات العثمانية تحت قيادة إبراهيم بن محمد علي باشا عام (1818م). حيث قام إبراهيم بن محمد علي باشا بغزو الدولة السعودية الأولى وهدم الدرعية وقبض على الإمام عبد الله بن سعود وأرسله مع من وجد من آل سعود إلى إسطنبول حيث أعدموا هناك، وقام قبل انسحابه من الجزيرة العربية بإعدام رجال الدولة السعودية الكبار من قادة وعلماء ومن رجال الدولة الكبار آنذاك، وكان من بينهم آل عفيصان؛ ومنهم أمير الخرج عبد الله بن سليمان بن عفيصان، وأمير الأحساء فهد بن سليمان بن عفيصان، وابن أخيه متعب بن إبراهيم بن عفيصان. فلم يبقَ منهم إلا الأطفال يقول ابن بشر عن هذه الحادثة: «..أقبل الآغا الذي في حوطة الجنوب المسمى جوخ دار ومن معه من العساكر. ونزل الدلم البلد المعروفة في الخرج وقتل آل عفيصان، وهم فهد بن سليمان بن عفيصان وأخوه عبدالله بن سليمان بن عفيصان ومتعب بن إبراهيم بن سليمان بن عفيصان واستأصل جميع خزائنهم وأموالهم وقتل أيضا علي بن عبد الوهاب قتلوه قرب الدرعية وكان له معرفة في الحديث والتفسير وغير ذلك. ثم أن الباشا رحل من القصيم وقصد المدينة ورحل معه حجيلان بن حمد أمير القصيم وقصد المدينة..».

(2) **الدولة السعودية الثانية**: هي الدولة التي أنشأها تركي بن عبد الله بن محمد آل سعود سنة (1818م) بعد سقوط الدولة السعودية الأولى على يد القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا. خلال سنوات هذه الدولة تغيرت العاصمة من الدرعية إلى الرياض، وتوسعت بشكل محدود على عكس سابقتها، ولكن الصراعات والحروب الداخلية أضرت بها، مما تسبب بسقوطها على يد آل رشيد حكام إمارة جبل شمر سنة (1891م).

عبد الله في الجامع الكبير[1]، وقاموا بدعم جهود الإمام فيصل بن تركي لبسط النفوذ السعودي على أجزاء كبيرة في وسط جزيرة العرب.

تحدث الفتية عما بلغهم من معارضة البعض للذهاب إلى الرياض للدفاع عنها من الهجوم الرشيدي المتوقع، وكيف أنهم يطعنون في إخلاص ونقاء أبناء الإمام عبد الرحمن، وأفاد أحدهم أن أحد أولئك المتشدقين بالحرص على الطهارة والتزام الشرع كانوا يشاهدونه مع آخرين يشربون دخان عظم التنباك، ويتحدثون بالفواحش، ولا يحافظون على الفرائض الشرعية، وكل همهم الانتقاص من الآخرين، ونقد أقوالهم وأعمالهم وتسفيه آرائهم، وتقديم نصائح خرقاء تدل على ضعف الفكر.

علم أحد أولئك الفتيان بأن المقصود هو أهلهم، فأخذ في ممارسة النشاط المفضل من إطالة اللسان بالكلام البجح، فرد عليه الوالد بعدم ملائمة مثل ذلك الحديث مع الحال، ولكنه ازداد في رعونته، فدعاه إلى المطارحة (المصارعة) لحسم الأمر، وكان ذلك الفتى يكبر الوالد بنحو خمسة عشر شهرًا، ولكنه قوي اللسان ضعيف الفكر والعضلات، فآثر السلامة ومغادرة اللقاء، وهو يزبد بكلمات مفادها أن عبد الله بن خثلان كان مجرد مضايفي يعمل مع الخدم لمباشرة التقديم للضيوف، وأنه لا يرغب في الجلوس معهم.

لقد استمرت الخصائص الوراثية الرديئة لدى البعض حسب نظرية مندل[2]، فكثير من أبناء وأحفاد الثرثارين قليلي البركة يمارسون الدور

---

(1) **الجامع الكبير**: ويسمى جامع الإمام تركي بن عبد الله يقع في منطقة قصر الحكم وسط مدينة الرياض, وقد أنشئ في عهد الإمام تركي بن عبد الله، ويعد الجامع من أكبر المساجد في مدينة الرياض وأهمها وقد مر بتوسعات عديدة، بني الجامع في أرض تسمى النقعة تقع وسط الرياض، حيث أمر الإمام تركي بن عبد الله بن محمد آل سعود بإنشاء جامع سمي فيما بعد باسمه وعين عليه الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ الذي عينه مشرفا ورئيسا للعلماء، كما طلب منه أن يعيد المدرسة القديمة لدراسة العلوم والفنون الشائعة آنذاك، فجعله مؤسسة علمية على غرار ما كان في الدولة السعودية الأولى، ثم أضيفت إليه إنشاءات عدة تمت خلال مدة حكمه قبل عام 1241 هـ إلى عام 1249 هـ الموافق (1826 - 1834). ثم جاء بعد ذلك ابنه الإمام فيصل بن تركي بن عبد الله آل سعود، وفي عام (1259 هـ) أعاد بناء الجامع وزاد في سعته من الناحية الشرقية والغربية، وأدخل في ساحاته زخارف إسلامية لم تكن معروفة في نجد آنذاك كما وضع ممرا علويا بين المسجد وبين قصر الحكم، كما استحدثت مساقي جديدة له، وقام بعمل ممر طويل ومغطى ومحمول على عدد من الأعمدة ليتم توصيلها بين المسجد وقصر الحكم.

(2) غريغور يوهان مندل (بالإنجليزية: Gregor Johann Mendel) (20 يوليو 1822- 6 يناير 1884م) هو أبو علم الوراثة، وعالم نبات نمساوي أجرى الكثير من التجارب واكتشف =

نفسه، رغم أن البعض منهم لشهادة الحق، من أهل الخير وأفضل من آبائهم وأجدادهم، وأصبحوا الآن من أهل التجارة والمناصب العليا والفهم الشرعي، يقدمون الخير لأنفسهم وللقريب والبعيد، ولا يحق هنا ذكر أسماء أحد منهم لأنه لا غيبة لمجهول.

استمر اللقاء بعد مغادرة محبي الثرثرة كارهي العمل المفيد، واتفق الجميع على أهمية المصارحة والوضوح في طرح الأمور، بما يضمن تصفية القضايا وإجلائها من الغموض الذي يزيد من توتر النفوس، وبقاء بعض الحقائق مطموسة أمر لا يفيد أي فرد أو مجتمع، فلابد أن تعرف اليمنى ما قامت به اليسرى، وأسبابه والاعتذار عن الخطأ وإقرار الصواب، وتجاوز الأحداث الجانبية المؤلمة بسلام، أقر معظم الفتية رغم حداثة سنهم بأن المرحلة القادمة حرجة للغاية، ولا أحد يود استمرار الحكم التركي وسيطرة أعوانه على البلاد.

القوانين الأساسية للوراثة. أدت تجاربه في تكاثر نبات البازلاء إلى تطور علم الوراثة، وكانت تجاربه هي الأساس لعلم الوراثة. و قد استطاع مندل بعد إجرائه العديد من التجارب والحصول على النتائج نفسها أن يصوغ أسس علم الوراثة والتي عرفت بقوانين مندل للوراثة.

الأمير الشاعر:

بعد انصراف ثقلاء الظل، قص عبد الله بن خثلان على رفاقه النقاش الذي جرى حول اعتذار ابن عثمان عن الحضور للحريق، بسبب خلافات أسرية، وكان الجميع يعرفون بعض أفراد أسرة العثمان الكريمة، ولكن ليست لها المكانة والسلطة رغم أنهم كانوا أمراء الحريق سابقاً. ذكر عبد الله ما جرى بينه وبين والده من نقاش حول ذلك عند عودتهم من توديع الأمير الصنيتان، حيث أشار والده أن آل عثمان هم من سلالة عثمان بن حمد حفيد مسعود الهزاني الذي جاء إلى نعام عام (984هـ)، وأن منهم الشاعر الكبير ذائع الصيت محسن[1]، الذي ينشد بعض أشعاره المراهقون، وبخاصة الغزليات والفخر، واستفسر من والده إذا كان قد أدرك ذلك الشاعر، فأجابه بالنفي حيث توفي قبل نحو قرن من ذلك الوقت، ولم تحدد بدقة أوقات مولده ووفاته، كما أن بعض الأشعار المنسوبة إليه وبخاصة الفاحشة منها منحولة ومزورة عليه، أما سبب خلع إمارة العثمان فأفاد بأن ليس لديه تفاصيل موثوقة عنها.

عند ذكر ذلك الشاعر النبطي الشهير، اشرأبت أعناق الفتية نحو من لدية معلومات عنه، وأرهفوا السمع لمن يعرف تفاصيل حياته. وقد ذكر أحد الجلوس أن عمه قد روى له بعض التفاصيل، وهو أن ذلك الشاعر كان محل خلاف في الرأي بين الكثيرين، فمن يعجبون به يسمونه: عبد المحسن بن عثمان الهزاني. وآخرون يسمونه محسن فقط لأنه علم واضح في نجد وما جاورها، أما مبغضوه فيسمونه محيسن وأنه قد عاش نحو تسعين عاما حيث كان ينشد:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ

(1) محسن بن عثمان الهزاني، شاعر نبطي، ولد عام (1130هـ) في بلدة الحريق، وتوفي عام (1210هـ). من أشهر شعراء نجد في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ويلقب بأمير الشعر الغزلي، فقد أدخل الأوزان المسماة بالسامري ذات القافيتين. وتولى إمارة الحريق فترة من الزمن، ثم اعتزل الإمارة وهو ينحدر من قبيلة الهزازنة من عنزة أمراء الحريق في نجد الجنوبية. ويعتبر مجددا ومحدِّثا للشعر النبطي لإدخاله بعض أوزان الشعر.

وقد كانت حياته تقع بين عامي (1100 هـ) على أبكر تقدير ووفاته (1235هـ) على أبعد تقدير، والأقرب حسب ما ذكره له أنه ولد عام (1120 هـ) وتوفي عام (1207 هـ). وقد كانت لمحسن أشعار كثيرة في الغزل مثل قوله.

بـرق تـلالا بـأمر ذي الجـلالا وأثره جبين صويحبي واحسبه برق

قـالوا كـذا مبسـم هيـا قلـت لا لا بـين البـرق وبـين مبسـم هيـا فـرق

مبسـم هيـا لـه بـالظلام اشـتعالا ريقهـا سكر ميـر مـن دونهـا غـرق

قـالوا نتـوب عن الهـوى قلـت لا لا إلا أن يتوبون الحناشل عن السرق

قـالوا نتـوب عن الهـوى قلـت لا لا إلا أن تتـوب الشـمس عـن مطلـع الشـرق

وقد كانت له أبيات في العظة والمدح والرثاء والورع مثل قوله:

دع لذيذَ الكَرَى وانتبـه ثـم صَلْ واستقم فـي الدُّجا وابتهل ثـم قُلْ

يا مجيب الدعاء يـا عظيم الجلال يـا لطيـف بنـا دايـم لـم يـزلْ

بعـد لطفـك بنـا ربنـا افعـل بنـا كـل مـا أنـت لـه يـا إلهـي أهـلْ

وقد كانت الإمارة في يد عشيرته، ولكن بعد وفاة الإمام محمد بن سعود وتولي ابنه عبد العزيز الحكم، حدث اضطراب، حيث عاد بعض المتطرفين، المدعين أنهم غيورون على التوحيد، بالاعتداء على الأهالي، ومرت بضع سنوات عصيبة كان خلالها الباطنية (الذين يظهرون الورع ويبطنون حب النقود والنفوذ) يعيثون فسادًا، مما أدى إلى ارتجاج الأمن وفشل الحكم، وانتشرت الفتن وانتهت الهدنات التي أقامها الإمام محمد حتى مع القرى المجاورة للدرعية مثل الرياض وبنبان، وانتشر القتال والسلب والنزاع على المناصب وذلك خلال الفترة بين (1180هـ) حتى

(1190هـ). ولكن الإمام محمد بن عبد الوهاب، نصح الإمام عبد العزيز بأن يتولى القيادة العسكرية ابنه سعود (حفيده لأمه)، حيث جرى استعادة الأمن داخليًّا، وتوسعت الهجمات خارجيًّا حتى وصلت العراق والشام والحجاز. كان محسن الهزاني أميرًا للحريق قبل تلك الحقبة (1178هـ)، ولكن القلاقل أثرت على البلاد، وزادت الأطماع، وأخذت الاتهامات الباطلة تلقى جزافًا، لذا تنازل عن الحكم لإخوته مشاري وزيد. ولأمور عديدة ليس هنا مجالها جرى خلع آل عثمان من الحكم، وأخرج كبارهم من القرية إلى الإحساء، وتولى الإمارة آل حمد بن رشيد، الذين كان من نسلهم الأمير محماس.

أثناء جلسات الوالد في مكة، كان الكثيرون يتساءلون عن تفاصيل حياة الشاعر محسن الهزاني، حيث إنهما من نفس البلدة ومن أسرة أخواله، وكان الوالد يحفظ من أشعاره ويدافع عمن يخوضون في سيرته أثناء شبابه مثل قول:-

أصفر معصفر على الفرض توه ما بعد لمس

وكان يرى أن ذلك ليس معنيًّا به قول الماشطة (الكوافيرة حاليًّا) من وصف العروس أثناء تجهيزها والعمل على إزالة لون البشرة الداكن في الأماكن الحساسة بواسطة الدهان بالعصفر، ولكن قد يكون أصفر على أصفر أو مع أصفر، رمزًا للملابس والحناء.

استعداد الحريق للدفاع عن الرياض :

بعد انقضاء الشهر الثاني من العام الجديد، لم يبق أحد للقدوم من موسم الحج، وزاد التوتر من اقتراب موعد الهجوم الذي سيشنه ابن رشيد لاستعادة الرياض من عبد العزيز بعد أن اطمأن إلى اكتمال خفارة الحج، وما هي إلا أيام حتى لاحظ العم زيد وجود غرباء، أدوا معهم صلاة الظهر وتعرفوا عليه من المؤذن، وبعد التحية دعاهم للاستراحة وتناول الطعام، ثم أخبروه أنهم ناصر وفراج السهلي من أهل حائر سبيع، وقد جاءوا لمقابلة أمير الحريق لدعوته وأعيان البلدة للقدوم إلى الحائر لمقابلة أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، لقد أحس العم زيد أن المسألة رسمية، وبخاصة أن لا أحد منهم من قبيلة سبيع، ولكن السهول في الحائر هم من حلفاء وجماعة سبيع وعلى علاقة طيبة معهم. لقد أوصاهم بالتوجه بعد العصر إلى دار الإمارة، والالتقاء بالأمير محماس، وعدم ذكر زيارتهم له وأفادهم أنه سيرسل أكبر إخوته في مهمة لدى الأمير، وكأنه يلتقي بهم صدفة ويدعوهم للمبيت عنده. ذهب السهول مع أحد العمال إلى دار الإمارة حيث التقوا مع محماس ومَن لديه.

قبل المغرب بقليل وصل حمد بن عبد الله، فوجد مجلس الأمير مكتظًا وفي نقاش مع مندوبي آل سعود، وكان المتخاذلون قد سارعوا بتشمم أخبار أي قادم للبلدة، وعندما علموا بوجودهم في دار الإمارة سارعوا إلى هناك لكي يثبطوا عزائم الرجال، ويقدموا الانتقادات والنصائح الجوفاء الداعية إلى إيقاف أي عمل إصلاحي. وكان عقلاء البلدة يجادلونهم بالحسنى، ويرون أهمية دعم أي جهد لمقاومة التواجد التركي في البلاد ودحر أعوانه، أما العم حمد بن عبد الله فقد كان كعادته حاد الطباع، وقال لهم: ما أراكم إلا تشبهون من قال الله فيهم: **[فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ]** [الأحزاب 19]

وصاح فيهم موبخًا: «إذا لا ترغبون في الدفاع ضد الغرباء، فلا تمنعوا المجاهدين» قرر الأمير محماس أن يدعو إلى اجتماع مساء الغد يحضره وجهاء البلدة كلهم، ويتم فيه اتخاذ قرار نحو التوجه للحائر لمقابلة الأمراء السعوديين، وخيَّر المرسلين السهول بين البقاء حتى الغد أو العودة، فاختاروا الرحيل قائلين: أن أهل الحريق يعرفون الطريق إلى الحائر إذا رغبوا.

في الغد حضر الكثيرون إلى مجلس الإمارة من بعد العصر وحتى الغسق، ودار حوار مستفيض حول الذهاب إلى الحائر لمقابلة أبناء الإمام عبد الرحمن، وكان اتجاه الغالبية أن القليل قد تغير منذ قدوم الصنيتان

ودعوته للحضور للرياض، التي لا تبعد عنها الحائر سوى ساعات قليلة على الركائب، فما الذي يستدعي الهرولة إلى هناك؟ ولكن البقية ومن بينهم العم زيد وبعض وجهاء الأسر الكبيرة في الحريق، وكذلك الأمير محماس رأت أهمية ذهاب البعض إلى هناك، ولكن ليس من القياديين أو الأكابر، وإنما يكتفى بمندوبين عن الأسر الرئيسية، مع التنبيه عليهم بعدم المبايعة أو الالتزام بالقتال مع الأمراء الشباب إلا بعد الرجوع إلى أهل الحل والعقد في البلدة، والمطلوب منهم تلمس الوضع ومعرفة تفاصيل أكثر عن الأمراء وأحوالهم مع تجنب أي التزام مادي أو حربي .

وردت الأنباء أن عبد العزيز بن متعب الرشيد قد غادر جنوب العراق، بعد أن أوصل آخر قافلة من العائدين من الحج إلى البصرة، كما أوصل مندوبوه الحجاج الفرس إلى عبدان، وقد كان يتقاضى رسوما عالية على الفرس، الذين يثيرون الاضطراب في الحج ولا يلتزمون بالمشاعر المتبعة لدى بقية المسلمين. كان من المتوقع أن يصل إلى الرياض خلال أسبوعين، ولكنه تمهل في سيره حينما وصل على مسافة أربعة أيام شمال الرياض، وقرر الإقامة لأسباب عدة منها، شدة الحرارة في برج الجوزاء وكذلك رغبته في فرض حصار على الجهتين الشمالية والشرقية للرياض لمنع الإمدادات والمؤن من الوصول إليها من الكويت والإحساء، كما اضطر لإرسال بعض قواته غربًا لمحاربة بعض القرى والبلدات غير المتعاونة معه، وأقام في معسكره عدة أسابيع، أثناء تلك الفترة غادر عبد العزيز الحائر واختلفت الأنباء حول مكان تواجده، فمن قائل إنه في الرياض، أو ذهب إلى قطر، أو إلى الإحساء. جرى اختيار وفد من بعض رجال العائلات الرئيسية في الحريق من غير الشيوخ، وكان الجد عبد الرحمن آنذاك في الثلاثينات من عمره، وأخذ يعد نفسه مع بعض العمال للتوجه إلى الحائر عند عودة عبد العزيز إليها.

توجه الركب شمالًا في موسم الرطب والعنب، حيث يطيب الجلوس في بساتين الحريق العامرة، في الظلال الندية بعيدًا عن شدة حرارة برج الأسد[1]، ولكن الأمل في نجدة الوطن كان يحدو الكثيرين من أعضائه بأن تثمر المنازلة القادمة عن دحر الوجود الأجنبي في البلاد، ويمكن الاستمتاع بموسم الفواكه في أعوام قادمة وفي ظل ظروف سياسية أفضل حينما يعود الحكم إلى أسس الشرع الحنيف. لقد كان في الركب أيضًا

(1) **برج الأسد**: هو خامس برج من الأبراج الاثني عشر من دائرة البروج أي قوس من دائرة مسار الشمس. برج من الجهة الشمالية للسماء. تمر الشمس من برج الأسد من 22 يوليو إلى 22 أغسطس. تكون الشمس في أول هذا البرج عند أواسط الصيف، أي أوج ارتفاع درجة الحرارة في نصف الكرة الشمالي.

مجموعة من المتخاذلين الذي لا هم لهم سوى عرقلة أي جهود إصلاحية، والاستهزاء بالآخرين، وتقديم انتقادات ونصائح في غير محلها، لقد حاول الجد التلميح لبعض منهم حول خطورة استمرار الحكم الأجنبي وأعوانه وضرره على أهل البلاد في دينهم ودنياهم، ولكن لا حياة لمن تنادي. بعد مسيرة يومين وليلة وصلوا إلى الحائر، وتوجهوا جميعًا إلى دار السهول، الذين أكرموا وفادتهم ورتبوا لهم لقاءً في اليوم التالي مع الشيوخ، حاول عبد الله بن خثلان حضور ذلك الاجتماع، ولكن الرد كان حازمًا بمنع الصبية والخدم، لقد كان جسمه كبيرًا ورأيه دقيقًا رغم أن عمره دون الخامسة عشرة، ولكن لم يتسن حضوره اللقاء، وعلم من والده بعد عودته، أن الجميع قد أخذتهم شخصية عبد العزيز، الذي رأوه لأول مرة ولم يعرفوه أو والده سابقاً، بعكس أبناء عمه (سعود) الذين كانوا يزورون الحريق بين آونة وأخرى، كما كان إخوة عبد العزيز (محمد وسعد) ذوي دور واضح في جذب انتباه أهل الحريق، بل حتى المشككين وأولئك غير المحبين لبذل الجهد والتضحية للمصلحة العامة، كانوا معجبين بأسلوب الأمراء في الحديث والتعامل والتفكير، بسبب التعليمات المسبقة حول عدم تقديم أي التزام، فقد كان النقاش لا يتجاوز ما سبق بحثه مع الصنيتان قبل أشهر أو مع المبعوثين السهول، وتقرر عقد لقاء آخر صباح اليوم التالي، في مساء ذلك اليوم وبعد العودة من اللقاء الأول، جاء شخص من المجفل السبعان إلى مقر الإقامة، ودعا الجد عبد الرحمن وبعض أعضاء الوفد وبخاصة من الخثالين، لتناول القهوة في منزله بعد صلاة المغرب، وحيث أن الدعوة شخصية فقد توجه الجد ومعه ابنه عبد الله والخادم بريه إلى مسكن المجفل، وجلسوا للحديث حول ما دار ظهر ذلك اليوم من نقاش احتوى على أمور سلبية وإيجابية، أثناء ذلك فوجئ الحضور بدخول عبد العزيز وشقيقه سعد، حيث رحب بهم الجميع وجلسوا ينصتون لما لديهم.

أما عبد الله بن خثلان فقد روى أنه لبعض الوقت كان غير قادر على الاستماع، وإنما يحدق بشدة في عبد العزيز، الذي كان أطول من جميع الحضور، حين كان يزيد بمقدار ذراع عن الشخص المتوسط، كانت عيناه تشعان بثقة في النفس، وتبدو عليه ملامح الرئاسة والزعامة، لباسه خفيف وعليه حزام فيه أمشاط من طلقات نارية ويتدلى منه خنجر مطرز (جَنْبِيَّه). لقد كان عبد العزيز ملوَّح البشرة، رغم أن أجزاء من ساقه ظهرت غير ذلك، ويبدوا أن ذلك من أثر الشمس والغبار والمعاناة خلال الأشهر الماضية.

أما شقيقه سعد فقد كان أقصر منه قليلًا، وبشرته طرية وشعره مصفف على شكل ضفائر تلمع من دهن الطيب المضمخة به، لم يكن سعد يتحدث كثيرًا، ولكنه يقلب نظره باستمرار في الحضور ويحرك خاتمًا فضيًّا في

أحد أصابعه فيه فص لامع كبير. إلا أن درة المجلس وجوهرته كان عبد العزيز، ولقد هال أبي ما لاحظه أن أحد أصابع يمناه كانت بحجم يقارب ذراع العامل بريه، كما كان أنفه ذا عقفة غير معتادة، ولحيته متوسطة، أما حديثه فهو مختصر ولكنه في الصميم، وتحدث مع الجد عبد الرحمن حول الوضع الحالي في ظل عودة والده الإمام وإخوته إلى الرياض، وكانوا لم يعلموا عن ذلك إلا في صباح اليوم: كان ضمن الحضور الأمير عبد الله بن صنيتان، وذكر للجد ما سبق أن قاله الجد حول استعداده لمبايعة حتى طفل من آل سعود، وذكره بقول الأمير محماس إنهم مستعدون للمبايعة إذا عاد الإمام من الكويت.

استفسر الجد عن موقف أهل الرياض، وهل كانت المبايعة للإمام عبد الرحمن أو لابنه، وهل ورد في البيعة ذكر لاحتمال عودة أبناء وأحفاد الإمام سعود المبايع لبعضهم سابقًا؟

تدخل عبد العزيز وذكر بحزم أن البيعة هي لوالده ليكون إمامًا للدعوة، وأن عبد العزيز قائد للجهاد تحت توجيه والده، وأما بالنسبة للأمور الداخلية بين العشيرة السعودية فهي من شؤونهم الخاصة، وسيتدبرون أمرهم بينهم بعد أن ينتهي حبس ذرية عمه الإمام سعود بن فيصل في حائل عند ابن رشيد. ذكر الجد لعبد العزيز أن عددًا كبيرًا من أهالي الحريق مستعدون للتوجه فورًا بسلاحهم وتجهيزاتهم للدفاع عن الرياض في كل الأحوال، ولكن يخشى من وجود بعض الموالين لابن رشيد داخل أسوار الرياض، وقد يشكلون خطرًا داخليًّا، ورد عليه أحد الأمراء أنه ستوضع خطط دقيقة لتقليل احتمالات الفشل ورفع احتمال الفوز على أعوان الأتراك بتوفيق الله.

عندما انفض الاجتماع توجه عبد العزيز للجد بسؤال عن ابنه المرافق فأجابه أنه أكبر أبنائه، وتبسط معه الأمير وكان معه الصنيتان، وكانت تلك فرصة لكي ينفرد عبد العزيز مع الجد بعيدًا عن بقية القوم. وقد ذكر الصنيتان أثناء ذلك الموقف الإيجابي للجد أثناء النقاش في الحريق، وأجاب عبد العزيز بأن الوضع دقيق وبحاجة إلى تكاتف جهود جميع الخيرين في العارض، وأن المعول عليهم بعد الله مثل أسرتكم وبقية الأسر المجاهدة والعازمة على الكفاح لتخليص العارض من الوجود الأجنبي.

في الختام أخرج عبد العزيز صرة وناولها للجد عبد الرحمن قائلًا: أن هذه (عانية للقومة) أي: معاونة في مصاريف القيام للجهاد، حيث أن الفشك (الطلقات) أصبحت غالية والتجهيزات شحيحة. ولكن الجد رد ذلك بكل لطف قائلًا يا عبد العزيز، الخثالين سوف يقومون للجهاد معك (قومة لله) لا يريدون شيئًا من عرض الدنيا، وكل ما يتمنونه أن يعود الأمن

والرخاء والحكم بالكتاب والسنة، وأشار ابن صنيتان بما لاحظه سابقًا من إخلاص أسرة آل خثلان، ومد يده لاستلام الصرة لدفع الحرج عن الطرفين، وقد توادع الجميع على أمل اللقاء يوم غد مع بقية الوفد.

أثناء الخروج لاحظ الوالد فرسًا عمانية أصيلة، عليها سرج مطرز بالقصب وموشى بالحُلي، أما اللجام فقد كانت به قطع فضية وذهبية، واستفسر عنه فعلم أنه خاص بشقيق عبد العزيز.

فطنة عبد العزيز الحربية:

في صباح اليوم التالي توجه الوفد إلى مجلس اللقاء قبل موعد حضور الأمراء، واكتظ المكان بالحضور، وبقي عبد الله بن خثلان مع بقية المرافقين والعمال في مجلس مجاور، إلا أنه يتطلع بشغف إلى حضور آل سعود، كي يملأ عينه من مشاهدة طلعة عبد العزيز البهية وفرس سعد وسروجها المنمقة. أخبرهم والده لاحقًا أن الاجتماع أكمل ما بدأه في الأمس في مدى الاستعدادات حول الدفاع عن الرياض، وأن عبد العزيز أعد خطة لتشتيت قوى ابن رشيد، بأن يتواجد في موقع خارج الرياض، بينما والده يقود الدفاع من داخل الأسوار، وفي الوقت نفسه تقوم بعض القوات من سبيع الموجودة في عنيزة بالقصيم وأفراد من قبائل أخرى بمهاجمة خطوط إمداد الرشيد في سدير والمحمل، لتقليل التموين لقواته في العارض، مع مركزه الأساسي في جبل حائل، كما سيرسل أخاه محمد وابن عمه عبد الله بن جلوي بن تركي بن عبد الله إلى مكان حصين ليكونوا احتياطًا لأي طارئ، ولعمل كمين للإمدادات التي تأتي للرشيد، وعبد العزيز يعرف جيدًا تفاصيل أرضية الرياض وجبالها الجنوبية الغربية، مما علمه أبناء جده الأكبر تركي بن عبد الله الذي سكن في تلك المنطقة مدة طويلة، أثناء سيطرة إبراهيم باشا على الدرعية ثم هدمها زمن سقوط الدولة السعودية الأولى.

أعجب الجميع بتلك الخطط الدقيقة التي تشير إلى توفر قدر هائل من الفطنة الحربية لدى عبد العزيز، إلا أن أحد المشاركين سارع للاستفسار عن طبيعة بيعة أهل الرياض المزدوجة للأمير ولوالده في آن واحد، وهل ذلك جائز شرعًا، وما رأي الفقهاء بغض النظر عن رأي التجار والمزارعين والصرافين في الرياض. لقد أجابهم أحد أبطال فتح الرياض، أن مفتي الرياض الشيخ/ عبد الله بن عبد اللطيف هو أول من أقر تلك البيعة بالإمامة والقيادة، وأن علاقته مع عبد العزيز أضحت على خير ما يرام، ويجري الإعداد بعد انتهاء الموقعة مع ابن رشيد لزفافه على إحدى بنات الشيخ، كما أن الشيخ سعد بن حمد بن عتيق قد بايع على ذلك، وأشاروا للجد عبد الرحمن للتعريف بالشيخ سعد، فأثنى عليه كثيرًا. قام

عبد الرحمن متوجهًا إلى عبد العزيز وأعلن أنه يبايعه على كتاب الله وسنة نبيه، وعلى أي شرط أدرجه الشيخ سعد بن عتيق، وكذلك من يرغب من أسرة آل خثلان أو بقية أهل الحريق وسكانه.

اندهش الكثيرون من ذلك التسرع، وبدأ البعض في التململ، بينما قام الخثالين وبعض الوفد الحريقي بالمبايعة على الشرط نفسه، وقطع عبد الرحمن الطريق على القلة المتخاذلة بأن لا تلقي نقدها ونصائحها الفارغة، بأن أعلن أنه سيودع عبد العزيز الآن، لإتاحة المجال لوفود بقية المدن والقبائل، وطلب من الأمير أن يتفضل هو وإخوانه ووالده إذا أمكن بزيارة بلدة الحريق، ليتاح لكافة أهلها القيام بالواجب تجاهه لمساندة جهوده المباركة بفرض الحكم الشرعي في البلاد. كما أشار له أن مما بلغهم من أنباء عن طيب شمائله أقل بكثير مما واجهوه منه، كما قال له: «يا أبا تركي اللي لقبوك كحيلان صدقوا»، وأسأل الله أن يجعل لك من اسمك العزة التامة إضافة إلى الظفر.

شد عبد العزيز على أيدي الجميع مودعًا، بما فيهم الفتى عبد الله الذي أدهشته قوة وضخامة راحة يده، وقال للجد: ماذا لقبوك أهل الحريق؟ وعندما أفاده أن لقبه أبو الرؤوس. أجابه: أنت لدينا الصمصام[1] وراعي القومة لله، وهذا أمر لا ننساه، ولكم علينا الحكم بالكتاب والسنة والعمل على ما يرضيكم.

غادر الركب الحائرَ متوجهين جنوبًا صوب الحريق، ولاحظ الجد أن بعض محبي إثارة الفتنة والإشكالات يهرولون، بل إنهم قد أخذوا يسابقون بقية الأفراد، كل منهم يؤمل الإسراع بإبلاغ ما قام به عبد الرحمن ورفاقه، بالمبايعة خلافًا لرأي الجماعة، ومن بينهم أخوه الأكبر زيد والأمير محماس، ولم يبال أحد من عقلاء القوم بتفاهات هؤلاء، وادعائهم بالرغبة في الإصلاح، ولم يهتم بانتقاداتهم ونصائحهم العوجاء, وطلب من بقية القافلة التأني، وإتاحة كامل الفرصة لهم للثرثرة في مجالس الحريق، والجميع يعرفون من فيه خير لنفسه وبركة على غيره. وصل الجد ورفاقه إلى الحريق في مساء اليوم الثاني، وآثر ألا يذهب للقاء إخوته ليلاً، وأن يتريث إلى الصباح، حتى يشرح لهم تفاصيل ما جرى. عند ذاك وجد خاطرهم مشوشا من الأحاديث الخرقاء التي وصلتهم من المتعجلين، ولكنه أوضح لهم ما جرى أثناء اللقاء، ووصف سمات شخصية ذلك الأمير، وذكائه وإخلاصه، وأن واجب القيام لمساندة جهود الخير هي التي دفعته للمبايعة على شرط الفقهاء، ومن بينهم الشيخ سعد بن عتيق[2]. لم يستحسن

(1) الصمصام: السيف الصارم الذي لا ينثني.

(2) سعد بن عتيق: الشيخ الزاهد سعد بن حمد بن على بن محمد بن عتيق بن راشد بن حميضة، =

العم زيد الأسلوب المتسرع، ومخالفة توجيهات الجماعة، ولكنه كعادته يحنوا على إخوته الصغار ويعاملهم كأبنائه، حيث وجههم لحضور لقاء في دار الإمارة ذلك المساء، ونصح الجميع بالبعد عن كثرة الحديث، والالتزام بالاختصار التام.

كأنك تعطيه الذي أنت سائله:

دخل جدي عبد الرحمن دار الإمارة متأهبًا للانتقاد والتوجيه، ويعد العدة لإيضاح موقفه، فوجد الأمير محماس هاشا باشا مرحبًا حامدًا الله على سلامة وصوله، كما سأله عن ذلك الرسول (الذي في رأسه فتق) والذي جاءه أثناء القيلولة في يوم قائظ، ليخبره أنهم قد خالفوا رأيه وبايعوا الأمير الفتى عبد العزيز، أفاده الجد أنه لم يرسل أحدًا، وإنما (اللقافة تأبى أن تترك أهلها) والتطفل سمة البعض من البسطاء. كانت مزحة من الجد حينما رأى أن الأمير يتعامل مع الأمر بمزاح، وبخاصة أن الوقت مبكر، والمجلس ليس فيه الكثير من المراجعين، وقال إنه عندما علم أن الإمام عبد الرحمن عاد من الكويت، فهذا هو الاتفاق أن تتم مبايعته، على أن يرتب وضعه بالحسنى مع ذرية أخوه سعود، كما أن المبايعة على شروط

كانت مساكنهم الأولى في الزلفى فعين والده قاضيا في الأفلاج فاستقر فيه واتخذه له موطنا ثم نقل والده إلى قضاء حوطة بني تميم فولد المترجم له في بلدة الحلوة إحدى القرى المؤلف منها حوطة بني تميم سنة 1279هـ تقريبا ونشأ فيها، فشرع في القراءة على والده، فلما رغب في الزيادة سافر إلى الهند فقرأ على محدث الهند الشيخ نذير حسين الدهلوي والشيخ العلامة المحقق صديق حسن خان القنوجي والشيخ شريف حسين والشيخ محمد بشير السندى والشيخ سلامة الله الهندي والشيخ حسين بن محسن الأنصاري الخزرجي اليماني نزيل الهند، فأقام يقرأ على هؤلاء المحدثين المفسرين المحققين في الهند تسع سنين حتى استفاد منهم فائدة كبرى فأجازوه وأثنوا عليه ثناء عطرا، ثم توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فوجد فيها المحدث الكبير العلامة الشيخ شعيب ابن عبد الرحمن الدكالى المغربي والشيخ الفقيه العلامة أحمد إبراهيم ابن عيسى النجدي والشيخ محمد سليمان حسب الله الهندي والشيخ السيد عبد الله بن محمد بن صالح الزواوي والشيخ أحمد أبو الخيور.

وبانكبابه على القراءة والاستفادة من هؤلاء العلماء الكبار من النجديين والحجازيين والهنديين بلغ في العلم مبلغا كبيرا وصار من عداد كبار العلماء المشار إليهم.بعد عودته إلى البلاد الأفلاج عينه الإمام عبد الله الفيصل آل سعود في قضاء الأفلاج مكان والده في القضاء، ثم استولى الأمير محمد بن رشيد على نجد فأقره على عمله فاستمر قاضيا حتى فتح الملك عبد العزيز آل سعود الرياض عام (1319هـ) واستولى على الأفلاج فنقله من قضاء الأفلاج إلى الرياض وجعله قاضيا في جميع قضايا البادية القريبة من الرياض أو القادمة إليه كما عينه الملك عبد العزيز آل سعود إماما في جامع الرياض الكبير وفي هذا المسجد الواسع عقد له حلقتين للتدريس، وكان حريصا على ما يلقيه من الدروس لذا أقبل عليه الطلاب وحفوا به واستفادوا منه فوائد جليلة، فتخرج عليه أكابر العلماء.

الشيخ سعد بن عتيق تترك المجال واسعًا لتدبير الأمر مستقبلاً إذا استجدت أوضاع مختلفة، والبيعة عن كل شخص بنفسه لا عن أحد آخر.

استبشر الشيخ عبد الرحمن بن خثلان بوجهة نظر الأمير محماس وقال له: «لله درك» إنك والله كما قالت العرب[1]: «كأنك تعطيه الذي أنت سائله» لقد جئتك أود الاعتذار، فوجدت لديك التفهم وحسن الطباع ما جعلك تستحق هذا المقام وأكثر، وليس مثل بعض أهل البلدة، الذي يظنون أنفسهم كبارًا وإذا أعطيت أحدهم شيئًا من عندك تراه مكفهرًّا «كأنك سأله الذي أنت معطيه» فلا بارك الله في أولئك ولا في نصائحهم ولا انتقاداتهم ولا توجيهاتهم ولا ما يرونه حسنًا.

بعد ذلك طلب الأمير محماس أن يصف له عبد العزيز بالتفصيل، فذكر له: إنه أفضل بكثير مما وردنا عنه سواء من الأمير الصنيتان أو غيره، وأنه ليس فتى صغيرًا كما قالوا، بل لا يقل عن عمر الجد إلا قليلاً. وكان حينذاك في الثلاثينات، وربما أن عبد العزيز في نهاية العشرينات، و أن آثار الصحراء بادية عليه وتؤثر على مظهره وتصرفاته. وتساءل الأمير محماس عن أهم ما لفت نظره في عبد العزيز، وأفاده الجد أن لدى ذلك الأمير جاذبية هائلة وسيطرة على المجلس الذي يكون فيه، وأبرز ما لديه هي: «العيون والسنون»!

اندهش السامعون، فأسرع للإيضاح أن عيني الأمير مليحتين، فيهما علامات الرؤية الثاقبة لعمق الأمور وليس رؤية سطحية ساذجة، كما أنهما يتيحان نظرة بعيدة لما وراء الآفاق، والاستعداد لما هو محتمل وإن كان بعيدًا. أما أسنانه فتظهر أثناء الابتسامة الودودة الجادة ويظهر فيها الحزم والقدرة على حسم الأمور بشجاعة، وقد كانت تلك الصفات هي ما دفعتني للاعتقاد القوي أنه رجل دولة، يستطيع السيطرة على شؤون البلاد وقيادتها لما فيه الخير، تحت توجيه والده، صاحب المبايعة الأصلية. أيده في رأيه بعض الحضور ممن شاركوا في لقاء الحائر، وقبل أن تبدأ ثرثرة وإسقاطات الهامشيين، غادر الشيخ عبد الرحمن المجلس، وودعه الأمير

---

(1) هو نصف بيت من قصيدة للشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى مطلعها:

صَحا القَلبُ عَن سَلمى وَأَقصَرَ باطِلُه ... وَعُرِّيَ أَفراسُ الصِبا وَرَواحِلُه

وفيها:

تراهُ إذا ما جِئتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كَأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أَنتَ سائِلُه

محماس قائلاً: أن الأمور حاليًّا غير واضحة، ونرجو أن تسفر الأيام والأسابيع القادمة عن أحداث وأنباء إيجابية.

في طريق العودة للمنزل لم يتمالك والدي الفتي عبد الله أن يسأل والده الشاب عبد الرحمن (جدي) عن تفاصيل ذلك الشخص الذي يرد اسمه كثيرًا في مسألة البيعة وهو سعد بن عتيق، وما إذا كان من أهل الحريق أو سكانها، أفاده والده أن جد الشيخ سعد واسمه: علي، كان يعمل في الأفلاج مع أحد كبار المزارعين الذين لهم علاقة بأسرتنا، وقد رزقه الله بابن ذكي ونشيط، ودرس علوم الفقه وتعلم على أيدي بعض مشايخ الأفلاج، حتى تفوق على مدرسيه، وجذب انتباه الكثيرين بقدراته الشخصية والفكرية، لذا فقد اختاره الإمام فيصل بن تركي بعد عودته من منفاه في مصر وبدء فترة حكمه الثانية ليكون مستشارًا لديه، ثم عندما تأكد من قدرته وصلاحه، عينه قاضيًا في منطقة الحوطة والمجاورين لها، واستمر هناك مع أسرته ورزق بأطفال كان من بينهم سعد هذا. وكان القاضي لديه إبل ومواشي يرعاها العمال في طول وادي الفرع حتى الحريق، وحينما شعر بحاجة لوجود مقر للرعاة والأنعام، فقد استأجر أرضًا بورًا من العم زيد، تقع على وادي الحريق، وذلك لبعد المسافة (أكثر من ثلاثين كم)، ونشأت علاقة طيبة بين الرجلين، وعندما لاحظ العم نبوغ ابن القاضي، أشار على والده بعدم الاكتفاء بالدراسة المحلية، واقترح عليه ابتعاثه إلى الخارج. وفي ذلك الحين (نهاية القرن الثالث الهجري) كانت بلاد السند مكانًا لتواجد علماء القرآن والسنة، ممن يتحدرون من أصول أنسابهم.

توجه الشيخ سعد وهو شاب إلى هناك، وأمضى سنين وهو يدرس العلوم الشرعية في بوبال ولاهور ومدن هندية أخرى (قبل تأسيس باكستان الغربية)، وتمكن من تحصيل قدر جيد من العلوم، مع البعد عن المذاهب المنحرفة هناك مثل الباطنية والصادة والنواصب وغيرها، ثم عاد إلى والده في الحوطة والأفلاج مطلع القرن الرابع عشر الهجري يمارس التدريس الشرعي، وشاع صيته لما لديه من علوم وأفكار لفهم أساليب التكفيريين، وطرق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كان ينكر الأعمال غير الصالحة، غير آبه بمكانة من قام بها، ولكنه يستخدم أسلوب المجاملة قدر الإمكان. وقد كانت له وقفات في عهد الإمام عبد الله بن فيصل وأثناء نزاعه مع أبناء أخيه سعود عندما سجنوه، وأنكر الأحداث المسيئة للبلاد التي حصلت في ذلك الوقت. ثم عندما قتل السبهان أبناء الإمام سعود وتولي الإمام عبد الرحمن إمارة الرياض، كانت له أيضًا آراء قوية وفتاوى حول إشكالات الوجود الأجنبي في وسط الجزيرة العربية، والمفاسد التي يقوم بها الأتراك وأعوانهم. إضافة إلى ذلك فقد وقف ضد بعض المنكرات التي حدثت أثناء تولي محمد الرشيد الحكم في المنطقة،

وكان هناك صدى كبير في الرياض وما حولها للفتاوى والتوجيهات الصادرة عنه، حيث لم يكن يخشى في الحق لومة لائم، ويلقى الاحترام والتقدير ليس من طلبة العلم والعامة فقط، بل من كبار علماء نجد، وبقي متنقلاً بين الرياض والأفلاج والحوطة حتى حينه.

أعجب الفتى عبد الله بما ذكره والده عن ذلك الشيخ العلامة، الذي لم يشغل الناس بحسبه ونسبه وإنما أفادهم بتوجيهاته الشرعية وأعماله الإصلاحية، التي يقوم بها محتسبًا الأجر من الله وحده، لم يعرف عنه يومًا أنه قبل العطايا والهبات، أو سأل أحد أصحاب النفوذ المعاونة في شراء منزل أو مركبة أو زواج، لذلك كان مهابًا من الجميع رغم ما فيه من فظاظة وحِدَّة في قول الحق، فإن من امتلأ جيبه بالعطايا ذهب قدره عند الجميع. وبعد ذلك بنحو خمسين سنة شاهدت في مجلس والدي رجالا من منطقتنا وكان بصحبتهم أحد بني إخوة الشيخ سعد، فرحب به الجميع وذكروا القصص عن الشيخ سعد بن حمد بن عتيق وبخاصة ما جرى من مناقشة مع بعض الفقهاء بعد دفن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وما أمر به السلطان عبد العزيز أن يتولى الشيخ سعد الإفتاء في البلاد، وعلى الجميع وبخاصة «كَسْر العراقي»[1] أن يراجعوه فيما يستشكل عليهم، وأنه في غنى عن (أشوافهم ورأيهم). وعليهم فقط التوجه نحو ما قاله الله من آيات صريحة من كتابه، وما قاله نبيه من أحاديث صحيحة، وترك الاجتهادات الفارغة. وكان الشيخ سعد قد استمر مفتيًا للبلاد ما يناهز عشر سنوات بعد ذلك إلى حين وفاته رحمه الله، وجعله قدوة لعلماء المسلمين الذين لا يتعلمون الشريعة لاكتساب الدراهم والدنانير وإنما يحتسبون ذلك عند الله وحده.

بعثة سعد:

بعد أن أنهى عبد العزيز أعماله في الحائر وتلقى المساندة من بعض رجال المنطقة سواء في الخرج أو الحريق والحوطة والأفلاج والسليل، قفل عائدًا للرياض، وكان ابن رشيد متوترًا في معسكره شمال الرياض بنحو (مائة كم)، يحاول محاصرة عاصمة آل سعود من الشمال والشرق، وكان يحسب الأمور بدقة، فهو يخشى محاولة دخول الرياض المحصنة فينقض عليه مبارك الصباح من الخلف، ولم يكن ابن رشيد ضيق الأفق بل ينظر للأمور من جميع زواياها. إلا أنه في موسم الحج عاد بعض أهل جنوب آسيا حاملين معهم وباء الحمى الصفراء، فأصاب المرض بعضَ قوات الرشيد، مما اضطره للعودة شمالاً إلى منطقة أمنة، فقد كان يخشى الخيانة والتسمم في أرض معادية، كما كان يرتاب في احتمال هجوم من

(1) كسر العراقي: تعبير يقصد به من لا يعتد بهم من الناس، أو سقط المتاع منهم.

الكويت بدعم من قياصرة روسيا وبريطانيا ضد حليف الدولة العثمانية، الذي كانت تفتخر به وبشجاعته وقدراته الإدارية والحربية، فلم يبق لها من حليف فعال في المنطقة سواه، حيث كان أشراف مكة في قتال شديد مع بعضهم البعض بجوار الحرم المكي مما أدى إلى ضعف نفوذهم، والإساءة للحجاج حتى أثناء تواجدهم في المشاعر المقدسة، بل بلغ الأمر حد القتل والسلب والتعدي على الكرامة داخل الحرم وفي مشعر منى في إحدى تلك السنوات.

بقي عبد العزيز بن متعب الرشيد، في مناطق الشمال، رغم حث قومه له للهجوم على الرياض واستعادتها من آل سعود، فأجابهم بقول ظاهره الاستهتار الذي لم يكن من طبعه، ولكنه في الحقيقة ينم عن معرفة الأولويات، فقد كان الأرنب الذي يختبئ في جحره يسهل على الصياد إمساكه، أما الذئب الطليق فهو الخطر. عبد العزيز بن سعود جهز العدة لجر ابن رشيد للمعركة في الوقت والمكان الملائم له، وأخذ يرسل الإشاعات، ويظهر بعض التحركات التي توحي للرشيد بأهمية بدء الهجوم.

انكسرت حدة القيظ في الحريق في منتصف برج السنبلة(1)، وأخذت ثمار التمور في النضج وقل توفر الرطب، إلا من الأصناف المتأخرة، وتأهب الكثير لبدء موسم الصرام (حصاد النخيل)، كما قال سبحانه: [**أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ أَنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ**] [القلم 22]، وعند ذاك وردت أنباء بقدوم أحد أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل إلى الحريق، وهذه هي المرة الأولى التي يزور فيها الحريق في ذلك الوقت أحد الأمراء من غير ذرية الإمام سعود بن فيصل. لقد كان الوالد شديد الشوق للذهاب إلى مقر الحكم لمشاهدة الأمراء ومرافقيهم، وبخاصة عندما بلغه بعد أيام أن القادم هو الأمير سعد بن عبد الرحمن، لقد زاده الشوق بمعرفة شخصية الزائر، فقد كان الفتى عبد الله يريد استعادة ما شاهده من مظاهر الثراء والترف في الحائر، وبخاصة تجهيزات الخيل، ولكن والده الشاب عبد الرحمن (جدي) رفض السماح له بالذهاب، بل طلب من أخيه الأكبر زيد إعفاءه هو أيضًا من الذهاب إلى اللقاء الذي دعي له في دار الإمارة بحضور جمع من أسرة آل خثلان وبقية أسر الحريق. أما اللقاءات المدبرة، والولائم التي أقيمت

(1) برج السنبلة (أو العذراء) هو سادس برج من الأبراج الاثني عشر من دائرة البروج أي قوس من دائرة مسار الشمس. برج من الجهة الشمالية للسماء. تمر الشمس من برج العذراء من 23 أغسطس إلى 22 سبتمبر. تكون الشمس في هذا البرج عند أواخر الصيف. في الماضى البعيد كانت كوكبة (السنبلة) فى هذه البرج ويسمى بالعذراء واليوم كوكبة الأسد فيها نتيجة لتقدم محور الأرض.

على شرف الأمير سعد، وجرت أثنائها نقاشات حادة لم يحضر والدي وجدي أيًّا من تلك الاجتماعات، حيث اكتفى باللقاء والمبايعة في الحائر، ويمكن لذرية من حضروا ذلك اللقاء إفادة الملأ بما جرى فيها بالتفصيل، أما في الإجمال فقد قضى الأمير ليلتين وثلاثة أيام التقاه فيها جمهرة غفيرة من أهل الحريق، وكانت الغالبية مؤيدة للمشاركة في الدفاع ضد الهجوم المتوقع من عبد العزيز بن رشيد، ويدعمون الإمام عبد الرحمن وأنجاله. وغادر الأمير سعد الحريق متوجهًا للقاء شقيقه الأكبر عبد العزيز في الحوطة، حيث بايعه كبار أهلها وأبدوا الاستعداد للقتال ضد أعوان الأتراك، وإعادة الحكم بالشريعة للبلاد.

الفصل الرابع
عبد الله بن خثلان
تأسيس حياة واكتساب خبرات

فيما سبق من هذه السيرة استخلصنا بعض العبر من حياة والدي عبد الله بن خثلان-رحمه الله- الذي كان دون الخامسة عشرة، وكذلك والده عبد الرحمن (جدي) الذي كان في منتصف الثلاثينات من عمره. وآن الأوان أن نتحدث عن النضال الذي شاركوا فيه لأجل تطهير وسط وشرق جزيرة العرب من الحكم الأجنبي، إضافة لاستمرار الحديث عن العبر الموجودة في حياتهم اليومية، وعلاقتهم مع أهلهم وجيرانهم وأصدقائهم، وكذلك أنشطتهم العلمية وحياتهم اليومية، وذلك كما سبق أن أوضحنا في مقدمة

السيرة بأنها ليست سردًا لأحداث تاريخية عاصروها، وإنما للتعرف على نمط الحياة في تلك الحقبة، والتعرف على التجارب التي مروا بها، وسبل استفادة الجيل الجديد من ذلك، واكتساب الخبرة من معاناة الآخرين ونجاحاتهم.

الوعي بالتحولات التاريخية:

في تلك الفترة (منتصف 1320 هـ/1920م) كان الفتى عبد الله بن خثلان قد دخل طور التأسيس لمستقبل حياته، وذلك باكتساب قدرات التفكير والاستنباط واستشراف ملامح الأيام القادمة، وتطوير قدراته العملية وتنمية مهاراته، إضافة إلى تحسين قدرته على التعبير عن آرائه وطرحها بالأسلوب المحبب، الذي يجلب الاقتناع والرضا من الآخرين. وأثناء لقاءاته مع الفتية الآخرين في عمر يقاربه يعيشون جميعا في بلدة الحريق في ظل طور حرج من الناحية السياسية، وقد لاحظوا على آبائهم وجود ترقب لتغير جذري في أوضاع الحكم على وشك الحدوث، لقد دارت نقاشات الفتية، حول الصراع الدموي المحتمل حدوثه خلال الأسابيع القادمة، فلم يكن متوقعا، أن يتنازل الإمام عبد الرحمن وأبناؤه وعشيرتهم عن استعادة دولتهم السابقة، وبخاصة بعد أن تحصنوا في عاصمتهم الرياض. كما لم يكن متوقعا أن يتركهم ابن رشيد ينتقصون من مجال نفوذه في وسط وشمال جزيرة العرب، والإساءة له عند ولاة الخلافة العثمانية، وبخاصة في المدينة المنورة والبصرة، وبخاصة في ظل ما استمتع به من قدر هائل من النفوذ وإيرادات مالية عالية، وفرتها له عوامل تعاونه لخدمة الحكومة التركية. لذا فقد تساءل الفتية حول النتائج المتوقعة من ذلك الصراع الوشيك، وما هي احتمالات الخسارة أو الربح من ذلك التطاحن، الذي لا شك أنه سيؤدي إلى سفك كثير من الدماء وإتلاف الممتلكات. لقد كانت نيتهم صافية ولكن لم تكن الرؤية واضحة لديهم. لذا قام كل منهم بمناقشة الأمر مع إخوتهم الكبار أو مع آباءهم وأجدادهم.

وعندما كان الفتى عبد الله بن خثلان يغادر مجلس الفتية، ويلتقي بوالده وأعمامه وأخواله وأصدقائهم في الديوانية، كان يجد أفكارًا أكثر نضجًا، فقد كان الحديث يدور حول أن الرخاء الحالي (النسبي) في بلدة الحريق مرده إلى ما تتمتع به من موارد محلية جيدة وبعد عن التوترات المجاورة، مما جعلها ملجأً آمنًا لكثير من الأسر والحمائل من داخل جزيرة العرب وخارجها، ممن اضطرتهم الظروف إلى مغادرة ديارهم والخروج منها بحثًا عن ملاذ أو مأوى أقل إزعاجًا. لقد جاء الأتراك إلى بلاد العرب قبل نحو أربعمائة سنة في ظروف عصيبة، حيث كانت غرب أوربا (أيبريا وفرنسا) تشن هجومًا ضد العروبة والإسلام، بعد أن أخرجتهم من الأندلس، وتطمح لإخراجهم من جزيرتهم العربية، فجرى قصف جدة

بالمدفعية، واحتلال أجزاء من عُمان واليمن، وجاء عساكر الروم المسلمين (العثمانيون) من القسطنطينية لحماية بلاد العرب، حينما كانت رايتهم تحمل الآية: [**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**] الواردة في سورة الروم.

ولكن تغير الحال بعد قرنين من الزمان، حيث ابتعدت الحكومات المتتابعة في إسطنبول عن أصول الشريعة الإسلامية، وأخذت تغير لباسها ليتماشى مع اللباس الأوربي، وتلا ذلك تغير أفكار تعاملها مع الشعوب الإسلامية، وأخذت في اضطهادهم، وتهجير الكثيرين من أرضهم ووطنهم وديارهم. لقد قال سبحانه: [**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ**] [الممتحنة 9] أن في ذلك تحذيرًا واضحًا بعدم السماح أن يتولى أمورَ المسلمين مَن يخالف شرعَ الله، حيث قام بعض عساكر الترك من الأرناؤوط[1] والبُشْناق[2] وغيرهم بعمل ما يخالف المبادئ الإسلامية، وحث الشباب على التشبه بهم، وتشجيع الفساق أن يتعرضوا لمقاصد الشريعة بالانتقاص. كل من أظهر مخالفتهم في ذلك كان يتعرض للنفي خارج دياره ووطنه كحد أدنى من العقوبة، إذ قد يصل الأمر إلى السجن أو القتل، وكلما ازدادت الهزائم على العثمانيين في أوربا، زادت أساليبهم الشرسة في التعامل مع أهل جزيرة العرب وشمالها حيث الهلال الخصيب، أما في تلك الحقبة (مطلع القرن العشرين) فقد الخليفة في إسطنبول معظم سلطاته، وأصبح القرار في يد أعضاء حزب الاتحاد والترقي[3]، الذين يريدون فرض ثقافة التتريك بدلا من الأصول الشرعية، ولم يلاحظ أولئك أنه كلما زاد بعدهم عن الإسلام زادت هزائمهم. ولو أن الأمر اقتصر على

---

(1) **الأرناؤوط**: هو في الأصل اسم يطلق على سكان ألبانيا (بلاد البلقان)والواقعة على بحر الأدرياتيك كان الاسم ينطق أرناؤودس باللغة اليونانية ثم حور إلى أرناؤوط بالتركية، ومع الفتح العثماني للبلاد العربية هاجر الكثير من أبناء هذه القومية إلى أنحاء الإيالات العثمانية وقد استوطنوها واندمجوا مع السكان ولا يزال بعضهم يحتفظون بلقبهم الأرناؤوطي.

(2) البوشناق أو البشناق: أي البوسنيون هم مسلمو إقليمي البوسنة والهرسك وجوارها ومناطقهم الرئيسية هي البوسنة والهرسك. ويتمتع البشانقة وخاصة في إقليم السنجق بالصلابة والشجاعة والشراسة، هاجر الكثير منهم إلى تركيا الحالية والبلاد العربية جنوب المتوسط وأطلق الناس عليهم (البشانقة) أو (البوشناق) نسبة لبلادهم.

(3) جمعية الاتحاد والترقي: حركة علمانية قومية تأسست في بادئ الأمر تحت اسم «جمعية الاتحاد العثماني» في (1889م) من قبل طلبة طب وهي حركة معارضة وأول حزب سياسي في الإمبراطورية العثمانية. تحولت إلى منظمة سياسية ولتضم أعضاء تركيا الفتاة في (1906م) خلال فترة انهيار الإمبراطورية العثمانية. وصلت إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية في انقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني (27 أبريل 1909م).

العثمانيين الأتراك، لكان أقل سوءًا وأهون شرًّا، ولكن ملامح أخرى ظهرت في الأفق توضح اتجاها قويا لغير المسلمين لدخول جزيرة العرب.

كان قناصل قياصرة روسيا في الخليج يحاربون الدولة العثمانية، لإضعاف جبهتها الجنوبية، وتسهيل شن الهجمات من الشمال لاكتساب مزيد من الأراضي الموالية لتركيا في أرمينيا وأذربيجان، بعد أن ألحقوا هزائم شديدة بالعثمانيين في البلقان وصربيا وشرق أوربا، لقد كان قياصرة روسيا يطمحون للاستيلاء على تلك المناطق الشاسعة في غرب آسيا وشرق أوربا بعد أن يجهزوا على الإمبراطورية العثمانية، إضافة إلى ذلك كان الثعلب البريطاني طامعا في الولايات العثمانية العربية، حيث النفط والموارد المعدنية والزراعية والحيوانية الوفيرة، إلا أن بريطانيا كانت على العكس من الروس، ترى عدم التسرع بالدخول في حرب ضد الأتراك، الذين أصبحوا مثل الفيل العجوز الذي أضحي حرضا من الشيخوخة، وأثخنته جراح الحروب المستمرة، وحركات التمرد من الشعوب الرافضة للطغيان. كانت بريطانيا ترى أنهم قد لاحظوا تطور الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر الميلادي، وهي تتجاوز الأناضول لتدخل شرق أوربا (صربيا) ثم في القرن التالي تحتل القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة)، وفي القرن الذي يليه تحتل بلاد العرب وتحاصر عاصمة النمسا (فينا) وتصل عساكرها إلى بولندا (بروسيا).

لم تكن بريطانيا ترى ضررًا في التريث عشرين أو ثلاثين سنة حتى يسقط الفيل العثماني وتتولى قسمة تركته، ما دامت أوربا قد صبرت عدة قرون في السابق، لذلك لم تكن لندن في عجلة من أمرها لدعم من يحارب الأتراك بل قامت في بعض الأوقات بمحاربة من يناوئون العثمانيين مثل نابليون أو الجيوش المصرية التي أجلت الأتراك عن الشام وهزمتهم في العديد من المعارك البحرية.

إضافة لكل ذلك لاحظ الفتى عبد الله أقوال كبار أهل البلدة بشأن ما جرى في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وبخاصة ثلاثة أمور:

أولها: فتح مجرى قناة السويس[1]، حيث أصبح البحر الأحمر طريقًا مفتوحًا بين الشرق والغرب، بعد أن كان مغلقًا لا مدخل له إلا من الجنوب (باب المندب) مما جعل سواحل جزيرة العرب الغربية مطمعا للسفن الحربية المارة فيه.

(1) تم افتتاح القناة في عام (1869م).

الأمر الثاني: كان نشوء دولة عملاقة جديدة هي ألمانيا، بقيادة بسمارك[1] تحت لواء القيصر ويلهم[2]، وكانت دولة صناعية تبحث عن مستعمرات تجلب منها الخامات لمصانعها، وهي ليست أقل من دول صغيرة مثل بلجيكا أو هولندا التي تحتل مناطق أكبر منها بكثير، وتستعبد سكانها وتنهب مواردها الطبيعية، لقد كانت عين قيصر ألمانيا على الولايات العثمانية لتكون مستعمرات له.

الأمر الثالث: هو تأسيس دولة إيطاليا (الفتاة) حيث كانت أعين غاريبالدي[3] على ليبيا واليمن والحبشة لتكوين مستعمرات لتلك الدولة الفتية الناشئة حديثا والمتعطشة إلى موارد من الخامات الرخيصة لمصانعها. وعندما توفيت الملكة فكتوريا[4] في مطلع القرن العشرين، تنفس الصعداء كبارُ ساسة بريطانيا، وبخاصة اليهود مثل دزرائيلي[5] لأن

(1) أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك (من مواليد 1 أبريل 1815، وتوفي بتاريخ 30 يوليو 1898) رجل دولة وسياسي بروسي - ألماني شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية, وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها في عام (1871م)، ولدوره المهم أثرت أفكاره على السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر، لذا عرف بسمارك بلقب «المستشار الحديدي». بعد وفاته، اتخذه القوميون الألمان بطلهم القومي، كما أشاد المؤرخون بدوره كرجل دولة ساهم في الوحدة الألمانية.

(2) ويلهم أو فيلهلم الثاني: ولد في برلين في (27 يناير 1859م) وتوفى في دورن في هولندا في (4 يونيو 1941م) كان قيصرا للرايخ الثاني الألماني من سنة (1888 م) حتى سنة (1918م), إلى جانب كونه ملكا لبروسيا. وهو ينحدر من أسرة هو هنتسولرن, التي حكمت مملكة بروسيا ابتداء من سنة (1702م). وهو ابن القيصر فريدريش الثالث, وأجبر على التنازل عن العرش في سنة (1918م) بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ونفي إلى هولندا.

(3) جوزيبي غاريبالدي: كان جنرالًا وسياسيًّا ووطنيًّا إيطاليًّا ولد في مدينة نيس الفرنسية في 4 يوليو (1807م)، اشتهر غاريبالدي في العالم كله كقائد عسكري وعبقرية عسكرية وبشجاعته وبشخصيته ذات البعد الإنساني الذي جعله بطلا محبوبا. وقد شارك في نضال البرازيليين من أجل الحصول على الاستقلال، كما كان هو نفسه على رأس المعركة من أجل توحيد إيطاليا. توفي في يونيو (1882م).

(4) فيكتوريا ملكة المملكة المتحدة- بريطانيا العظمى وإيرلندا- وفى الأول من مايو عام (1876م) أضُيف إليها لقب إمبراطورة الهند، ولدت ألكسندرا فيكتوريا في الرابع والعشرين من مايو عام (1819م). توفيت في الثاني والعشرين من يناير عام (1901م) تولت الحكم في العشرين من يونيو (1837م) وحتى وفاتها.

(5) بنيامين دزرائيلي: سياسي بريطاني (21 ديسمبر 1804-19 أبريل 1881). تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا مرتين، وهو لورد بيكونسفيلد السياسي البريطاني، وزعيم حزب المحافظين، ورئيس وزراء بريطانيا. ولد بنيامين دزرائيلي في لندن لأب يهودي، وقد تعرض دزرائيلي لانتقادات عديدة من الأرستقراطية البريطانية بسبب تحديده للسياسة الخارجية البريطانية تجاه الدول المختلفة على ضوء موقف هذه الدول من اليهود، وكان شديد الحماس لمد الإمبراطورية البريطانية إلى الشرق الأوسط ووسط آسيا.

فكتوريا كانت تعطف على قريبها قيصر ألمانيا، وتمنع من اتخاذ إجراءات عقابية ضد طموحاته الاستعمارية. ورغم ذلك فإن ديار العرب وأوطانهم كانت تتعرض لاحتمال مخاطر شديدة من أولئك الطامعين في خيرات بلادهم.

تداعيات سقوط الخلافة العثمانية:

كانت خلاصة البحث مع كبار الأهل، أن ضعف الدولة العثمانية، وتنامي قوة الدول الأوربية يجعل ديار العرب عرضة لمزيد من التوترات، بل وقد يؤدي الأمر لإخراج البعض من ديارهم ومحاربة مبادئ دينهم الحنيف. لذلك كان لابد من إنشاء إدارة قوية في بلاد العرب تضمن حقوقهم وتدفع عنهم غائلة العدوان، قد يستدعي الأمر تقديم تضحيات جمة من الدماء والأموال، ولكن استقلال القرار العربي هو الضمانة الوحيدة بعد رعاية الله، لكي يستمر الرخاء والأمن، والأهم من ذلك أن يستمر نمط العيش الرغيد نسبيا نتيجة توفر الموارد الزراعية والحيوانية والمعدنية وخيرات أخرى وهبها الله لهذه الأرض المباركة، إضافة لذلك اتسعت آفاق الفتى عبد الله بكثير من ملاحظات وتعليقات أعمامه وأخواله وأخوال والده، وبخاصة ما كانوا يطلعون عليه في الصحف والكتب، وزيارتهم لشرق الجزيرة العربية أو شمالها (العراق والشام)، ولفت نظره ما رواه أحد المعارف في مجلس أعمامه أن عساكر الترك قد ذكروا أن السلطان عبد الحميد- رحمه الله- كان قد رفض قدرًا كبيرًا من السبائك الذهبية من قبل هرتزل[1] مندوب المؤتمر الصهيوني الذي عقد في سويسرا قبل ربع قرن، وذلك مقابل السماح لليهود باسترجاع فلسطين التي ذكروا أن القرآن الكريم قد وهبها لهم وأمرهم بالسكن فيها، وهي مجرد أرض صغيرة في الشام بين النهر والبحر، وذلك بسبب ما يعانيه اليهود من الاضطهاد في أوربا في ذلك الوقت. ذكر أعضاء المؤتمر الصهيوني للسلطان أنهم شاكرون للدولة العثمانية، مساعدتها لهم حينما طردهم الإسبان من الأندلس مع المسلمين، وما وفرته لهم إسطنبول من ملجأ في الولايات التابعة لها. لقد كانت تركيا حين ذاك تعاني من قلة الموارد المالية، وتعاظم الديون، وتزايد نفقات الدفاع ضد الهجمات من الدول المسيحية، ولكن السلطان رفض ذلك معلنًا أن فلسطين وقف إسلامي وليست للبيع ولا للتأجير.

(1) تيودور هرتزل (2 مايو 1860 – 3 يوليو 1904) صحفي يهودي نمساوي مجري، مؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة. بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين (29 و 31 أغسطس 1897م) تم انتخاب هرتزل رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية.

كانت المجالس عامرة بالمناقشات الثقافية والاجتماعية، إضافة إلى التوعية الشرعية، ولكن الحدث الأساسي الذي يغلب على معظم المداولات كان في السياسة العالمية، لقد أكد البعض أن الدرعية في منتصف القرن الثامن عشر، كانت أول من قام بالثورة ضد الطغيان العثماني، بينما كانت باقي بلاد العرب خانعة لذلك. لقد دفعت الدرعية ثمنًا باهظًا وذلك بتدمير مبانيها، وقتل سكانها، وتشريد البقية وإخراجهم من ديارهم، وأُخِذ آخرُ حكام الدولة السعودية الأولى للإعدام في إسطنبول عام (1234هـ). ولقد كان البعض يحذرون من أن ضعف الدولة العثمانية في مطلع القرن العشرين، يجعل الديار العربية عرضة لأن تكون أسلاب حرب وغنائم تفوز بها الدول المنتصرة مثل: روسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا حيث قامت فرنسا قبل منصف القرن التاسع عشر بمحاربة حكام شمال إفريقيا (الجزائر وتونس) الموالين للعثمانيين، واعتبرت تلك الديار أملاكًا خاصة لها فازت بها في الحرب. وكانت سكة الحديد (برلين بغداد) جزءًا من خط الشرق السريع (أورينت إكسبرس) علامة واضحة على أطماع قيصر ألمانيا في الاستيلاء على شمال جزيرة العرب، عبر ادعاء الصداقة والدفاع عن الخليفة العثماني. وتجرى في ذلك الحين جمع تبرعات خط سكة حديد الحجاز ليربط الشام وإسطنبول بغرب الجزيرة العربية. ومصر فقدت استقلالها بعد أن احتلها الانجليز لحماية مصالحهم في قناة السويس[1]، ولم يستطع العثمانيون الدفاع عنها؟ كانت هناك نذر شؤم أن الأطماع تحيط بالدولة العثمانية وإذا لم ينتبه العرب لمستقبلهم فسوف تسقط ديارهم تحت سيطرة ما هو أسوأ من العجرفة التركية الحالية. كانت الآمال منعقدة في رحمة الله ولطفه، ثم قيام دولة سعودية مستقلة في قرارها عن الدولة العثمانية، وتكفل حماية ديار العرب من الأطماع الأوربية، وتكون مثالا يحتذى من قبل النشطاء العرب في العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا، لدفع غائلة ذلك العدوان.

لكل ذلك كان من المهم دعم الجهود لإحياء الدولة السعودية في طورها الجديد، ودحر السلطة العثمانية وأعوانها. أحاديث المجلس آنذاك لم تكن هامشية، بل على درجة عالية من الرشاد والوعي، لذا برز تساؤل حول الحكم الجديد، وكيف ستضمن التزامه بالأصول الشرعية ومبادئ الإدارة الناجحة، بدلا من جر البلاد والعباد، إلى القتال بين الأمراء المتنازعين على السلطة وإدخال المنطقة في حروب أهلية لا طائل من ورائها. كان هناك شبه إجماع على أن المطلوب هو أن يتولى الحكمَ شخصٌ ذو جذور

(1) احتل الإنجليز مصر عام (1882م) عندما نجحوا في هزيمة الجيش المصري في معركة التل الكبير وسيطرتهم على البلاد، إلى الثورة المصرية عام 1952 التي حولت مصر إلى دولة جمهورية.

عميقة في أرض شبه جزيرة العرب، وممن عرف عن أهله وعشيرته عبر سنين طويلة الورع والفطنة، وعلى أن يدير البلاد بالشورى الإسلامية، حيث لا تتخذ القرارات الرئيسية، وبخاصة: «خطط الأعمال واختيار الرجال وصرف الأموال» إلا بعد بحث وتمحيص من مندوبين عن عامة الأمة وأهل الحل والعقد فيها. بذلك سيضمن الجميع حكمًا إسلاميًّا رشيدًا، تطمئن إليه النفوس، وتتخذ فيه القرارات على أسس عملية، تلتزم بالشرع وتحقق مصلحة الديار وأهلها.

الحريق في مواجهة العاصفة:

لقد رزق الله بلدة الحريق بعدة هبات أهمها التنوير نحو استشراف مستقبل فيه الأمان والعدل والرخاء في ظل الشريعة الإسلامية؛ ولم تشغل الأعمال اليومية والارتباطات العائلية، مجموعة متميزة من رجال البلدة عن التضامن للرقي بحاضرها والتخطيط لتحسين أيامها القادمة، الكثيرون منشغلون في أعمالهم الزراعية أو النشاط الحرفي لإنتاج وتصنيع مواد استهلاكية مبسطة لسد احتياجات المواطنين، والآخرون يعملون في رعاية مواشيهم من خيل وبغال وحمير إضافة إلى الإبل والبهم (الماعز والضأن)، أما من لم يجد فرصة ملائمة لطموحه في البلدة فكان يتجه إلى البحر شرقًا أو الهلال الخصيب شمالاً. ورغم عدم وجود بث إذاعي في ذلك الحين، إلا أن أخبار العالم كانت تصل للبلدة عبر المطبوعات سواء الدورية منها (صحف ومجلات) من الشام أو مصر أو العراق، أو عن طريق المكتبات الخاصة التي تضم مصادر للمعلومات، ويتاح لبعض العامة زيارتها والاطلاع والقراءة بداخلها.

أثناء تلك الفترة وردت للبلدة أنباء عن خطط تعد لمجابهة الهجوم التركي على العارض، حيث كان أحفاد الإمام فيصل بن تركي بن عبد الله وبنو عمهم ذرية الأمير جلوي بن تركي بن عبد الله، يتنقلون بين الرياض والخرج، يجهزون لصد ذلك الهجوم من أعوان الحكومة العثمانية. جاءت العيون باندفاع عبد العزيز بن رشيد جنوبًا متجها للرياض، ومعه عدد كبير من الخيالة وجيش من الإبل مع الأسلحة النارية الشخصية والأسلحة البيضاء، لقد كان هناك تخوف أن تحضر المدفعية المسحوبة على عجلات تجرها البغال القوية، لأن ذلك معناه عدم إمكانية جر الرشيد إلى منطقة الخرج المفتوحة لآل سعود والمجهولة لابن رشيد، حيث ستمكن المدافع من اقتحام سور الرياض من أضعف نقاطه، والقضاء على من فيها من آل سعود والموالين لهم. أما وقد ثبت عدم توفر المدفعية لهم، فقد زاد الأمل في سحبهم إلى الخرج ومنازلتهم هناك بدلا من الحرب من خلف أسوار طينية ضعيفة.

وصل أحد مندوبي الأمير عبد الله بن جلوي إلى الحريق ومعه توجيهات بالمسير خلال يومين إلى منطقة اسمها (المنيصف) تقع غرب جنوب الهياثم بمسيرة ثلاث ساعات، على أن تبقي هناك في حالة كمين بانتظار ما سيقرره ابن الرشيد، فإذا عزم على محاصرة الرياض وتسلق الأسوار، يتوجه القوم إلى الشمال الغربي نحو نساح ثم الحائر ثم الرياض للهجوم عليه وتشتيت قواته بدعم من أهالي الرياض. أما إذا عزم على ملاحقة أبناء الإمام عبد الرحمن في الخرج، فسيجري ترتيب مكان للمعركة حسب المدينة التي سيختارها ابن رشيد كمقر لتمركز قواته.

لقد كان الشغل الشاغل للمدافعين عن ديارهم هو مسألة تقلب الولاء لدى بعض القبائل، فإن «عصا وجزرة» ابن رشيد لها دور قوي في جعل البعض ينقلون التزامهم من طرف لآخر، كما تتقلب أهواء طفلة صغيرة، وهذه من آفات القبائل العربية جميعًا إلا ما ندر. لوحظ أن القحاطين في قرى الخرج قد اختلفوا فهناك فرقة مع ابن حشر تؤيد الحركة السعودية الطامحة للاستقلال عن النفوذ الأجنبي، بينما كانت عشيرة أخرى تميل مع مندوب الدولة العثمانية وعساكرها الأتراك وأعوانهم من شمر. ولكي نلتزم جانب الموضوعية والاستمرار عليه، لابد أن أشير لما لاحظه الجد أن البعض من قبيلة (سبيع) كانوا أيضًا متقلبين، ويميل جزء منهم نحو ابن رشيد، وبخاصة أن أمراء عنيزة في القصيم قد أرسلوا بعضًا من أقاربهم السبعان لحث أفراد قبيلة سبيع للوقوف ضد آل سعود، إلا أن التجاوب معهم كان قليلا.

خرجت مع مندوب ابن جلوي عدة كتائب من رجال بلدة الحريق، كانت تنضوى تحت خمسة بيارق [1] وكان بيرق الخثالين في يد العم سعود بن خثلان، وشمل نحو (120 رجلا) أكثرهم من المقاتلين، إضافة إلى بعض العمال والخدم، أما الهزازنة فقد كان بيرقهم مع أميرهم محماس الدحملي، وهناك بيرق الكثران والشبانات، لقد كان كل لواء عبارة عن سرية متكاملة، تنقسم إلى عدة «خبر» أي: مجموعات، وكل خبرة منها تتكون من ثمانية إلى خمسة عشر شخصًا لديها اكتفاء ذاتي من وسائل النقل[2] والإيواء[3] والإمدادات من ذخيرة وطعام وعلوفة.

الموقف من الحملة التركية.. المعركة الأولى:

(1) ألوية أو أعلام.
(2) الركائب.
(3) بيوت الشعر والخيام الخفيفة.

عندما خرج أهل الحريق من ديرتهم (ديارهم) متوجهين إلى الخرج، كان يحدوهم الأمل بالتخلص من السيطرة الأجنبية (التركية) على مقدرات وطنهم، وتأسيس دولة جديدة على أسس طيبة، تضمن للأهالي الأمن والعدل والرخاء في ظل الشرع الحنيف، وتبعد عن البلاد أخطار المخططات الأوربية الطامعة في الاستيلاء على أشلاء الإمبراطورية العثمانية.

لم يكن أحد في بلدة الحريق ليجرؤ على الإفصاح عن مشاعره للموالين لأعوان الأتراك، لأن الغالبية العظمي كانت ستقف ضده وتعزره، أما البقية فقد كانوا على ثلاث مجموعات.

الأولى: من الصعاليك المتخاذلين ممن لا خير فيهم لأنفسهم ولا غيرهم، لا يحسنون سوى الانتقاد والاستهزاء بالقرارات الرشيدة وتقديم نصائح وآراء ساذجة، ويريدون العزة والترفع رغم بساطة تفكيرهم وقلة إمكانياتهم.

والمجموعة الثانية: من أولئك الحيارى، الذين لم تتضح لهم الأمور، ولا يريدون المشاركة مع الأهل ولا مع الغرباء، ويتمنون العيش في سكون منشغلين بأعمالهم وأنفسهم فقط.

أما الطائفة الثالثة: فهي ذات النظرة البعيدة والهمم النشيطة، فكانوا مستعدين للنضال والتضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ثم في سبيل درء الأخطار الأجنبية عن ديارهم.

توجهت مسيرة باتجاه الشمال الشرقي نحو المنيصف تحدوها الكثير من الآمال والمخاوف وعدد لا يحصى من التساؤلات أهمها: إلى أين؟ ولماذا؟ ومن سيكون هناك؟ وماذا قد يحدث؟ ومتى ستتم العملية؟ وكيف ستدار المنازلة؟

أما السؤال الأول الذي جرت مناقشته باستفاضة بين أعضاء الحملة سواء أثناء المسير أو في التوجه أو فترات الاستراحة لأداء فرض الصلاة أو تناول الطعام، فقد كان الجواب عليه هو التوجه إلى منطقة الخرج. وهي إحدى أهم مناطق العارض، حيث توجد ينابيع مياه تسيح في جداول على الأرض، ولا تحتاج لرفعها من باطن الأرض، لذا فقد كانت منطقة زراعية من الدرجة الأولى بسبب وفرة المياه وجودة التربة، تلك المنطقة مأهولة منذ آلاف السنين، وتنتج أفضل أنواع الحنطة[1]وبعض أفضل أنواع التمور، وتصل منتجاتها إلى الحجاز والشام.

(1) الصمة واللقيمي وغيرها.

يذكر التاريخ عن الصحابي ثمامة أحد زعماء هذه المنطقة، الذي ربط في سارية المسجد النبوي بالمدينة المنورة قبل إسلامه، ثم دخل في الإسلام وعاهد النبي ﷺ، أن لا يسمح بإرسال الميرة[1] إلى كفار مكة، ولكن النبي ﷺ أبى عليه ذلك[2]، فلم يكن من هدي المصطفى تجويع البشر حتى وإن قاتلوه، أن اسم الخرج مشتق من إخراج المؤن والطعام إلى المناطق الأخرى، أي تصدير الفوائض الكبيرة فيها، ويذكر البعض أن سبب الاسم هو مخرج للسيول من منطقة اليمامة عبر وادي السهاب متجه شرقا نحو الخليج العربي، وذلك مقابل للاسم الذي يطلق قديما على الرياض، وهو: حُجْر اليمامة . وحُجْر تنطق وتعني مثل حُجْز وليس مثل مفرد الحجارة، حيث أن وديان منطقة الرياض الرئيسية مثل: صنيفة والسلي والوتر تنحجر كلها في المنطقة المسماة المصانة، بجوار مخرج (22) على الطريق الدائري الجنوبي حاليًّا.

ولابد من الإشارة إلى أن اسم المصانع جمع الصِّنع وليس المصنع، وأن الصِّنع بكسر الصاد مشتق من معنى «الإتقان» حيث كانوا يبنون حوائط حجرية بشكل دقيق على جنبات الأودية الصغيرة أو الشعبان، بحيث تجبر بعضَ السيل على دخول البساتين الواقعة على ضفاف الوادي، حتى تستفيد من طمي السيول في تخصيب أرضها، والبعض يجمع الصنع على صنوع في اللهجة المحلية، أما الجمع الصحيح فهو مصانع كما ورد في القرآن الكريم: **[وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ]** [الشعراء 129] كما أن سيول الرياض تتجه نحو منطقة المصانع القديمة، وتنحجر فيها، ثم تخرج في وادٍ ضخم متجه نحو الجنوب الشرقي إلى منطقة الخرج، لتخرج منها نحو البحر الشرقي. تعتبر الخرج منطقة رئيسية في العارض

---

(1) المؤن من مختلف الأطعمة والحبوب.

(2) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة τ قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِى حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِى الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**» . فَقَالَ: عِنْدِى خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، أَنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ. حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**». قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ أن تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ. فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**» فَقَالَ: عِنْدِى مَا قُلْتُ لَكَ. فَقَالَ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أن لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يَا مُحَمَّدُ وَالله مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أن يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ. قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ، وَلاَ وَالله لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ».

حيث تبلغ مساحتها نحو عشرة آلاف كيلو متر مربع، وتمتد شمالا حتى جنوب ساح، وشرقًا حتى غرب حرض، وجنوبًا حتى شمال حوطة بني تميم، وغربًا حتى شرق الحريق. إنها مساحة تعادل بعض الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة حاليًّا، وكان يسكنها في ذلك الوقت عشرات الآلاف من الحاضرة، إضافة إلى أعدد كبيرة من البادية الذين يمرون بها في فصول مختلفة من السنة.

ويذكر لنا التاريخُ زرقاءَ اليمامة(1) ذات البصر الحاد، التي عاشت أثناء زمن العرب الجاهليين، كما كانت الخرج موطنا لمسيلمة الكذاب(2)، وتوجد حاليًّا قرية صغيرة شمال شرق الخرج، على طريق القاعدة العسكرية القديمة تسمى اليمامة، بها آثار يعتقد أنها منازل أهل مسيلمة. فمن المعروف أن مواقع الأحداث بين المرتدين وجيش الصحابة الذي أرسله الخليفة أبو بكر بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين لم تحدث في منطقة الخرج، حيث تواجد مسيلمة بقواته إلى الطريق الذي يدخل من القادم للعارض من المدينة المنورة، وهو الذي يمر من خط أنابيب النفط الحالي غرب مدينة سدوس حيث توجد طرق السيل المنحدر غرب جبال طويق الوعرة، بدلا من الذهاب نحو عقبة القديمة أو ديراب، وتخلص من مسيلمة في حائط بجوار قرية الجبلة، الواقعة شمال غرب الرياض بنحو أربعين ميلا. وقد اشتهر في تلك المعركة عدد كبير من الصحابة المقربين، وقد كانت قبورهم تزار من قبل البعض امتثالا لأمر الله ورسوله بزيارة القبور والسلام على ساكنيها، وعندما جاءت الدولة العثمانية، حدثت تجاوزات في تعظيم بعض القبور، مما أدى إلى أمور سلبية حدثت أثناء قيام الدولة السعودية.

ونعود الآن إلى منطقة الخرج الشاملة على عدة قرى وبلدات منها السيح والصحنة والدلم والسلمية والهياثم والضبيعة ونعجان وفرزان

---

(1) زرقاء اليمامة: امرأة جاهلية من بني نمير من أهل اليمامة، و يقال إنها كانت ترى الشخص على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تُنذر قومها الجُيوش إذا غَزَتهم، فلا يَأتيهم جَيْشٌ إلا وقد استعدُّوا له، حتى احتال لها بعضُ مَن غزاهم، فأمر أصحابَه فقطعوا شجرًا وأمْسكوه أمامهم بأيديهم، ونظرت الزَرقاء، فقالت: إنِّي أرى الشجر قد أقبل إليكم؛ قالوا لها: قد خَرِفْت ورَقَّ عقلُك وذَهَب بصرُك، فكذَّبوها، وَصبّحتهم الخيلُ، وأغارت عليهم، وقُتلت الزَّرقاء.

(2) مسيلمة الكذاب واسمه الحقيقي مسلمة بن حبيب الحنفي من بني حنيفة، كان أشهر الذين ادعوا النبوة في زمن النبي ﷺ ولد ونشأ في اليمامة، في القرية المسماة اليوم بالجبيلة، بقرب العيينة بوادي حنيفة في نجد. بعد وفاة النبي ﷺ، حارب أبو بكر الصديق المرتدين ومانعي الزكاة ومنهم مسيلمة، ولكن قواته هزمت من قبل خالد بن الوليدت وقُتل في معركة اليمامة عام (12 هـ / 633 م) وكان عمره قد تعدى المائة عام.

واليمامة ووريقة وتسكنها قبائل متعددة منهم قحطان الواسعة، وسبيع بني خالد، وتميم، والدواسر، وتعج تلك المناطق بالبساتين التي تزرع فيها أشجار الفواكه المعمرة مثل: النخل والعنب والرمان، وكذلك حقول المحاصيل الفصلية، التي تنمو فيها الخضر المنوعة والحبوب والأعلاف

الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخرج:

كما تحوي منطقة الخرج على مراع للمواشي، إضافة إلي مناطق الصيد. مرت على المنطقة عصور مختلفة من الازدهار والاندثار، وفي فجر الإسلام حينما انهزمت فلول المرتدين مع مسيلمة قرب العيينة، توجهوا جنوبا نحو الخرج لاجئين من البطش ضدهم، وفي العهد الأموي انتشرت حركات الخوارج في المنطقة من الحروريين[1] وبني الأزرق[2] وبني هزان- غير الهزازنة الحاليين- والإباضية[3]، وعاثوا الفساد في الأرض من قتل وسرق، وبعد سقوط المرحلة الأولى للدولة العباسية في القرن الرابع الهجري انتشرت في جزيرة العرب حركات التشيع سواء المعتدلة منها مثل: الزيدية في الجنوب الغربي أو شديدة التطرف مثل: النصيرية[4] في شمال الهلال الخصيب. وقامت تلك الحركات- وبخاصة

---

(1) الحرورية: فرقة إسلامية ظهرت واشتد أمرها في عهد علي بن أبي طالبτ. سموا الحرورية نسبة إلى بلدة حروراء في الكوفة وكانت مركز خروجهم، على علي بن أبي طالبτ، ناظرهم ابن عباس τ لما خرجوا على علي بن أبي طالب τ، وكانت لهم نقاط فردها عليهم جميعا وعاد العديد منهم معه إلى علي ومن بقي فإنهم واجهوا جيش المسلمين في معركة النهروان وخسروا.

(2) الأزارقة فرقة من فرق الخوارج، سميت باسم زعيمها نافع بن الأزرق، قالوا «كَفَرَ علي بالتحكيم وابن ملجم محق في قتله» وكانت ثورة الأزارقة - بالبصرة وما حولها - أهم أسباب إضعاف الدولة الأموية، وقد أفضت إلى دخول الجند الخراسانيين إليها وسقوطها في يد العباسيين.

(3)الإباضية أحد المذاهب الإسلامية قريبة من الشيعة، سمي بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمي، بينما ينسب المذهب إلى جابر بن زيد التابعي، الذي كان من تلامذة السيدة عائشة و ابن عباس وتنتشر الإباضية في سلطنة عُمان حيث يمثلون حسب بعض الإحصائيات ما يقارب 70% من العُمانيين، وينتشر أيضا في جبل نفوسة وفي زوارة في ليبيا، ووادي مزاب في الجزائر، وجربة في تونس وبعض المناطق في شمال أفريقيا وزنجبار. تم تسميتهم بعدة مسميات منها:

الإباضية: نسبة الإباضية إلى عبد الله بن إباض الذي عاش في زمن عبد الملك بن مروان فهي نسبة عرضية سببها بعض المواقف الكلامية والسياسية التي اشتهر بها ابن إباض وتميز بها فنسبت الإباضية إليه من قبل الأمويين. والإباضية في تاريخهم المبكر لم يستعملوا هذه التسمية، وإنما كانوا يستعملون عبارة جماعة المسلمين أو أهل الدعوة وأول ما ظهر استعمالهم لكلمة الإباضية كان في أواخر القرن الثالث الهجري ثم تقبلوها تسليما بالأمر الواقع.

الوهبية: نسبة إلى الإمام عبد الله بن وهب الراسبي إمام أهل النهر.

القَعَدة: لقعودهم عن استعراض المسلمين بالسيف كما فعلت الخوارج من الصفرية والأزارقة.

(4) النصيرية (العلويين) هي طائفة من الشيعة الجعفرية الاثني عشرية، تتميز عن بقية الاثني =

القرامطة[1]- بإبادة معظم الخوارج، ولم يسلم سوى نفر قليل هربوا إلى مناطق نائية في مسقط أو في تونس . أما في العصر الحديث، فقد كانت للخرج أهمية واضحة حينما جاءت قوات إبراهيم باشا إلى نجد عام (1233هـ) دحرت الدرعية، وقتلت وشردت سكانها، فاعتبر الكثيرون من سكان العاصمة القديمة للدولة السعودية أن الخرج فناء خلفي لهم، وملاذ آمن التجئوا إليه هربا من عساكر العثمانيين وأتباعهم.

كما وصل إلى هناك بعض أفراد أسرة آل سعود، وكذلك آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وغيرهم من التجار والصناع، الذين كانت تذخر بهم الدرعية، وجعلوا منها جوهرة نجد وفي أثناء الدولة السعودية الثانية حضرت حملة تركية أخرى للقضاء عليها، وفطنوا هذه المرة إلى وجوب ملاحقة الهاربين من الرياض إلى الخرج، ولكن حملة خورشيد باشا لقيت هزيمة شديدة هناك عام (1254هـ)، مما دفعهم للقبول بهدنة مع الإمام فيصل بن تركي ومغادرته نجد لعدة سنوات.

أهل الحريق على ركائب العم زيد:

بعد هذه النبذة عن الأرض التي تتجه إليها المسيرة، استمر توافد بعض أهل الحريق على ركائب العم زيد بن عبد الله- زيد الكبير- للسؤال الثاني عن: لماذا نذهب إلى هناك؟

عشرية بإيمانهم بالدعوة الباطنية، وهي سرية تعليم وممارسة العبادة، والتي يرون أنها نشأت عندهم لأسباب سياسية غير دينية، وذلك لحمايتهم في ظل الأخطار المحيطة. ويقدر عددهم في العالم بحوالي (14-7 مليونا) في العالم يسكن أغلبهم في تركيا وسوريا. وبسبب سرية هذه الفرقة فقد توجه إليها كثير من الاتهامات تاريخيا؛ فوصفها بعض الشيعة بالغلو ومن أهل السنة توصف بأنها فرقة تستر عقائد باطنية كفرية.

(1) القرامطة نسبة للدولة القرمطية التي انشقت عن الدولة الفاطمية وقامت إثر ثورة اجتماعية وأخذت طابعا دينيا واتخذت المذهب الإسماعيلي، وكانت الدعوة الإسماعيلية في العراق تقاد من قبل حمدان قرمط الذي تمكن من تحقيق نجاح كبير واجتذاب الكثير للدعوة الإسماعيلية في العراق، وتبعت بعض قبائل الجزيرة العربية دعوة القرامطة، مثل بنو هلال وبنو سليم وبنو معقل، وبنو كلب وفزارة وأشجع وغيرهم، وكانوا هم عماد جيش القرامطة الذي غزو به أنحاء الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر، وهاجم قرامطة البحرين مكة المكرمة في موسم الحج، وقتلوا زهاء ثلاثين ألفا من أهل مكة ومن الحجاج وسبوا النساء والذراري، وخلعوا باب الكعبة، وسلبوا كسوتها، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه، واحتملوه إلى بلادهم، وأعملوا السلب والنهب في مكة، وعادوا إلى البحرين يحملون الحجر الأسود حيث أبقوه عندهم نحو اثنتين وعشرين سنة، ثم أعادوه إلى مكة. يعتقد أهل السنة والجماعة أن القرامطة هي حركة باطنية هدامة، وقد اعتمدت هذه الحركة التنظيم السري العسكري، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت.

أمرهم العم زيد بالانتظار في استراحة حيث كان القوم يسيرون من بعد الفجر وتناول وجبة خفيفة (ريوق) حتى قبل الساعة الخامسة قبل الظهر بالتوقيت العربي آنذاك، أي قبل الحادية عشرة ظهرا بالتوقيت الدولي جرينتش حيث يتوقفون لتناول وجبة الغداء وتخفيف عناء الرحلة عن الرجال والخدم والحيوانات. عند ذاك شرح لهم العم زيد أن سبب حفاوة الحريق إلى المنيصف- غرب الخرج- هو لجعل كلمة الله هي العليا، والحفاظ على الدين من طغيان الترك، ورعاية الديـار كما أمر الله- سبحانه وتعالى. وقال لهم: قبل أكثر من ستين عاما خرج والدي عبد الله بن علي في جمع غفير مثل هذا لمقاتلة إسماعيل أغا، الذي جاء مندوبا من العثمانيين ومعه جحفل من الإنكشارية والأرناؤوط والبشناق والألبان، وأربعة من الطليان (إيطاليين) يدعون أنهم أطباء، وهم أيضًا جواسيس، والعدد الأكثر من ذلك الجمع كان من قبائل عرب الجزيرة وخارجها الموالين للأتراك ضد بني جلدتهم وإخوانهم في الدين، ولكن للأسف الدينار عندهم أهم من الدين! وأشار لهم العم زيد أنه قبل أكثر من ستين عاما كان عمره أصغر من ذلك الابن وأشار إلى والدي، وأن جيش الترك بقيادة إسماعيل إنما قد جاء لغزو المنطقة، فخرج لهم أصل الحريق مع بقية أهل المنطقة، وقد سمع والده (عبد الله بن علي بن حمد) يقول للناس الذين سألوه مثل ذلك قائلين: لماذا نخرج من ديارنا للقتال، وقد أفادهم والده حينذاك، أن الدفاع عن الحكم الشرعي واجب، وذكرهم أنه خلال أقل من ثلاث سنوات من سقوط الدولة السعودية الأولى قام الإنجليز باحتلال كافة سواحل جزيرة العرب الشرقية، بل من كذبهم سموه: الساحل المتصالح مدعين أن أهله من العربان الهمج المتقاتلين مع بعضهم البعض وقد جاءوا لنشر السلام والإصلاح بينهم. كما ادعوا أن قصدهم حماية سفنهم المارة في المحيط الهندي وبحر العرب من قراصنة الخليج، وعند مقاومتهم لإجلائهم عن ديار العرب قال: إنهم وصلوا إليها بالدم والحديد والنار والمال، والعلاقة بينهم وبين الترك في ذلك، ولن يغادروها.

كما ذكر لهم أن والده حينذاك ذكر أنه بعد مرور أقل من عشر سنوات على الاحتلال الإنجليزي لشرق جزيرة العرب، قام الفرنجة (فرنسا) باحتلال السواحل الشمالية لإفريقيا في القيروان وغربها بالقوة، وبطشوا بأهلها، وحاربوا الدين واللغة العربية. أليس في ذلك عبرة لنا، حتى نؤيد وجود حكم وطني شرعي لا يسمح للترك بالتنازل عن ديار العرب- التي لا حق لهم فيها- إلى الأوربيين الكفار؟ أليس ذلك سبب كاف للخروج لمقاتلة الترك وأعوانهم، وتأييد تأسيس دولة من العشيرة السعودية المعروفة بورعها وفطنتها؟ لقد كان العم زيد يشعر بالإرهاق، واعتذر من

الجميع لعدم إكمال جلسته حيث يود أخذ قيلولة حتى السابعة ظهرًا (غروب) ليتمكن من استعادة نشاطه وإكمال المسير.

مَن؟ وماذا؟ ومتى؟ وكيف؟ :

كان والدي الفتى عبد الله بن خثلان يود أن يستمع إلى إجابات الأسئلة: (مَن؟ وماذا؟ ومتى؟ وكيف؟) إلا أنه شعر بالقلق أيضًا لما لاحظه من شحوب عمه، ومظاهر التعب عليه، ولم يرغب في إرهاقه بمزيد من الأسئلة. لقد كان يشعر بعظيم التقدير لعمه الذي يزيد عمره عن ضعف عمر والده، وكان الفتى عبد الله لا يتعامل مع عمه إلا على أنه جده الذي لم يره في حياته قط. وجلس يراقب العم في قيلولته، بينما تهب نسائم شمالية شرقية منعشة، تذكر بقرب انتهاء فصل الصيف وقرب دخول الخريف. كان يلاحظ علامات الشيخوخة تزداد على عمه، وقلبه يمتلئ بالحب والإكبار لذلك العم الكبير، الذي لا ينسى له حنانه وحسن توجيهه له، بل وتفضله عليه بالمشاركة في هذه المسيرة الحربية. وكانوا قبل الرحيل بالأمس يفترضون بقاء الفتى عبد الله في القرية يشرف على المنازل، ويوجه الخدم والعمال لإنهاء مصادر الثمار، ويلبي طلبات النساء والأطفال، ولكن العم زيد وجههم لترك محمد بن حمد لهذه المهمة فهو أكبر سنا من والدي، وإن كان أضعف بقليل، واقترح عليهم أخذ والدي كمرافق يشرف على العمالة. لقد أهداه أيضًا بندقية وخنجر (جنبية) بهذه المناسبة، إضافة إلى بندقية الصيد التي سبق أن منحه إياها للمشاركة في رحلات القنص مع الأهل والأصدقاء.

بعد مغادرة الحريق بقليل أمر العم زيد والدي بتوجيه ركوبته نحو القبلة، لقد كان يمتطي برذونا أشقر، وهو لون بين البني الفاتح والعسلي، وهكذا يسميه أهل الحريق ولا علاقة لهذه الوصف بالأشقر بشقراوات هوليوود ذوات الشعر الأصفر غير الغامق المشوب بالبياض، ووجه الشبه بينه وتلكم الشقراوات قد تكون طريقة التفكير! أما الفتى عبد الله فقد أعطي أتانًا شهباء تسير بنشاط وهمة. وعندما وجهوا العم زيد نحو القبلة أخذ يذكر ربه ويحمده على نعمه العظيمة، ويثني عليه حق الثناء بما هو أهل له، وقال ضمن دعائه: «اللهم إنا لم نخرج أشرًا ولا بطرًا ولا رياءً ولا سُمعة، ولا رغبة في غنيمة، إنما على الذين يريدون صدنا عن شريعة ديننا الحنيف وإيذاءنا في ديارنا وإصابتنا في أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأعراضنا، اللهم إنا نجعلك في نحورهم، فنسألك يا قوي يا عزيز أن تكف عنا شرورهم، وإننا يا خالقنا نعاهدك ألا نبدأهم بقتال حتى نعرض عليهم الرحيل عن ديارنا، فإن رضوا فبها، وإن أبو فإياك نعبد وإياك نستعين».

انقطعت أفكار الوالد حينما لاحظ استيقاظ عمه من القيلولة، وطلب من أحد العمال ماءً للوضوء، وقامت صلاة الظهر والعصر جمع تأخير قصرًا. بعد ذلك لاحظ عامل دابة العم زيد اهتزازه فوق الراحلة وخشي عليه من السقوط، لذا فقد توقفوا عن المسير، وأرسلوا إلى جدي عبد الرحمن من يخبرهم بذلك. كان الجد قد خرج من الحريق على فرس شابة قوية مدربة على الفنون العسكرية، ولا تهاب ضوضاء المعارك، ولا تنفر من شدة التحركات، ويسمونها الغيداء، وقد سبق مجموعة العم زيد بقليل، والتحق برجال الخبر يتشاور معهم حول أنسب الطرق وأيسرها للوصول إلى المنيصف، وكان الركب يشاورون حول مسائل التموين للحملة ومدى توفر الذخيرة، إضافة إلى التداول حول أنسب الأماكن لاستدراج القوات المعادية القادمة من الشمال، ليمكن الإجهاز عليهم. وصل العامل إلى هناك وكان أول من التقى به هو العم حمد بن عبد الله، الشقيق الأكبر للجد عبد الرحمن، وأشعره بأن العم زيد متأثر صحيًّا، فهرول إلى هناك ممتطيا ذلوله النشيطة ذات البدن الضخم والرغاء المرتفع، مما يدخل الرهبة في خاطر من يراها. وعندما جاء حمد بن عبد الله وشاهد أخاه الأكبر زيد، استفسر عن حاله، فأفاده أن المناخ في (زمن الصفري) غير طيب، ويوجد في الهواء طلوع من بعض النباتات التي تجهز حالها لموسم الخريف، لذا فقد أصابه دوار خفيف، وسيستريح قليلاً ثم يعاود السفر مع الركائب. لكن حمد أبى عليه ذلك، وألح عليه في العودة للحريق، حتى لا يسقط من على الراحلة فتدق عنقه، واشتد عليه في الحديث كعادته. كان العم زيد تواقا للمشاركة في أول عملية للدفاع عن الدولة الجديدة، ومكافحة أعوان الترك، أما والدي الفتى حينها عبد الله بن خثلان فقد كان أكثر شغفا لمشاهدة الحرب، غير عالم بالفرق الشاسع بينها وبين رحلات القنص. اضطر العم زيد للرضوخ لرأي أخيه الأصغر والعودة للمنزل، كما أخذ الوالد وبعض الخدم قافلين للبلدة.

هناك جلس الفتى عبد الله مع بعض رفاقه يتحدثون عن خلو الحريق من أكثر سكانها المهمين بسبب توجههم للخرج للمشاركة في الدفاع ضد هجوم ابن رشيد وأعوان الدولة العثمانية التي ما زالت تدعي أنها مركز الخلافة الإسلامية التي آلت إليها قبل أربعة قرون، حينما أخذت من مصر الآثار النبوية الشريفة، مثل البردة والعصا والسيف والشعرة، والتي كانت الخلافة العباسية قد أرسلتها إلى مصر من بغداد أثناء الغزو المغولي في القرن السابع الهجري. وتناقش الفتية حول ما إذا كانت حيازة تلك الآثار كافية لإضفاء الشرعية على الحاكم في إسطنبول، أو أن الأساس هو مدى التزام الحاكم بالمقاصد الأساسية للإسلام. ولكن أكثر ما يدور في خلد

صاحب هذه السيرة هو المنازلة التي ستحدث قريبًا من بلدتهم، وما نتائجها؟

مرت الأيام والليالي بطيئة، وهو شارد الذهن كثير التفكير في الأوضاع الحالية للبلاد في ضوء ما كان يناقشه مع عمه الأكبر زيد، الذي تحسنت حالته الصحية بعد عودته، والنقاش مع والدته شيخة بنت رشيد الدحملي الهزانية، التي كانت واعية للكثير من الأحداث الماضية وتستخلص منها العبر، وتتشوف المستقبل بفراسة غير عادية. لقد كان الاثنان يشعران بتفاؤل عميق أن الأحداث داخل جزيرة العرب وخارجها، تعمل لمصلحة دولة جديدة تقوم في وسط شبه الجزيرة، وتجلب الأمن والعدل والرخاء.

مرت الأيام والوالد يشعر بالضجر والضيق، ابن عمه الأكبر يتولى الإشراف على الأعمال الزراعية والمنزلية ولا يريد التدخل معه وإحداث المشاكل، ولكن الشعور بخيبة الأمل للعودة بدون مشاركة في الحدث المهم يزعجه، والبقاء في المنزل منسدحاً أو منبطحًا ليس من عاداته، والقرية شبه خالية من الأكابر، ولا يوجد سوى النساء والأطفال والخدم والشيوخ الهرمين، لاحظت والدته ذلك وساءها ما هو عليه من قلق وتوتر أثناء هذا العمر الحرج وفي طور المراهقة، وحاولت إشغاله بتكليفه بعض الأعمال خارج المنزل، أو إرساله إلى دور خالاته وأخواله، رغم ذلك بقي في تأفف، لا يجد سلوى إلا في المحادثة مع عم زيد، الذي يبث له ضيقه من عدم الذهاب مع أهل القرية للمنيصف، وعرض إعادة البندقية والخنجر المهداة له حين بدء تلك الرحلة. رفض العم ذلك بل وأهداه أيضًا نعلا مزركشًا وعطرًا من نوعية فاخرة، وكان النعل دقيق الخياطة، حيث يوجد صفان من الغرز يمينًا ويسارا به في كل صف أربعة خطوط، وفي الوسط خط تاسع عريض مما يضمن قوة تماسك طبقات الجلد وبخاصة عند موضع الكعب. أعجب الفتى بذلك النعل الذي لم ير أحدا سوى الأثرياء يلبسون مثله، ولو أنه ذو بسطة في الجسم، لما اتسع أصغر مقاس منه له، بل كانت قدماه تعادلان مقاس صغار الرجال، ومثل تلك النعال ليست لصغار السن. سأل جده عن السر في نعومة ملمس ذلك المداس مع قوة تحمله للشد والضغط، وبخاصة في أوقات المطر، جاءته الإجابة بأن هذا النعل يصنع في بعض قرى العارض والقصيم، ولكن يوجد حرفيون في الحريق لديهم قدرة متميزة لإنتاج الأنواع الراقية منه، والتي تتفوق على النعال القادمة من الأحساء من وراء الخليج.

حاول العم تسلية ذلك الفتى والتخفيف من مشاعر الحزن لديه، فأوضح له أن فحول الجمال والثيران، عادة تؤكل لحومها وهي صغيرة بعد فطامها بمدة قصيرة قبل أن يقسو لحمها، ولا يحتفظون منها إلا بنوعين،

الأول: هو ذو القدرة العالية لتخصيب الإناث، لاستيلاد نسل قوي، والثاني: هو ما يرغب به في العمل في الحقول سواء لحمل الأثقال أو البذار والحصاد ورفع المياه.

استرسل الحديث بينهما، حينما سأل عبد الله عمه عن مصير تلك الحيوانات بعد أن تصل إلى مرحلة الشيخوخة وعدم القدرة على إنجاز الأعمال، فأفاده أنهم يستفيدون من الجلود في صنع عدة منتجات سواء لرفع المياه، أو في صنع سلال للرطب، أو في صنع أدوات منزلية وعملية أخرى، إضافة إلى صنع النعال الجديدة، وأجربة حفظ السلاح. أما اللحوم فهي قاسية جدًا ويلزمها طبخ شديد حيث تخلط مع حبوب القمح الخشنة غير المجروشة وتترك في وعاء نحاسي على النار الهادئة طيلة الليل، بعد خلطها مع البصل والخضار إضافة إلى توابل البهار الهندية الشهيرة، وتتفسخ تلك اللحوم مع القمح وتنتج وجبة غذائية مفيدة ومقبولة الطعم، وبسؤال عمه عن أسباب حدة طبع بعض الجمال كبيرة السن أو الثيران، وهيجانها في بعض الوقت، أفاده أن أسئلته كثيرة ولكن ذلك من طباع من يحب الاستزادة من المعرفة، وأن الجمل الهرم والثور الهرم قد يكون التعامل معه حسب خصائصه الخلقية، التي تتبين لأهل الخبرة منذ وقت مبكر.

الثيران أنواع عدة:

فهناك الثور المطوع الذي يتميز بهدوء طباعه واستجابته لتوجيه صاحبه، أما ثور الحيالة فقد تنتابه أحيانا خواطر تسبب توتره، لذلك يترك في مكان متسع حينما ينتهي وقت عمله، ويبتعد الجميع عند قلقه واستثارته، أما الثور المخطوم فتوضع في أنفه حلقة يمكن إدخال حبل أو سلسلة فيها بواسطة عصا من بعيد ثم يسحب منه إلى مكان العمل. وثور الجفرة تحدث له نوبات هياج شديدة، لذا يعدله حصره في ذات منزلق وينزل فيها أثناء وقت توتره وهيجانه، ويترك حتى تسكن أعصابه بعد يومين أو ثلاثة، والويل لمن يقوده حظه العاثر للسقوط في الحفرة معه حيث يتعرض لأذى شديد، أما ثور الفصم، فهو شديد المراس بحيث يستطيع تناول طعام من نوى التمر غير المجروش، بل يقوم بتحطيم الفصم بأضراسه القوية، حيث جرت العادة بعد إطعام الحيوانات المجترة بالنوى إلا بعد جرشه وخلطه مع قش القمح وإضافة بعض التمور القديمة التي أصابها التسوس لتلك الوجبة الثقيلة، التي لا يستطيع هضمها سوى الحيوانات الكبيرة، ذات القناة الهضمية المتعددة المراحل، وقد قال سبحانه وتعالى: [**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**] [الغاشية 17].

شكر الفتى عمه على تلك المعلومات، وذكره أنه ما زال في ذهنه الأسئلة الأربعة المتبقية من زمن المسيرة، والتي وجهها له بعض أعضاء الرحلة، كما أشار له بأنه قد سمع بعض العيارين في الحريق يستهزؤون بالناس فيسمون هذا ثور فصم وذاك ثور جفرة أو غيرها من تشبيهات اللمز، ونصحه عمه بعدم المجاراة في ذلك لأنها مما نهى الله عنه.

مرت الأيام ببطء وسكون خالٍ من أي أحداث، وعبد الله بن خثلان يفكر في أحوال أهله الذين ذهبوا للخرج وربما للرياض للدفاع ضد هجمة أعوان الأتراك، وقبل عصر ذات يوم سمع أصواتًا عالية وجلبة وبكاء وعويل، وهرول مسرعًا لاستطلاع الأمر، فعلم أن بعض العمال قد عادوا من الشمال الشرقي يحملون ثلاث جثث لقتلى في المعركة التي نشبت هناك، إضافة إلى ثمانية مصابين واحد منهم فقط إصابته بليغة، كما أن أحدهم فقأت عينه جراء إصابتها بشظية، وآخر فقد يده نتيجة انفجار مشط الرصاص، وبقية المصابين جروحهم سطحية لا تشكل خطرا على أرواحهم.

كان منظر أحد الجرحى الملطخة ثيابه بكتل متجلطة من الدماء، تدخل الروعَ في القلوب، والمعالج يملأ مكان الجروح بمسحوق لديه يمنع النزف ويساعد على سرعة الالتئام، ويتكون من مطحون بعض أوراق الأشجار وبذور نباتات برية تستخدم في الطب العربي. عندما عاد للمنزل طلب الإذن للذهاب للصلاة على المتوفين، والمساعدة في علاج بقية الجرحى، كأن الترتيب أن يتم الدفن على عجل بعد صلاة العشاء دون غسل أو تجهيز لأنهم يحتسبون عند الله شهداء الواجب، جاءته الإجابة بالرفض، وأصرت عليه والدته أن يبقى لديهم لإنجاز أعمال عاجلة. بقي ليلته تلك في سهاد تراود مخيلته دماء ذلك الجريح الذي شاهده، ولا يستطيع، أن يغمض عينيه للنوم إلا وتجتاحه كوابيس مزعجه عن القتلى والدماء والأنين، فزادت معرفته بأخطار الحرب، وكثرت التساؤلات عن الدوافع لذلك، فتذكر قوله تعالى: [**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**] [البقرة 251] وفي الصباح تحادث مع والدته عن ذلك وأخبرته أن «إعمار الكون» على أسس شرعية وصحيحة لا يتم إلا بدحر أهل الشر. لقد حاول أن يشغل تفكيره ذاك بالبعد عن إعادة تصور مناظر الدماء البشعة، وذهب مع عمه في المساء لعزاء ذوي القتلى وعيادة الجرحى، وأداء الواجب نحوهم.

الفصل الخامس

عبدالله بن خثلان ووالده في أتون المعركة

عند الصباح الباكر فوجئ الفتى عبد الله بن خثلان بسماع صهيل الشهباء فرس والده الشهيرة، فتوجس في نفسه عما يكون قد جرى وركض مسرعًا للخارج. فوجد والده عبد الرحمن ومعه اثنان من العمال فقبله وسأله إذا كانت الحرب قد انتهت، فأجابه بالنفي، وعندما استفسر عن سبب قدومه والحرب ما زالت قائمة، أجابه: «إن نصف الحرب هرولة». فسأله عن النصف الثاني فقال: عسى الله يكفينا شره. اتجه والده للمقهى للاستراحة من عناء الطريق، وجاءه العم زيد فحمد الله على سلامته، وسأله عن أحوال الجماعة. فرد قائلا: أن ابني عبد الله قد أمطرني بالأسئلة قبل أن أدخل المنزل. ضحك العم وقال: بوجوب الإجابة عن كل أسئلته

وبخاصة تلك الأربعة المتبقية من الأسئلة الستة التي سألها أثناء الرحلة للمنيصف.

بعد تناول الغداء ثم أداء فريضة الظهر والقيلولة، جلسوا جميعًا لبحث الأمر، حيث أفاد الجد عبد الرحمن أن هناك نقصًا في الذخيرة (الفشك) بسبب شدة الالتحام مع قوات ابن رشيد، وقد طلبوا من كل فريق إحضار المزيد على سبيل القرض وسيرد بعد نهاية المعركة، وأفاد الجد أنه صرح بوضوح أن قيامهم هو لله وحده ولا يريدون أي عوض أو بديل. كان المطلوب ما يقارب أربعين صندوقًا ولا تقل عن ثلاثين، أي حمولة ثمانية من الجمال القوية، ذكر العم زيد أن كل ما يتوفر لديهم حاليا أقل من عشرة صناديق، ولكن سيدبر الفضة لشراء البقية من حلة الحريق، عاد العامل الذي أرسله إلى هناك قائلا أن خمسة وعشرين صندوق ذخيرة ستكون جاهزة عند أحد تجار الحريق، وعليهم إحضار الدراهم والركائب بعد طلوع الشمس بساعة للاستلام، اطمأن الجد على نجاح رحلته، وأنه سيغادر في الصباح الباكر عائدًا إلى الصحنة ومعه الذخيرة، لذا فقد أمضى بعد العشاء في السمر مع العم زيد والأبناء، حيث طلبوا منه سرد تفاصيل كل ما جرى في الخرج من ملحمة.

قال لهم: بعد مغادرتكم استمرت المسيرة نحو الشمال الشرقي حيث وصلنا المنيصف صباح اليوم التالي، وسأله العم: إذا كانت المنيصف القبلية أو الشرقية، فأفاد أنها التي تقع جنوب غرب الهياثم، وهي منطقة تسكنها حمائل وبادية من سبيع ثم ارتحلت عنها بعد جائحة أتلفتها واتجهوا شمالا نحو الضبيعة. وقد لاحظوا وجود بقايا مساكن قديمة حجرية وآثار وبقايا بشرية، كما أن هناك بعض القلبان الجافة إضافة إلى آبار مطوية بها ماء غير عميقة ولكنه غماج بعض الشيء ويصلح للغسل وسقي الدواب. ووجدوا هناك مندوبًا لابن جلوي، دلهم على المكان المعد لمناخهم، حيث أقاموا معسكرًا مؤقتًا، ولم تمض مدة طويلة حتى أقبلت بيارق كثيرة من الجنوب، تبينوا بعد ذلك أنهم أهل حوطة بني تميم حيث كان أكثر جماعتهم على رأسها فيصل بن عثمان (وجعان الرأس) أمير آل مرشد، يليهم آل حسين وأميرهم أبو شيبة (محمد بن حمد)، كما كانت هناك بيارق القويع إحدى قرى الحوطة وعلى رأسهم أميرهم الشجاع ابن مهنا، كما كان هناك جماعة بن حذيف، وغيرهم من المناطق المجاورة للموطن المعروف عن أهلها صلابة المواقف وحدة الطبع، وأكثرهم من بني تميم إلا أن في الحوطة قبائل أخرى من غير تميم فهناك دواسر وبني زيد وغيرهم.

ويكفي للدلالة على شجاعة بني تميم ما ذكر في الحديث الشريف أنهم أشد الناس قتالا للدجال. ومما يذكر عن مفاخرة تميم بأنفسهم ما ورد عن شاعرهم /جرير حين تجادل مع الفرزدق وهو تميمي أيضًا فقال فيه:

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلَ مِرْبَعًا أَبْشِرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مِرْبَعُ

وحينما تدخل في المساجلة الراعي النميري متحيزا للفرزدق ضد جرير، هجاه جرير قائلا:

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا
فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وقبيلة تميم واسعة الانتشار وليست في الحوطة فقط، بل توجد في كثير من أنحاء الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر، بل وينتسب إليها البعض في المغرب العربي أيضًا، ولكثرة أفخاذها وفروعها، قال الناس: «من ضاع نسبه فليدعي أنه من تميم» حيث سهل الاختباء بين أقطاب تميم المنتشرة. ويتميز أهل الحوطة عموما بالشجاعة وقوة الشكيمة والإصرار على المواقف، ولا صحة لما ذكره أعداؤهم عنهم من قلة التدبير والفطنة والتعجل لديهم، بل أن ذلك من دعاوى المناوئين أصحاب المكر والخداع والحقد. ولا يتهم من هذا أننا ننزههم جميعًا عن كل صغيرة، فلا يسلم الأمر حتى في أحسن القبائل من وجود من يقابل الإحسان بالإساءة أو يمن على الضعيف أو يندفع بحماقة إلى أقوال وأفعال متعجلة تسيء إلى نفسه قبل غيره. أما ما أورده البعض من ادعاءات حول أسلوب التفكير أو التعامل مع الآخرين فهذه أقوال مردودة على مدعيها، ويكفي القول إنهم في الغالب رجال صادقون صامدون، والقلة منهم غير ذلك.

ومن الوفود الأخرى التي أقبلت نحو المنيصف أهل الأفلاج ومنهم من قبيلة سبيع جحفل كبير بقيادة ابن رشود المعروف بالشجاعة والتفقه في الدين، كما أقبل أهل السليل، وأكثرهم من الدواسر، وأكبر بيارقهم مع الجمالين والوداعين وعلى رأسهم الخفرة المشهور بالشجاعة والفطنة وصلابة الرأي. بعد اكتمال حضور أهل جنوب العارض، ازدحم المكان فلا تكاد ترى بقعة إلا وفيها خبرة من إحدى القبائل أو المناطق يجرون التمارين على القتال، ويجهزون أسلحتهم للمنازلة، بينما يقوم العمال في كل مخيم بتجهيز الطعام والمسكن ورعاية الدواب.

في اليوم التالي حضر أحد الأمراء من آل جلوي ومعه ذخيرة وضيافة لتلك الجموع، ولاحظ بعض أهل الحريق أن الحنطة من نوع متوسط، وأما الضأن والماعز فهي من السلالات غير الطيبة مثل الهكر والرفيدية، لذا اعتذروا عن قبولها، حيث كانت معهم حنطة لقيمي وصمة وأغنامًا نجدية تكفي للذهاب أثناء الرحلة. ومنذ القدم قال القادة العسكريون أن الجيوش تسير على أمعائها، فإذا كانت خاوية تعطل السير.

جلس أكابر القوم مع الأمير للاستفسار عن خطة القتال، وما إذا كان التصدي للهجوم سيتم في الخرج، أو التوجه للرياض؟ وكانت الإجابة: العمل بكل الوسائل لتلافي الذهاب للرياض، ومحاولة استدراجه للخرج. السؤال التالي كان حول ملائمة المنيصف لتكون ساحة الالتحام، حيث إنها منطقة غير معينة، وإن كانت متوسطة الموقعة حيث تبعد بضع ساعات عن نعجان، وأقل من ذلك جنوبا عن الهياثم، ونحو ذلك شمال الدلم، أما الصحنة التي تقع جنوب غربها فلا يستغرق الوصول إليها سوى ساعتين على الركائب. أجابهم ابن جلوي أن الشيوخ يتداولون حاليًّا بشأن الموقع، وأن الأمر يدخل في تحديده قرارات الطرف المعادي أيضا.

بعد مغرب ذلك اليوم وردت أنباء سارة بأن ابن رشيد قد بلع الطعم، وقد أرسل الإمام من داخل الرياض من يبث الشائعات أن الرياض محصنة بقوة وأن عبد العزيز قد فر هاربًا في نفر قليل متجها نحو الجنوب الشرقي للاختباء في الخرج، وقد يذهب من هناك للكويت لإحضار المزيد من الإمدادات من الفرع الرئيسي لابن رشيد. نجحت الخطة ودخل في فكر عبد العزيز بن متعب أهمية مطاردة عبد العزيز بن عبد الرحمن والقبض عليه، وأرسل بعض عيونه وعملائه للخرج للتعرف على مَن يواليه ويقدم له المساندة والدعم في منطقة لم يسبق لرجاله التعرف عليها، ويجهلون طبيعة أرضها وناسها، كما ترك فِرقًا صغيرة خارج سور الرياض من الجهة الجنوبية الغربية، بين دفنة والمقيبرة.

أثناء توجه ابن رشيد من الرياض مرورا بالحائر ثم نساح، جاءه أحد أعوانه بأنباء سارة أن بني خالد المقيمين في نعجان قرروا الانضمام إليه والوقوف ضد آل سعود، فاطمأن إلى وجود ملاذ آمن يقيم فيه قاعدة عملياته في الخرج، وبخاصة أن نعجان تقع في الجزء الشمالي الغربي للخرج على الدرب المؤدي للرياض وغير بعيدة عن كبرى قرى الخرج في ذلك الحين وهي الدلم. أفاد الجد عبد الرحمن أخاه الأكبر زيدا أثناء تلك الجلسة أن كافة أهل الحريق قد امتعضوا لتلك الحركة من الخوالد، وبخاصة أنهم من أنساب الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن، حيث كانت أولى زوجاته وأم أكبر أبنائه تركي وسعود منهم، وكان واجب القرابة أن لا يقفوا ضد القريب مع الغريب، ولكن العم أشار إلى أن خوالد الخرج من العيسى جبور الشبلة وأن أنساب عبد العزيز من خوالد جودة الواقعة غرب القطيف وهم من آل عريعر، مع استنكاره لما فعله الخوالد الذين عرف عنهم الشيمة والحمية لوطنهم وجيرانهم، وجاء ذكر سبهم وما يقوله بعض منهم أن أصلهم من بني مخزوم القرشيين من نسل القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولكن أكثرهم تشير إلى أن أصلهم من يام المتفرعة من قحطان الواسعه وهم قريبون من العجمان، والناس أمناء على أنسابهم. قال

الجد: أن الأبناء قد وصلتهم أن ابن رشيد تمهل في سيره عند الخروج من نساح، وأرسل مندوبين خفية للخرج لاستمالة بعض القبائل أو مشائخ وأمراء القرى نحوه، ومعهم الكثير من الوعود بمنحهم النفوذ على مناطقهم إذا ساعدوه، ويضاف إلى ذلك التهديد والتوعد بشدة العقاب ضد من يناصر آل سعود، كان يمارس سياسة الجزرة والعصا وبخاصة أنه في أرض مجهولة له وسكان لا يعرفهم جيدا. كان ذلك من فطنة ابن رشيد فهو يعلم أن الشجاعة وحدها لا تكفي، كما قال الشاعر:

الرأيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَـانِ ... هُـوَ أَوَّلٌ وَلَهَـا الْـمَحَلُّ الثَّـانِي

فَـإِنْ هُمَـا اجْتَمَعَـا لِـنَفْسٍ حُـرَّةٍ ... بَلَغَـتْ مِـنَ الْعَلْيَـاءِ كُـلَّ مَكَـانِ

وَلَرُبَّمَـا طَعَـنَ الْفَتَـى أَقْرَانَـهُ ... بِـالرَّأْيِ قَبْـلَ تَطَـاعُنِ الْأَقْـرَانِ

ولربما فاته قوله تعالى: [**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**] وقوله: [**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**] وقوله: [**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**] وقوله: [**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ**]، وكما قالت العرب الأوائل: «أكثر ما يجني على المرء اجتهاده، إذا لم تصدق نيته». وقول الشاعر[1]:

إِذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ الله لِلْفَتَـى عَـوْنٌ ... أَتَتْـهُ الرَّزَايَـا مِـنْ حَيْـثُ تُرْجَـى الْفَوَائِـدُ

لقد انتشر رجال لابن رشيد وجواسيسه، وبعضهم عملاء مزدوجون يأخذون من هذا ماله ومعلوماته وينقلونها للآخر مقابل أخذهم مالا وأخبارا، وهكذا لا ضمير لهم ولا وازع، يخدعون هذا وذاك بحبال قصيرة سرعان ما تتمزق ويقعون في الشر من سوء عملهم. وبعض أولئك العملاء على قدر من الدهاء، فلا يذهبون مباشرة إلى أصحاب النفوذ، وإنما إلى مساعديهم مدعين إخلاصهم وأنهم ناقلو معلومات بعضها صحيح والآخر مزور، وينشرون بين الحلفاء أكاذيب تثير الضغائن في

(1) أبو فراس الحمداني.

النفوس ويقدمون وعودًا زائفة، ويروجون عن طريق الآخرين إشاعات غير صحيحة عن الأحداث القادمة. وأشار الجد إلى أن بعضهم قد اتصل برجال من آل خثلان، وبثوا بينهم الخوف من ابن رشيد مندوب الخلافة الإسلامية، مع وعود بإعطاء النفوذ والنقود لمن يتحالف معهم، ولكن جوبهو بالرد أن أسرتنا لها المكانة العالية التي يعرفها الجميع وليسو بحاجة لمزيد من النفوذ، أما النقود فما آتاهم الله خير مما آتاكم، وأنكم بنقودكم فرحون. لقد أثرت تلك الأعمال والأقوال في ضعاف النفوس وانتشر الإرجاف والخوف، والبعض يقول: **[لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا]**[آل عمران-154].

عند توتر الأوضاع والمشاعر، لاحظ الجميع في المنيصف إقبال جحفل عظيم من جهة الجنوب بعد صلاة العصر، وفوجئوا أن ذلك هو ركب أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي (عبد العزيز وإخوانه) وذرية الأمير جلوي بن تركي أبناء العم الأصغر للإمام عبد الرحمن، ومعهم حشد من آل مقرن وبخاصة الفرحان والثنيان والمشاري، ويرافقهم جمع غفير من الخدم والموالي إضافة إلى بعض قادة الصحنة والدلم، وغاب عن المشهد أي من ذرية العم الأكبر للإمام عبد الرحمن (سعود بن فيصل العريف)، وكان في رفقة عبد العزيز عدد غفير من أسر قبيلة سبيع في الخرج مثل: آل سعد والحيازين وآل ذواد وآل عامر وغيرهم سواء من آل السديري والحقباني. اقترح العم حمد سرعة الإعداد لتجهيز طعام العشاء لآل سعود ورفاقهم، ولكن سرعان ما وصلت طلائع الفرق السعودية، حيث قام العمال بنصب صيوان كبير وخيام متوسطة، وبدئ في إشعال النيران لإعداد القهوة والطعام. بعد قليل وصل عبد العزيز بن عبد الرحمن وإخوته وأقاربه، وجمع من مؤيديه، وسلم على الجميع، وطلب منه البعض السماح لهم بضيافته ولكنه أفادهم بأنه قد تم تدبير الأمر وسيكون العشاء جاهزا خلال فترة وجيزة. وبعد أداء صلاة المغرب والعشاء جمعا، وتناول القهوة، قام بعض الشعراء بإلقاء قصائد حماسية تحث على الشجاعة في مواجهة البغاة ونصر مؤيدي الشريعة، كما قام فقهاء بالخطابة وتذكير الحضور، بمساوئ الحكم التركي، وما قام به بعض مؤيديه من تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووضحوا شغف أهل العارض باستعادة الحكم الشرعي على كتاب الله وسنة نبيه، وتطلعهم للخلاص من الاستبداد العثماني. تلا ذلك أن قام الدفافون بتسخين وشد الدفوف والقرع عليها، استعدادًا لأداء العرضة النجدية، حيث جرى ذلك على أهازيج وقصائد نبطية في الحماس، ومعلوم أن النبطية يقصد بها لهجة الفلاحين، وبخاصة أولئك الموجودين في شمال غرب جزيرة العرب، كما روى البعض ما جاء في السنة النبوية من أحاديث عن

المتخلفين عن غزوة العسرة. وكانت أجمل القصائد التي جرى إنشادها هي التي من ضمن أبياتها:

يـــا ديـــرة تـــو ســـعدها مـــا جاهـــا عقـــب مـــاهي ذليلـــة جالهـــا هيبـــه
قـــام عبـــد العزيـــز وشـــاد مبناهـــا شـيخنا اللـي بحكـم الشـرع يمشـي بـه
يـــوم حنـــت وونـــت ســـمع شـــكواها وصـــلها قبـــل تاصـــلها مناديبـــه
ذبـــح عجـــلان فيهـــا مـــا تعـــداها مـــا حـــلا عنـــد بـــاب القصـــر تسـحيبه
يـــوم شـــفته بعينـــي طـــاب ممســـاها طيـــر حـــور أن شـــاقتني مضـــاريبه
جـــاء أهـــل الـــدين والتوحيـــد وحماهـــا واذهـــب الله هـــل الباطـــل واصـــاحيبه

أثناء سرد تلك القصيدة استفسر العم زيد الكبير من أخيه الأصغر عن قائل تلك القصيدة، فأفاده بأنه راشد الحوطي (ربما ناصر أو أحد إخوانه)، وقد لا يكون من حوطة نعام المجاورة للحريق بل من حوطة سدير الواقعة شمال غرب الرياض بنحو مائة ميل، وقد يكون من أهل ضرماء. أعجب العم بمحتويات تلك القصيدة وما تضمه من معانٍ جزيلة عن الآمال المعقودة على المرحلة القادمة لمنطقة العارض. لقد لاحظت شخصيًّا عن زيارتي للإمارات العربية في السنين الأخيرة من القرن العشرين أنهم ينشرون قصيدة مشابهه لقصيدة الحوطي هذه تقول: «الله يا دار زيد كيف ما أحلاها» ولا شك أن قصيدة الحوطي أكثر عمقا وأقوى لفظا من غيرها.

بعد انتهاء تلك الاحتفالات، أفاد الجد عبد الرحمن أنه طلب من أحد أفراد أسرة آل عامر القبابنة من قبيلة سبيع، والذي كان مقربا للأمير عبد العزيز، أن يجتمعوا مع الأمير للتداول حول بعض الأمور، وقد لبى ذلك الطلب رغم رغبته العودة إلى مقر إقامته باكرًا لوجود ارتبطات له استعدادا للمنازلة.

في ذلك اللقاء سأل الجد إذا كانت المنيصف هي الموقع المختار للمنازلة، وإذا كانت كذلك فإن عليهم البدء في إعداد تحصينات مؤقته مثل بعض الحوائط الحجرية الساترة من الطلقات النارية، إضافة إلى حفر غير عميقة للاختباء فيها، وعمل عوائق لفرسان ابن رشيد. لقد كانت الأنباء تحدث أن جيش عبد العزيز بن متعب يقارب الخمسة آلاف، بينهم عد كبير من الخيالة، إضافة إلى توفر بنادق ألمانية وبلجيكية معهم تستطيع إحداث إصابات قاتلة من على مسافة تزيد عن ثلاث مائة ذراع، بينما البنادق التي معنا، لا تستطيع ذلك إلا من على مسافة مائتي ذراع وهي من نوعيات مثل: مارتن البريطانية، وبنادق روسية غير قوية، ولا دقيقة الرماية. إجابة

الأمير عبد العزيز احتوت على ملاحظة وجوب الحذر من مناقشة خطط الدفاع إلا مع أهل الثقة التامة، حيث تنتشر في منطقة الخرج عيون ابن رشيد، وعمومًا فإن منطقة المنيصف لا تصلح للمنازلة حيث إنها مكشوفة تماما، وسيتم اختيار موقع آخر، لا يمكن تحديده من طرف واحد، حيث أن ابن رشيد شديد الحذر ولا يمكن استدراجه بسهولة، وهو يسير الهوينا حاليا، وإذا حث السير فبأمكانه الوصول إلينا خلال أقل من يومين، لذا سيتم تعديل موانع القوات خلال العدو، والتجهيز لخطة فعالة تضعف القدرة الهجومية للقوات المعادية. قبل نهاية ذلك الاجتماع وصلت فرق قتالية من شمال الرياض (بنبان والحيسية والدرعية) كان أكبرهم فرق العيينة والجبلة برئاسة الأمير ابن معمر، وقد سلكوا طريقًا من جهة الشرق حيث دخلوا من ناحية السلامية لتلافي الاحتكاك مع قوات ابن رشيد.

غادر آل سعود المكان، وعلم الجد عبد الرحمن أن عبد العزيز بن عبد الرحمن لا يستقر في مكان واحد، ويغير أماكن مبيته لتلافي أي عملية غادرة، ولكنه يدير أعماله نهارًا من دار الإمارة في الدلم عند أميرها الحقباني، كما يتلقى هناك المعلومات من بقية المناطق أو من عند والده في الرياض. كان أكثر الحضور في المنيصف يشعرون بالاطمئنان من قدرة قيادتهم على التصرف بشكل ذكي وفعال، وبخاصة مع تزايد عدد القوات المدافعة عن الخرج حتى تجاوزت الثلاث الاف رجل، منهم عدد لا بأس به من الفرسان، إضافة إلى الهجانة.

اجتمع نفر من الخثالين مع نفر من أولئك المندسين ناقلي الأخبار، وكانوا في غاية الحذر من تسرب أي معلومات حيوية، واستدرجوهم لمعرفة أخبار ابن رشيد، مع إعطائهم معلومات غير مفيدة أو مضللة، وذلك على سبيل المقايضة مقابل ما يقدمون من أحاديث بعضها ثرثرة والآخر فيه شيئ من الصحة. لقد ذكروا أن عبد العزيز بن متعب بن عبد الله كان يعتمد في المشورة على آراء دريد عم والده (عبيد)، حيث أن عبد العزيز لم يكن له سوى اثنين من الأعمام: الأكبر طلال وقد قام أبناؤه بقتل عمهم متعب والد عبد العزيز. والآخر هو محمد الذي مات كلالة (بدون أصل ولا فرع)، لذلك لم يكن لديه سوى أبناء عمومة والده، وذلك أمر يعرفه الجميع ولا يستحق أي عناء للحصول عليه من الجواسيس. ثم ذكروا بعد ذلك أن ابن رشيد عند جلوسه في حائر سبيع، تحاور مع بعض أبناء عمومته المذكورين، فأشاروا له بما قاله القائد التركي عزت باشا قبل نحو سنتين متحدثا عن شجاعة ابن رشيد، التي قارنها بصحابة رسول الله مثل علي وخالد وأبي عبيدة رضي الله عنهم، وأفادوا أنه أبرق بذلك إلى الآستانة مشيدا ببطولة ابن رشيد في الدفاع عن شمال المدينة المنورة، وتوصيته بأن يوكل إليه حراسة المناطق الواقعة بين معان والمدينة شاملة

العقبة وتبوك، إضافة إلى خفارة حج البصره. وكان سبب حضور الباشا أن بعض قبائل شمال وغرب الجزيرة العربية من جهينة والعطاوية والشرارات والحويطات، أخذوا يهاجمون فرق الهندسة الألمانية التي تقوم بإعداد تصاميم خط سكة حديد الحجاز، الذي تعثر تنفيذه بعض الوقت لنقص السيولة، حتى اضطر خليفة الإسلام آنذاك السلطان عبد الحميد إلى طلب التبرعات لذلك الوقف في شكل قروش قليلة من المواطنين.

لقد كانت الأعراب تهاجم الفرق الهندسية التركية الألمانية لسلب بعض المعدات، وبخاصة ساعات الزنبرك المذهبة التي توضع في جيب السترة مربوطة بسلاسل ذهبية ثمينة، وكانوا يبيعونها في بصرى حوران بسعر زهيد. وعندما عجزت العساكر العثمانية عن دحر اللصوص، استعانت بابن رشيد الذي سارع للتنكيل بهم وصدهم عن التعرض للفرق الهندسية.

كانت تلك معلومات مهمة وتساعد في التنوير واتخاذ القرارات الصائبة، ولكن ليس فيها شيئ من الزبدة كما ذكر الجد لأخيه الأكبر، حيث كان الحضور يريدون معرفة ما له علاقة مباشرة بالمعركة. ذكر الملأ أن بني عبيد بن رشيد قد أشاروا أيضًا لما أورده القائد التركي بخصوص رأي الباب العالي في إسطنبول بشأن مناطق جنوب الدرعية، حيث إنه في الحملة الأولى لم يرسل إبراهيم باشا قواته إلى هناك، مما أعطى الفرصة للإمام تركي بن عبد الله لإنشاء الدولة السعودية الثانية ونقل عاصمتها من الدرعية للرياض. أما في الحملة الثانية التي جرت قبل نحو ستين عامًا من ذلك الوقت فقد تجرأ قائدها خورشيد باشا بإرسال عدد كبير من القوات يقارب الألف مدعومين بالمدافع والخيالة، إلى جنوب العارض لدحر الإمام فيصل بن تركي. ولكن تلك العساكر لاقت هزيمة شنعاء حيث وأجهوا أهالي ما سماه عزت باشا: «حريق الموت» وكذلك: «حوطة الذبح» فلم يعد سالمًا من تلك العملية سوى ثمانين شخصًا والبقية عادوا مصابين أو جرحى، والأكثرية لم تعد إطلاقا بل كانت بين قتيل وأسير، أخذوا كخدم في مزارع أهل الحريق والحوطة، وما زال قليل من ذريتهم هناك معروفين للجميع.

حذر بنو عم ابن رشيد قائدهم من التورط في نزاع مع مثل أولئك الأشاوس إلا بالاستعداد الكافي، وأجابهم: إنه مطمئن لحسن ترتيب قواته، كما يعمل لتشجيع بعض أهل العارض للانشقاق على آل سعود ومساندته أو على الأقل البقاء على الحياد.

عندما سمع آل خثلان تلك الملاحظات من أهل الكلام، قرروا معاملتهم بالمثل، فأوقعوا في نفوسهم أن عبد العزيز آل سعود يشعر بالخوف من

قدوم عساكر الدولة وأن قواته قليلة لا تزيد عن ألف وخمسمائة، وليس لديه إلا عشرين فرسا وأما الهجن فهي تتراوح بين الهرش والثليب وذخيرته شحيحة، كما أنه على خلاف مع والده وبعض أقاربه ويفكر في الفرار للكويت. خرج الملأ بتلك الأنباء وسارعوا مهرولين للعودة شمالاً من حيث أتوا. أما آل خثلان فقد زاروا أحد أعوان عبد العزيز بن سبيع «العجرشي» وأفادوه بما جرى، وأنهم يودون إيصال خلاصة ذلك النقاش للشيوخ ليكونوا على بينة بالخطط التي سيضعها العدو بناء على تلك المعلومات المحرفة. عاد إليهم العجرش لاحقا أنه قد التقى مع ابن سعود يرافقه أحد العاملين والملاصقين لعبد العزيز (عويبيل)، وأن الأمير قد سره ما سربوه من معلومات للملاء، حيث أن أكثر ما يخشاه هو أن يقرر ابن رشيد العودة إلى حائل وإبقاء آل سعود محاصرين في العارض لشهور أو سنين، كما فعل عمر محمد بن رشيد مع والده الإمام عبد الرحمن، ويبقى متربصا لفرصة سانحة حتى ينقض عليهم ويصفيهم، وقد كلف الأمير العجرش أن يبلغ تحياته وتقديره لآل خثلان، وأنه سيوصي الآخرين ببث أخبار مشابهة ليقوم جواسيس ابن رشيد بإيصالها إليه.

في الصباح الباكر وصلت تعليمات القيادة إلى المنيصف بأن ابن رشيد قد أضحى على مسافة أقل من عشر ساعات عن نعجان وهو يسير الهوينا وعلى تمهل، وقسمت الرايات الموجودة هناك إلى جزئين، الأول ويعادل نحو الثلث يتجه إلى الشمال الشرقي نحو الهياثم، والباقي يتجه جنوبا مع الميل القليل إلى الغرب نحو الصحنة، مع بقاء عدد قليل من الكشافة في المنيصف غير مسلحين، ويتظاهروا أنهم رعاة محليون، ويراقبون ما سيحدث شمال المنيصف في نعجان. في تلك المسامرة أفاد الجد عبد الرحمن أخاه الأكبر زيدا وابنه الأكبر عبد الله بتفاصيل تقسيم القوات والأسلوب التنظيمي الجيد لترتيب عملية الرحيل والوصول، وأفادهم أن خبرته كانت مع إحدى السرايا التي وجهت للذهاب إلى الصحنة، وأما أخوه حمد فقد كان مع من ذهبوا إلى الهياثم.

حينما وصلوا إلى هناك وجدوا أن الأمور أفضل بكثير من الإقامة في شبه العراء، فقد كانت هناك مساكن داخل البساتين أو على الطرق متلاصقة مع بعضها، وقد قدمها أهل المدينة المقاتلين، كما كانوا يزودونهم بالضيافة على مدار الوقت حتى أن البعض فكروا في استدعاء عوائلهم من نساء وأطفال للإقامة معهم في الهياثم في راحة ورخاء عيش، إلا أن التعليمات كانت تركز على وجوب الاهتمام بالتدريبات على إطلاق النيران من خلف جذوع الأشجار والحوائط المنخفضة.

كان الاتصال مع جماعتهم في الهياثم غير مستمر نظرا لبعد المسافة في ذلك الحين، حيث يستغرق الأمر عدة ساعات من المسير بين الصحنة والهياثم.

وردت أنباء وصول الرشيد إلى نعجان وترحيب الخوالد به، وعسكر معظم مشاته وهجائنه في الجنوب الشرقي للبلدة غير بعيد عنها، حيث كان يحرص على عدم إزعاج الأهالي بتصرفات الجنود وبخاصة الناس والأطفال، ولأن بقية سكان القرية لم يستحسنوا وجوده عندهم. بث الشيوخ أنباء أنهم في السيح، في منطقة قريبة من عيون الخرج الشهيرة، وهي مكان مفتوح وسهل منبسط تزرع فيه المحاصيل الموسمية، ولا توجد به أشجار معمرة كثيرة ولا بساتين للفواكه، كما أن المساكن الطينية للأهالي تقع جنوب غرب السيح.

أرسل ابن رشيد فرق استطلاع وسرايا استكشاف متفرقة للتعرف على أوضاع المنطقة، ودراسة دروبها والأماكن الحصينة فيها، وكانوا يمرون بجوار أهل الحريق فلا يعرفون إذا كانوا من أهل الخرج أو من خارجها، أما هم فيعرفون قوات ابن رشيد من ملامح وجوههم، وكذلك ملابسهم التي تختلف كثيرًا عن ملابس أهل المنطقة، بل أن البعض يميز رائحتهم حيث يستخدمون أنواع البخور الشمالي المختلف عما هو مستخدم في العارض، إضافة إلى تمييز الركائب (خيل وإبل).

كان أعوان الرشيد مكشوفين للغاية، ويتربص بهم الجميع، بينما هم عاجزون عن معرفة الفرق بين فلاحي الخرج وأولئك المقاتلين، وبخاصة أن الموسم لجني الرطب والتمور كان في بدايته، والغالبية من مقاتلي العارض يتظاهرون بالعمل في الفلاحة أو الرعي، ويخفون أسحلتهم في منازل مضيفيهم من أهل القرى المجاورة. بعد عصر اليوم التالي لوصولهم، توغلت إحدى جماعات ابن رشيد في قرية الهياثم، ولاحظوا وجود مسلحين على سطح أحد المنازل، وقاموا بإطلاق النار عليهم وجرى الرد عليهم بالمثل ولكن بقوة قذائف قليلة، وعلموا بذلك أن هؤلاء ربما يكونوا من سكان القرية، وأنهم لا يريدون الغرباء وليس بينهم بواردية (قناصة) كما أن ضعف النيران المطلقة تجاههم تبين أن الشيوخ ليسوا موجودين في الهياثم، لذلك سارعوا بالانسحاب إلى نعجان ونقل الأخبار للقيادة. في تلك الليلة المذكورة وبينما كان الهياثم يعالجون جرحى الاشتباك، توفي أحد كبار السن الذي كان يعبر الطريق أثناء تبادل إطلاق النار، فأصابته رصاصة طائشة وفشلت محاولات علاجه، لقد ثار البعض وأخذوا في إحداث هيجان داخل القرية بوجوب الرد الحازم على ذلك، وجرى استخدام أسلوب الإثارة الهوجاء غير المحببة، وأخذوا يرددون بعض الآيات القرآنية خارج سيقاها وبتأويلات فردية، ومنها: [**أَلَا تُقَاتِلُونَ**

قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ] [التوبة 13-14] وقد نسوا تماما قوله: [**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**] [الصف 4] أن الاصطفاف المطلوب لا يكون بأعمال جريئة متسرعة ولكن باتباع إمام أو قائد يدير الأمور بشجاعة وحنكة وفطنة.

قرر البعض من الموجودين في الهياثم مع أهالي القرية شن هجوم على المعسكر في نعجان بدون تنسيق مع القيادة. بعد صلاة الفجر تناولت تلك الجماعة الصغيرة التي لا تتجاوز المائة إلا قليلاً، شيئًا من الطعام الخفيف، وتوجهت إلى معسكر العدو في نعجان، حيث وصلته في أول ساعات الصباح، وأخذوا يصيحون ويطلقون النار بشكل عشوائي ويقولون:

صبحناكم لا صبحتكم العافية

ترى النحشة ثلثين المرجلة

عودوا لأهلكم ودوروا العافية

كانوا يظنون أنهم يقومون بعمل بطولي، ولكن البطولة لا تأتي عبر العمل الفوضوي، وجاءهم رد قوي من قوات ابن رشيد شتتهم بين قتيل وجريح وهارب، واضطروا بعد ذلك لإرسال أحد أئمة المساجد إلى صديق له في نعجان للتشفع في سحب الجرحى للعلاج. وأخذ جثث الموتى للدفن. عندما بلغت أنباء ذلك الهجوم قرية الصحنة شعر الجميع هناك بالإحباط والغضب لذلك التصرف غير المحمود. أفاد العم زيد أخاه الأصغر عبد الرحمن أن بعض الجرحى وصلوا لاحقا للحريق للعلاج كما دفن من توفي في الطريق.

شعر ابن رشيد بالزهو من ذلك، وظن أن كل العمليات ستكون عشوائية على ذلك المنوال، فقد قرر القيام بجولة في النواحي الجنوبية لنعجان، بينما أعد العدة للرحيل خلال يومين إلى السيح، ولكن بعد أن يستكشف الصحنة والدلم حتى لا تتعرض خاصرته اليمنى للهجوم من كمائن مختفية هناك، تهاجم ركائبه أثناء التوجه من نعجان إلى السيح، دخل الرجل ومعه فرق من حراسه وجنوده إلى الصحنة، والتزم الجميع هناك بالحذر، وكمنوا في المنازل أو تظاهروا أنهم عمال البساتين، مع مراقبة دقيقة لكل تحركات العدو. خرج ابن رشيد من الصحنة متجها شرقا نحو الدلم التي لا تبتعد عن الصحنة سوى مسافة قصيرة، ولاحظ هناك

تحركات قوية وتواجد ترتيبات مسلحة، ومر على بعض الرعاة وحاول رجاله استدراجهم للحصول على معلومات ولم يفلح في ذلك، إلا أن بعض رجاله لاحظوا وجود فتحات رماية فوق أحد المنازل وكشفت لهم شمس العصر وجود حركة خلف الحائط عبر تلك الفتحات (المزاعيل)، قرروا محاصرة المنزل والصعود للأعلى لاستكشاف الأمر، فواجهته طلقات نارية فردوا بالمثل، واندفعوا نحو وسط القرية حيث توجد منازل متراصة، وهناك انهال عليهم وابل شديد من الرصاص، مما دفع ابن رشيد لإصدار الأمر بالتقهقر والاحتماء ببعض المباني الخربة، واستمر تبادل إطلاق النار أكثر من ساعة، حاول أثنائها بعض خيالته الاستدارة حول تلك المنازل فواجهتهم نيران أكثر شدة مما اضطرهم للانسحاب إلى مكان منخفض شمال الدلم. لقد علموا أن كثافة الطلقات مؤشر على وجود أشخاص مهمين داخل الدلم، لذلك تدارس ابن رشيد الأمر مع رجاله، وقرروا إقامة مخيم هناك لإمضاء الليلة، وطلب حضور بقية القوات من نعجان. حينما لاحظ أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل وأحفاد الأمير جلوي وبقية مرافقيهم أن ابن رشيد يمضي الليلة على مسيرة أقل من ساعة واحدة شمال الدلم، عرفوا أن المنازلة لابد أن تحدث قريبًا، لذا قام المندوبون بالتوجه إلى الصحنة وطلب حضور الجميع إلى الدلم من الجهة الجنوبية.

قال الجد عبد الرحمن أن ذلك الصباح الخريفي كان صحوا، مع بعض السحب المتفرقة التي تأتي قبل دخول الوسمي، وبالتالي فإن احتمال سقوط أمطار شبه معدوم، إلا أن رياحا شمالية غربية ستثير الغبار والأتربة بشكل مواجه للمدافعين عن الدلم ويكون في صالح المهاجمين من نعجان. صدرت التعليمات بالكمون خلف جذوع النخيل المحيطة بصف المنازل الذي جرى الهجوم عليه بعد عصر الأمس، وتحذير المقاتلين من عدم التعرض للمهاجمين بالسلاح الأبيض وبخاصة الفرسان، بل يجب التركيز في إطلاق النار على الخيل، لأنها أكبر بدنا وأسهل في التصويب من الخيال، كما أن إصابتها ستؤدي لسقوط الراكب وإصابته، وعندئذ يمكن الإجهاز عليه بالسلاح الأبيض، إذا كان الميدان آمنا لذلك في نحو الساعة الرابعة من ضمن ذلك اليوم المشهود.

***

جاءت أرتال كثيفة من خيالة ابن رشيد، وهي تطلق نيرانها الشديدة نحو صف المنازل، ولم يفطنوا لوجود الرماة خلف الأشجار بل اندفعوا سريعًا نحو المنازل ظانين أنهم سيجدون القادة هناك ويوقعوهم بين أسير وقتيل، تلقى المهاجمون ردًّا عنيفًا من أهل العارض، حيث نفذ قناصتهم المهرة ما تم الاتفاق عليه في خطة الدفاع من توجيه المقذوفات نحو بدن

الخيل مما أدى إلي سقطوها، ثم تعثر من بالخلف بين الأشجـــار أو أبدان الخيل والرجال الملقون أرضا. لم يمنع ذلك من اشتداد الهجمة وتوافد المزيد من الخيالة نحو الموقع.

وذكر جدي أثناء حديثه لأخيه وابنه وبقية الأسرة، أنه اندهش من وجود بعض الخيل غير العربية، المتميزة بضخامة البدن والشكل المخيف، وإن كانت أقل سرعة ومناورة من الخيل العربية، إلا أنها رابطة الجأش، قادرة علي تخطي المواقع والاندفاع نحو صف المنازل، كما أنها شديد التحمل بحيث لاحظ الجد إحداها أصابته طلقة عند مؤخرته جاءت من مسافة بعيدة ولم تؤثر في اندفاعه رغم وجود نزيف متوسط، ولو أن مثل تلك المقذوفة أصابت فرسًا عربيًّا لترنحت على الأرض مصابة هي وراكبها، استمر اندفاع الخيالة والدفاع المستميت، حتي نجح بعض المهاجمين في الاقتراب من المنازل لمسافة تقل عن ثلاثمائة ذراع، وحينذاك انفتح عليهم وابل شديد من الرصاص، أصاب الخيل والفرسان بشكل بليغ مما دفعهم للتقهقر نحو خطوطهم الخلفية، متجهين صوب الجهة اليمنى (غربًا) لتلافي القناصة في الخلف، حيث كان هناك عدد من المرافقين ولكنه غير كثير إلا أنهم في مواقع قريبة بين الأشجـار، فأوقعوا المزيد من الإصابات بينهم، بينما نجح البعض في الخروج من البساتين ثم الانحراف شمالاً صوب نقطة تجمع قوات ابن رشيد شمال الدلم. قبل الزوال سكنت الأوضاع تماما بعد ساعات من الالتحام غير المعتاد لكلا الطرفين، فقد كان الوضع في منازعات العربان هو الالتقاء في منطقة مفتوحة والمبارزة بين بعض الأطراف ثم تبادل إطلاق النيران، أو الهجوم بالأسلحة البيضاء (غير النارية) مثل السيوف والخناجر، والبعض في يده (معدال) أو (عجراء) من الخشب المتين، أما الاقتتال وسط البساتين فقد كان غير معهود لدى الكثيرين في وسط جزيرة العرب. ذكر الجد أنهم استغلوا فترة التوقف للفحص الميداني، حيث تم أسر بعض أفراد العدو المصابين بشكل طفيف، والإجهاز على ذوي الإصابات البليغة.

وجرى تناول الطعام والشراب والاستراحة بعد أداء فريضتي الظهر والعصر جمع تقديم، وجرت مناقشة بين الحضور حول ما يجب عمله تجاه هذا الهجوم، وعرض البعض القيام بعملية خاطفة ضد تجمع العدو شمال القرية في كبشان، ولكن العقلاء أشاروا إلى وجوب تلافي تكرار ما حدث سابقًا من عمل عشوائي أهوج كانت له نتيجة كارثية، ولابد من الالتزام بتعليمات القيادة. أثناء ذلك حضر اثنان من طرف رجال ابن رشيد يحملون رايات بيضاء، وأفادوا أنهم يرغبون أن يحضر زملاؤهم لرفع جثث القتلى لدفنهم حسب الأصول، ووافقوا على حضور من يقوم بذلك من الخدم والموالي غير المسلحين، واستغرق ذلك نحو ساعتين. ولم

يجري تبادل إطلاق النيران حتى المساء، وأخلد الجميع للنوم بعد أن أعدوا خطة مفصلة لعمليات اليوم التالي، حيث حضر إليهم عند الغروب ابن فرحان مندوبا عن الأمراء، وجرى الاتفاق على أهمية الاقتصاد في الذخيرة، حيث يوجد نقص كبير.

اتفق الجميع على أن خير وسيلة للدفاع في تلك المنطقة الحرجية هي عمل كمائن وفخاخ للإيقاع بالفرسان، وذلك بعمل حفر في طريق الخيالة، وتغطيتها بأغصان الأشجار أو عسيب النخيل بشكل مموه يصعب على الفارس ملاحظته وتفاديه، وبعد أن تسقط الخيل وتتعثر في تلك الحفر غير العميقة، يجري الهجوم على الفارس من قبل المشاة المدافعين عن المنطقة، ويتعاملون معه بالسلاح الأبيض، كما اقترح البعض شد حبال من ليف النخل بين جذوع الأشجار، حتى تتعثر فيها الخيول ويسقط الراكب. أشار البعض إلى أن تلك الإعمال ذات أثر محدود وقصير المدى، وسيفطن لها المهاجمون ويتفادون التعثر في الحفر أو الحبال أثناء موجات الكر اللاحقة، لذا من الضروري تدبير كميات إضافية كافية من الذخيرة. وعدهم الفرحان بإرسال بعض الذخيرة قبل طلوع الشمس، وعلى المدافعين العمل في كمائن الحفر والحبال من بعد صلاة الفجر مباشرة، كما أمر الفرسان القلائل بالتوجه باكرًا إلى دار الحقباني للتجمع هناك وتنظيم عملية هجوم جانبي على قوات ابن رشيد عند دخولها إلى الدلم.

قص الجد عبد الرحمن على الحضور من أفراد أسرته، أنه قد توجه ومعه عدد من الفرسان في الصباح نحو دار الإمارة، حيث وجد الأمراء من آل سعود وآل مقرن وعدد من رجالهم المخلصين الأشداء، إضافة إلى كوكبة من فرسان الحريق والحوطة والأفلاج، وعدد آخر من آل السديري والمعمر وغيرهم، حيث كانوا على أهبة الاستعداد للقيام بهجوم مضاد فور دخول قوات الرشيد إلى الدلم، لقد كانت خيول الأمراء من فصائل أصيلة مدربة على العمليات الحربية، وتتفوق على الغيداء فرس الجد التي كان يباهي بها أهل البلدة. سمع من البعض أن أحد النجابين قد وصل ليلة البارحة مرسلا من الإمام عبد الرحمن في الرياض، عن طريق فرزان الواقعة شمال شرق الدلم بعيدا من مركز الرشيد في نعجان، وأنه قد أفاد الأمراء أن قافلة إمدادات كبيرة قادمة من المركز الأساسي لابن رشيد في بنبان شمال الرياض قد اتجهت من غرب الرياض نحو الخرج، وقد تمكنوا من ملاحقة مؤخرتهم وأسروا البعض وأخذت كمية من الأسلحة والذخيرة التي كانت بحوزتهم، إلا أن بقية الركاب قد اندفعوا باتجاه الجنوب الشرقي، ويلزم التصدي لهم إذا أمكن. تذاكر الجد مع بعض الفرسان حول احتمال أنها على وشك الوصول إلى نعجان، حيث أن النجاب قد اضطر لسلوك طريق شرقي بعيد، وهم يسيرون بسرعة خشية المطاردة، وأن هذا

المدد سيقوي إمكانيات العدو، ويزيد من مشكلة نقص الذخيرة لدى المدافعين.

تناول الفرسان قليلاً من الطعام، وأخذوا في تجهيز الخيل للهجوم المتوقع، بينما عمد البعض إلى أخذ قسط من الراحة، وآخرون يعملون في إصلاح البنادق وشحذ الأسلحة البيضاء وغير النارية. نحو الساعة الخامسة قبل الظهر (غروبي)، جاء أحد الكشافة المكلفين باستطلاع المنطقة الشمالية الشرقية بشكل خفي. مفيدًا أن عدة كتائب تتجه نحو تلك المنطقة، وأن هناك كثافة كبيرة في عدد المهاجمين وبخاصة الخيالة، وكذلك جيش كبير من الإبل، لذا صدرت الأوامر إلى الرماة في وسط الدلم بإطلاق النار على تلك القوات، لاستدراجها للدخول إلى الكمائن المعدة مسبقًا، وحسب الخطة فقد تظاهر بعض المدافعين بالانسحاب إلى داخل البلدة من الطرق التي أعدت فيها الفخاخ، وقد سقط فيها عدد لا بأس به من الفرسان، وارتفعت معدلات الإصابة بينهم، أما الإبل فقد كانت قادرة على تفادى كثير من تلك العوائق ولم يتعثر فيها إلا القليل، حيث كانت الحفر غير عميقة، والحبال غير قوية بالنسبة للجمال على عكس الخيل. لقد عانى المدافعون بشدة من قلة الذخيرة، ومن ضعف مدى الإصابة مقارنة بالمعدل المرتفع لدى القوات المهاجمة التي كانت تحدث إصابات جسيمة من مسافات بعيدة.

استمر القتال بالأسلحة النارية والبيضاء بين الطرفين حتى بعد الزوال، وحينذاك قام فرسان آل سعود ومن معهم بالهجوم المضاد من الجانب الشرقي مما أدى إلى انقسام قوات ابن رشيد إلى فرقتين:

الأولى، انحصرت داخل البلدة بين المشاة الملاحقين والمختبئين بين الأشجار وخلف حوائط البساتين، وبين فرسان الدفاع القادمين من الجهة الجنوبية الشرقية للدلم.

أما الفرقة الثانية، فقد كانت غير قادرة على دخول البلدة لمساندة زملائهم المحصورين داخلها، وغير راغبين في الانسحاب، بل عمدوا إلى الرماية من على بعد نحو أهل العارض.

استمر القتال حتى العصر، وعانى الطرفان من خسائر كبيرة، وعدد غير قليل من القتلى من الجانبين، وكانت أشد الخسائر في فرسان ابن رشيد الذين توغلوا داخل البلدة للالتحاق بزملائهم، ولكنهم سقطوا في الكمائن ورصاص القناصين الذين أجهزوا على عدد كبير منهم، بينما تمكن الآخرون من شق طريق أوصلهم إلى تجمع رفاقهم، حيث انسحبوا جميعًا من الدلم بعد العصر بقليل (قبل العاشرة) متوجهين إلى معسكرهم المؤقت جنوب نعجان في شعيب متسع به أشجار قليلة ويسمى: كبشان.

صدرت أوامر من الشيوخ بعدم مطاردتهم خارج الدلم، والسماح لهم بإحضار بعض العمالة لرفع جثث قتلاهم، بينما تم أخذ الأسرى إلى مكان آمن جنوب مدينة الدلم. ومساء ذلك اليوم جرت مداولات مستفيضة حول نتائج العمليات القتالية، وتركز النقاش حول تدبير المزيد من الذخيرة، وكذلك البهجة بإنزال خسائر فادحة بالفرسان المعادين سواء في الكمائن، أو برصاص القناصين من أماكن قريبة من طرق سيرهم، ثم استخدام السلاح غير الناري ضدهم. جرى أيضًا بحث الأوضاع القتالية للإبل، فرغم أن معسكر ابن رشيد به جيش أبل كبير يبلغ تعداده بضعة آلاف، إلا أن معظمها من الجمال المعدة للنقل والتحميل، وهي تنفر من أصوات الرصاص، ويحدث لها هيجان يدفعها لعدم إطاعة راكبها، والتوجه عشوائيا نحو أماكن متفرقة وهي مذعورة من ضجيج المعركة، والكمائن غير فعالة بالنسبة لها إلا في حالات قليلة، أما الإبل الصخرية فهي أشد مراسًا.

بعد صلاة العشاء ونحو ثلث الليل (الساعة الرابعة) وصلت إلى مسامع الدلم ومن فيها من الأهالي أو المقاتلين للدفاع عن الديار، أصوات نقر على الدفوف ونفخ في المزامير وصدح أغاني، وبعد ذلك زادت تلك الأصوات المزعجة القادمة من شمال البلدة تجاه معسكر قوات ابن رشيد مما شوش على الجميع . كان العمال يشتغلون ليلاً في وضع عوائق من أحجار وجذوع نخل في الدروب الجانبية، لكي لا تسلكها خيل وإبل المهاجمين وتتجه نحو الطرق الرئيسية التي يترصد فيها المدافعون عن البلدة للإيقاع بالعدو صباح الغد سواء في الكمائن أو عن طريق رصاص القناصين. أثناء ذلك وقبل منتصف الليل وصل إلى المعسكر السعودي رجال من القحاطين يهنئون المدافعين لما هم فيه من ورع وتقوى، وأنهم يقضون الليل في التهجد والدعاء وذكر الله، بينما ابن رشيد ورجاله يمضون الليل يسهرون ويسكرون مع الطبالين والزمارين والراقصات، ويمارسون الفواحش والمنكرات.

وأفادوا أن ذلك دليل على أنهم لن يكونوا قادرين على مقاتلة المدافعين عن الدلم يوم غد لما هم عليه من حال بئيس. أعجب البعض بتلك الملاحظات ولكن الجد قال إنه شعر بالريبة من دوافعهم لمثل تلك الأقاويل، وقد تكون بقصد الإرجاف وتثبيط العزيمة عن الإعداد لمعركة الغد الحاسمة. بعد أكثر من خمسين سنة من تلك الواقعة، سمعت في مجلس والدي في مكة المكرمة، وعلى لسان رجال من أسرة آل رشيد، أن مثل تلك الأعمال ينطبق عليها المثل القائل: «لم آمر بها ولم تسوءني»، وأن الغجر والنور وشذاذ الآفاق الذين يسميهم البعض «رشايدة» ويقدمون خدمات لجنود أو عمال الجيش، وكان ابن رشيد لا يمانع في أن يقوموا

بممارسات تضلل غريمه وتجعله يستهين بقوة ابن رشيد، بينما يجدهم في الصباح أشاوس على الأعداء، ويغط في النوم أولئك الفساق ومن يتعامل معهم.

أفادهم الجد عبد الرحمن أنهم بعد أداء صلاة الفجر والجميع مشغولون بتجهيز أفراسهم وسلاحهم للمعركة، بينما البعض يتناول قهوة الصباح مع حبات الرطب الطازجة أو التمور المكنوزة من محصول العام السابق (حويلة) فوجئ الجميع بأصوات رماية متصلة وكثيفة باتجاه الركن الشمالي الشرقي للدلم، وكان ذلك قبل طلوع الشمس بقليل، غطت الدهشة على الأفكار، حيث لم يكن البكور من عادات قوات ابن رشيد، والمسافة بين نعجان والدلم ساعتين أو أكثر في مثل حالهم. امتطى الجد صهوة الغيداء وسارع مع بقية الفرسان ومعهم الأمراء من آل سعود ورجالهم ولفيف من فرسان القبائل المشاركة في الدفاع من تميم وسبيع والدواسر، حينما بلغوا الجهة الشرقية من القرية لاحظوا كثافة القوات المهاجمة، وبخاصة جيش الإبل حيث يبدو أن كثرة الخسائر في فرسان ابن رشيد أدت إلى نقص عدد المشاركين في ذلك اليوم.

كانت الإبل من الفصائل المخصصة لحمل الأمتعة والبضائع، وتكثر الرغاء والهياج عند دخولها في سحابة الغبار من الأتربة أو دخان البارود، وتجفل من شدة أصوات طلقات الرصاص. كان مع الفرسان عبد العزيز آل سعود وإخوانه وبنو أعمامه ورجاله وعدد من المدافعين عن الدلم، بينما لوحظ على الجبهة الأخرى أن عبد العزيز آل رشيد كان يقود الهجوم بنفسه، ويلتف حوله عدد من الفرسان والقناصة وبعض من المماليك الأشداء منهم الراكب والمترجل. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يتواجد فيها القائدان ابن عبد العزيز وعبد العزيز في منازلة مباشرة، وأخذ كل طرف في الاستماتة للدفاع عن مواقعه وإنزال الخسائر بالطرف الآخر.

كان الهجوم من جهة واحدة هي الشرق بينما القوات المدافعة داخل البلدة تطلق النار عليهم من مكامنها بين الأشجار ومن خلف الحوائط، وأما الفرسان فقد جاءوا باتجاه الشمال الشرقي، الذي كان يصعب الدخول فيه لوجود قنوات للري إضافة إلى الكمائن المعدة لعرقلة مسيرتهم. قام بعض العمال غير المقاتلين بدور بارز في ذلك الصباح هم وبعض القرويين والفلاحين من أهل الدلم، وبخاصة أولئك الذين عملوا في إقامة عوائق حجرية في الدروب الجانبية لإجبار المهاجمين على سلوك الطريق المعدة فيها الفخاخ لسقوط الخيل والإبل. لقد شارك أولئك الإبطال في الدفاع عن قريتهم وهم بدون سلاح، حيث أخذوا يقذفون الحجارة المتوسطة الحجم زنة رطل أو أكثر (نحو نصف كيلو جرام) على الفرسان والهجانة

المهاجمين، وأحدثوا إصابات بين أفراد العدو، ومن سقط عن دابته تلقوه بالعصي والفؤوس للإجهاز عليه وسلب سلاحه، وعدد آخر من المهاجمين تعثروا في كمائن الحفر أو الحبال، إضافة إلى نيران المشاة المختبئين في أماكن حصينة، عاملين قدر جهدهم للاقتصاد في استخدام الذخيرة التي أوشكت على النفاذ.

أشار الجد أنهم لاحظوا فرسان آل سعود وأقاربهم ورجالهم وهم يشنون هجومًا ضاريًا على قوات ابن رشيد لإعاقة تمركزها في الركن الشمالي الشرقي للدلم مما سيؤدي إلى إقامة قاعدة لهم وخط أمامي في البلدة يستفيدون منه للقضاء على المدافعين، وبالتالي إجبارهم للانسحاب نحو الصحراء القاحلة غرب وجنوب الدلم. لذا فقد قام هو ومجموعة من الفرسان من قبيلة سبيع وأهل الحريق والحوطة والأفلاج بالإعداد لشن غارة على المكان الذي بدأت تتحصن فيه قوات ابن رشيد، ولزيادة احتمالات النجاح أرسلوا أحد الناجين مسرعا إلى الهياثم لاستدعاء سرية كامنة هناك في انتظار الإشارة، وقد استغرق ذلك بعض الوقت قاموا أثنائه بإطلاق نيران كثيفة نحو تجمع العدو.

بعد أكثر من ساعتين وصلت طلائع سرية الهياثم التي كان فيها عدد من آل خثلان والهزازنة والكثران مع متطوعين من أهل البلدة، فشد ذلك من أزر قوة الفرسان التي ما زالت متمركزة جنوب موقع قوات الرشيد، واندفع الجد على الغيداء مع بقية الفرسان في هجوم كاسح نحو مركز تلك القوات التي بدأت في إقامة بعض السواتر الترابية والحواجز الحجرية لتدعيم الدفاع عن تلك القاعدة المؤقتة. في تلك اللحظات نفسها زادت حدة هجوم فرقة الأمراء، وبخاصة رجالهم الممتطين صهوة الجياد الرومية الضخمة والشديدة التحمل، حيث غدا العدو في مرمى النيران من ثلاث جهات، بينما تحجزه من الجهة الغربية قنوات ري وأعمال زراعية في البساتين، مما أدى إلى حدوث ارتباك داخل المعسكر. لقد تحدث الجد باعتزاز أن الغيداء أثبتت قدراتها، وأنها تستحق ما بذل من عناء في تنشئتها وتدريبها خلال الشهور الطويلة السابقة، حيث كانت قدرتها على المناورة وسهولة تحركها لتخطي العوائق وعدم تأثرها بأصوات القذائف النارية ولا اضطرابها من ارتفاع الغبار في أرض المنازلة، كل ذلك ساعد في تمكن فارسها من إيقاع خسائر جمة بالمهاجمين. ولا يقلل ذلك من الدور البارز لفرسان آل سعود وعلى رأسهم عبد العزيز وأخويه وبني عمه وعدد غفير من فرسان أهل العارض والقبائل المساندة للحركة السعودية.

قبل توسط الشمس في كبد السماء بقليل، لوحظ زيادة الاضطراب داخل معسكر ابن رشيد، وشعورهم بوجوب تخطي المحنة حتى لا يطبق

عليهم الحصار، وبعد أن وصلهم المدد من معسكر كبشان ومن القاعدة الرئيسية في نعجان، قاموا بإطلاق رماية كثيرة وكثيفة نحو الجهة الشمالية الشرقية، وتمكنوا من إيجاد ثغرة اندفع منها عبد العزيز بن رشيد وعدد كبير من المقاتلين معه نحو الشرق، بينما عادت بقية عساكره باتجاه الشمال. ذكر الجد إنه ومجموعة كبيرة من الفرسان أخذوا في مطاردة ابن رشيد مشرقين، بينما قام أفراد سرية الهياثم وبقية المقاتلين بتتبع فلول المنسحبين من الدلم باتجاه الشمال. صدرت الإشارة من طرف الشيوخ بإيقاف المطاردة وترك المهاجمين يولون الأدبار تجاه الشرق والشمال، وقد كان ذلك قرارًا حكيمًا حيث أصاب الإعياء والإنهاك الفرسان وركائبهم، بينما كان الهجانة أكثر قدرة على تحمل المطاردة، وخشية أن يكون في الأمر كمين أو خدعة فقد توقفت المطاردة وعاد الجميع إلى مواقعهم في الدلم.

الفصل السادس
راعي القومة لله ولقاء أبو عقلين

توجه الجد مع عدد من الفرسان نحو دار الإمارة، حيث تناولوا بعض الطعام، وأدوا فريضتي الظهر والعصر قصرًا جمع تقديم. قبل أخذ قسط من الراحة جاء رجال من آل مسعد ومعهم آخرون من سبيع وطلبوا من الشيوخ الموافقة على استضافتهم على العشاء في ذلك اليوم، فوافقوا على شرط أن تكون الترتيبات مختصرة وبتحفظ لتجنب أي إشكالات أمنية.

مشاركة في إعداد الوليمة قدم الجد وأخوه الأكبر حمد عشرة رؤوس من الخراف النجدية التي تمت تربيتها في مراعي الحريق بإشراف عمالة العم زيد الكبير إضافة إلى ثلاثة جمال صغيرة في السن طرية اللحم من التي تسمي قعود، وذلك لإكمال متطلبات الضيافة للشيوخ وأعوانهم ورجالهم.

قبل المغرب بنحو ساعة حضر أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل، ومعهم جمع غفير من آل جلوي وآل تركي وآل فرحان وآل مشاري وآل مقرن ومن السداري ومن سبيع وتميم وقحطان وبني خالد المناوئين لابن

رشيد غير الموافقين على تواجده لدى أقاربهم في نعجان، إضافة إلى عدد من أهالي منطقة الخرج ومدينة الدلم التي كانت أكبر قرى المنطقة.

اللقاء الثاني بالرجل الأول:

حينما صافح الجد الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن، كان بجوارهما شخص مقرب للأمير من آل مجفل (خضران سبيع) وله علاقة وطيدة مع الجد، وقد أشار بأن هذا هو خيال الغيداء الذي سألت عنه صباح اليوم، وكانت قد مضت عدة شهور على أول لقاء بين الجد وعبد العزيز، ورغم ذلك أشار الأمير إلى أنه يعرفه فهو «راعي القومة لله» الذي أخذنا منه البيعة في الحائر، وقد اثنى على فروسية الجد، وما قام به على صهوة فرسه الشابة واستفسر عنها، حيث أفاده الجد إنها من تنشئة العم زيد، وأضاف ابن مجفل أن زيد الكبير هو عميد السبعان في الحريق، ولم يتمكن من أكمال الرحلة لحضور الموقعة بسبب صحته حيث يناهز السبعين بعدة سنوات، وأصابته وعكة خفيفة أدت إلى عودته لداره، وأجاب عبد العزيز أن ليس على المريض حرج، وأن إخوة زيد قاموا بالواجب على أكمل وجه.

ذكر الجد أثناء سرد الواقعة لأخيه الأكبر وابنه الأكبر وبقية أفراد الأسرة، أن في اللقاء الثاني مع عبد العزيز، أخذ يمحص كل تصرفاته وأقواله بدقة، وقد ازداد إعجابه به، حيث أشار إلى أنه في اللقاء الأول أشار إلى ما يتمتع به الأمير من خصال الذكاء وحسن التدبير والشجاعة والأمانة والوفاء، وذلك لما لاحظه مما لديه من «عيون وسنون» صادقة وواضحة وقوية. أما في هذه المرة فقد لاحظ أن الأمير لديه قدرات عقلية متميزة وأخلاق سامية رفيعة، وقال إنه اسماه «أبو عقلين» بعد تلك الملاحظات في المقابلة الثانية.

استفسر منه العم زيد عن سبب ذلك. فأوضح له الجد أنه بمجرد أن انتظم الحضور في المجلس المعد لذلك، فقد كان عبد العزيز أكثر الشخصيات حضوراً وجاذبية، ورغم أن آل جلوي لهم هيبة وقوة شخصية وشجاعة وشدة مراس وعنفوان، إلا أن عبد العزيز كان ذا قدرات متفوقة على الجميع، فقد لاحظ عليه أنه رغم تلك المعركة الشرسة في أول ذلك اليوم، ورغم مشاهدة القتلى والجرحى والأسرى، إلا أنه كان بعيداً عن العبوس والقنوط، لقد كان يحادث الجميع بابتسامة وتفاؤل، بل ويوزع ملاحظات لطيفة على بعض الأشخاص والأحداث.

تحدثوا عن شخص يقال له لبدة من معاوني ابن رشيد، كانت له صولات في المعركة، ولكنه علق على ذلك قائلاً إنه أخرق ومتهور، ولابد «يسد به اللزي» وهو تعبير في وسط جزيرة العرب يقصد به أنه قليل

الشأن، حيث أن بركة الماء (اللزي) يوجد لها مزراب سفلي لإخراج الماء من إحدى الجهات، ويمكن فتحه أو إغلاقه بأشياء تافهة مثل حفنة مكورة من الألياف والأقمشة البالية المهملة. وقال عن آخر اسمه سعيد، علق الحضور على أدائه أنه ضعيف فقال: «مبارك من سعيد يشد الرشا» وهو حبل الدلو، وفي ملاحظة حول سقوط أحد أعوانه من على الناقلة وإصابته قال: «أمر الله شق القربة» كانت تلك الملاحظات والتعليقات الطريفة، ذات أثر فعال لإزالة الشد النفسي لدى المقاتلين بعد يوم صعب من القتال المرير، يهيئ الرجال لتناول طعامهم في سكينة، ويستعدوا لأخذ قسط كاف من النوم ليلاً.

لم يكتف الأمير بتلك التعليقات، بل أخذ يجامل ويمازح الحضور وبخاصة من رجاله المقربين، ويطلق عليهم ألقابا مرحة، فهذا يشتكي من أن أذنه أصابها طنين شديد بعد أن أطلق أحدهم النار قريبًا منه فأفزعه. فلقبه عبد العزيز: «طرطاخ» وآخر لقبه: «خرفاش». وكذلك أسمى أحد أقاربه، وآخر لقبه «عمعوم» وثان أطلق عليه لقب «الباشا» لأنه يمشي بخيلاء. وآخر سماه: «السيد». وغيره: «الأفندي». وهما لقبان غريبان على أهل العارض.

ظن الجد أن تلك الممازحات لغرض تصفية الذهن مما مضى وللإعداد وللتفكر بعد ذلك فيما يأتي، ولكن فوجئ الجميع وبخاصة الجد فيما قاله أحد الحضور أن ابن رشيد قد فر هاربا للسيح، وأنه بعد ذلك سيفر للعودة إلى الجبل عند أهله، فسارع عبد العزيز للاعتراض، وأشار إلى أن ابن رشيد لو أراد الفرار لاتجه نحو الشمال باتجاه نساح نحو قاعدته الخلفية في شمال الرياض، ولكن ذهب شرقًا نحو السيح لغرض إعادة ترتيب أوضاعه والحصول على إمكانيات إضافية لتحسين فرص انتصاره. أن سرعة تجاوب عبد العزيز قد أوضحت للجد أنه يشبه الهزير وهو نوع من السنوريات العربية، المشابه للنمر ولكن أصغر حجمًا مقارنة مع النمر البنغالي، ويقول رجال البادية في الجزيرة أن الهزيز الذي يشبه الضبع يتألم بإحدى عينيه وتبقى الأخرى متيقظة حيث يمضي وقته في مكان مرتفع يشاهد منه الفرائس كما يتفادى الأعداء. أيقن الجد أن الأمير عبد العزيز قد قسم عقله إلى جزأين، أحدهما يفكر في عواقب الأمور ويخطط للبدائل المحتملة ويعد أساليب النجاح، بينما الجزء الآخر من عقله يلاطف مرافقيه ويبعث في نفوسهم الطمأنينة والراحة، وإبعاد الشعور بالوحشة والتوتر. كرر الجد في جلسته المسائية مع أهله، الإشادة بالقدرات الفكرية والعملية للأمير عبد العزيز، وثقته في قدرته على الاطلاع بقيادة مهمة الدفاع عن العارض، ضد هجوم مندوب الدولة العثمانية.

توجس واستعداد:

وفي أثناء تلك الجلسة أورد أبو شيبة ملاحظة عابرة حول ما إذا قرر ابن رشيد الهجوم على هذا المجلس، وبالتالي يحصل على نصر ثمين ضد جمهرة آل سعود ومشايخ العارض وأمرائها. سارع أحد أقارب الإمام عبد الرحمن برد متعجل وقال: بأننا قد رتبنا الأمور بشكل جيد، وهناك عيون في مناطق مختلفة مختفون في أزياء الفلاحين والرعاة ويراقبون كامل المسافة بين الدلم والسيح، وقد أخذنا الحيطة والعدة لذلك، ولكن الأمير عبد العزيز أشار له بأحد أصابعه وبكلمة واحدة «أقصر» فسكت عن إكمال كلامه.

لقد كان عبد العزيز يعرف جيدًا من هو أبو شيبة، فهو ليس أفضل المتحمسين في الحوطة، ولكن يلقى رأيه الاحترام والتقدير من بقية الأسر العريقة في الحوطة مثل: آل مرشد وآل مهنا والخريف والعبادلة، بل يمتد ذلك إلى كامل منطقة العارض، وإلى مناطق تجمع بني تميم في جزيرة العرب، وقد كان أبو شيبة من ذوي العقل الراجح والحلم والفطنة، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا يدخله الهيجان في أوقات قليلة إذا رأى أو سمع ما يغضبه، مما يدفعه إلى أقوال أو تصرفات غير محببة، وهذا طبع كرام البشر وعلية القوم.

لقد علم عبد العزيز أن موقفه الحالي في منطقة الخرج يعتمد على عدة أسس أحدها موقف أبو شيبة التميمي، الذي كان رافضًا لمبايعة عبد العزيز عند فتح الرياض، ولكنه غير رأيه بعد أشهر حينما بلغته رسائل من الشيخ سعد بن عتيق الحوطي، بأن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف التميمي معاون مندوب ابن رشيد في الرياض، قد غير رأيه تجاه عبد العزيز، حينما رأى في تلك الأشهر حسن تصرفه وصلاح أخلاقه وتعامله، وقدرته على سياسة الأمور بالطرق الصحيحة. وبعد أن كان الشيخ عبد الله يرسل كتيبة كاملة بقيادة أحد أبنائه لمعاونه ابن رشيد في معركته ضد الإمام عبد الرحمن والصباح، فقد تحول إلى تأييد آل سعود ضد حكم ابن رشيد ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى أبو شيبة ليحث أهل الحوطة وغيرهم من أهل العارض ضد الرشيد. لقد سر الجد بتصرف عبد العزيز ذلك، ثم قوله بعد كلمة «أقصر» مخاطبًا أبا شيبة: إننا نقول كما قال يعقوب بن إسحاق عليهما السلام: [**فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**]. كما نقول ما قاله الله لرسوله [**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**] وبذلك أمكن احتواء ذلك الموقف الذي كاد يدخل شيخ الحوطة في نوبة غضب لا يعلم إلا الله ماذا

ستؤدي إليه؟ ساد الصمت المطبق على المجلس، وسارع المضيفون بدعوة الجميع لتناول الطعام عند مغيب الشمس وقبل صلاة المغرب والعشاء.

انشغل الكثيرون بتناول الطعام والانتهاء قبل مغيب الشمس، ما عدا الجد عبد الرحمن الذي أوضح أنه كان منشغلا كليًّا في تأمل عبد العزيز، الذي لم يكن أكبر الحضور سنًّا، ولا أعلاهم مكانة، ولكن بحق الأكثر تفوقًا في شخصيته وتصرفاته وأقواله، وحتى في حركات يديه ونظرات عينيه كان يبدو فوق المعتاد «لقد زاده الله بسطة في العلم والجسم» أثناء ذلك كان عبد العزيز ينشر ملاحظاته الطريفة، بينما يعلم الجد أن النصف الآخر من عقله يخطط ويجهز للأيام القادمة، قال الأمير مخاطبًا آل مسعد، مضى علينا في الخرج فترة لم نذق مثل هذا اللحم الطيب، فلماذا أخفيتموه عنا؟ أجابوه أن الخراف من قطيع يتبع زيد الكبير في الحريق، وأجاب عم الوالد حمد بن عبد الله، أن الخراف النجدية الأصيلة لديها حساسية شديدة لنوعية المياه، والحريق مياهها قليلة ولكنها عذبة ومنخفضة الشوائب، أما مياه الخرج فهي غزيرة، وتسيح على الأرض بدون حاجة إلى جهد لرفعها في بعض الأماكن، ولكنها ذات نسبة عالية من الشوائب التي تؤثر على الفصائل الجيدة من الضأن، وتسبب لها أمراضًا أحيانًا تؤدي إلى عدم قدرة الإناث على إكمال الحمل ويسقط جنينها، لذا فإن منطقة الخرج لا تصلح لمثل تلك النوعيات، وأوضح العم حمد أنهم فور انتهاء الأعمال الحربية سيرسلون عددا من تلك الأغنام إلى الإمام عبد الرحمن وأبنائه وأقاربه في الرياض.

قام أحد الحضور بإصدار صوت نحنحة مرتفعة، وهب واقفا لمغادرة مائدة الطعام الأرضية، وعلى عادات الأعراب الكريهة، يتوجب على الجميع القيام والكف عن تناول الأكل، ولكن الأمير عبد العزيز بصوته الجهوري، أمرهم بالجلوس وإكمال الطعام وناشدهم ألا يقوم أحد إلا بعد أن يشبع، وأشار إلى أن هذه هي «الطريقة السعودية» ولابد من إلغاء العادة السابقة بالنحنحة والمغادرة بعد قليل من بدء الجلوس على الطعام، وأشار إلى أنه سوف يستمر جالسًا ويأكل، غير مبال بالنحنحة الشاذة. أعجب الجميع بهذه الأخلاق النبيلة وإلغاء العادات الفاسدة.

عند مغادرة الطعام، كان هناك بعض العمال والمضايفية يقدمون القهوة للحضور وهم وقوف عند باب البيت القماش الذي أعد لتناول العشاء. حيث بادر أحد الحضور مخاطبًا الأمير عبد العزيز، بأن أخبار وصلتهم من معسكر ابن رشيد، يقول فيها عبد العزيز بن متعب آل رشيد: إنه أخو رثعة ويتحدى عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود للمصارعة اليدوية بحضور المقاتلين من الطرفين، ومن يصرع غريمه يعتبر منتصرًا ويدين له الجميع بالولاء له، وذلك خير من القتال الدامي الذي أسقط عددًا

كبيرًا من القتلى والجرحى والأسرى، إضافة إلى تلف الأموال والممتلكات. ضحك عبد العزيز بقهقهة عالية عكس عادته في الضحك بابتسامة هادئة، وقال للرجل: «اترك سوالف البعارين، كيف يصارع الميت الحي، أليس ابن رشيد لقبه: الجنازة ؟ وأنا من فضل الله حي فكيف تكون المصارعة بين الطرفين ؟»

وقفة تأمل:

هنا لابد من التوقف قليلاً عند مسألتين هما:

الأولى: لقب عبد العزيز بن رشيد الجنازة، فقد سمعت في مجلس والدي- رحمه الله- بعد هذه الواقعة بأكثر من خمسين سنة نقاشا حول ذلك اللقب، حيث قال البعض أن هذا المسمى لم يطلق عليه إلا بعد أن قتل في روضة مهنا بالقصيم بعد معركة الدلم بسنوات، حين دخل أثناء الليل معسكر آل سعود بالخطأ، وتعرف عليه رجل من قبيلة سبيع يقال له الأزمع من آل أبو اثنين وأطلق عليه الرصاص فسقط من على فرسه صريعًا، وفي الصباح أمر عبد العزيز بوضعه على فرسه وإطلاقها غربا لتعود إلى معسكر الرشيد وهو على ظهرها جنازة. ولكن والدي أوضح أن ذلك اللقب كان يطلق عليه قبل ذلك بسنين، وحينما حضر المجلس أفراد من آل رشيد استفسر البعض منهم عن ذلك، وأفادوا أن لقب الجنازة أطلق على عبد العزيز بن متعب قبل أن يتولى الحكم في الجبل، وأثناء حياة عمه محمد الكبير، وسبب ذلك أنه أثناء إحدى المناوشات ضرب أحد المعادين ابن رشيد بآلة معدنية معه على إحدى رجليه وهو فوق راحلته، فلم يتألم من ذلك واستمر في القتال، وأصبح القوم يقولون أن الضرب لا يؤثر فيه إلا كما يؤثر في الجنازة التي لا تشعر بالألم، وأخذوا يسمونه كذلك، وحرصا منه على أن لا تكون تلك التسمية وسيلة لمعايرته والانتقاص من قدراته، فقد آثر أن يحولها إلى مفخرة ولا يمانع أن يلقبه الناس بها، بل ويسمي نفسه أحيانا بالجنازة دفعا للأقاويل.

كما أضاف أولئك الملأ من آل عبيد أن القول بخروج عبد عبد العزيز بن متعب من معسكره ليلاً مع الفريخ لغرض ما غير صحيح، وأن حالته غير الطبيعية في تلك الليلة هي ما سبب دخوله معسكر آل سعود بالخطأ، فهذا غير صحيح أيضًا، وإنما كان الجيش المعادي قد بدأ الهجوم قبل انبلاج الظلام، وحدث شغب وتوتر في معسكر الرشيد أدت إلى فوضى وارتباك، وكان عبد العزيز بن متعب على فرسه يحث قومه على الصمود في وجه المهاجمين حينما أصابته طلقة طائشة أردته قتيلا.

الثانية: مسألة مصارعة قادة الجيشين يدويا بحضور الجميع، ومن ينتصر على غريمه يعتبر المنتصر هو وجيشه في المعركة ويستسلم له

الطرف الآخر. «وكفى الله المؤمنين القتال» فإن ذلك لم يكن من طباع العرب في مشاجراتهم، بل كانوا يحرصون على فتح معركة شاملة بين الطرفين، وإن كانوا في زمن الجاهلية يستهلون المعركة بالمبارزة بين اثنين من قادة الكتائب، ثم يليهم اثنان آخران حتى يقتنع أحد الأطراف بعدم رغبته أو قدرته على الحرب، أو ينطلق القتال بشكل موسع. وتلك من عادات القتال الإغريقية، وبخاصة ما ذكره هوميروس عن معارك اليونانيين مثل معركة طروادة الشهيرة، كما أشير إلى أن عاداتهم الأوربية كانت تمنع أهل القتلى من استلام جثث أقاربهم، إلا بالحضور عند قائد الجيش المنتصر وهو في مكان مرتفع، ويقبلون قدمه ثم يبحثون عن صاحبهم بين الموتى ويأخذونه، ومن لا يقوم بذلك، تبقي جثة قريبة في العراء للطيور والهوام.

ختام وليمة سبعان الخرج:

ونعود الآن إلى ما قصه الجد لأهله عن ختام وليمة سبعان الخرج للأمير عبد العزيز وصحبه وكبار المشاركين في الدفاع عن الخرج، حيث أفاد بأن الحقباني أرسل لآل خثلان بأن هناك لقاءًا في أحد السرادقات الجانبية ويود منهم المشاركة فيه، حينما ذهبوا هناك وجدوا الأمير محماس وآخرين من أهل الحريق وجمع من أهل الحوطة على رأسهم أبو شيبة ووجعان الرأس ورجال من الشثور وآل خريف وآل مهنا. دخل عليهم الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن وليس معه سوى شقيقه الأصغر سعد متوجعًا من جرح في إحدى ساقيه ويرافقهم ثلاثة من رجالهم الخاصين، وبدأ الأمير الكلام مباشرة، قائلا إننا بعون الله ثم بجهودكم تمكنا حتى الآن من الدفاع ببسالة عن الخرج من هذا الهجوم الشرس، ولكننا نمر حاليا في مرحلة حرجة ويلزم علينا بذل المزيد من الجهد والإمكانيات لضمان دحر هذا الهجوم الذي ما زال يتربص بنا، ونتوقع خلال أيام قليلة أن يجمع المزيد من القوات لعمل شوط ثاني من الهجوم قد يكون أكثر شدة مما سبق، وأريد أن أعرف رأيكم يا أهل الحوطة والحريق فيما جرى حتى الآن وما هو محتمل في الأيام القادمة لأننا نعول على الله ثم على قدراتكم، فأنتم أقرب البلاد للخرج حيث لا تبعد الحريق سوى ساعات، والحوطة تبعد أقل من مرحلة، أما الأفلاج والسليل فهي تبعد مسيرة عدة أيام، وأود أن أسمع ما لديكم. ابتدر الحديث فوراً الأمير الحقباني فأثنى على ما قام به عبد العزيز ورفاقه من آل سعود ورجالهم من شجاعة في صد العدوان، وأشار إلى أن أهل الدلم كانوا في غالبيتهم العظمى غير مهتمين بالنزاع بين آل سعود وآل رشيد، ولكن من خلال ما لاحظوه في الأيام الماضية،

وأصبحوا عددًا كبير منهم يقف في صف الحركة السعودية ضد مندوب العثمانين.

وأشار أن عبد العزيز يكسب في كل يوم عقول وقلوب أهل الخرج كلهم، بل وردته أنباء أن أهل نعجان سواء من الخوالد أو غيرهم لم يعودوا مرتاحين لوجود ابن رشيد في بلدتهم، وأصحبوا يمتنعون عن معاونة جنوده، بل ويعكرون عليهم أعمالهم ويسببون لهم الأذى قدر الإمكان، وهذه مؤشرات طيبة على اقتناع بقية أهل الخرج بالوقوف مع الجانب السعودي. ثنى أمير الحريق محماس على تعليق أمير الدلم، قائلاً: إنه عندما وردتنا أنباء دخولكم الرياض كان قدومكم من الكويت، ولكن حينما حضر اللقاء معكم في الحائر بعض أهالي الحريق وتعرفوا على قدراتكم قررنا مبايعتكم والوقوف ضد آل رشيد في هجومهم على الخرج المجاورة لنا .

وعندما حضرنا إلى المنيصف قبل أيام كان البعض ما يزال متشككا في جدوى الدخول في قتال لا طائل منه وقد يؤدي إلى نزاع محلي طويل الأمد. أما بعد مشاهدة أسلوبكم في العمل فقد رضي الجميع بالتضحية بالغالي والنفيس في سبيل إعادة الحكم السعودي العادل والرشيد للبلاد، وسررنا حينما لاحظنا حماس أهل الخرج للوقوف معكم، حيث لاحظنا أن النساء والأطفال كانوا يقذفون القوات المهاجمة بالحجارة من أسطح منازلهم حينما حاولوا دخول الدلم عبر أحد الأحياء الشرقية.

وأضاف: إننا جميعا على أمل أن يتم النصر في هذه المعركة وندحر المهاجمين، وأن لا يتبع ذلك أي نزاع بين أمراء آل سعود على الحكم. التفت الأمير إلى أهل الحوطة فسارع للحديث رجل من آل مرشد هو ابن عثمان، حيث قال بصوت جهوري، إنك حينما أرسلت إلينا مندوبيك في الضحية (شهر ذي الحجة) أوضحنا لهم بجلاء إننا لا نرغب فيك ولا في إخوتك ولا والدك، هنا التفت الأمير سعد بحدة نحو الرجل، فأشار عبد العزيز بيده قائلاً: إننا نعرف صراحتكم يا أهل الحوطة ونلاحظ أنكم «تجرحون وتداوون» في الوقت نفسه فهات ما عندك. أجاب ابن عثمان أن ليس لدينا إلا الصدق والوضوح والبعد عن المجاملة الزائفة. لقد عرفنا عمك سعود أثناء حياة جدك الإمام فيصل بن تركي، وكان يتولى إدارة العارض الجنوبي، بينما يتولى عمك عبد الله إدارة مناطق سدير والمحمل والوشم، وكنا مرتاحين لأسلوبه في سياسة الأمور وتدبيرها، وحينا شبت الفتنة بين أعمامك ونشب القتال ابتعدنا عنه، لأننا في غنى عن تلويث أيدينا بالدماء البريئة، وكنا نعيش في نعمة، والترك تركونا بعد هزيمتنا لهم في السلامية. وكسر قواتهم وغنيمة أكثر من خمسة عشر طوب كبير (مدفع) ما زال البعض منها محفوظا في حائل.

إنك أفضل مما قالوا عنك:

وأضاف يقول: بعد وفاة أعمامك عبد الله وسعود وتجدد الفتنة بين والدك وأبناء أخيه، اعتزلنا الخوض فيها، حتى تمكن محمد بن رشيد (الكبير) من الاستيلاء على كافة أنحاء نجد وهروبكم إلى الكويت، وبقينا لا نعتدي على أحد، ولا نسمح لأي من كان بالتعدي علينا أو على جيراننا، وحتى عندما قام مندوب الرشيد بالقضاء على أبناء عمك لم نقبل دخول أي قوات لهم في الخرج والحوطة والحريق، مما جعله يقوم بذلك عبر عمليات فردية بواسطة بعض أهالي المنطقة الموالين لآل رشيد مثل الطوير وغيره. لذلك رفضنا مبايعتكم في حينه، وبعد شهور أرسل لنا مشايخ الرياض، أن منهجكم شرعي، وأن تصرفاتكم حميدة، والرجاء في الله أن تكونوا أهلا لقيادة المرحلة القادمة، لذلك فقد دعوناكم للحضور والتباحث المباشر، حيث إننا مثل أجدادنا لا نثق كثيرًا في الكلام المنقول، بل نرى إننا يمكن أن نحزر الرجل من رؤية قفاه، وإذا شاهدنا وجهة بدأنا نعرفه، وإذا حادثناه أصبح مثل الكتاب الذي نقرؤه، أما بعد أن نعايشه عدة أيام فإننا نكشف ظاهره وباطنه قدر الإمكان، ولا يعلم النوايا والسرائر إلا الله. لقد عايشناك في الحوطة فترة قصيرة، تبين لنا خلالها أنك أفضل مما قالوا عنك.

ثم قال بهمة: لذلك بايعناك، وتعلم يا عبد العزيز أنك جئتنا ومعك نحو مائة رجل فقط، بعضهم طباخين أو حمالين، واليوم معك من فضل الله أكثر من ألفي مقاتل، وتؤيدك منطقة الخرج والحوطة والحريق والأفلاج والسليل، فسر على بركة الله. ونؤكد لك إننا في تميم لنا عزوة ونفوذ، ليس على الحوطة وما جاورها فقط بل نمتد إلى الأحساء والدوحة ومناطق القصيم وشمال نجد، ومستعدون لمحاربة ابن رشيد والأتراك والتضحية بأموالنا ودمائنا وأرواحنا، لا نبالي بالخسائر المادية أو الجروح والإصابات ونطلب الشهادة لحماية الديار الإسلامية من غطرسة العثمانيين، وأساليبهم غير المتوافقة مع الشريعة، وإذا لزم الأمر يمكننا أن نجند عشرة آلاف رجل نتجه بهم معك إلى أجا وسلمى ونقضي على قواعد الشر والكفر، ونؤسس الحكم الشرعى.

أفاد الجد أنه لم يستطع تبين انطباع الأمير عبد العزيز من سماع هذا الكلام، وهل كان مندهشا أو مستاءا أو مستنكرا، إلا أنه سارع بالقول لآل مرشد بأني أيضًا قد عرفتكم جيدا أثناء إقامتي في الحوطة والخرج، وتجاوز تفصيل الأمر بأن استفسر عن لقب «وجعان الرأس»، فأفادهم أحدهم أن ذلك لقب أطلقه البعض على العم محمد بسبب تردد الشقيقة عليه، مما سبب له آلاما مبرحة، وحينما علم أن البعض أطلق عليه ذلك

اللقب، خشي أن تتحول إلى «عيارة» فسارع إلى تبني اللقب والافتخار به وعدم الممانعة في أن ينادى به بل ويعتز به.

ساد الصمت للحظات قليلة فسارع الجد لأخذ مبادرة الحديث فقال للأمير: أن الأمور في الأيام الماضية سارت بشكل جيد، والإصابات محدودة رغم قلة الإمكانيات، ولقد لاحظنا أثناء ذلك أن ابن رشيد رغم ما لديه من إمكانيات وافرة إلا أنه يعاني من «قلة الدبرة» (التدبير) كما نلاحظ حسن التخطيط والإشراف لديكم، لذا نتوقع خلال الفترة القادمة أن تتمكن بعون الله من دحره، ونسأله تعالى أن لا يخيب الرجاء فيكم، بأن تقيموا حكما في العارض على أساس الشريعة الإسلامية، ونوصيكم أن تحرصوا على خاطر ومصلحة أهل الديار لأنهم الأساس قبل الأرض، ونوصيكم أن تنظروا إلى حقوق الناس تجاهكم وواجبكم تجاههم، قبل أن تطلبوا منهم مراعاة واجباتهم تجاهكم وحقوقكم عليهم.

أخذ عبد العزيز يدخل أصابعه في لحيته غير الكثيفة وهو صامت يتفكر، لذا وجد لهم حمد من الواجب السؤال عن الغرض من هذا اللقاء المنفرد بأهل الخرج والحريق والحوطة. أجاب عبد العزيز فورا بالدعاء إلى الله أن يبارك في جهود ومشاعر الحضور تجاهه، وقال: إننا حاليا في وسط معركة شرسة وحامية، وابن رشيد لم يذهب للسيح منهزما، ولكنه يعد للمزيد من القوة لهجوم آخر على الدلم، وليس من المفيد حالياً الحديث عن الأمور الماضية التي يمكن تأجيلها إلى وقت آخر، كما أن التطلعات للمستقبل مهمة ولكن ليس هذا أوانها. ثم أردف قائلا: القصد من اللقاء هو دعوتكم لتوفير المزيد من الإمكانيات للمعركة وبخاصة الذخيرة والفرسان، إننا بحاجة ماسة إلى ما لا يقل عن مائتي صندوق من الفشك (الرصاص) للبنادق ويفضل أن تكون ثلاث مائة أو أكثر، لأن ابن رشيد يستعد الآن إلى عمليات هجومية قوية وقد تستمر طويلاً، لذا نطلب منكم سرعة توفير أكثر قدر ممكن من الطلقات النارية والخيالة، حتى نستطيع صد هجومه، واعتذر الأمير للحضور لعدم توفر السيولة النقدية «الدراهم» حالياً، ولكن قيمة كل ذلك يعتبر قرضًا عليَّ أنا وإخوتي وكذلك والدنا الإمام عبد الرحمن في الرياض، لو حدث لنا أي مكروه. وأفادهم أنه مستعد لتقديم كتابة موثقة بمقدار تلك القروض لتسدد في أقرب وقت. صاح الجميع في الوقت نفسه إننا حضرنا هنا مضحيين بأرواحنا وأموالنا لندافع عن ديننا ومحارمنا وديارنا، ولم نحضر هنا لأي مصلحة دنيوية. تهلل عبد العزيز بذلك الرد الواضح والمباشر، وإفادتهم بوجوب سرعة مندوبين لاحضار المزيد من الإمكانيات، حيث يتوقع أن يقوم ابن الرشيد خلال ثلاثة أيام بإنهاء استعداداته في السيح وشن الجولة الثانية من الهجوم على الدلم، وأشار إلى أهمية الإسراع في ذلك قبل بدء الهجوم.

أفاد الجد عبد الرحمن أفراد أسرته في ذلك اللقاء أن شقيقه حمد كلفه للتعجيل بالذهاب للحريق مع بعض الخدم بعد صلاة العشاء مباشرة وإحضار ما يتوفر لدى أخيهم زيد وشراء المزيد من حلة البلدة والعودة خلال الفترة المحددة. كما أفادهم أنه تمكن من قطع المسافة بين الصحنة والحريق في زهاء عشر ساعات، وها هو الآن معهم يستعد للمغادرة صباح الغد واستأذن في أن يخلد للنوم، ليتمكن من قطع مسافة العودة في أقصر وقت ممكن، إلا أن ابنه الأكبر عبد الله (محل هذه السيرة) انتهز ضيق الوقت، وأصر على والده أن يصحبه في رحلة الذهاب، بعد أن انقطعت رحلته السابقة، وتسبب مرض عمه زيد في عودتهما للبلدة. رفض الجد عبد الرحمن ذلك، وأفاد أن شدة إطلاق النيران، وانتشار القتال إلى كثير من قرى الخرج يجعل من غير المناسب وجوده هناك. أصر الفتى عبد الله على رغبته في الذهاب واستعان بعمه الذي وقف في صفه، وحاول إقناع أخاه الأصغر بإتاحة الفرصة له للمشاركة في الأعمال المسنادة بعيدا عن خط النار، أشار الوالد أنه لن يمانع إذا وافقت والدته على ذلك. كان رد الشيخة بنت رشيد هو الرفض التام، وطلبت من زوجها أن يصرف النظر كليا عن اصطحاب أكبر أبنائها إلى المعركة قائلا: هل تظنونها هوشة عربان. أن هذه حرب شرسة مع «الأروام العثمانين» الذين يملكون قدرات حربية متطورة، وليس فيها مجال للأطفال. لم يكن عبد الله وحده هو المستاء من تلك الملاحظة، بل أن عمه (زيد الكبير) رفض ذلك وأكد أنه لم يعد طفلا، وأمر بأن يرافق القافلة للإشراف على السقيا ومن ثم البقاء في الصحنة مع العمالة لحين انتهاء تلك المنازلة على خير بعون الله.

المسيرة للصحنة:

في الصباح الباكر وقبل شروق الشمس توجه بعض العمال مع الركائب والنقود إلى حلة الحريق لتحميل صناديق الذخيرة، بينما عمل الباقون على تحميل صناديق الذخيرة الموجودة لدى العم زيد، إضافة إلى الذهاب (المؤن والإعدادات) اللازم للرحلة. أخذ الوالد رحمه الله في إعداد المياه اللازمة أثناء السفر، وكانت تنقسم إلى أربعة أنواع:

الأول: للشرب ويوضع في أوعية قماشية مشدودة ومبطنة سعتها (3-5 لترات) ينضح منها الماء قليلاً، وعندما يتبخر تبرد المياه بداخلها وتصبح مستساغة للشرب، وتعلق هذه المطارات كما يسمونها في الكويت على جوانب الركائب بعيدا عن أشعة الشمس المباشرة وتتعرض لتيار الهواء.

الثاني: هو مياه الوضوء والاغتسال، وتحفظ في قِرَب من جلود الماعز تتسع الواحدة لنحو (15 لترا) من الماء،

النوع الثالث: من المياه للنظافة، وتحمل على الدواب في أوعية الكيروسين المعدنية، سعة (18 لترا) ولها قفل علوي لمنع الانسكاب.

النوع الرابع: هو لشرب الركائب، وكان ينقل في حاويات من جلد الثيران. كان من الواجب على الفتى عبد الله تحديد مصدر كل نوع من المياه، وملء العبوات، ثم ترتيب وضعها على الدواب بالشكل الجيد الملائم لوعورة الطريق، وبما يضمن تفادي تحميلها أكثر من طاقتها، أو أن تسقط بعض حاويات المياه أثناء السفر.

بعد شروق الشمس كان الركب قد اجتمع محملا بالذخيرة من الجهتين، ومتوجها نحو الصحنة، وبعد قليل أخذ الطريق اتجاها صعوديا في الضلع الواقع شمال غرب الحريق، وأصبح سير قطار الجمال وئيدًا،حيث أخذت الإبل تئن تحت ثقل الحمولة وصعوبة تسلق التلال، لقد كانت القافلة تسير بسرعة أضعفت الدواب، لذا قرر الجد أخذ استراحة ونقل بعض صناديق الذخيرة من أضعف بعير إلى أحد البغال القوية، كما تم إعادة ترتيب بعض الأحمال الأخرى لضمان تحسين معدل السير، ولتفادي التأخر في الوصول. وبعد تجاوز المرتفعات، تمكنت القافلة من رفع معدل السرعة متجهين صوب الصحنة حريصين على الوصول في أقرب وقت ممكن. كانت الغيداء هي درة ذلك الموكب، حيث تسرح على هواها، تمشي الهوينا ساعة أو تمرح هنا وهناك ساعة أخرى في خفة ورشاقة، حيث رفض الجد أن تحمل أي أمتعة، بل أزاح عنها السرج واللجام وتركها تسير على ما تهوى، تبحث عن قليل من الأعشاب المتبقية في نهاية ذلك الصيف الحار، وتلتفت بين آونة وأخرى إلى راعيها الجد عبد الرحمن، الذي كان يرغب أن تصل ميدان المعركة في ذروة نشاطها، غير متأثرة بوعثاء الطريق وحمل الأثقال، مستعدة للمطاردة والمناورة أثناء الأوقات الحرجة في المعركة. قبل مغيب الشمس كان التقدير أن المتبقي عدة ساعات قبل الوصول للصحنة، وكان معظم أفراد القافلة في قلق مما يكون قد حدث هناك خلال اليومين الماضيين، ويخشون أن يكون جيش ابن رشيد قد وصل غرب الصحنة، أو لديه كشافة هناك قد يتعرضون لهم بالأذى ويسلبوا ما معهم من ذخيرة وأموال، لذا بعد تناول وجبة خفيفة قرر الجد عدم المبيت هناك بل يلزم السرى في الساعات الأولى من الليل لضمان الوصول إلى معسكر آل خثلان في الخرج. كان القمر في المحاق تلك الليلة، والظلام دامس، إلا أن معرفة الجد بالطريق ساعد على سلوكهم الجادة الموصلة إلى غايتهم عند منتصف الليل أو بعده بقليل، على مسافة تبلغ نحو نصف ساعة من الصحنة، أمر الجد العمال بإناخة الجمال وتقييد الدواب الأخرى، والانتظار هناك، ريثما يقوم باستطلاع الطريق إلى داخل الصحنة، حيث اصطحب معه ابنه الأكبر وبعض أفراد العائلة مع اثنين

من العمال. حينما وصلوا في سلام وسكون إلى مقر إقامة فرقتهم في الجزء الجنوبي من الصحنة، أرسل أحد العمال إلى بقية القافلة، ليواصلوا المسير ويدخلوا البلدة قبل انقضاء ثلثي الليل. لم يرغبوا في إيقاظ أحد من الجماعة النائمين، بل أخذهم الإعياء، وخلدوا إلى النوم بعد رحلة شاقة.

هدية عبدالعزيز آل سعود:

أخبرني الوالد رحمه الله أنه وأباه الجد عبد الرحمن قد استقيظوا عند آذان الفجر قبل أن يأخذوا كفايتهم من النوم، وقد سر الجميع بوصولهم سالمين في وقت قصير ومعهم كمية جيدة من الذخيرة للدفاع عن الديار. بعد الصلاة أفادهم العم حمد أن المزيد من قوافل جلب الذخيرة والعتاد من الحريق يتوقع وصولها قبل الظهر، أما القادمون من الحوطة فقد يتأخرون قليلا بسبب عاصفة رملية هبت على ركائبهم في سهل المنسف جنوب الصحنة، مما أدى إلى عرقلة المسيرة. أما أنباء المهاجمين، فقد أوضح أن ابن رشيد قد توجه من السيح غربا باتجاه حرض وذلك لاستنفار العجمان للوقوف معه ومساندته في عملية القضاء على المدافعين عن الخرج. وكان الرشيد على معرفة بالعجمان حيث إنهم أنساب الأمير عبد العزيز بن سعود بن فيصل الموجود حاليا في ضيافة (حجز) آل رشيد وهم أيضًا أخوال ابنه سعود بن عبد العزيز، ولكن العجمان لم يتحمسوا كثيرًا للمشاركة في عملياته ضد الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل، ولم يمانعوا أن يقوم بتجنيد من يرغب منهم في العمل معه لقاء أجر (مرتزقة)، لذلك فقد اتجه نحو قبيلة آل مرة ولم يجد لديهم أيضًا التجاوب المؤمل، لذا توقع العم حمد أن لا يحدث أي معاودة للهجوم قبل صباح الغد أو بعده.

اجتمع أفراد الأسرة مع بقية الجماعة لتناول قهوة الصباح وشيء يسير من الطعام، وقد ناول العم حمد شقيقه الأصغر ناظورًا (منظارًا مكبرًا) يسميه أهل المنطقة (دربيل) قال: أن الأمير عبد العزيز آل سعود قد أرسله هدية له، ليستعين به في مراقبة الأعمال الحربية في ميدان المعركة، حيث لاحظ حدة بصر الجد عبد الرحمن وحرصه على تتبع كافة الحركات من حوله. لم يرتح الجد للنظر من خلال العدسات الزجاجية، وأفاد إنها تسبب له الدوار، لذا فقد أعطاه لابنه الأكبر الذي أعجب به وعلقه في رقبته كما شاهد أحد أخواله منذ شهور يعلق شبيها له ذا حجم أصغر لمتابعة الصيد. أفادهم العم أن الأفضل لهم الآن أخذ مزيد من الراحة حيث لم يحصلوا على الكفاية من النوم، وأفادهم أن مسيرهم لساعات في الليل قد أفاد في

سرعة وصولهم ولكنه أنهك قواهم ولابد من استعادة النشاط استعدادا للمرحلة الثانية من المعركة، وأعاد تهنئتهم على سلامة الوصول قائلا: «عند الصباح يحمد القوم السرى». عندما استيقظوا ظهرا وجدوا وجبة دسمة أعدتها نسوة المنزل المجاور لاستضافتهم، وذهب الوالد مع العامل بريه بعد العصر في جولة داخل قرية الصحنة، حيث لاحظ أنها أصغر كثيرًا من الحريق، وسوقها ضعيف غير عامر بكثير من السلع، أما الأرض الزراعية فبعضها سبخة عليها قشرة من الأملاح، وكثير من الأشجار مصابة بالتسوس ومهملة، مما يؤشر على ضعف أعمال البستنه في تلك القرية مقارنة ببلدته. عندما عادوا لمقر إقامتهم، لاحظوا وجود رجال غرباء طوال الأجسام داكني البشرة نشيطي الحركة وهم يتفحصون بعض الخيل التي جلبت من الحريق، بناء على رغبة الأمير عبد العزيز آل سعود، بعد انتهاء المعاينة أخذ أولئك القوم مجموعة من الأفراس الأصيلة، وتركوا الباقي حاثين الجماعة على تحسين رعايتها وتدريبها للمشاركة في المنازلة.

استفسر الجد من أبي عن سبب غيابه فأفاده بأنهم تجولوا داخل القرية وابتعدوا حسب التوجيه عن الجزء الشرقي من الصحنة الذي لا يبعد كثيرًا عن الدلم، كما أفاده الوالد أن ربما ليست «نصف الحرب هرولة» بل أكثرها، لفت الجد نظر ابنه إلى: «إن الحرب كرب» ودعا المولى عز وجل أن يكفيهم شرها، حيث يدخلها جمع غفير والخارج أربعه «فائز وجريح وأسير وقتيل» لذا فاحتمال حدوث الأذى كبير ويبلغ ثلاثة أرباع وليس النصف. قام عدد من أسرة آل خثلان ومعهم آخرون من أهل الحريق بتمضية نهاية اليوم في إجراء تمرينات على الرماية، وصيانة وتنظيف الأسلحة.

في الصباح الباكر وبعد دقائق من بزوغ الشمس كان الجميع يتناولون القهوة والرطب وفوجئوا بأصوات رماية متقطعة من شمال الدلم، هب الجد مسرعا لامتطاء صهوة الغيداء، وجاءت رماية أخرى من شرق الدلم مما يدل على أن هناك هجوما من جبهتين فأسرع باتجاه المحمدي ودار الإمارة حيث يوجد القادة، بينما اتجه العم حمد على ذلوله مسرعا نحو شمال الدلم للمساعدة في صد أي هجوم من تلك الجهة. بعد لحظات سمعت رماية خفيفة متقطعة أيضًا من جنوب الدلم جهة زميقة، وأفادهم سعيد أن تلك رماية الكشافة ليحذروا من وجود هجوم ويحددوا اتجاهه. تقدم الوالد نحو إحدى النوافذ المطلة على جهة الجنوب الشرقي فشاهد عجاجا كثيفا مقبلا من بعيد، فسارع لإحضار الناظور وبدأ يستطلع الأمر من هناك، حيث أمرهم الجد بمغادرة المنزل مهما كانت الأحوال.

لم يتمكن من مشاهدة الموقف بوضوح حيث أن أشعة الشمس وتعالي الغبار سببا تدني الرؤية عبر المنظار. تمكن بريه من مشاهدة جيش من الإبل قادمًا من جهة الشرق (السيح)، أخذ الثلاثة في تبادل المشاهدة بالدربيل تارة وبالعين المجردة تارة أخرى، وتبين لسعيد بعد وقت قصير أن هدف الهجوم هو دخول الدلم من الجهة الجنوبية الغربية الأقل تحصينا، حيث اندفع المهاجمون نحو منطقة العذار تاركينه على يسارهم في حدود ثلثي المسافة عن الدلم التي لا تتجاوز الساعة للماشي، بينما أقل من ذلك للراكب، وعند ذاك انحرف المهاجمون باتجاه اليمين نحو الدلم، ولكنهم قوبلوا بنيران كثيفة من الإمام عند محاولتهم دخول البساتين الواقعة جنوب غرب الدلم، ونيران أخرى من الخلف من داخل المنازل في المنطقة المسماة: «العذار». استمر الوضع غامضا، مع سماع أصوات رماية كثيفة، وارتفاع الصياح وأصوات الدواب والرجال، كما علت في المكان سحابة من الغبار والعجاج. مضى وقت غير طويل ولكنه مر عليهم كأنه دهر وهم يرون ويسمعون الأهوال على مسافة بعيدة عن المنزل الذي يقطنون، كان الثلاثة والدي وسعيد وبريه يظنون أن وجودهم في الصحنة يجعلهم بعيدا عن الأخطار من ذلك الالتحام القتالي الشديد، ولكنهم فوجئوا بمشاهدة مجموعة من المقاتلين يبدو أنها قد فقدت الإحساس بالاتجاه تندفع نحو الأرض الفضاء الواقعة شرق منزلهم، كانوا يلبسون زيا مختلفا عن ملابس أهل الحريق والخرج، والبعض يمتطون إبلا عليها دروع وملثمة، والآخرون على جياد قوية ضخمة ولها سروج مطرزة وذات أشكال فاخرة. جاء من خلف تلك المجموعة سرية من مقاتلين أشداء على خيل أصغر حجما ولكنها أسرع ركضا وأخف حركة وذات قدرة عالية في المناورة، لقد أخذوا في إطلاق وابل من الرصاص على تلك المجموعة المضطربة فأصابوا عددا منهم، بينما أخذوا يقذفون قطعا خشبية معقوفة بين أقدام ركائبهم مما يؤدى إلى تعثرها وسقوطهم.

كان سعيد أكبر الثلاثة سنا وله سابق خبرة في معرفة المنطقة ومناطق أخرى في وسط جزيرة العرب، وقد أوضح لرفاقه أن المضطربين هم من صناديد شمر ومعهم أتباعهم، والمطاردون لهم من رجاجيل الشيوخ وعلى رأسهم أحد فرسان آل سعود، حيث عرفهم سعيد من لباسهم وسلاحهم ودوابهم. راقب الثلاثة من نافذتهم سقوط نحو خمسة عشر شخصا على الأرض بعضهم مصاب، وأما بقية المجموعة والتي تزيد عن ستين شخصا فقد سارعوا للهرب باتجاه الشمال، وقد ألقى فرسان الشيوخ القبض على رجل قصير وهزيل من المهاجمين، وأخذوا في التحقيق معه بأصوات جهورية وحادة مصحوبة بلكمات من قبضة اليد على بطنه ووجهه، مع صفعات شديدة على الوجه والقفا، بينما آخر يجلده بعصا على

ظهره ومقعدته، وكانوا يصرخون بكلمات غير واضحة، سوى قولهم: «وين هو ومن هو». كان يبدو أنهم يحاولون معرفة أسماء ووظائف بعض أولئك الذين وقعوا في الأسر، كان الرجل في حالة يرثى لها والدم ينزف من أنفه وفمه، وهناك جرح أسفل إحدى عينيه، ولا يستطيع أي حيلة أو مقاومة تجاه غرمائه، ويحاول كسب العافية بإظهار التعاون والخضوع. قام الفرسان بربط الأسرى وساقوهم بعنف نحو منزل مجاور، حيث كان أحدهم قد انفرط ذراعه من كتفه ويتدلى جوار بطنه رغم عدم وجود نزيف، والبقية يمشون بصعوبة وهم في حال من الذهول والانكسار. سارع الوالد ومعه سعيد وبريه للنزول والخروج نحو المنزل المجاور، حيث سمعوا أن ثلاثة من الأسرى كانوا على درجة عالية من الأهمية، ولاحظوا تبادل أسماء مثل حمود وفايز ولبدة، وقد أدخلوهم إلى غرفة وضعوا عليهم حراسة قوية، وأما البقية وهم أكثر من عشرة فقد اصطحبوهم إلى منزل آخر يبعد قليلاً وأبقوهم في الظل مربوطين بقيود من الحبال المتينة.

كان هناك أمير من آل سعود يصدر التوجيهات والأوامر إلى رجاله، وقد أوصى الحراس بتوفير الماء للأسرى ورعايتهم، حيث توافد للمكان عدد من أهالي الصحنة الذين عرضوا تقديم خدماتهم للمدافعين عن منطقة الخرج من ذلك الهجوم الشرس، وغادر الأمير وبعض رفاقه عائدين إلى الجهة الجنوبية الغربية للدلم.

عبقرية الظفر:

قبل الزوال بقليل أخذت أصوات الطلقات النارية تخفت، وسكن الغبار مع اشتداد حرارة الشمس ظهيرة ذلك اليوم الخريفي، وبعد صلاة الظهر انقطعت الرماية ما عدا مقذوفات محدودة بين آونة وأخرى، يبدو أنها عبارة عن رسائل من مناطق مختلفة تبلغ القيادة بطبيعة الأوضاع لديهم. أخذ الثلاثة يراقبون من نافذة غرفة مكمنهم ما يقوم به متطوعون من المنازل شرق الصحنة لجمع ما تبقى في تلك الأرض الفضاء، حيث عثروا على أحزمة رصاص وبعض الأمتعة الشخصية، كما كانت هناك جثتان قاموا بسحبهما ودفنهما في حفرة واحدة في الموقع نفسه، أما الجرحى وكانوا خمسة فقد جلبوا أربعة منهم مع الأسرى، وذهب اثنان من أعوان الشيوخ الحراس لمشاهدة الخامس ذي الإصابة البليغة وغير القادر على الحركة، حيث سمعوا أحدهم يقترح إطلاق رصاصة الرحمة عليه للإسراع في إنهاء معاناته من الأوجاع، ولكن زميله اعترض قائلاً: «أنه ما يسوى الفشقة» وأمر بتركه لرحمة ربه.

عند أذان العصر توجه الثلاثة إلى مسجد غير بعيد لأداء الفريضة، ومروا في طريقهم على المكان الذي وضع فيه الأسرى والجرحى الذين كانوا في حالة مزرية من البؤس، والبعض منهم يئن ويتوجع من إصاباته، وكعادته قام سعيد بإظهار معرفته بالأحوال نظرًا لأنه أكبرهم وأكثرهم خبرة، فأشار إلى حاجاتهم الملقاة جانبا، وكيف يمكن تمييز مكانة الشخص من نوع حزام الرصاص، وما إذا كان من جلد أو قماش أو مطرز أو مذهب، كما أشار إلى الفوارق بينهم في غطاء الرأس، وجالوسة الثوب، ونوع النعال ولهجة الحديث، مما يجعله يميز بين الحضر والبدو وبين أهل الشمال والقصمان وأهل العارض وغيرهم. قبل مغيب الشمس بأكثر من ساعة سمع الجميع بسرور أصوات هجن الحريق قادمة من الجهة الشمالية، واستقبلوا العم حمد ورفاقه واطمأنوا على سلامتهم، وأخذ المصابون للعلاج، ثم وصل الجد عبد الرحمن ومعه جماعة من آل خثلان وبعض أفراد قبيلة سبيع في المنطقة، حيث طالب من العمال سرعة إدخال الغيداء للمستراح وتوفير ما يلزم لها فقد عانت من الإرهاق في ذلك اليوم العسير.

أعد أهل الصحنة الكرام عشاءا دسما وساخنا وأرسلوه إلى منزل «المضيفة» حيث يقيم الجميع، وأثناء تناول الطعام، ذكر أحدهم أن ابن رشيد وأقاربه فقط يحصلون على مثل هذه الوجبة في هذا اليوم، حيث توجد معه فرقة متكاملة من الطباخين ومجهزة بكافة مستلزمات إعداد أفضل الأطعمة، أما بقية المقاتلين معه فهم غرباء عن المنطقة ويعانون شظف المعيشة مع شدة القتال، وحمدوا الله على نعمه، كما أثنوا على حسن ضيافة أهل تلك البلدة الطيبة.

عند أذان المغرب قال الكثيرون بأنهم سيصلون معها العشاء جمع تقديم ويخلدون للنوم، وذكر الآخرون أنهم قد أصبحوا شبه مقيمين والأفضل أداء الفريضة على وقتها. جلس الجميع بعد المغرب يتسامرون ويقصون على بعضهم البعض أحداث ذلك اليوم المشهود المليء بالأحداث، وتوجه أبي إلى والده قائلا: أن لديه عددا من الأسئلة التي يحتار في معرفة الجواب عنها. فسأله الجد عن عددها، وما هي؟ فأجابه إنها ستة استفسارات وتتعلق الأولى بما جرى صباح ذلك اليوم. أما الثانية فهي عما سمعه من سعيد عن: (الإبل الصخريات). والثالثة عن (أسرى الصفة) في المنزل المجاور، ويليها: (رجاجيل الشيوخ). وبعد ذلك يريد معرفة سبب (مغادرة نعجان) من قبل ابن رشيد والاستفسار الأخير عن (خطط الغد؟) سأل الجد بقية الحضور إذا كان لديهم استفسارات أخرى فأجابوه: أن ما قدمه ابنه الأكبر عبد الله كاف لهذه الليلة.

قال الجد إنهم كما لاحظوا من إطلاق أربع رصاصات من جنوب ووسط وشمال الدلم، وكان ذلك معناه هجوم من الجهات الثلاث، توجه العم إلى مكانه شمال البلدة، ويمكن معرفة تفاصيل ما جرى لديهم منه بعد استيقاظه، أما هو فقد توجه فرسه مسرعاً نحو وسط القرية حيث القيادة في أحد المنازل غير البعيدة عن مقر الإمارة والجامع، ومن هناك اتجهوا شرقا حيث شاهدوا مئات الإبل الصخرية متجهة من السيح نحوهم في ثلاثة تشكيلات، الأول وهو الأوسط وذو الكثافة الأعلى حيث يبلغ نحو نصف المهاجمين، وكانت فيه راية ابن رشيد الحمراء والسوداء، وأما المجموعة اليمنى فتمثل نحو ثلث العدد وقد كانت متجهة نحو الجنوب الشرقي، المجموعة الثالثة على اليسار كانت قليلة (نحو الثمن) حيث كانت ستلحق بالمعسكر المؤقت جنوب نعجان لكي تهاجم الدلم من الناحية الشمالية الشرقية، التي سبق أن أجريت عدة هجمات فاشلة منها قبل أيام في المرحلة الأولي من الالتحام.

خطة الهجوم المضاد:

أخذ الجد يدقق النظر في التشكيل الأوسط وكان من الصعب عليه تبين تفاصيل المهاجمين بالعين المجردة، رغم حدة بصره، حيث كانت الشمس ما تزال قريبة من خط الأفق الشرقي، مع وجود أثر أتربة وغبار من سير الدواب والمشاة في سرعة ملحوظة. وخلال وقت قليل وصل بعض أفراد فرقة الطليعة المكلفة بالكمون على مسافة نصف ساعة شرق الدلم، حيث أفادوا أن فرق الطليعة المتقدمة عنهم قد وصلتهم على الإبل النجيبة المسرعة، وأخبروهم أن الهجوم كثيف ويتكون من عدة قطاعات متتالية، فبعد المقدمة المكونة من إبل شديدة قوية وسريعة- رغم أنها تحمل صفائح معدنية لحمايتها- تأتي ثلة من الفرسان معهم بنادق حديثة، ويليهم أعداد غفيرة من البغال المحملة بأوعية معدنية يبدو أنها تحمل كميات كبيرة من المياه غير المفهوم الغرض منها، ويليهم في المؤخرة عدد كبير من جمال الأحمال وعليها رصات مربوطة من حطب الإشعال من نوعيات غير المستخدمة للطبخ، ويلحق بهم عدد من الحمير التي تسير ببطء وعلى ظهورها عمالة غير مسلحة ومعهم كميات من الحبال والمناشير المعدنية. كانت تلك المعلومات مشوشة وغير مفهومة فما الحاجة لكل تلك التجهيزات في مثل تلك المعركة؟

سرية الدفاع عن القطاع الأوسط في شرق الدلم كانت برئاسة أحد الأمراء من آل جلوي وقد أصدر أمره بالتقدم شرقا خارج البلدة لمجموعة الفرسان، بينما توزع المدافعون المشاة خلف الحوائط والأشجار، لضمان إرغام المهاجمين على دخول البلدة من المسارات التي تم وضع الكمائن فيها. عند بدء التحرك وصل نجاب من مقر القيادة يحمل رسالة شفوية

لابن جلوي، وبعد مغادرته كلف الأمير أحد القناصة المهرة من قبيلة سبيع الأعلين (رينة) بقيادة فرق الرماة المدافعين عن شرق البلدة، وتوجه عدد من الفرسان يبلغ نحو ثمانين شخصا نحو الشرق مواجهين للمهاجمين المتجهين نحوهم بسرعة قادمين من السيح. بعد سيرهم لبضع دقائق وابتعادهم عن أطراف البلدة، توقفوا لوضع تفاصيل خطة عمليتهم، حيث أفادهم الأمير أن أحد العاملين مع ابن رشيد قد فر منهم مساء البارحة بعد أن آذاه أحد أقارب الرشيد وهدده بقوة لوجود خلاف حول أداء العمل.

وقد توجه ذلك الشخص نحو مقر القيادة وقام قبل الفجر بإيضاح بعض معالم الهجوم الحالي، حيث بين أن الجميع كانوا يتبادلون المعلومات بدون أي تحفظ والتي تتلخص في تجهيز أكبر عدد من الإبل الصخرية المدعمة بصفائح معدنية على جوانبها للحماية من طلقات النار أو المقذوفات الحجرية، ويقودها هجان خفيف الوزن وغير مسلح، بينا رديفه الخلفي مجهز ببنادق بعيدة المدى مع كمية وافرة من ذخيرتها، وينبطح ذلك الرديف بين الصفائح المعدنية وخلف الهجان مما يجلعه في مأمن من الطلقات النارية. كما أن العبوات المعدنية على الإبل في الجزء الخلفي لا تحوي مياها وإنما وقود مصابيح الإضاءة (الكيروسين) الذي يسمونه: «كاز»، وفي نهاية فرق الهجوم عمالة معهم أدوات قطع النخيل، وأنهم يزمعون دخول الدلم في ظل إطلاق كثيف للنيران وحتى الوصول إلى وسط البلدة واستخدام الحطب والكاز مع جذوع النخل الرطبة، لتسلق المنازل التي توجد فيها القيادة واضرام النيران فيها وحرق أو اختناق من بداخل البيوت التي يشتبه بوجود القادة فيها، وكذلك حرق أي مسجد وبناء قد يستخدم لتخزين الأسلحة البيضاء أو الذخيرة.

بناء على ذلك وضعت خطة الهجوم المضاد، حيث تقرر أن يتجهوا شرقا بين الكتيبة الجنوبية والفرقة الوسطى حيث القيادة، كان هجوم ابن رشيد يتجه غربا نحو الدلم في شكل الرقم (8) ويزداد الإنفراج وابتعاد الأجزاء الثلاثة للهجوم عن بعضها البعض كلما اقتربوا من البلدة، لذا قرر ابن جلوي التريث قليلاً حتى تتسع الفجوة، وتحدث ثغرة بسبب تباعد الفرق الجنوبية عن الفرقة الوسطى، ثم يندفع الفرسان المدافعون سريعا حتى يصلوا إلى مسافة قريبة من البغال التي تحمل أوعية الوقود وهي تسير ببطء وغير مسلحة، على أن يبدأ الفرسان هجومهم بالرماية على مؤخرة فرسان وهجانة ابن رشيد مع التركيز على قادة الإبل وذلك لوجود صفائح واقية على الجمال، ولكمون الرياح مما يجعل من الصعب إصابتهم، أما الهجان فهو مكشوف وعند إصابته سوف يتعرقل سير الإبل المهاجمة. عند الاقتراب من البغال سيتم إطلاق النار من مسافة تقل عن

مائتي ذراع على حاويات نقل الكاز حتى تشتعل في الراكب والدابة وتثير الذعر في بقية القافلة، ومنعها من الوصول إلى الدلم.

قام بعض الفرسان المزودين بالمناظير المقربة (الدرابيل) بمراقبة المهاجمين للتعرف على الفرصة الملائمة من حيث الزمان والمكان للتسلل بين الكتيبتين والوصول إلى بغال الوقود.

أثناء تلك اللحظات الحرجة، أخذ فرسان العارض في مراقبة ذلك الهجوم الغريب والمكون من مئات الدواب المحملة بأدوات قطع النخيل والحطب والوقود، وبعضهم يدعو الله أن ينزل على المهاجمين سخطه قائلين: «عساهم الطاعون» و «عساهم العيطي» أو: «اللهم أحرقهم واكفنا شرهم» وقد نهرهم ابن جلوي عن إضاعة الوقت في سباب للعدو لا طائل منه، وحثهم على وجوب مراقبة المهاجمين واغتنام الفرصة لإيقاع أفدح الخسائر بهم. قال الجد إنهم أثناء فترة الترقب والانتظار أخذوا في مناقشة احتمال قيام ابن الرشيد بإرسال كتيبة من الجهة الخلفية للدفاع عن الركائب الحاملة للوقود، لذا فقد جرى الاتفاق على عدة خطط بديلة في تلك الحالة. أثناء ذلك لاحظ ابن جلوي أن الفرقة المهاجمة من الجهة اليمنى أخذت تتجه جنوبا نحو الدلم حيث بدأت تتلقى وابلا كثيفا من الطلقات النارية جعلت بعضهم يتشتت متجها نحو الخفس، لذا بدت الفرصة سانحة للتوجه إلى الجنوب الشرقي حتى قام الفرسان بمحاذاة طليقة بغال الوقود، وأخذت في الرماية عليها.

جدي عبدالرحمن مع الفرسان:

تراجع بعض فرسان الرشيد القهقهرى ليتمكنوا من الدفاع عن قافلة البغال، ولكن عددهم لم يتجاوز خمسة وعشرين شخصا، بينما استمر البقية منهم مندفعين غربا نحو رايات ابن رشيد على أمل سرعة دخول الدلم في صحبته. تمكنت فرقة العارض من التعامل بقوة مع أولئك الفرسان وتجندل بعضهم بين قتيل وجريح، ولاذ البقية بالفرار بعد أن أصابوا غرمائهم بشكل طفيف. ومع أن هناك إصابات مباشرة نحو عبوات الوقود إلا أن أيا منها لم تشتعل فيه النيران، ولكن حدث بينها اضطراب شديد حيث حاولت رفع سرعتها للهروب إلى الإمام ومحاولة اللحاق بفرقة عبد العزيز بن متعب حيث توجد القيادة، والبعض الآخر قام بالهروب للخلف عائدا أدراجه من حيث أتى، حيث اصطدم مع الجزء الأخير من القافلة المتضمن الدواب الحاملة للحطب أو تلك الناقلة للمناشير والحبال، مما أدى إلى حدوث عرقلة واضحة للمسيرة. أثناء ذلك أمر ابن جلوي بالقبض على بعض العمال الذين يسيسون بغال الوقود وجرى التحقيق معهم، وتبين أن

هناك موقعا أقامة ابن رشيد على مسافة تزيد عن مسيرة ساعة ونصف غرب عيون الخرج يجري فيه تحميل عبوات الوقود وتجهيز حزم ورصات الحطب، كما يوجد بجواره مشغل آخر يتم فيه تجهيز الإبل الصخرية للهجوم بتعليق الصفائح المعدنية على جوانبها، وذلك بربطها بحبال قوية من الليف النباتي أو الجلد الحيواني.

قرر الأمير إرسال اثنين من الفرسان للدلم لطلب التعزيزات، بينما اندفع هو والبقية شرقا نحو موقع ذلك المشغل، حيث اندهشوا عند وصولهم إليه بعدم وجود أي قوات للدفاع عنه رغم ما يحويه من مواد ثمينة وحساسة تؤثر على القدرات الهجومية لقلب الجيش، حيث لم يوجد سوى عدد قليل من الحراس ضد السرقة ولا يتوفر لهم وسائل دفاعية ضد هجوم حربي معادي.

بعد تفقد الموقع والتأكد من عدم وجود أي كمائن قريبة منه، أمر ابن جلوي ثلاثين من فرسان الحوطة والحريق بقيادة ابن عثمان والأمير المغوار محماس، بدفع أكبر عدد ممكن من الإبل والبغال والحمير المحملة بالوقود والحطب والمناشير للتوجه غربا بميل نحو الجنوب لتفادي الالتقاء مع مؤخرة قوات الرشيد، والذهاب إلى زميقة لتخزين الركائب وأحمالها باعتبارها غنيمة حرب، وقرر أن يتوجه ببقية الفرسان نحو منطقة العيون للتأكد من عدم وجود أي قوات من أهل الجبل أو من العجمان أو المرية قد تشكل خطرا عليهم، وأوصاهم بحث السير سريعا مع إرسال من يسبر الطريق أمامهم، وفي حال وجود أي تشكيلات عدائية مسلحة يطلقون ثلاث رصاصات متفرقة في الهواء باتجاه الشرق حتى يتسنى له الانسحاب والعودة نحوهم لمساندة دفاعهم.

قال الجد إنهم لم يتمكنوا من السير هرولة بسبب ثقل الأحمال، ووجود بعض الجرحى معهم، وقد تمكنوا بعد نحو ساعتين من مشاهدة المعالم الشرقية للدلم وسماع أصوات الرماية الكثيفة. عند ذاك قابلهم ثلاثة من النجابين أرسلهم الأمير عبد العزيز آل سعود للطلب من ابن جلوي بسرعة التوجه إلى شمال شرق الدلم لمساندة المدافعين ضد الهجوم الضاري عليهم، أفادوهم بالتوجه للعيون من جهة الغرب لإبلاغ الرسالة، وكلفوا خمسة من أهل الحوطة لمرافقة الركاب حتى زميقة، بينما اتجهوا جميعا نحو شمال الدلم.

حال اقترابهم من هناك عند وقت الزوال لاحظوا بدء خفوت أصوات تبادل إطلاق النيران، كما شاهدوا حريقا هائلا في بعض المنازل شرق البلدة، وعملوا أن ابن رشيد قد أمر العدد القليل من الدواب بالتوجه إليها بحمولتها من الوقود والحطب والمناشير، وقطع النخيل لاستخدامها كسلالم

للتسلق إلى سطح المنازل، ورفع الحطب والكاز ثم إضرام النيران فيها، وبداخلها مجموعة من المقاتلين المتحصنين والقناصين. لقد كانت المناشير بطيئة الأداء في النخيل السليمة وسريعة في تلك التي نخرها السوس. ولكن تلك المنخورة كانت شبه مجوفة وحين أسندت للحوائط وبدأ الرجال في التسلق عليها انهارت، كما أن صفائح الكاز التي نجت من الهجوم الخلفي كانت قليلة، وبالتالي لم يتمكن المهاجمون من إحداث أضرار جمة في شرق البلدة. لم تكن هناك خطة بديلة لدى ابن رشيد، كما لم يقم بتدريب رجاله على أعمال الحرق الموسعة ولم يضع بياناً لأسلوب أداء العمل. كان إحراق المنازل التي يتحصن فيها الرماة سياسة معروفة قديما، ولكنها تصلح عند التعامل مع عصبة من المقاتلين تقل عن أربعين شخصا ولمنزل واحد، وقد استخدمت في أثناء فتح الرياض في العام السابق، أما استخدامها ضد جيش كامل وفي بلدة متوسطة الحجم بمعايير ذلك الزمن فهو أمر غير واقعي.

عند دخول الجد مع بقية الفرسان الركن الشمالي الشرقي للدلم لم يجدوا عددا كبيرا من قوات ابن رشيد، وتمكنوا من إلغاء وجود النفر القليل من المسلحين والاستيلاء على سلاحهم وركائبهم، وطلبوا من بعض أهل تلك المنطقة مرافقتهم رجالا أو ركبانا نحو مكان تبادل إطلاق النيران في الجزء الشمالي، حيث لاحظوا بدء تفكك الهجوم نتيجة كثافة نيران المدافعين، وحينما شعر أهل حائل بهجوم الفرسان عليهم من الخلف ازداد الوهن لديهم، وتشتتوا متفرقين نحو قاعدة عملياتهم في شعيب كبشان. انقسمت الآراء في ذلك الوقت، حيث اقترح البعض التوجه نحو القطاع الأوسط في شرق البلدة حيث راية الرشيد والهجوم عليه وإحراقه بوقوده، بينما رأى الآخرون مطاردة فلول أهل الشمال نحو قاعدتهم جنوب نعجان، أما الجد فلم يستحسن القيام بعمليات متهورة وبخاصة أن الإعياء قد أصاب الفرسان والخيل، وازداد عدد المصابين ونقصت الذخيرة، وقد أيده محماس والكثيري في ذلك وطلبوا الركون للراحة بعض الوقت وانتظار ورود تعليمات القيادة. بعد أقل من ساعة جاء ابن جلوي مسرعا من السيح، وكان قد التقاه مراسل القيادة وأفاده بوجوب عدم تتبع القوات المتجهة شمالاً، والاكتفاء في ظهيرة ذلك اليوم بالدفاع عن المواقع داخل الدلم. انقطعت أصوات الرماية كليا عدا طلقات متناثرة بين الفينة والأخرى، ولكن أحد المقاتلين صعد إلى مئذنة مسجد مجاور وجاء بنبأ غير سار مفاده وجود عدد من المنازل يصعد منها الدخان في خط يمتد من شرق البلدة حتى الركن الشمالي الغربي.

وجاء شخص آخر قائلا أن جنود ابن رشيد قد تبين لهم أن منازل الدلم لا توجد في حوائطها الخارجية كميات من الأحجار، وإنما بنيت بقطع من

اللبن المصنوع من قش وتبن وسيقان الحنطة والشعير المخلوطة مع الطين، والأسقف من أخشاب أثل سهلة الاشتعال وبالتالي لم يكن من الضروري تسلق المنازل للوصول للأسطح مع الحطب والوقود لإضرام النيران فيها، بل يكفي من ذلك عند المداخل الخشبية حتى تلتهب النيران في المنزل، ولكن نقص المواد نتيجة هجوم الفرسان الصباحي أدى إلى تدني قدرتهم على إحراق المنازل.

مضت لحظات والجميع يتداولون مع ابن جلوي حول الخطوة القادمة لمجابهة ذلك العدوان، إلا وقد وصل مندوب من الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن يوجه ابن جلوي للحضور لمقر القيادة مع طائفة من فرقة الفرسان قبل صلاة العصر، وأثناء توجههم مع الدليل الذي يعرف مكان تواجد القيادة الجديد، حيث يجري تبديله بشكل شبه يومي، لاحظوا الحرائق في بعض المنازل والنخيل المقطوعة والملقاة على الأرض، عند توقفهم لمساندة إحدى فرق الإطفاء أفادوهم أن ذلك المنزل لم يكن به أي قناصة أو مسلحين وإنما كان يقطن فيه نسوة وأطفال وجرى قتلهم بالنار من قبل بعض أعوان ابن رشيد، فعليهم من الله ما يستحقون، لقاء تلك الجريمة البشعة، علموا أن إحراق المنازل تم لأجل توفير ممر آمن لخروج المعتدين من وسط الدلم باتجاه الركن الشمالي الغربي للبلدة، ومن هناك انسحب عبد العزيز بن متعب وصحبه هاربين شمالا نحو موقعهم المؤقت جنوب نعجان. وقد استمر بن جلوي ومعه الفرسان ومن بينهم الجد في المسير حتى وصل الدليل إلى أحد المساجد فوجد شخصا ينتظرهم حيث همس له بكلمات خافتة، ومن هناك اتجهوا نحو أحد البساتين الذي وجدوا فيه عريش عنب كبير بجواره خيام وبيوت شعر ملاصقة لمنزل كبير بجواره فناء متسع فيه خيول عمانية أصيلة، وخلف المنزل غابة من النخيل المثمر. أخذهم الحرس المسلحون إلى مكان جلوس الأمير عبد العزيز آل سعود ورفاقه وكان معهم أشخاص من آل خلين يبدو أنهم أصحاب المكان حيث يوجهون الخدم لتقديم الضيافة للحضور.

هب عبد العزيز واقفا وصافح الجميع وهو يقول كلمات التشجيع، مثل «قواكم الله» و «عساكم على القوة» ويدعو بالنصر والفوز للمجاهدين، قال الجد إنه لاحظ حرارة المصافحة معه، وكيف أن يده الضخمة قد احتوت كف الجد، الذي ظن أن تلك التحية والترحاب خاصة له ولكنه لاحقا ناقش ذلك مع رفاقه وأفادوا جميعاً أنهم تلقوا منه التحية الحسنة على عكس ما لاحظوه من بعض الآخرين من المصافحة بأطراف الأصابع وتململ من كثرة القادمين. بعد أن استقر كل من الحضور في مكانه بالمجلس، بدأ عبد العزيز بالثناء والتقدير لما بذل من جهود ضخمة في ذلك اليوم وأسفرت عن دحر الهجوم الكبير الذي بقي ابن رشيد عدة أيام

في السيح يعدله، وأشاد بما تم الحصول عليه من غنيمة سواء من الذخيرة والأسلحة وحتى وقود المصابيح والمناشير والحبال، مما يدعم قوة المدافعين، إضافة إلى الخيول الرومية الضخمة والإبل الصخرية رابطة الجأش، والبغال العراقية النشيطة. انبرى أحد العمال بالتعليق سائلاً عن أصل البغل، فأجابه الأمير عبد العزيز بن سعود ضاحكا بأن: صدق من أسماك خصوان. فلو كنت معنا في الكويت لسمعت الجالية العراقية الكبيرة هناك وهم يعايرون أنساب بعض الأشخاص قائلين: «سألوا البغل من أبوك فقال الحصان خالي» وأكمل قائلا: أن البغال العراقية هي من تزواج الحمار الحساوي الشهير بالقوة مع فرس من وسط آسيا يحضرها العجم في بلاد فارس، وتستخدم لشرب حليبها والاستفادة من ضخامة بدنها في أعمال الحقل الشاقة.

انتقل ابن سعود فوراً للحديث الجاد، قائلا: إننا بعون الله قد حصلنا منهم على عدد غير كبير من البنادق الألمانية الجيدة من نوع موتزر التي يمكنها إحداث إصابة شديدة من مسافة بعيدة تزيد عن ثلاثمائة ذراع، وهنا سارع أحد أهل منطقة الحوطة من آل خريف قائلا عجل لي بواحدة منها يا بوتركي، وهي الكنية التي يناديه بها خاصته، ثم أضاف قائلا: إنه كاد أن يقضي على ابن رشيد، حيث إنه بواردي (قناص ماهر) لولا أنه كان على بعد يزيد عن مدى سلاحه، سارع آخر من أهل الحوطة للتشكيك في روايته كما هي عادة البعض قائلاً: وكيف عرفت عبد العزيز بن متعب وسط معمعة القتال، فأجابه بغضب: لقد كان يلبس رداء أصفر فاقعا لا أحد غيره يلبس مثله مما يجعله مميزا بين الجميع. سارع الأمير بإقفال ذلك الجدال بأن قال: أن هذا هو ما يعرف بأنه «تميز الخبيه»، وأشار إلى أن ما يريده هو مناقشة خطة العمل ليوم غد.

سياسة مواجهة البائس:

تحدث أحد الأمراء من آل تركي (ذرية عبد الله بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود) قائلا: أن ابن رشيد لابد أن يكون الآن في حالة شديدة من القنوط وذلك بعد أن فشل في هجومه الكبير لإحراق الدلم وأهلها، حيث أنفق موالا طائلة لشراء الكاز والحبال والمناشير والبغال والحمير، ومعلوم عن حب أهل الخرج للأرباح وقد تقاضوا منه أسعارا مضاعفة، وقد ذهب كل ذلك هباءً منثوراً، وقد لا تكون لديه أي حيلة جديدة سوى طلب المدد من مقره المؤقت في بنبان التي تبعد مسيرة يومين أو أكثر. أجابه عبد العزيز: أن أخطر الأوضاع هي «مواجهة البائس» فقد يتصرف بطريقة متهورة وعنيفة وأخشى أن يعاجلنا صباح الغد الباكر بهجوم آخر.

لذا يجب علينا وضع خطط لكل احتمال، وإضافة لذلك يكون لدينا بديل واحد أو عدة بدائل لكل خطة حتى نتمكن من مواجهتهم ودحر عدوانهم.

كان عبد العزيز يمسك بأوراق وأقلام ذات ألوان مختلفة يكتب بها ملاحظات وأفكار تعن له أثناء النقاش، قال الجد: إنه بحث مع أحد الرفاق إمكانية مشاهدة تلك الأوراق وقراءة مافيها، وأفاده أن الأمير يكتب برموز وحروف مبهمة لا يحسن قرائتها إلا قليل من المقربين له الذين يشرح لهم مستوى معاني تلك الرسوم. بعد المداولات بين الحضور أوجز الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الوضع المتوقع بأن ابن رشيد سوف يركن للسكون وطلب المدد مما يعني توقف العمليات نحو خمسة إلى سبعة أيام وذلك أمر لا يمكن تحمله حيث يعاني أهل الدلم بشدة من العمليات الحربية، وأوشك صبرهم على النفاذ. والاحتمال الآخر هو أن تدفعه (قلة الدبرة) وعدم الهداية إلى «سواء السبيل» إلى شن هجوم جديد وبخاصة من جهة غرب الدلم حيث لم يحدث هجوم سابق من تلك الناحية، وذلك سيعني تعرض الصحنة للهجوم أيضًا لتوفير ممر نحو غرب الدلم. وبناء عليه صدرت التعليمات لفرقة الصحنة ببدء الاستعداد للدفاع عن شرق البلدة بعد صلاة الفجر مباشرة، وعليهم البقاء في حالة تأهب قصوى لحين سماع خمس طلقات خفيفة من مسدس ستطلق من أعلى المبنى الواقع في بستان الخنين، ثم الانتظار لحين سماع طلقتين من بندقية قوية من إحدى نواحي الدلم التي ستواجه طليعة المهاجمين وعليهم حينئذ أن يهبوا سريعاً نحو موقع الرماية لصد الهجوم. وفي حال عدم سماع أي أصوات رماية حتى الساعة الثالثة ضحى الغد فيمكنهم الاستراحة حتى يصل إليهم مندوب القيادة بالتعليمات. ومن ثم أذن لهم الأمير بالانصراف إلى مكان إقامتهم، مع حثهم لأخذ قسط كاف من الراحة استعدادا للغد الذي لا يعلم إلا الله كيف سيتم حسم أوضاعه.

قال الجد لهم أن وقت صلاة العشاء الأخيرة قد اقترب ويود الذهاب، ولكن والدي ألح عليه في إجابته عن بقية الأسئلة التي ذكرها له، أفاده أنه قد أنهى توضيح ما جرى ذلك اليوم، وأما خطط الغد فلا يمكن التصريح عن أكثر مما قاله، والمواضيع الثلاثة الأخرى أحاله إلى العم حمد ليشرحها له، فلم يبق سوى (الإبل الصخرية) حيث بين له إنها ليست من الفصائل كما تبادر لذهنه، بل هي نوعيات مختلفة، ويجري تزواج بين فحول قوية ونياق طيعة، وتربى الصغار في أفضل المراعي وعلى أحسن علائق الشعير. ومنذ نشأتها يتولى تدريبها قوم من آل صخر أهل سكاكا، حيث تمارس الركض السريع مع عدم الخوف من الطلقات النارية التي تتمرن منذ صغرها على سماعها وعدم الهيبة منها، كما يجري إعدادها للسير بأقل قدر من الرؤية وتبعاً لأوامر الهجان الذي يقودها هناك وهي

شبه مغمضة العينين. وفي المشغل الواقع غرب السيح لاحظ القوم أن هناك عمالا يقومون بتعليق صفائح من «التوتياء» وهي سبيكة معدنية من الحديد والزنك والقصدير والنحاس، وهي خفيفة نسبيًا ومرنة حيث يقومون بإحداث ثقوب فيها بواسطة مسامير كبيرة أو خوابير ويقصون الأجزاء الزائدة، ويهذبون الأطراف بواسطة مناشير من الصلب القوية القصيرة الطول الحادة الأسنان، على عكس مناشير الأشجـار الطويلة التي لا مقبض لها، وإنما تربط بحبال من طرفيها ويعمل عليها أربعة رجال في آن واحد. ويقومون بتسوية الصفائح بحيث تغطي أبدان الإبل والرقبة، وتوفر مكانا لانضواء الراكب الخلفي ليتمكن من الرماية بيسر، وتستطيع هذه الألواح صد الأحجار التي تقذف على الجمال، وكذلك الطلقات النارية المقذوفة من مسافة بعيدة. وتلك الركائب تدربت على السير السريع مع عدم الانزعاج من حمل تلك الصفائح ولا من أصوات الرصاص الذي يئز بجوار أذنيها. وقد غنم آل سعود منها عددا كبيرا بعد أن هجرها راكبوها، واستعانوا بها في مقاومة ابن رشيد.

توجه الجميع لأداء فريضة العشاء على وقتها، ثم أخلدوا للراحة والنومة بعد يوم شاق وطويل، سيعقبه يوم صعب آخر يتمنى الكل أن يمر عليهم بسلام وسلامة. عند أذان الفجر أدوا الصلاة، ثم سارع الوالد إلى عمه حمد مستفسرًا عن الأمور الثلاثة المتبقية والتي لم يجب عليها والده، وكذلك معرفة ما واجهه العم وصحبه في صباح اليوم السابق. قال له: عند ورود الإشارة سارعت مع بقية الفرق نحو شمال الدلم عند المحمدي، وتمكنت ذلولي السريعة من قطع المسافة في زمن قصير حيث كنا في طليعة الواصلين هناك، حيث وجدنا أميرًا يقال له: ابن مشارى واسمه إبراهيم، وجده الأبعد ليس من ذرية الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة ولكن أحد إخوته، كانت هناك حفر أعدها العمال للكمون بداخلها والدفاع عن البلدة ضد المهاجمين.

كانت مقدمة الهجوم تبدو في الأفق الشرقي البعيد قادمة على عجل وبأعداد هائلة قد تصل إلى الألف من الإبل والخيل، تبين لنا أن حفر الضباع كما تسمى لم يزد عمقها عن ذراعين وهي ليست خنادق فعلية، لذلك طلبنا عودة العمال واستعنا ببعض المزارعين لوضع ساتر ترابي يزيد عن ذراع من الجهة الشرقية الجنوبية لكل حفرة وكمان بالاختباء بداخلها وأخذت فرقة الهياثم تصل تباعا حيث أرسل الأمير في طلبهم. تمكن المراقبون بواسطة المناظير المقربة من تقدير أن المهاجمين سوف يصلون نحونا خلال أقل من نصف ساعة، إذا لم تعرقلهم عوائق، وأثناء ذلك أكملنا إعداد سلاحنا وذخيرتنا لصد الهجوم الضخم. بعد عدة دقائق لاحظنا أن عدونا قد أخذ في الانقسام إلى ثلاث فرق، اتجهت اليسرى منها

(الشمالية) نحونا وكان عددهم قليلا، ولكن فوجئنا بتقدم كتيبة معادية من جهة نعجان، وبدأوا الرماية نحونا وأحدثوا إصابات عديدة وقمنا بالرد عليهم حينما قاربوا مدى بنادقنا الضعيفة، واستعد بعض أهالي البلدة المختبئين خلف الأشجار والحوائط لقذف الإبل والخيل بالحجارة وإلقاء قطع خشبية وشباك من الحبال على أقدام الركائب مما أدى إلى تعثرها وسقوط ركابها.

توافد علينا المزيد من المهاجمين من جهة الشرق وحدث تبادل كثيف لإطلاق النيران والمقاومة الباسلة من الأهالي حتى قبل زوال شمس الظهيرة بقليل، حيث لاحظنا ارتباك وتفكك قطاعات المهاجمين، حيث أصبحوا مجرد عصابات متفرقة تحاول كل منها لم شتات أمرها والبحث عن منفذ آمن للاتجاه شمالاً نحو قاعدة ابن رشيد المؤقتة جنوب نعجان. لقد أخذ البعض يستحثون الأمير ابن مشاري للسماح لهم بمطارة فلول المنسحبين ولكنه رفض لوجود تحصينات قوية هناك، وأمر البعض بالتوجه إلى المحمدي حيث يوجد ابن رشيد ومهاجمته قبل أن يقطع مزيدًا من النخيل أو يحرق الدور. شكر الوالد عمه على ذلك الإيضاح وطلب منه الإجابة على الأسئلة الثلاثة الباقية، ولكن العم أصر على تأجيل ذلك لحين تناول وجبة خفيفة حيث ما يزالون في حالة تأهب لاحتمال بدء غارة جديدة بعد طلوع الشمس. أرسل أهل الصحنة الكرام الحليب والقهوة والتمور وكذلك وجبة من مراصيع البر المطهية بسمن البقر الصافي والمنثور عليها كمية وافرة من سمن النعاج المحلية والتي توفر الطاقة للمقاتلين دفاعا عن ديارهم.

الدفاع عن الخرج:

بعد الانتهاء من تناول الإفطار لاحظ أبي أن والده عبد الرحمن منشغل في تجهيز فرسه وسلاحه، وأن عمه حمد يتبادل الحديث مع بعض الرفاق، وخشي أن يقاطعهم طالبًا الإجابة على الأسئلة الثلاثة المتبقية في ذهنه، حيث كان يعلم أن عمه فيه شيء من حدة الطبع وبعض الغلظة في التعبير، لذلك بقي يترقب وهو يعلم أن عمه يكنُّ له قدرا واضحا من المودة، ويختصه بمعاملة طيبة ويثني عليه، ومنذ أن كان طفلا دون العاشرة وهو يلاطفه بمناداته بلقب «عبود» كما كان يعتمد عليه في بعض الأعمال ويمتدح ذاكرته القوية وشغفه لطلب المعرفة. من الحالات الطريفة أن عمه حمد كان إذا خبأ غرضا ما وخشية أن ينسى مكان إخفائه يخبر ابن أخيه وبعض فتية الأسرة، وعندما يطلب منهم بعد شهور تذكيره بمكان وضعه يكون أكثرهم نسي مثله، ولكن يجد ابن أخيه حافظًا للمعلومات وله تفكير مرتب. رمق العم حمد والدي فلاحظ الوله لديه بمعرفة كل ما يدور حوله، فناداه وأجلسه مع بقية الرجال وسأله عما يرغب الاستفسار عنه، حيث

أجابه بأنه في البداية يود معرفة «أسرى الصفة» في المنزل المجاور، فأجابه أن الصفة هي حجرة صغيرة ليس لها نوافذ وبابها محكم الإغلاق وتستعمل الآن كزنزانة للتحفظ على بعض الأسرى المهمين، الذين يتوقع أن يدفع ابن رشيد مبالغ مرتفعة كفدية للإفراج عنهم. أما الأسرى الآخرون المربوطون في الخارج فهم ممن لا يكترث بهم أحد، ويبقون هناك حتى يقوم أحد معارفهم بالتشفع لهم عند القيادة وإطلاق سراحهم، ومنهم من يقوده حظه العاثر للوقوع في يد أحد المعادين لقبيلته ويستلمه حتى تقوم جماعته بالتنكيل به أو طلب فدية من عشيرته.

أما السؤال الثاني فهو عن سبب مغادرة ابن رشيد لبلدة نعجان، فقد أفاده عمه أن أهل القرية من الخوالد وغيرهم شعروا بالضيق من ممارسات رجال عبد العزيز بن متعب، سواء من حيث عدم الحرص على إقامة فريضة الصلاة، أو ممارسة بعض المنكرات مثل: شرب التنباك أو المعازف، لذا أخذوا يرجمون أهل الشمال عند حركتهم داخل البلدة ويسلطون عليهم النساء والأطفال والخدم لسبهم وتقريعهم، لذلك قرر الرشيد إقامة معسكر مؤقت جنوب نعجان بمسيرة نحو ساعة للماشي، مع إبقاء بعض الرجال والسلاح والذخيرة مخزنة في منازل على أطراف البلدة الشمالية الغربية.

الاستفسار الأخير كان عن «رجاجيل الشيوخ» حيث أوضح له العم أهمية التمييز بين «الشيوخ» الذين هم حكام البلاد «والمشائخ» الذين هم فقهاء الشريعة، وهذه تسميات شرق ووسط جزيرة العرب، أما في جنوب ووسط العراق فإن القصابين حينما يحوم حول دكاكينهم أحد الجراء ينهره بقوله: «ابتعد يا شيخ» لأن الزبائن يتأففون منه. ورجاجيل الشيوخ هم أشخاص ولدوا في منازل الحكام وتربوا فيها ويدينون لهم بالولاء التام، وليس لديهم روابط مع العائلة أو العشيرة والقبيلة ولا يعرفون لهم أهلا أو عزوة إلا الشيوخ، حيث يجري تدريبهم على القيام بالأعمال الملاصقة للحكام، ويختار ذوو التميز الجسدي أو الفكري أو النفسي للقيام بأعمال الضيافة ومتابعة الشؤون الخاصة لكبار القوم، والبعض منهم توكل اليهم المهام القتالية بعد إخضاعهم لتدريبات شاملة على أعمال الفروسية والرماية واستخدام الأسلحة البيضاء والمصارعة اليدوية. وهم عادة أشخاص توضع فيهم ثقة كبيرة من قبل الحكام، ولا يتصرفون إلا حسب توجيه القادة وليس بناء على ما يرون الأفضل لأنفسهم أو لمريديهم. وعادة ما يعيشون في بحبوحة بجوار الحكام حيث يأكلون أفضل الأطعمة ويلبسون أفخر الثياب والعطور. ولابد من الحذر الشديد عند التعامل معهم فهم يقبلون الممازحة أو الملاطفة من قبل الحكام وأقاربهم، ولكن ليس من قبل العامة. كما أنهم ينفرون من العمل بتوجيه حكام القرى أو زعماء

القبائل أو شيوخ شمل العشيرة. ويعتمد الحكام عليهم في الأعمال الحربية والحراسة الشخصية.

وبعد ذلك أمر العم حمد ابن أخيه بتركه يأخذ قسطا من الراحة في ساعة صفرة الشمس بعد شروقها بقليل.

بقي المدافعون عن الخرج أكثر من ساعتين يرتقبون إشارة الهجوم ولم يصلهم شيء مما زاد من التوتر والحيرة نحو ما قد يحدث في بقية ذلك اليوم، وقبل الساعة الرابعة ضحى، وصل الصحنة أحد الأمراء ومعه خطة عمل حيث طلب من الجميع سواء كان خيالة أو هجانة أو مشاة أن يمتشقوا أسلحتهم ويحملوا ذخيرتهم ويتوجهوا نحو الركن الشمالي الغربي للدلم، وهناك بقوا نحو نصف ساعة في ظلال النخيل حتى سمعوا طلقات نارية من شمال البلدة . انطلقت الفرق مسرعة باتجاه الشمال الشرقي، حينما شاهدوا جمهرة غفيرة تتجه شمالاً تحت راية الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن متوجهة إلى معسكر ابن رشيد في كبشان.

كانت تلك المرة الأولى التي يحدث فيها هجوم جماعي مكثف على موقع أهل الشمال. التقت الفرق المختلفة مع بعضها وشكلت طابورا طويلا وعريضا بدأ في إطلاق نيران كثيفة نحو موقع قوات عبد العزيز بن رشيد، التي أصابها الارتباك من ذلك الهجوم المباغت الذي لم تعتد عليه، حيث كان الوضع في المرحلة السابقة عكس ذلك وأهل العارض دائماً في مواقع الدفاع. تشتت بعض عساكر الرشيد التي على الخطوط الأمامية وبدأت قوات ابن سعود تتوغل داخل ذلك المعسكر المكشوف والمكون من خيام وبيوت شعر، إلا أنها سرعان ما لمت شعثها وقامت بترتيب الصفوف وإطلاق نيران كثيفة من أسلحتهم ذات المدى البعيد مما أوقع إصابات عديدة بين المهاجمين. كان الهجوم السعودي على ثلاثة محاور:

الأول: هم الهجانة الخارجون من الصحنة ومن شمال غرب الدلم وقد ركزوا على القطاع الغربي من معسكر العدو.

والمحور الثاني: هم الفرسان المتوجهين من الصحنة وشمال الدلم، فقد كانوا بقيادة الأمير ابن فرحان وهجموا على الجزء الجنوبي من قوات ابن رشيد.

أما الفرقة الثالثة: بقيادة الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن فقد خرجت من الجهة الشرقية للدلم ثم اتجهت شمالاً وهي تطلق نيرانا كثيفة نحو الجناح الشرقي لمعسكر ابن رشيد. بعد نحو ساعتين من بدء الهجوم والرد القوي من قوات عبد العزيز بن متعب، قرر قائد الهجوم على القطاع الغربي (ابن جلوى) سحب رجاله والهجن قليلاً باتجاه الجنوب

الغربي وتخفيف كثافة الرماية في حركة اندهش لها الجميع، وبعد ذلك بقليل قال الجد لابنه عبد الله- محل هذه السيرة- أنهم تلقوا تعليمات من ابن فرحان بإنقاص معدل إطلاق الرصاص والتقهقر التدريجي الآمن لمسافة قليلة باتجاه الجنوب، وذلك تصرف زاد المقاتلين دفاعاً عن منطقة الخرج حيرة، حيث كان الارتباك قد بدأ يظهر في معسكر ابن رشيد.

كانت المفاجأة الأكبر حينما لاحظوا أن الهجوم الكثيف على القطاع الشرقي، الذي تعلوه راية عبد العزيز بن سعود أخذ في وقف رمايته وانسحب بشكل منظم ودقيق باتجاه الشمال الشرقي. تكدرت خواطر الفرسان ووقعوا في حيص بيص، ولكن تعليمات القائد ابن فرحان كانت دقيقة وواضحة باللجوء إلى السكون، والاكتفاء بإطلاق النار على من يقترب تجاه شمال الدلم، والتريث لحين جلاء الأمر. بعد دقائق أخذت راية آل سعود تغيب في الأفق متجهة نحو قرية السلمية التي تقع شمال السيح بجوار منطقة تسمي فرزان وهي غير السلامية الواقعة شرق الحوطة بقليل وجنوب الدلم بمسيرة عدة ساعات للراكب.

مرت لحظات كأنها دهر وقد توقفت محاولات قوات أهل الشمال وحلفائهم للتوغل نحو شمال الدلم، ثم قال الجد أنه سمع تهليلا وتكبيرا بصوت عال من ابن فرحان، حيث أبلغه أحد المراقبين بواسطة المنظار (الدربيل) أن راية ابن رشيد ومعها قوة تزيد عن خمسمائة من الإبل والخيل قد اتجهت نحو الشمال الشرقي تطارد المقاتلين مع الأمير عبد العزيز آل سعود، سأل الجد ابن فرحان عن إمكانية قيامهم بمطاردة ابن رشيد لمساعدة قومنا في الالتفاف عليه وحصره بين فرقتين مهاجمتين، ولكن ابن فرحان أخبره بوجوب عدم التحرك قطعيًّا، ثم تهلل وجهه قائلا: أبشركم أن ابن رشيد قد بلع الطعم، وسيلقى سوء عمله في سحابة هذا اليوم المبارك بعون الله.

لم يعلم أحد بتفاصيل ما جرى ولكن في مساء ذلك اليوم جاءت أنباء الكشافة أن ابن رشيد قد انسحب راجعا من المطاردة بعد العصر، وأنه أقام معسكرا مؤقتا شمال قرية صغيرة تسمى: «اليمامة» ويذكر أنها محل ولادة مسيلمة الكذاب، وأنه وقواته وركائبه في حال سيئة من الإعياء والمرض، وقد أرسل بعض النجابين إلى قواته في كبشان ونعجان، لأخذ الحيطة والحذر وإرسال المدد، والاستعداد لمهام قتالية صباح الغد. أما عبد العزيز بن سعود فلم يرجع إلى الدلم ولكن أرسل بعض رجاله إلى مقر القيادة حول وضعه وما عليهم اتخاذه من إجراءات في تلك الليلة وصباح الغد.

أمسى الجد ومعه الرفاق في حيرة وقلق من غموض الموقف وما آلت إليه الأمور، ولكن ابن جلوي وابن فرحان طمئنوهم أن الأوضاع على ما يرام وعليهم الذهاب لمقر إقامتهم والاستراحة حتى ينجلي الصباح. لم يستطع أحد من المدافعين النوم في طمأنينة وانتابتهم الوساوس والتكهنات حتى سمعوا صياح الديكة مؤذنة بقرب دخول وقت فريضة الفجر. عند تناول قهوة الصباح سمع الجلوس أصوات أناس تقول: «أبشروا بالظفر» ودخلوا عليهم قادمين من الدلم حاملين أنباء متضاربة مفادها أن عبد العزيز بن رشيد قد فر من المعسكر متجها نحو الشمال الغربي باتجاه نساح، وترك الكثير من معداته وتجهيزاته الحربية والمعيشية. بعد قليل وصل أشخاص من الهياثم ولديهم مزيد من المعلومات غير المتناسقة والمشوشة، تلخصت الروايات، في أن الأمير عبد العزيز آل سعود قد سرب معلومات إلى ابن رشيد بأن أعمال حرق المنازل والنخيل قد أصابت الأهالي بالذعر، وأن قوات ابن سعود قد بدأت تنفض عنه وأنه يخطط للذهاب للكويت لجلب تعزيزات له. أما خطة الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن فقد كانت القيام بهجوم شديد على معسكر ابن رشيد وهو على غير أهبة وتشتيت عساكره، وحينما لم يتمكن من ذلك، قرر تطبيق الخطة البديلة وذلك بالانسحاب باتجاه الشمال الشرقي نحو صحراء الدهناء القاحلة على أمل أن يلاحقه ابن رشيد وهناك يمكن إيقاع خسائر شديدة بقواته.

تقهقر ابن الرشيد:

أفاد البعض أيضًا أن ابن رشيد حينما وصل آخر مناهل المياه في أطراف منطقة الخرج، وعلى بعد نحو مسيرة ساعة ونصف شمال شرق اليمامة نصحه رفاقه بالتزود بالمياه قبل دخول الدهناء، وقد كان عند ذلك المنهل أحد الأعراب يذود عن أغنامه وكأنه قد انتهى للتو من السقاية. قاموا بطرده وولى مسرعًا باتجاه الجنوب، بينما قام رجال ابن رشيد بسقي الدواب من ذلك البئر وشربوا منه، أما الأمير ابن متعب فلا يشرب من مياه الطريق ولكنه يحمل عبوات مؤمنة ومفحوصة مسبقًا. بعد أن غادر الملأ ذلك الموقع وساروا قليلاً أصابهم الغثيان والإنهاك الشديد، وتبين لهم أن مياه البئر إما أنها كانت ملوثة، أو مسمومة، مما اضطرهم للتوقف ومحاولة معالجة الوضع، ولكن الأمر زاد سوءًا، وبدأت الدواب تعجز عن الوقوف وأخذت تنفق، وكذلك زاد المرض على الأفراد المرافقين لابن رشيد، مما اضطره للكف عن مطاردة ابن سعود والعودة بمن هو قادر على المسير إلى قرية اليمامة، وأقام هناك معسكرا آخر مؤقتا، وأرسل النجابين لطلب المدد وتحذير قادته من هجوم مباغت.

لم يكد الجمع ينهون تناول قهوة الصباح ويتناقشون حول حقيقة ما جرى فيما بعد ظهيرة الأمس وليلة البارحة، ويتداولون حول مغزى توجه ابن رشيد نحو الشمال الغربي وهل هو لطلب المزيد من الدعم من معسكره الرئيس في بنبان، أو أنه فرار من أرض مجهولة له وقوم معادون له بشدة، وأثناء ذلك النقاش ورد إليهم النفير يدعو كافة المحاربين المقيمين في الصحنة للتوجه نحو شمال الدلم.

أسرعوا جميعًا إلى هناك، وكان الفرسان أول الواصلين حيث وجدوا ابن جلوي ومعه قوات كبيرة، حيث أمرهم بالتوجه إلى معسكر ابن رشيد جنوب نعجان. لم يواجه الجد عبد الرحمن ورفاقه أي مقاومة عند اقترابهم من المعسكر، وحينما وصلوا وجدوا حالة من الفوضى بداخله، وقد هجره المسلحون، ولم يتبق سوى شرذمة قليلة تختبئ في خيام الفجر وهم في حالة من الهذيان، كما توجد علامات أن المعسكر قد تعرض لعملية نهب عاجلة، حيث ألقوا القبض على بعض الأشخاص الذين يجمعون ما خف حمله وغلا ثمنه من الموضع شبه المهجور من أي قوات مسلحة معادية.

بعد أن استقرت الشمس فوق الأفق حضر إلى المعسكر بعض أفراد القيادة، حيث أمروا رجالهم بتأمين السيطرة على دخول وخروج الأفراد والموجودات من المعسكر، وجهوا عددا من الخيالة والهجانة للتوجه إلى داخل مدينة نعجان. كان ضمن المتوجهين إلى هناك الجد عبد الرحمن، حيث قاموا بالتعرف على المساكن التي استغلها ابن رشيد كموقع لإقامته

في منطقة الخرج، واستعانوا في ذلك ببعض الأهالي المناوئين لآل رشيد وأعمالهم القبيحة في المنطقة. كانت تلك عبارة عن منازل كبيرة تعود ملكيتها للخوالد أمراء نعجان وغيرهم من الأسر التي تقطن البلدة. حيث قاموا بوضع حراسة على تلك الأماكن ومنع أي شخص من دخولها أو المساس بمحتوياتها. كانت بعض تلك البيوت تستخدم كمستودع للأسلحة والذخيرة والمؤونة، وأخرى توجد بها وثائق ومستلزمات إدارية أخرى، وأما البقية فكانت مجرد أماكن للمبيت وتناول الطعام، وقد جرى التحفظ على ذلك. حضر إلى نعجان جماعة من أتباع الشيوخ والمقربين لهم وباشروا إعداد حصر (جرد) لكافة الموجودات، وأفادوا الجد أن المطلوب منهم التركيز على الأسلحة والذخيرة والأسودين والنقدين، استفسر منهم عن الأسودين، حيث يعرف أن النقدين هما الريالات الفضة (مجيدي وفرنسي أي نمساوي) والليرات (الجنيهات) الذهبية، ولكن الأسودين ما هما؟ فأجابوه: إنهما الإبل ذات اللون الداكن (المجاهيم) من النوعيات المهجنة مع الأصائل، والأسود الثاني بيوت الشعر الجيدة الصنع من شعر الماعز والوبر مشغولة في شمال الجزيرة العربية وهي متينة وخفيفة وتقي من الرمال والمطر.

طلب منه أولئك العدادون المشاركة في عملية الاحصاء فاعتذر بأن معلوماته في الحساب غير قوية، وتولى إلى ظل جدار مع بعض الخثالين، حيث أخرجوا من مزودة كل منهم بعض الطعام المجفف مثل الأقط وشلاف وتمر حويل وأكلوه مع قليل من الماء من مزادة كل منهم. عرضوا عليهم المشاركة في تناول طعام أعده بعض العمال حيث ذبحوا سخلا وعناقا من صغار من الماعز طهوه مع قليل من التِّمَّن (أرز عراقي)، كما طبخوا القفر (لحم مجفف) مع رقائق من طحين القمح وصنعوا منه قرصان (ثريد) مع بعض الخضار، وذلك مما وجدوه في فناء أحد منازل الموالين لابن رشيد الواقعة تحت المصادرة، آل خثلان ورفاقهم من أهل الحريق اعتذروا عن المشاركة في تناول شئ من ذلك. كان الصبية من أصحاب البيوت المجاورة يتطلعون في حسرة لما يجري في تلك المنازل، وهم آمنون حيث كانت تعليمات القيادة بعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والخدم غير المحاربين. ذكر الجد أنه أخذ غفوة قصيرة في ظل ذلك الحائط الذي تهب عليه نسائم خريفية غير حارة.

قبل أذان العصر بقليل وصل مندوب القيادة بإشعـار للجميع للحضور إلى المعسكر المؤقت لابن رشيد والمقام في شعيب صغير جنوب نعجان بمسيرة ساعة، فسارعوا إلى هناك حيث وجدوا جمهرة غفيرة من المقاتلين دفاعًا عن الخرج، وعددا كبيرا من أهالي الدلم والسيح والصحنة ونعجان والقرى المجاورة. تلفت الجد يمنة ويسرة للبحث عن مكان ملائم

وأشخاص معروفين للجلوس معهم، فلاحظ وجود مجموعة من السبعان من أفخاذ الصملة وآل بوثنين والجمالين يقعدون سويا في يمين الحلقة فيها ظل ممتد أثناء نهاية ذلك اليوم المغبر، وهم من المقربين لآل سعود، وقد أمرهم الإمام عبد الرحمن بالخروج في صحبة فرقة فتح الرياض القادمة من الكويت في العام السابق. بعد تبادل التحية أفاده القوم أن الأمير عبد العزيز قد ورده نبأ مغادرة ابن رشيد معسكره خارجًا من منطقة الخرج وذلك بعد منتصف الليل، حيث كان عبد العزيز بن متعب قد أقام ذلك المعسكر المؤقت شمال قرية اليمامة قبل مغرب الأمس، وعندما وصل إليه بعض أقاربه ومستشاريه بالمدد من نعجان، لاحظ تفشي المرض والإعياء في دواب ورجال الحملة وخدمهم، وقد توفي الكثير منهم.

دارت مجادلة حامية بينهم أثناء إعداد طعام العشاء المتأخر، ثم ازداد الضيق والحنق على ابن رشيد وطلب منهم فجرًا رسالة العودة والتجهيز إما إلى هجوم قوي في الصباح الباكر، أو الانسحاب، وسيرسل إليهم مع نجاب بتفاصيل ما عليهم عمله. ولكنه لم يتمكن من البقاء بعدهم إلا قليلاً حيث أمر مرافقيه بالإعداد للرحيل إلى نساح على عجل. مرت مدة قصيرة سمع بعدها الحضور أصواتا متعالية غير مفهومة، وحضر الشيوخ وهم يسحبون عددا كبيرا من الرجال المربوطين بالحبال، حيث أمروهم زجراً رجال الشيوخ بالانتظام في حلقة من الجهة الشرقية من ذلك الشعيب.

كان الضرب ينهال بشدة على كل من يتلكأ في تنفيذ الأمر الموجه له، وكان عددهم يناهز خمسة وستين شخصاً وهم في حالة مزرية وثيابهم ممزقة وبعضها ملوث بالدماء. أن هي إلا لحظات حتى دخل الحراس المسلحون إلى الساحة، وأمروا بفك الحلقة لتكون على شكل قوس مواجه للغرب، وأحضروا ثلاثة رجال مصفدين في سلاسل حديدية ووضعوهم داخل المجموعة ولم يسمحوا إليهم بالتحدث سويا، ذكر الجد أن رفاقه من سبيع وهم من المقربين لآل سعود ويعتبرون لديهم من أهل «الثقة والكفاءة» في تلك المرحلة، ويعتبرون من الخواص المقربين للأمراء، وقد ذكروا أن أولئك الثلاثة هم من أقارب ابن رشيد، والأوسط منهم من يقال له سلطان وهو الذي قام بإحراق المنازل في الدلم وبداخل بعضها نساء وأطفال، وأما الآخران فأحدهما اسمه جبر والثالث اختلف حول اسمه إذا كان فيصل أو بدر.

ألقي القبض عليهم صباح اليوم وهو نائمون في خيام الغجر ويبدو أنهم لم يعلموا بنبأ الانسحاب السريع غير المنظم، أو أنهم كانوا مشغولين عن ذلك بشئونهم الخاصة. خرج من أحد الخيام المحيطة بالساحة أبناء الإمام عبد الرحمن ومعهم ثلة من الأمراء ومشايخ القبائل. توجه الأمير عبد العزيز إلى الجهة الغربية من الساحة بحيث أصبح مواجها للأسرى

والشمس تسطع في وجوهم من خلفه بعد أن اصفرت مؤذنة بقرب المغيب، تحدث بصوت جهوري متقطع إلى ذلك المحفل حيث بدأ بذكر الله والثناء عليه والصلاة والسلام على نبيه، ثم بشر أهل الخرج والمقاتلين دفاعا عنها بالنصر على الجماعة الباغية التي اعتدت على ديارهم، وسفكت الدماء، وأحرقت الأملاك، وقامت بممارسة أعمال فاحشة لا تتماشى مع الشرع في البلاد المحبة لتطبيق أحكام الكتاب والسنة، وأفادهم أن ابن رشيد قد ولى هارباً من أرضهم ووطنهم بغير عودة بعون الله وهاهم أعوانه أسرى أمامكم يخضعون للحكم الشرعي.

كان قاضي قاعدة (عاصمة) الخرج مدينة الدلم غير موجود، لذا فقد استدعوا أحد الفقهاء يقال له: مخضوب، وقام الأمير باستجواب سلطان آل رشيد ورفاقه حول دورهم في إحراق بعض المنازل وكان في أحدها نساء وأطفال وشيوخ، ولم يستطيعوا إحسان الرد، فأحدهم قال: أن تلك هي أوامر عبد العزيز بن متعب، وأن ذلك كان ضروريًّا لضمان الخروج من الحصار، ولم يعلموا بوجود أناس في الدار.

مشهد أثار تقزز جدي:

أفتى الفقيه بأن كل أولئك يمكن إيقاع حد الحرابة ضدهم، ولكن لعدم قطعهم الطريق فينفذ فيهم القصاص حدًّا لقتلهم الأنفس المعصومة واعتدائهم على الآمنين. أشار الأمير بيده فتقدم زنجي من مماليك آل سعود ومعه اثنان يعاونانه حيث أبعدوا الثلاثة المصفدين بالحديد عن البقية، وعصبوا أعين اثنين منهما وجعلوا بينهم وبين الثالث مسافة، ثم استل السياف سلاحه من جرابه وأخذ يلوح به في الفضاء وهو يتلامع في أشعة الشمس، بينما قام معاوناه بالدوران حول سلطان بن رشيد وكان أحدهما قصيرا خفيف الحركة ليس في يده أي أداة ولكنه يحوم حول الرجل ساعة على قدم واحدة، وأخرى على قدميه، مع حركات غير متزنة من رأسه ويديه، بينما الشخص الآخر ينغز الرجل الواقف بعصا غير طويلة في خاصرته، أفاد المجاورون للجد بأن السياف هو ممن يعملون في مهام القصاص لدى آل سعود واسمه (خياس) حيث تنبعث منه أحيانًا روائح كريهة، وأما معاونه ذو العصا فاسمه مبروك وهو يتدرب على القصاص، ويقوم باستثارة المتهم وإعداده لتلقي الضربة القاضية، أما المساعد الصغير واسمه فرج فيقوم بإرباك المحكوم عليه وإدخاله مرحلة تشبه التنويم العصبي.

سمع الجميع صرخة مدوية من السياف حينما رفع سلاحه وهو يمسكه بكلتي يديه على ارتفاع يعادل رأس المتهم، ثم هوى به على رقبته

في اللحظة التي كان مبروك قد همزه في أسفل بطنه مما جعله يميل برأسه نحو اليمين ويكشف صفحة رقبته لخياس. عندما هوت الشفره الحادة على الرقبة اندفع الدم إلى مسافة بعيدة كأنه فوار أو ميزاب أثناء سقوط مطر كثيف وغزير، وسط سيل الدماء ظهرت عظام رقبة المتهم ناصعة البياض، وصدرت منه حشرجة مكتومة ثم تهاوى إلى الأرض، حيث أسرع إليه مبروك ومعه خنجر حاد أخذ يكمل به حز رقبة ابن رشيد، بينما تعالت أصوات التكبير من بعض أهالي من احترقوا على يدي ذلك المجرم.

شعر الجد بالتقزز من ذلك المشهد المروع، وأشاح بوجهه بعيدًا حينما بدأت العملية تتكرر مع الشخصين الآخرين، صاح أحد رجاجيل الشيوخ «اقلطوا العشاء» توجه الجميع نحو صف من بيوت الشعر الفاخرة وضعت فيها أسمطة من الحصير وعليها صحون من الثريد والجريش واللحم، بينما خياس ممسكٌ بسيفه الملوث بالدماء وهو يهزه أمام بقية الأسرى متوعدًا أنه لن يتناول لقمة واحدة إلا بعد أن يجهز عليهم.

شعر الجد بالغثيان وهو يرى الرجال يلتفون حول أطباق الطعام، بينما أحد المدانين المنفذ فيهم العقوبة القصوى ما زال يحرك أطرافه والدماء تسيل من رقبته المحزوزة، وجد يدًا تسحبه نحو المائدة، انتبه إلى أنه أحد أبناء العم متقزز مثله ولكنه لا يرى بدا من تناول طعام مطبوخ بعد ذلك اليوم الشاق والأليم، كان الطعام قد بدأ يبرد، وهناك أسراب من الذباب تحوم داخل بيوت الشعر، وقد وجد أن أطباق الجريش بها قدر غير يسير من حبات الرمل وصغار الحصى، حيث يبدو أن العاصفة الترابية القصيرة في ظهيرة ذلك اليوم قد سكبت بعض الأتربة داخل القدور، وعندما مد أصابعه نحو اللحم وجده قاسيا، حيث يبدو أن ما كان أمامه لحم بعير هرش.

خرج أبناء الإمام عبد الرحمن إلى الساحة وكان الأسرى يصيحون ويتوسلون، وبعضهم ترتعد فرائصه ولا تحمله ركبتاه وقد جثا على الأرض يحبو مناشداً أبا تركي للعفو عنهم، ولكن عبد العزيز صاح بهم: «جاء دوركم أيها السلق- ويقصد كلاب الصيد- فلابد أن تروا العقاب جزاء جرائمكم وعدوانكم» تقدم نحوه ابن مجفل ومعه ثلاثة من سبيع، وواحد من آل مسعد سبعان الخرج، وآخر من الرشود سبعان الأفلاج، والثالث من آل خثلان سبعان الفرع، وأخذوا يتشفعون لديه في جماعتهم من الأسرى، صاح الأمير مناديًا بفصل الأسرى من سبيع، ودنوا منه فوبخهم قائلا: كيف سول لكم الشيطان أن تقاتلوا مع الغريب ضد القريب؟ ولولا جماعتكم وكفالتهم لكم بعدم تكرار الغدر منكم فو الله ووالله ثم والله

لأضع رؤوسكم بين أرجلكم، ثم نسحبكم مثل النعاج التي تجر للسلخ فلا تلوموا إلا أنفسكم إذا تكرر ذلك منكم.

جاء خدم الشيوخ ومعهم سياط تضرب بها البغال، وأخذوا يضربونهم بها ويدفعونهم بعيدا قبل أن يتمكنوا من الاعتذار أو الشكر على العفو. وأخذوا يسبونهم وهم يفكون أربطتهم بعيدا عن الساحة. تكرر الأمر مع بقية الأسرى من القبائل الأخرى وفرح الجميع بالعفو عنهم. علم الجد أن عدد الأسرى يبلغ أكثر من مائة ولكن هؤلاء هم من جرى ترتيب أمورهم على هذا النحو، وهناك آخرون محتجزون للمبادلة مع أسرى لدى ابن رشيد، أو لأخذ فدية منهم. اقترب الأمير محماس الهزاني من الجد وأفاده أن الشيوخ يريدون مقابلة أهل الحريق بعد صلاة العشاء، وقد اخترنا عشرة أشخاص وأود أن ترافقنا في ذلك، قبل الثانية والنصف مساء (غروبي) كان الجد قد رتب هندامه للمقابلة الخاصة غير المحدد القصد منها. عند دخولهم مجلس الأمير عبد العزيز آل سعود وجدوه واقفًا في الصدر، وبقية القيادة بعيد في الخلف بنحو خمس خطوات، وعندما صافحه الجد أسر إليه بكلمتين موجزتين عما تعرض له أحد أفراد أسرة آل خثلان من إساءة في وقت سابق، فأجابه عبد العزيز هامسًا: بلغني وساءني وعزرته. ولم يكن بجوارهما سوى الأمير ابن صنيتان آل سعود ومحماس الدحملي.

ثناء عبدالعزيز آل سعود على أهل الحريق:

عندما استقر كل في مجلسه تحدث الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن على عجل قائلا: بيض الله وجوهكم يا أهل الحريق يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فقد قام مقاتلوكم من خيالة وهجانة وقناصة ومشاة بدور بطولي للدفاع عن دياركم، وصد ذلك العدو الغاشم مأمور الترك، والآن فإن أهل الخرج لقوا من العناء والمشقة في هاتين الجمعتين ما يكفيهم، وسنتوجه غدا للرياض، وكل منكم يتوجه في حفظ الله إلى أهله. وأفيدكم أننا سنسوق الدية كاملة لكل من توفي في هذه الرحلة في غير العمليات الحربية، أما شهداء المعركة فلهم دية مضاعفة، وكذلك نفقة وإرث للمصابين والجرحى، وأنتم والحمد لله تعودون سالمين لبيوتكم، وستجدون في الخارج ابن معمر والحقباني معهم حصتكم من المال والسلاح والذخيرة، وكسوة وبيوت الشعر والخدم والدواب، دبروها بينكم.

تحدث رجل حريقي وتلا الآية: [**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**] [البقرة 216] ولقد كنا غير محبين للقدوم

لهذا القتال ولكن عدوانهم علينا شجعنا على دحرهم بفضل الله ثم حسن تدبيركم وخططكم التي أحرزت النصر رغم قلة العدد والإمكانيات.

كلمة جدي عبدالرحمن:

دعا له الأمير بالبركة وسارع الجد عبدالرحمن بطلب التحدث قائلاً: إننا نعلم أنكم في وقت ضيق وتوديع بقية أهل البلدان المجاورة، وأود في عجالة الإشارة إلى أبيات قالها شاعر قديم[1] في ملك عظيم قبل ألف سنة، تمكن مثلكم من صد هجوم الروم على بلاد المسلمين وهي:

رأيتكَ محضَ الحِلمِ في محضِ قدرةٍ ... ولو شئتَ كانَ الحلمُ منكَ المهنَّدا

ومـا قتـلَ الأحْـرار كـالعفوِ عـنهمُ ... ومَـن لـكَ بـالحُرِّ الَّـذي يحفـظُ اليَـدَا

إذا أنــتَ أكرمــتَ الكــريمَ ملكتَــهُ ... وإنْ أنــتَ أكرمــتَ اللَّئــيمَ تمــرَّدا

ووضـعُ النَّـدَى فـي موضـعِ السَّيْفِ بالعُلا ... مضِرٌّ كوضـعِ السَّيْفِ فـي موضـعِ النَّدَى

ولقد رأينا منك في هذا اليوم ما زادنا اقتناعا بقدرتك على إنجاز ما فيه خير البلاد والعباد، فقد كان يوما مشهوداً بالشجاعة والعفو والسخاء، وأكمل الأبيات قائلا:

فَذا اليَوْمُ في الأيّامِ مثلُكَ في الوَرَى ... كمَـا كنـتَ فـيهِمْ أوْحـداً كـانَ أوْحَـدَا

يَـدِقُّ عَلَـى الْأَفْكَـارِ مَـا أنْـتَ فاعِـلٌ ... فيُتـرَكُ مـا يخفَـى وَيُؤخَـذُ مـا بَـدَا

وإنني نيابة عن أسرة آل خثلان أشكر عطيتكم وأعتذر عن قبولها لأننا ما جئنا للخرج إلا بحثا عن مرضاة الله في دفع مساوئ عمال العثمانيين

(1) يقصد المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني.

الأتراك وإقامة شرع الله في هذه الديار، وإنني أرجو قبولها هدية منا للإمام عبد الرحمن في الرياض، وفي الختام أوصيك يا أبا تركي أن ترعى حقوق ومصالح أبناء المنطقة، وأن لا تترك أحدا من أولئك المتعجرفين والمتجهمين يتولى شئونهم، والله يرعاك ويرشدنا جميعا إلى سواء السبيل. أثنى الأمير عبد العزيز على حديث الجد، وأفاد بوجوب استلام حصتهم من متروكات المعتدين، وأفاد أن الإمام قد بلغه خبر هروب ابن رشيد ولابد أن يلاحق مؤخرة قواته، وكذلك في بنبان سيجدون الكثير من الغنيمة.

ثم انتصب الأمير مودعا الجميع، داعيا الله لهم برحلة عودة موفقه وإقامة سعيدة في ديرتهم ومع أهلهم، أخذ القوم في المغادرة، ولكن العم حمد اقترب من الأمير داعيا إياه لحشد القوات لإخراج مناصيب ابن رشيد وعمالهم من بقية قرى ومدن العارض، وبخاصة الوشم وسدير ونواحيها. هرول الجد نحو الصحنة وترك الجماعة يستلمون نصيبهم من الغنائم، ووصل إلى المضيفة المحددة هناك لإقامتهم فوجد ابنه الأكبر ومعه سعيد وبريه وقد أعدوا طعامًا شهيًّا، وأثناء تناوله قص عليهم ما جرى في ذلك اليوم، ثم أخلد الجميع للنوم بعد يوم مرهق. عند الصباح جلس مع شقيقه الأكبر الذي أفاده أنه حصل على نصيب جيد وحصة وافرة من الغنائم وذلك بدعم من الأمير محماس، الذي أرسل معه بلاغا أن موضوع الإساءة إلى أحد الخثالين قد تمت تسويته باعتذار على الملأ وأعطية جزيلة، ويود اعتبار الموضوع منتهيا.

أما قسمة تلك الغنائم بين الأخوين فقد اقترح الجد أن تسلم كلها للأخ الأكبر زيد بن عبد الله، على أن يقوم هو باتخاذ ما يراه فيها، حيث تقرر أن يكون الرحيل من الصحنة عند عصر ذلك اليوم. كانت رحلة العودة أيسر من القدوم فقد تمهلت القافلة في سيرها ومعها عدد وافر من الركائب تحمل بنادق ألمانية حديثة من المستخدمة لدى الجنود العثمانين، وكذلك صناديق من الذخيرة ذات المدى البعيد، وبيوت الشعر، وكسوة وملابس مختلفة تحملها بغال عراقية نشيطة. وقد تولى الجد والعم الإشراف على حمل صفائح الوقود (الكاز) وبقية المواد الثمينة والحساسة، أما العمال فأخذوا يسوقون الإبل المجاهيم الداكنة ويخدمونها.

مهمة عبدالله بن خثلان:

أما الوالد عبد الله بن خثلان فقد كلف بعدة أعمال أهمها الإشراف على أسرى من غير المقاتلين، تقرر أخذهم كخدم، وكانوا يسيرون ببطء حيث الأصفاد في أقدامهم، كانوا رجلا وامرأتين، إحداهن ذات طبع مسالم وتميل لقبول واقعها رغم آلام الأغلال الحديدية في رجليها، وهي ذات أشباه تركية فالبشرة لونها فاتح والشعر ناعم ويميل للشقرة وتسمى: بشرى. أما الثانية فذات بشرة داكنة وشعر مجعد ومشاعرها سيئة، أما الرجل فهو شديد السمرة، ويتصرف ببلاهة، رغم أن الوالد لاحظ أنه على قدر من الذكاء حينما يحين موعد إطعامهم. ذكروا إنهم من أهل الجبل في حائل، ولكنهم يتحدثون بلكنة غريبة، كما ادعوا أنهم مسلمين ولكنهم لا يحسنون أداء الصلاة ولا يعرفون قراءة الفاتحة، ولم يمكن معرفة إذا كانوا من الغجر أو النور أو الصلب وإنما يسمون أنفسهم رشايدة!

توقف المسير بعد أقل من ساعة على مغيب الشمس، حيث كان الجد طيلة تلك المدة يذكر الله ويسبحه ويعلي من شأنه ويتلو دعاء المساء، وقد تقرر أن يجري المبيت هناك ولا داع للسرى في الليل، حيث سيمكنهم إذا ساروا بعد الفجر أن يصلوا في ضوء النهار. جلس أعمام الوالد وأقاربهم للسمر قبل الخلود للنوم، حيث استطال الليل في ذلك الوقت، وكانت الشمس تشرق بعد الساعة الثانية عشرة غروبي بقليل، حيث يصلي أهل الحريق الفجر في غير شهر رمضان بعد تمكن الوقت وظهور ضوء الصباح التام، أي قبل الإشراق بنحو (30 -40 دقيقة) وليس كما في شهر الصيام، حيث نصلي الفجر بعد الإمساك بقليل.

بدأت المسامرة باستفسار من أحدهم عما إذا كانت نتيجة المعركة نصرا أو هزيمة؟ أجاب العم حمد أن تلك الملحمة انتهت: «لا غالب ولا مغلوب» أي التعادل. واعترض البعض أن ابن رشيد قد خرج بأقل خسائر ليعيد تجميع قواته، ثم الهجوم على الخرج أو الرياض بحشود أكبر. بينما قال آخرون: إنه فر منهزما، وأن أنباء قد وردت من معسكر آل رشيد بأن عبد العزيز بن متعب قد تشاجر مع البعض من أعوانه حول مستوى أدائهم وأنه قد قرر عدم العودة للعارض بعد ذلك.

تحدث الجد مكررًا ما سبق أن قاله شقيقه الأكبر حمد في مجلس الأمراء من أهمية إخراج حاميات ابن رشيد وأعوانه من بلدان العارض في أسرع وقت، وأبدى رأيه حول مسألة الرابح في المعركة، حيث بين أن الحرب ليس فيها إلا خاسرون، ولا يوجد ربح، وأن الفوز بالسلامة هو أقصى ما يؤمل منها، وحمد الله أنهم يعودون بأقل قدر من الخسائر سواء المادية أو في الأنفس، وتطرق إلى مسألة النصر فقال: إنها تعني تحقيق

الهدف، ونحن نعرف أن ابن رشيد جاء للعارض للقضاء على آل سعود وإفشال عودتهم من الكويت ولم يتحقق ذلك. أما الأمراء فقد كان هدفهم صد هجوم عبد العزيز بن متعب وقد نجحوا في ذلك. ما زح أحد الهزازنة الجد عبد الرحمن قائلا: يا أبا عبد الله أنت شهادتك في الأمير عبد العزيز مجروحة، لأنك تبالغ في تقديره، وتلك الأبيات القوية التي أنشدتها فيها تفخيم زائد وتشبيه له بعظماء ملوك العرب، فما هو السبب في ذلك؟ قال الجد: إنني شعرت منذ أول نظرة له بالتقدير والإعزاز حينما كنا في حائر سبيع، والكل يعرف أن الظفر يأتي من عند الله لمن يهبه الله القدرة على القيام بما يلزم تجاه أعماله. لقد أعطى الله عبد العزيز عبقرية تعينه على «التفكير» بشكل صائب ورؤية واضحة، وعلى التدبير بالطرق الفعالة، وسياسة الأمور بالتشاور مع ذوي العلم والخبرة ثم «التعبير» عن مكامن نفسه بالعبارات المحببة الواضحة. وعندما سألوه الإيضاح الدقيق عن تلك الأمور العامة، قال لهم: إني أعتقد بملاحظة الكثير منكم لخصائصه البديعة، ومنها ما يلي:

- يضع خططا دقيقة لما ينوي عمله، ولا يتصرف بشكل عشوائي أو رد فعل للآخرين.
- يوفر الإمكانيات اللازمة لتنفيذ خططه.
- يجري مشاورات وتدريبات لما تقرر القيام به.
- يدرس كافة الاحتمالات التي تواجهه، ولا يفترض أن الأمور ستيسر كما يشتهي.
- يحدد بدائل مختلفة في حال تغير الوضع، وأحيانًا عدة بدائل في حال فشل الخطة الأصلية.
- يقدر الخصم ولا يستهين به، بل يفترض أن لديه قوة أكثر مما يحتمله البعض.
- يفكر عن نفسه ورفاقه وعن غرمائه ويحسب كيف سيتصرفون.

هذا من جهة قدراته العملية في ميدان القتال كما رأيناها جميعا، وأما تعامله الشخصي فلقد رأيتم بوضوح ابتسامته وملاطفته في الحديث، واهتمامه بكافة الحضور، وإعطائهم نصيبهم من التوفير والحشمة كل على قدره، إضافة إلى كرمه وعدم استئثاره لنفسه بشيء من طعام أو لباس أو فراش.

ذكر لي والدي عبد الله بن خثلان، محل هذه السيرة، أنه لاحظ التباعد الكبير في مدى تقبل ذلك التحليل من والده، فقد كان البعض يؤيد ذلك الرأي، والآخرون لا يتمازجون معه، والأغلبية صامته في حيرة غير مدركة لأبعاد الحديث، وكان يتمنى آنذاك أن يشارك بما يتجاوز مجرد الإنصات، ولكنه كان مجبورًا.

تمحيص معادن الرجال:

قطع الصمت أحد الرجال قائلا: الكثير يقرون بالقدرات المتميزة لدى الأمير عبد العزيز بن الإمام عبد الرحمن، والمشكلة تكمن في بعض من معه، حيث لا توجد لديهم أي مزايا فكرية أو عملية وقدراتهم محدودة، ومع ذلك نراهم يتعالون على الغير ويتحدثون بأسلوب أهوج ولديهم أفكار خاليه من الحكمة. رد الجد على ذلك بالشكل الذي أثلج صدر أكبر أبنائه، فقد قال: نحن مع أسلوب في القيادة يلتزم بالكتاب والسنة وتقديم مصلحة العامة من أهل الديار على أي رغبة شخصية، هذا ما وجدناه في الصالحين من العشيرة السعودية الذين عرفناهم منذ قرنين من الزمن، فقد تعامل أجدادنا مع آل مقرن، وكان رأسهم الأمير سعود بن محمد بن مقرن الذي أسس العشيرة السعودية، ونبذ أساليب الحكم الهوجاء والمتعجرفة منذ وطبان ومرخان.

لقد وضع الأمير سعود في بداية حكمه أسسا عادلة وقوية تلتزم بالشرع وتقديم ما يحقق السعادة والأمن لعامة المسلمين الذين يبايعونهم، ونبذ أي شخص من العشيرة يثبت عدم التزامه بتلك الأسس. وإذا تولى أمور العباد غير الصالحين فليس له علينا سمع ولا طاعة، ولا نقبل له أمرا أو حكما وإنما نعرض له تلميحا، وإياه نعبد وإياه نستعين.

مر الآن نحو قرنين من الزمان على ذلك، كانت الأمور في جلها مستقيمة مع الطباع السعودية التي أسسها ذلك الأمير (سعود بن محمد)، وإنني لا أرى في هذا الأمير (عبد العزيز بن عبد الرحمن) إلا الالتزام التام بما يرضي الخالق والخلق، وأما أراذل العشيرة ممن لا يهمهم إلا ثلاثة أمور: هي التعالي على أهل الديار، وملء البطون، وشهوة الفروج، فنتركهم ونسير في طريق الصلاح بعون الله. والآن بعد نحو مائتي سنة هل توجد عشيرة أخرى يمكن أن يوثق فيها لتولي القيادة؟ هؤلاء عشيرة آل رشيد من قبيلة شمر المعروفة في جبل حائل والعراق والشام عجزت أن تنال القبول في وسط جزيرة العرب.

لقد رأى أهل المنطقة قادة عظماء من العشيرة السعودية يحكمون بما أنزل الله، ويضعون الأفضلية للأهالي قبل أنفسهم مثل محمد بن سعود، وتركي بن عبد الله وابنه فيصل، كما مر عليهم قادة سعوديون ضعفاء مثل

عبد الله بن سعود الذي أسقط محمد علي الألباني (والي مصر) دولته وأرسله إلى إسطنبول حيث شنق في الساحة الواقعة غرب جامع السليمانية، وكذلك عبد الله بن فيصل الذي تشاجر مع إخوانه ثم أبنائهم وجاءه محمد بن رشيد (الكبير) وأسقط حكمه وسجنه في حائل. كما كان في آل سعود أراذل مثل خالد بن سعود أو مشاري بن عبد الرحمن الذين لم يسلكوا السبيل المستقيم فنفر منهم الناس وأسقطوهم. وإن من المؤمل يا إخوتي أن يكون هذا الأمير من عباقرة العشيرة السعودية، التي حظت في الفترة الماضية بقبول أكثرية المسلمين، ليس في العارض فقط أو كامل شبه الجزيرة العربية (مسقط واليمن) بل حتى في العراق والشام، ونرجو الله أن يتمكن من إقامة دولة تحكم بالشرع وتوفر العدالة والرخاء، وتستطيع التمشي مع تطورات الزمن، ويشارك في الإدارة الفعلية مندوبون عن كافة البلاد.

غاب القمر في تلك الليلة قبل الرابعة ليلا (غروبي) وتشهد أحد الحضور وذكر الله ودعاه أن يبارك للجميع في رجب وشعبان وأن يبلغهم رمضان ويعينهم على العمل الصالح ويتقبله منهم، عند ذاك توجه الجميع للنوم. عندما أسفر الصباح استيقظوا لأداء الصلاة وتوجهوا مسرعين غربًا نحو تلال طويق التي تقبع خلفها بلدتهم الغالية. أثناء وقت الضحى هبت عليهم عاصفة رملية غير شديدة ولكنها عرقلت المسيرة قليلاً، وقبل العصر فوجئ الجميع بوجود غدير ماء حديث يبلغ عرضه نحو ثلاثمائة ذراع، رغم أن زمن المطر الجيد في العارض (نوء الوسمي) لم يدخل بعد، حيث بقي أسبوع على خروج نوء سهيل، فإنه ليس مستغربا أن تتجمع كتل من السحب المتفرقة، بعضها يمطر في منطقة محددة وبخاصة فوق الجبال ثم يسيل الماء حتى يصل منطقة منخفضة يملؤها ثم يغادرها إلى منطقة أكثر انخفاضا، وهذا هو سبب تسميته بالغدير والذي يخلطه البعض مع الينبوع. رغم أن المطر نادر في سهيل، ويؤدي إلى تلف التمور المتأخرة التي ما زالت على النخيل، إلا أن أفراد الركاب قد دخلهم السرور لمشاهدة تلك البحيرة الصغيرة، وقرروا إقامة مناخ هناك وبخاصة أن البعض شاهد وعولاً تحوم بعيدًا. كانت تلك فرصة ملائمة لتجربة البنادق الألمانية الحديثة التي غنموها من قوات ابن رشيد المتعاونة مع الأتراك حلفاء ألمانيا في أوربا، قال الوالد إنه بدأ التدريب على تلك الأسلحة ذات المدى البعيد والدقيق الإصابة ولكنها ثقيلة الوزن، وترتد بشدة عند إطلاق المقذوف. قام الخدم بإشعال النيران وإقامة الخيام ونصب بيوت الشعر، وتقرر المبيت عند نسائم تلك المياه في ليلة خريفية ولكن بدأ البرد فيها. في الصباح غادروا المكان في سير وئيد ووصلوا بلدتهم قبل

الظهر مستقبلين بحفاوة وترحاب، وقد سبقهم المتعجلون بالبشارة بسلامة الأهل والأحبة.

بوصول القافلة إلى بلدة الحريق عائدة من منطقة الخرج بعد مرورهم بأيام عصيبة شهدت أحداثا جسيمة أثرت في حياة كل من حضر تلك الملحمة، بل امتد أثرها إلى كافة مناطق الجزيرة العربية. وبعد مائة سنة أصبح تأثير إنشاء الدولة السعودية الثالثة يمس أرجاء عديدة من الكرة الأرضية. لقد كان والدي يسرد دائمًا أن بداية تأسيس الدولة الثالثة كان في الخرج، فإن حادثة المصمك قبلها بشهور كانت في رأيه مجرد عملية سيطرة على مركز شرطة الرياض والتخلص من مندوب ابن رشيد فيها، ومن ثم مبايعة الإمام عبد الرحمن وولده عبد العزيز الذين عرفوهم منذ سنين حكاما للمنطقة كما عرفوا أجدادهم من قبل. أما في الخرج فقد كانت معركة فعلية لم تستمر بضعة دقائق حركية بل عدة أيام شهدت الكر والفر بين عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حفيد العشيرة المعروفة، وعبد العزيز بن متعب آل رشيد والي وسط جزيرة العرب من قبل الدولة العثمانية.

كان ذلك من أحد أسباب الإسهاب الذي لاحظه القارئ في سرد تفاصيل تلك الأيام الحاسمة، لقد كان والدي يكثر من سرد تفاصيل ذلك في مجلسه، سواء مما شاهده بنفسه، أو رواه له والده وأقاربه وكل منهم يسرد «ما رأى وما سمع وما اعتقد» في تلك الفترة، ولقد سمعت أحد الأصدقاء المقربين لوالدي (من رجال الدولة) يقول له: أن تكرار سرد الرواية يذكره بما رآه وسمعه في مجلس الملك عبد العزيز لأحداث عملية اقتحام المصمك، حيث روى أنه سمعها أكثر من خمسة وثلاثين مرة يقصها الملك بالتفصيل على زواره، وبخاصة الأجانب، مع اختلافات في بعض الحالات تتماشي مع طبيعة وشخصية أولئك المجالسين له.

وبعد إيضاح العوامل التي أدت إلى ذلك الإسهاب المتعمد في الفصول السابقة، والذي لن يتكرر في الفصول اللاحقة، فلابد أن أوضح بعض الأمور المتعلقة بما ورد في هذا الجزء، والذي سبق أن أشرت إليها بايجاز في مقدمة هذه السيرة، ومن أهم هذه المسائل ما يلي:

- رغم ما قد يلاحظه البعض من إسهاب في ذكر أنباء تلك الملحمة، إلا أنه لا بد من التنويه إلى أنني قد أهملت عمدًا ذكر بعض الأمور المهمة، مثل المجادلة بين الأمير سعد وابن جلوي، أو ما جرى من ملاسنات بين رجاجيل الشيوخ ونقدهم لبعضهم البعض، كما ابتعدت تماما عن سرد ما قام به أفراد القبائل أو العائلات المختلفة من مشادات بينهم بادعاء كل جهة أن الآخرين لا يبذلون الجهد في العمل، أو أن لديهم نوايا خبيثة، وكانوا يلقون

التهم بينهم لتحقير شركائهم في العملية، أو لرفع قدرهم عند القيادة، وذلك من العادات الذميمة لدى «عربان البوادى» للأسف. والكثير من ذلك مدون لدي، وقد صفحت عن ذكره مجاملة للبعض، وتقديرا لوالدي- رحمه الله- الذي كان يكره ذكر مثل تلك السلبيات في مجالسه.

● توجد لدي سجلات عن بعض الأعمال غير اللائقة، أو لتصرفات بذيئة وأحداث قبيحة جرت في تلك الفترة، ولم أوردها هنا، ولكن فيها كثير من العبر المفيدة، وأزمع نشرها لاحقا في غير هذه السيرة، وبالشكل الذي يتفادى الإساءة أو الضرر، ولكن يركز على الانتفاع والتعلم من نتائج تلك الأمور.

● وردت كلمة «نحو» كثيرًا في هذا الجزء، وهي عبارة غير مستساغة لدي، ولكن أحاديث المجلس والسير الذاتية، وبخاصة مثل هذه والتي سردت بعد أكثر من نصف قرن تستدعي تنبيه القارئ لذلك، فمن ناحية المسافات لم يكونوا في ذلك الوقت يعرفون القياس بالكيلومتر، وإنما بالزمن الذي يستغرقه الوصول إلى المكان، وقد سرد لي جدي ذات مرة أن المسافة كانت تقطع في نحو ثلاث ساعات، وفي حالة أخرى نحو خمس ساعات، وقد يكون الفرق بين الزمنين لنفس المسافة هو الفرق بين سرعة المشي على الأقدام (3-5 كم/ ساعة) أو راكب الناقة الشملال التي تصل سرعتها إلى (7-10 كم/ ساعة). وكلمة نحو التي استمعت إليها وأوردتها في هذه السيرة هي أوسع من كلمة حوالي، حيث تكون المقادير أقل وأكثر مما ورد بنسبة تصل إلى (30 %). ولا شك أن القارئ الفطن يقدر مثل تلك الفوارق في ظل مثل تلك الأوضاع قبل أكثر من مائة سنة من إعداد هذه السيرة للنشر.

● لهجة الحديث أثناء المجلس أو في أوقات الإملاء كما ذكرناها في المقدمة، كانت في معظمها بعيدة عن العبارات المحلية الغامضة، لقد حاولت هنا سرد الأحداث بنفس عبارات وألفاظ الوالد رحمه الله، حيث كان في مجلسه أو مع أفراد أسرته يبتعد عن الحديث باللهجة المحلية لأهل الحريق، فقد أمضى معظم سنين حياته بعد العشرين بعيدًا عنها، سواء في الحجاز أو لبنان أو مصر أو غيرها من الدول العربية، إلا أنه رحمه الله كان يضطر لسرد بعض العبارات أو المسميات باللهجة المحلية أثناء وقوع الأحداث، وحيث أن هذا الجزء قد شمل فترة إقامته في الحريق فقد كان ينطق المسميات أو الألفاظ باللهجة المحلية التي لا يعرفها كثير من

أصدقائه ويضطر لتفسيرها لهم. لقد واجهت ذلك أثناء تقديم المسودة للطباعة، حيث أن بعض العبارات كانت باللهجة المحلية التي يصعب كتابتها وبخاصة من قبل الإخوة العرب غير السعوديين. مثال على ذلك أحد أبيات الأرجوزة النبطية التي أنشدها الحوطي في الخرج، حيث كان فيها قوله «جاء أهل التوحيد» ولكن تميما وكثيرا من القبائل العربية لا تهمز، وبذلك فإن البيت ينطق باللهجة المحلية بدون همزة، أي: «جا هل التوحيد» ولكن القارئ من خارج وسط الجزيرة العربية سيفهم البيت بمعنى مختلف تمامًا، وقد أوصيت الطابع بأن يكتبها بالشكل الفصيح رغم أن القصيدة نبطية، وأدى ذلك إلى انكسار وزن البيت، وهذه مشكلة أدبية ولكن يصبح المعنى أسهل للفهم رغم تلف توازن القصيدة، وهذا خيار صعب ولكن لم يكن منه بد. فإن هذه السيرة ليست دراسة في الشعر والقصائد، وإنما معرفة الأحداث ووجهات النظر حيالها، ومن أراد معرفة تفاصيل أصل القصيدة يمكن الرجوع إلى الدواوين الشعرية، وينطبق ذلك على الكثير من العبارات الدارجة الواردة في هذا الجزء.

● أشار عليَّ بعض الإخوة أن هناك تركيزا على شخصية والدي وجدي- رحمهما الله- كما لو كانا هما محور الفترة، والواقع أن السيرة الذاتية التي يرويها أي شخص لأحبائه عن نفسه وأهله لابد أن يكون فيها تركيز على ما شاهده وعمله، وهي ما يسمى باللغة العالمية للقصص حاليا: «دراما» فإن المتحدث إذا لم يركز على أوضاعه ويشرحها ذاتيا، فكيف يكون له علاقة بالآخرين الذي كان لابد أن يتحدثوا هم عن ذاتهم بكل دقة. وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه السيرة الذاتية عن رجل واحد وأهله، لا تمت للدراسات التاريخية بصلة، وهي ليست بحثا أكاديميا لنيل درجة دراسية، ولا للرد على شخص آخر. أن دراسات التاريخ- التي ليست مجال اختصاصي تستدعي أن يتم معرفة آراء القيادة في كل الجهتين من المعركة، وكذلك مقابلة أكبر عدد ممكن من المشاركين في الملحمة، أو من لهم علاقة بهم، وبعد ذلك تجري أخذ معلومات أهالي منطقة الخرج الذين جرت في أرضهم الأحداث ولم يكن لأكثرهم مشاركة فيها، كما يلزم الرجوع إلى الوثائق والسجلات التاريخية السابقة، وكل هذه الأمور ليست ضمن هذه السيرة الذاتية التي تعتمد فقط على «مصدر واحد» هو ما رواه صاحب السيرة لمحبيه في مجالسه العديدة عبر سنين طويلة، ثم ما قصه على أهله في السنوات الأخيرة من حياته. أما إذا خلطنا بين دراسات التاريخ

وأحاديث المجالس فلن نفهم الأمر. وهذا له علاقة بأمر آخر هو «المجاملة»، ولابد من الاعتراف أن والدي- رحمه الله- كان كثير المجاملة، وبخاصة إذا حضر مجلسه أحد من ذوي العلاقة، ولقد انتهجت أسلوبه عندما خططت هذه الصفحات، وحاولت قدر المستطاع المجاملة وعدم التطرق لما يسيء إلى أي شخص، وفي حدود عدم الإخلال بوصف الحال. وسوف يؤسفني أن يشعر أي شخص بعدم الرضا عن بعض ما روي هنا، وأتمنى أن يأخذ الأمور على أساس حسن النية من قبل الكاتب، والمجاملة في الحدود التي لا تشوه الحقائق.

● أقدم هنا الاعتذار لكافة أساتذة الجغرافيا إذ يرون أن ما ورد في هذه السيرة الذاتية لا يطابق الواقع المكاني، فقبل أكثر من مائة سنة كانت منطقة الخرج تختلف كليًا عن وضعها الحالي، ولم تكن هناك حتى بوصلة تحدد الشمال المغناطيسي، وكان هناك خلط لدى الأهالي بين اتجاه الغرب والقبلة، التي نعرف الآن أنها تميل سبعة عشر درجة باتجاه الجنوب، ولكن تلك الأحداث جرت قبل توفر أجهزة تحديد المواقع بالأقمار الصناعية، ومحاولة المقارنة مسألة غير واردة. ففي نهاية الربع الثالث من القرن العشرين، زرت مع والدي الصحنة، وهاله ما جرى من تغير بعد مرور سبعين سنة على أول زيارة له إليها. كان ضمن شبكة الطرق التي أمر بها الملك سعود رحمه الله ذلك الخط الواصل بين الرياض والحوطة، ولم يكتمل إلا بعد سنين إنشاء تلك الشبكة، بإشراف الشيخ كمال أدهم، وقد لاحظ أن مرور الخط بين الصحنة والدلم قد أدى إلى إقامة محطات وقود ومحلات تجارية واستراحات مما جعل المدينتين تتقاربان من بعضهما. وعندما زرتها مع أحد أحفادي بعد ذلك بأربعين سنة، لم أجد مدينة الصحنة، فقد أصبحت أحد أحياء الدلم. أن تتبع تلك الأماكن ومعرفة ما جرى عليها من تغيرات خلال قرن من الطفرة العمرانية، أمر يستحق منا العناية، وأتمنى هنا أن أكون قد ساهمت في ذكر بعض الروايات عما كان عليه الحال قبل أكثر من قرن، والذي لا علاقة له بالوضع الحاضر.

● خابرني أحد الإخوة ممن اطلعوا على مبيضات هذه السيرة، واطلع أيضًا على كتاب عن تاريخ المملكة، وأنه ذكر فيه أن المجابهة في الدلم حدثت في ربيع الأول عام (1320 هـ. يونيو 1920م) وأنه أورد فيها أحد عشر هامشا ذكر فيها مصادر معلوماته مثل: الذكير والبسام والقاضي والعيسي، وأفدته أن هذه

سيرة ذاتيه سمعتها من والدي الذي كان هناك مع أهله، ولم اعتمد على أي مصادر أخرى حتى لا تصبح دراسة تاريخية بدلا من عبر واستخلاصات من سيرة رجل، وطلبت منه إرسال ذلك إليَّ حيث لاحظت أنه الجزء الثاني من كتاب عن تاريخ المملكة وطبع عام (1416هـ) وقد ألفه الأستاذ الدكتور عبد الله العثيمين في جامعة الملك سعود، وقد ذكر مجابهة الدلم في الصفحات من (63 حتى 66) وختمها بالقول: إنها جرت في ربيع الأول. ولم أعلم عن مصادر تلك المعلومات، وهل قابلوا أحدا ممن شارك في الأحداث ونقلوا عنه؟

وما أثق فيه أن والدي وجدي لم يكونا من محبي الحديث في التاريخ العام، وإنما يسردون أحداثا جرت لهم وعايشوها، وقد كانت حرفتهم الأساسية ليست إصدار نشرات أو كتب وإنما يعملون في الزراعة ورعاية المواشي، وذلك يتطلب متابعة جيدة لشهور السنة وأنوائها، لمعرفة أزمان حصاد المحاصيل وجني الثمار وأوقات تزاوج البهائم وجز صوفها وغير ذلك من أعمال يومية تستدعي متابعة فصول السنة. وبذلك فإني على ثقة أن رحلتهم إلى الخرج حدثت في نهايات شهر جمادى الآخرة ومطلع شهر رجب عام (1420 هـ) المصادف للنصف الأول من برج الميزان والنصف الأخير من نوء سهيل، ومع هذه الثقة فإني لا أستطيع أن أجزم بخطأ ما نقله الدكتور العثيمين عن بعض المصادر، وربما أن هناك لبس أو تداخل في تحديد الزمن.

الفصل السابع

يمر كل إنسان بمراحل مختلفة يتم فيها تشكيل شخصيته، وبخاصة في الفترة الأولى من حياته، ولقد أوضحنا في الفصول السابقة الأوضاع التي مر بها صاحب هذه السيرة في السنين الأولى من حياته، ثم أدرجنا تفاصيل دقيقة عما مر به من تجارب أدت إلى تشكيل مشاعره وقدراته العملية والفكرية. ثم سنقوم في الفصول القادمة بشرح بداية ممارسته للأنشطة والمهام التي أوكلت إليه وهو ما يزال قريبًا من والديه، يتلقى منهم النصح والمشورة، بدلاً من التوجيه كما في المرحلة السابقة.

كل منا مر في حياته بمنعطفات لا يستطيع أن يتغاضى عن دورها في تشكيل أسلوبه في الإدارة والتصرف. وسنباشر في هذا الجزء شرح بعض تلك المنعطفات وآثارها على شخصية والدي عبد الله بن خثلان- رحمه الله- ونقوم باستخلاص العبر التي تساعدنا وذريتنا لتلمس أساليب النجاح والعمل على تنميتها، وتفادي هزات الفشل قدر الإمكان.

مشاعر النضج والاستواء:

بعد العودة من الخرج، أخذت مشاعر الوالد في النضج، ورغم أنه عاود الجلسات الدورية المعتادة مع الفتية من أقاربه وأصدقائه من أهل بلدة الحريق، إلا أنه كان يشعر بخلجات فكرية وعاطفية تجعله يتحسس أنه قد تجاوز تلك المرحلة، لقد لاحظ أنه ليس فقط أكثر المجموعة طولا وأشدهم بأسًا وأخشنهم صوتًا، وهذا ما يدركه الجميع بوضوح، ولكنه أيضًا يشعر أن أفكاره وطموحاته تتجاوز ما هو سائد لدى تلك الفرقة، وأصبح لا يستسيغ الاستمرار في تلك الجلسات. كان الحديث يدور عما جرى في الخرج، والبعض كان لهم أقارب يعملون مباشرة مع الشيوخ ويماشونهم معظم ساعات النهار، وأحيانًا يقضون معهم فترات المساء، ولديهم قصص عن أمور حدثت هناك لم يكن متأكدًا من واقعيتها. كان الوالد يحدثهم عما رآه وسمعه سواء من كوة الغرفة العالية في منزل الضيافة في الصحنة، أو من مناقشته مع أهله المشاركين في الموقعة. أما نقاش الفتية فكان يتركز نحو موضوعين، أولهما الفكاهة والطرائف مثل قصة ذلك الذي تحرش بدابته ودفعته للأرض مما أصابه بخدوش وشج بسيط في الرأس، ولكنه ذهب لقائده مدعيا أن أحد جنود ابن رشيد قد اشتبك معه.

وثاني المواضيع كان يتعلق بالنساء، حيث ذكر قريب أحد رجاجيل الشيوخ أنهم قد قبضوا على أحد أعوان ابن رشيد في نعجان، ليلة الهروب وهو في حالة سكر ومعه امرأتان في خلوة غير شرعية، وأخذوا في ذكر تفاصيل مخزية ينفر منها الوالد، مما دعاه إلى ترك الحديث في تلك الأمور، ولكن الغالبية كانوا من المراهقين، أو ما يسميهم البعض آنذاك «الورعان» والذين تجذبهم مثل تلك الأشياء. تطرق الحديث للسؤال عما جرى للأسيرة بشرى، التي جاءوا بها من الصحنة لتعمل خادمة، فأفادهم أن سلوكها لم يكن حسنًا، وقام العم زيد الكبير بإيقافها عن العمل لديهم، وحينما تقدمت لهم امرأة تضرب على الدفوف في مناسبات الزواج «طقاقة» بطلب لأخذها مقابل فدية فك الأسر، فقد افتدوها بثمن بخس ريالات معدودة وكانوا فيها من الزاهدين. أخذت الأفكار تدور في رأس

الوالد بطريقة لمغادرة جلسات سمر الفتيان، وبعد ليال أخبرهم أن «المربعانية الشتوية»[1] قد أوشكت على الدخول، وهناك استعداد لشهر رمضان المبارك، وأنه لن يستطيع المشاركة في تلك الجلسات. استنكر الفتية ذلك، وأخذوا يحثونه باللقب المفضل لديه «بوزيد» حيث كان يعدهم أنه عندما يرزق بطفل سوف يسميه زيدا على اسم عمه الأكبر، الذي يحمل له كل تقدير، وبخاصة أن العادة في الحريق أن لا يسمي الشاب أحد أبنائه على اسم والده ما دام حيا، لأن ذلك شؤم، بل يسميه على جده، ولكن والدي عبد الله كان جده اسمه عبد الله أيضا، ولا يسمون المولود على اسم أبيه إلا إذا كان الأب قد مات قبل ولادة الطفل، وهكذا كانت الكنية المختارة له هي: «بوزيد» لم يفلح ذلك وغيره من وسائل الإلحاح لثني عبد الله بن خثلان عن مغادرة جلسات الفتية.

ذكر لي والدي بعد ذلك بأكثر من ستين سنة أنه قد رد عليهم بحدة وانصرف مسرعًا وسلم عليهم وداعًا لا لقاء بعده، وأفاد أنه قد لاحظ على نفسه شيئا من الحدة وسرعة الغضب، وهو ما يحذر منه أبنائه دومًا في تلك السن الصعبة، لقد كانت حدته تتجاوز رفاقه الشباب، بلغت درجة الغضب على الذات وعلى الأهل أحيانًا. كان يعرف عنه القاصي والداني حسن الخلق ودماثة التعامل إلا أنه أصبح أهوج سريع الغضب قاسي التعامل وأحيانا يخطئ التعبير، عندما طلبت منه إحدى قريبات والده شيئا لم يعرفه، مازحته قائلة: طول النخل وعقل السخل. فغضب بشدة ورد بحدة، وزاد ضيق خاطره وتكدره من المحيطين به، حتى وصل الأمر ذات عصر أن فوجئ وهو في القيلولة بأمه في يدها عصا تهدده بالضرب إذا لم يكف عن التبطح. فهب واقفًا ونزع العصا من يدها وأخذ يصيح في المنزل بأنه لم يعد صغيرًا، سمع ذلك والده (الجد عبد الرحمن) فأسرع إليه ووبخه برقة، وأمره بالذهاب سريعًا للمسجد لأداء الفريضة، وسمعه يهمس لوالدته بوجوب الانتباه للتعامل معه. كان أبي غاضبًا من نفسه أولا، ثم من أهله وأصدقائه، وكانت تزعجه تلك التحولات والمشاعر التي يلاحظها على نفسه، ولكن ذلك لم يدم سوى أسابيع قليلة، حيث أخذ يتقبل ذاته، وأخذ الآخرون في إدراك أوضاعه.

الملاذ الهادئ كان عند عمه «زيد الكبير» لقد كان يوجه له النصائح ويدعو له بالرشاد إلى الصراط السوي. سكنت تلك الحدة كثيرًا ولكنها لم

(1) المربعانية الشتوية: هي فترة يشتد فيها البرد وتستمر أربعين يومًا، ومن هنا أتى الاسم. وتحديدًا هي الفترة الممتدة من 22 ديسمبر إلى 31 يناير، وتسمى في بعض المناطق الأربعينية، تمتاز هذه الفترة بالبرد القارس، وقد تسقط الثلوج فيها وتقل الحركة في أيام المربعانية وخاصة في الليل.

تذهب، فقد بقيت معه رواسب منها، وكان ينصحنا وإخوتي وأقاربنا الذين في مكة بالعمل على كبت مثل تلك المشاعر الغاضبة عند التعامل مع الغير، وكان يأسف كثيرًا لأن ذلك الغضب الذي يساوره أحيانًا، قد أدى إلى توترات عديدة في علاقته مع البعض، كما أساءت إلى علاقاته العملية والتجارية في حالات متفرقة من حياته، كان يعرف المشكلة ويدري أن الحل هو في التزام أقصى درجات الحلم، ولكن الأمر لم يكن يسهل تطبيقه في كل زمان أو كل مكان أو مع كل شخص.

أثناء دخول الشهر الفضيل، كان الصيام معينا على الصبر على النفس والآخرين، وبدأ يشعر بسكون نوبات الحدة التي تعتريه حينما يسمع أو يرى أمرًا يشعر أنه خطأ. وأخذ يداوم على حضور حلقات درس في جامع حلة الحريق بعد صلاة العصر والفراغ من أعمال رعاية المزروعات والمواشي، كان يشارك في اللقاءات عدد يتراوح بين خمسة عشر إلى عشرين شخص كل يوم، حسب أوضاع الطقس والأعمال، منهم كبار وبعضهم من الشباب، وكان المتميز في الحلقة، أحد المؤذنين المعروفين في البلدة، يقال له: «الدهيمي». وهو رجل فاضل ذو أخلاق عالية وحسن تعامل وورع، وقد عرض عليه أخذ مقابل مادي أو عيني لقاء قيامه بأعمال الأذان والإقامة وأحيانًا يؤم المصلين إذا غاب الإمام، ولكنه كان يتعفف عن ذلك، ويقول والله لا يسرني أن أطوق بها يوم القيامة، فإن المؤذنين أطول الناس أعناقا يوم النشور، وذلك إذا قاموا بها احتسابا بالأجر من الله وليس من متاع الدنيا. وأين منه مؤذن في مسجد قريب منا، اشترط رفع درجة المسجد لكي يزيد راتبه أو سيترك الآذان، رغم أنه موظف حكومي يتقاضى أجرا جيدا، وإضافة لذلك يتغيب كثيرًا عن الأذان ويكلف أحد العمال الأسيويين للقيام بذلك مقابل حفنة من الريالات، وذلك العامل لا يحسن النطق بالأذان، فنسأل الله العافية مما أصاب الدعوة الإسلامية في عهدنا هذا من فساد وتتبع لاكتساب الأموال من الدين.

أحاديث شرعية وفقهية:

ونعود إلى الشيخ الدهيمي فقد كان إلى جوار أخلاقه الحميدة ذا علم لا بأس به، حيث كان والده قد تعلم الفقه على يد الشيخ سعد بن عتيق في الحوطة والأفلاج، كما كان يسافر إلى حلقات دروسه في الرياض أحيانا، وقد استفاد ابنه هذا من تلك العلوم الشرعية، كما استفاد رواد تلك الحلقة من العلم الذي اتسم به ذلك الرجل، في بداية الشهر ارتأى أصحاب الخلفية الشرعية، أن خير ما يستهلون به دراستهم هو الحديث عن «النية» وهي التي تسبق كل قول وعمل، وتحدد إذا كان خالصا لوجه الله، أو مشوبا بالرياء أو الاستنفاع، أو إذا كانت لهوى وغرض شخصي. حيث تناقشوا في حديث الخليفة الثاني الفاروق عن رسول الله: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ**

بِالنِّيَّاتِ»[1] وكل امرئ يقرر عمله حسب نيته، فمن هاجر لغرض دنيوي أو شخصي ليس كمن هاجر في سبيل الله. وحول وجوب صلاح النية أشار البعض إلى المثل السائد في الحريق: «النية هي المطية» والمثل الآخر: حول «صلاح الذرية من صلاح النية»، ووجب أن يحسن كل مسلم نيته، فيجعل أقواله وأفعاله قاصدا منها الإصلاح العام وليس استدراجا لمصلحة شخصية له، أو لنفع أحد مريديه، أو الإضرار بأحد من مناوئيه. وأوضح البعض أن عدم صلاح النية يؤدي إلى فساد الاجتهاد في الفكر والعمل، لأن الله لا يوفق ذوي النوايا الخبيثة، وإنما يجعل اجتهادهم وبالا عليهم ويقودهم للخسران. أن المشكلة هي في عدم ظهور النية، لأن محلها باطني «القلب»، وقد يقوم المنافق بالحلف والتأكيد أنه إنما يريد الإصلاح.

والواقع عكس ذلك، وهو ما حدث من كثير من أهل يثرب الذين دخلوا في الإسلام بنية خبيثة وكانوا يسعون لإفساد أوضاع المسلمين في المدينة المنورة رغم ادعائهم أنهم يزمعون الخير، وسور القرآن مليئة بالآيات حول ذلك، وحتى فرعون قال لقومه أنه يعمل تلك المساوئ لأنه يخشى عليهم من الفساد الذي سيحل عليهم لو اتبعوا نبي الله موسى عليه السلام. ذكر أحد المشاركين في الحلقة، أنه في العام الماضي وصل للحريق مجموعة من الحجاج التائهين عن الطريق المعتاد جنوبًا، وقد سمعهم أحد الأهالي أثناء إقامة فريضة الصلاة يجهرون بالنية قائلين إنهم ينوون أداء فريضة كذا حاضرًا وفي جماعة، فأنكر عليهم ذلك، وأشار إلى أن هذه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، فغضبوا عليه وأفادوه أنهم في بلاد سيام وجاوة يعملون على أساس المذهب الشافعي الذي يفتي بعض فقهائه بالتلفظ بالنية، وذلك لعدم ورود نص صريح بعدمها، بل أن الحديث في نسك الحج ينص على الجهر بها. وبالتالي فهي ليست من المحرمات ولا المحظورات، والإنكار على المتلفظ بها إلى حد التشكيك في إيمانه هو المنكر، ويؤدي إلى المخاصمة بين المسلمين، وما دام الأمر فيه سعة فلا داع لإثارة الفتنة بين أهل الملة على أمر فيه سعه، وتوعد بعضهم البعض بجهنم على فتاوى متشددة لأمر اختلف عليه السلف الصالح في القرون الثلاثة الأولى، الذين شهد لهم المصطفي عليه الصلاة والسلام بالخير.

قال لي والدي إنهم تذاكروا أهمية التسبيح والأجر العظيم للكلمات الخفيفة على اللسان الثقيلة في الميزان والحبيبة للرحمن، وأوردوا أمثلة من القرآن الكريم تحث على التسبيح، وكيف أنه عندما نزلت: [فسبح باسم

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «بدء الوحي» باب «بدء الوحي» حديث (1)، ومسلم في كتاب «الإمارة» باب «قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال» حديث (1907) من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، واللفظ هنا للبخاري.

ربك العظيم] أمرهم الرسول بجعلها في ركوعهم للصلاة، وجعل: [سبح اسم ربك الأعلى] في السجود. سأل أحد المشاركين عن معنى كلمة: «سبحان»، فشرح له والدي أن معناها التنزيه.

ولكن أحد الحاضرين فصل الأمر وقال: أن التسبيح يعني التعلية والرقي، حيث إذا كان التسبيح هو التنزيه فمعناه: أن الله سبحانه فوق الخبائث والمساوئ، أما التعلية فمعناها: إنه فوق الخبائث والطيبات أيضا، وقد ورد في الحديث أنه «لا شيء فوقه»، كما ورد في كتابه الكريم أن الطير سابحات في جو السماء، وهذا ليس معناه أنها منزهة، ولكنها ترتفع وتعلو فوق الأرض نحو الفضاء. استمر الجدل حول النزاهة ومعناها وعلاقتها الضيقة أو الواسعة بمعنى التسبيح، ولكن الدهيمي آثر التوجه إلى التركيز على فضائل ذكر الله، [أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ »[الرعد 18]، التي من أعظمها شهادة التوحيد بأن لا إله إلا الله ولا معبود سواه، والثناء عليه سبحانه وحمده وشكره. هنا بادر أحدهم بالسؤال عن الفرق بين الحمد والشكر ؟ أجابه أحد الدارسين: أن الحمد هو تعظيم الخالق بما له من صفات وقدرات عامة على البشر والبهائم والشجر والحجر، حيث تفضل عليهم بخلقهم وتصويرهم في شكل ملائم: [**وَغَرَابِيبُ سُودٌ**] [فاطر 27]، أما الشكر فهو تقدير النعم والأفضال التي منحها لكل شخص على حدة، فهذا يشكر لما منحه من الغنى، وآخر منحه القوة الجسمية، وآخر منحه العلم والحكمة، أمضى الكثير منهم عشية اليوم يتداولون حول ذلك الأمر وتفاصيله.

الذهاب للجامع كان ميسرا لمن يسكنون بجواره في الحلة، أما من يسكنون في أطراف البلدة فقد كان البعض منهم يعاني من بُعد المسافة مشيًا في وقت القيلولة، ورغم أن الجو كان باردا وأشعة الشمس غير قوية لانحسارها جنوبًا فإن السير مع الصيام كان فيه المشقة، إلا أن ذلك كان يؤدي إلى جدية من يحضرون تلك الحلقة، وكان أبي- رحمه الله- تتوفر له دابة ليركبها إلى هناك (بغل أو أتان) مما يهون عليه عناء الوصول. كان بعض المشاركين يستفسر لاحقا من أهله وأقاربه وأصدقائه- وبخاصة المتفقهين منهم- عما يجري مناقشته في حلقة الجامع، ثم يعود في اليوم التالي ومعه أفكار إضافية تثري البحث. مما جرى عرضه هو أن ذكر الله لا يقتصر على التسبيح والحمد والشكر والثناء، بل أن تلاوة كتاب الله من ذلك، بدليل قوله تعالى: [إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] [السجدة 15-16] إلى آخر الآيات من قوله: [فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] [السجدة 17]. طرح أحد رواد الحلقة مسألة ذكر الله بأسمائه

وصفاته مثل: سبحانك يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر، وكذلك قول: سبحانك يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن. وكذلك قول: سبحانك يا مالك الملكوت يا من لا يموت يارب العرش العظيم يا حي يا قيوم يا سميع يا بصير. وأشار إلى وجود تداخل في فهم أسماء الله وصفاته.

أجابه الوالد أن أباه قد أوضح له أهمية عدم إدراج أي إسم أو صفة لله إلا ما ذكره عن نفسه في كتابه أو حديث رسوله، وأن البعض يبتدع أسماءً وصفات لم يثبت صحتها مثل: «المدعو» اقتباسا من الحث على دعائه «ادعوني أستجب لكم». أو: «المنزل» اقتباسا من: [إنا انزلناه في ليلة مباركة] وغير ذلك. ولولا أنه سبحانه قد ذكر أن له الأسماء الحسنى لاعتبرت كل تلك المسميات مثل السميع والعليم صفات ويقتصر المسمى على اسمه العظيم «الله» الذي لا يدعى أحد به سواه، وحتى كلمة «الإله» قد تطلق على أشياء غيره تبارك وتعالى: [أجعل الآلهه إلها واحداً] استفاض النقاش حول الأسماء التي يذكر الله ويدعى بها، وصفاته سبحانه، وتطرق البحث إلى ما جرى من خلاف في العصور السابقة حول الصفات اللاهوتية، وكيف أنه في عصر المأمون ابن الرشيد (نهاية القرن الثاني الهجري) ظهرت فرق مثل المعتزلة الجهمية القدرية، أخذت تعمل المبدأ التفكيري، اقتداء بالأسس الفلسفية للإغريق.

وقد رفض بعض المفكرين تلك الصفات، وعد أن الاعتقاد بها يقود إلى التجسيم. ومن ذلك قولهم أن ما ورد عن أن [يداه مبسوطتان] لا يعني أن له يدا مثل البشر أو يد الأنعام، لأن ذلك يستدعى أن يكون له أصابع وأظافر يصيبها القذر وتحتاج إلى قص ورعاية، وأن هذا «تجسيم» للخالق وجعله مثل المخلوقات، وذلك صحيح من جهة أن سبحانه ليس «كمثله شيء» ولكن الإفراط في نفي التجسيم قاد إلى فتن عظيمة وتكفير وقتل لبعض المسلمين، وبخاصة أولئك الذي رفضوا «تعطيل» صفات الله الواردة في الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة.

لقد أدى نفي التجسيم إلى القول بأن القرآن كلام الله لم ينطق به سبحانه وإنما خلقه، وأدى الجدل بين الطرفين إلى فتنة «خلق القرآن» في مطلع القرن الثالث الهجري، حتى أنه بعد تولي المعتصم الخلافة أمرت العساكر في الأقاليم بعزل الأئمة والقضاة الذين لا يقولون أن القرآن مخلوق وليس منطوقا، لأن في ادعاء النطق تجسيم للذات الإلهية وحط من قدرها، كما لا يوجد أي دليل على النطق، بل جاء في الحديث أن بعض الآيات أتى بها جبريل من تحت العرش، ولم يقال قط من شفتيه أو حلقه أو لسانه سبحانه، كما ادعوا أن القرآن ينص على أن الله [خالق كل شيء] والقرآن من الأشياء فهو مخلوق لا منطوق. انبرى لذلك عدد من العلماء ورفضوا ذلك

لأنه بدعة. استفحل الأمر بعد هذا بدخول بعض المنافقين المجوس في النقاش، وبعضهم درس قواعد اللغة بتوسع لاستخدامها في إثارة الفتنة بين المسلمين، حيث قالوا: أن المقصود من الآية الكريمة [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون] حيث ادعوا أن القرآن حديث وبذلك فهو غير أزلي، والمحدث يصلح لزمان ومكان محددين بوقت الحدوث وهو قابل للتغير، وأن الله سبحانه هو القديم قبل السموات والأرض وهو وحده الأزلي.

هنا أصبح الأمر يمس العقيدة الإسلامية في قلبها، فأعلن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رفض المجاهرة بكل ذلك اللغو حول كتاب الله، وأنه لا يجوز القول فيه إلا أنه «كلام الله المنزل من عنده».

وأما كيف وأين وحتى فأمور جانبية، عانى الإمام أحمد من السب والضرب والحبس في زمن الواثق، وآخرون من أنصار الشريعة مثل أحمد بن نصر قتلوا في ديوان الخلافة على زمن الواثق، واستمرت الفتنة، وعم البلاء بين علماء المسلمين وعامتهم. قال أحد من الحضور: أما الغالبية فأفادت أن الفتنة للأسف تطل برأسها بين حين وآخر كلما أراد أحد المتكسبين بالدين استغلالها لتكفير أهل القبلة بغرض الحصول على المال، أو العلو، ففي القرن الثامن اشتدت تلك الفتنة بعد وقوع مصيبة الغزو المغولي للعراق والشام.

وفي عصرنا استغلت الفتنة أثناء بدء نشر الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته في العيينة، وحتى في زمن الإمام عبد العزيز بن محمد حينما شبت الفتنة في أهل الحريق وغيرها من بلدان العارض، لذا لابد من معرفتها والتصدي لها، حيث أن الخوارج التكفيريين ما زالوا يستخدمونها رغم ادعاء البعض منهم أنهم على المذهب المالكي أو الحنبلي اللذان نبذا مثل تلك الأقوال. تسائل البعض عن كيفية انحسار الفتنة، فأفادهم أحد كبار السن المشارك في الحلقة أن الله قد ألهم المتوكل ليستدعي ابن حنبل من السجن ويعيد مناقشته في الأمر، حيث جرت عدة مداولات اختتمها الإمام أحمد بقوله: أن كبار الصحابة ومنهم جدك العباس عم رسول الله، قد استوعبوا عن كلام الله أكثر منا، فلماذ لم يخوضوا في مثل تلك الأقوال.

وعندما أجابه: إنهم آثروا السكوت، قال له كلمته الشهيرة: «ألا يسعك ما وسعهم من السكوت» بعد هذا والتدبر فيه قرر المتوكل إشعار الولاة والشرطة بعدم امتحان الناس بالسؤال عن مسألة: «خلق القرآن» وانتهت في ذلك الوقت، ولكنها تعود من قبل التكفيريين كلما أرادوا الفتنة بعد ذلك التاريخ بما يزيد عن ستين عاما، وجدت عند أبي رجلا في مقتبل عمره، وفهمت لاحقا أنه مدرس، وقد وبخ أحد إخوتي الصغار، عندما سمعه

ينطق لفظ: «يا ساتر» عندما رأى شيئا مزعجا، وقد قال له: أن ذلك «الحاد» وإن اسم: الساتر. ليس من أسماء الله الحسنى، وأن نطق ذلك يدخل الطالب في دائرة الذين يلحدون في أسمائه. وعندما خابر الوالد أحد المربين الأفاضل في مكة المكرمة من عائلة الشبل، وجه المدرس لزيارته والاستماع إلى آرائه حول ذلك. شرح له أن لفظ: «إن الله ستير» قد ورد في أحد الأحاديث.

وعلى كل حال فإن الجدال حول أسمائه، والتشكيك في إيمان من يتكلم في ذلك بحسن نية ليس من طباع أهل السنة والجماعة. وأن النقاش بشأن الأسماء والصفات يعتبر من الكلام الذي لا فائدة منه، وشرح له كيف أن الإمام مالك- رحمه الله- في بداية القرن الثاني الهجري قد اشتاط غضبا حينما سأله أحد حضور الدرس عن كيفية: «الاستواء» في آية: [الرحمن على العرش استوى] وهل استوى على جنبه أو متكئا أو منتصبًا؟

فرد عليه الإمام قائلا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والخوض فيه لغو. وأمره بمغادرة الدرس وعدم الحضور لأنه ليس طالب علم ولكنه طالب فتنه. وللأسف استمر ذلك حتى بداية القرن الثالث حينما قاد إلى مسألة أن القرآن مخلوق غير منطوق، ثم أن القرآن حديث وليس أزلي وأدى ذلك إلى سفك الدماء بين المسلمين. وفي القرن الثامن، قام بعض المخبولين بالترويج لافتراءات على الإسلام ودعم أقواله بالحديث في الصفات وأحضر مقعدا في الجامع وقال: أن الله قد استوى مثل استوائي هذا.

أنكر عليه المالكية ذلك التشبيه القبيح وأمروا بإخراجه وضربه بالنعال على وجهه وقفاه. ثم عاد وأنكر وهذب أقواله بأنه لا يشبه ولا يعطل ولا يمثل ولا يجسم ولا ينكر. إلا أن التكفيرين ما زالوا يعيثون الفساد بين أهل القبلة. أوضح ذلك المدرس الساذج أنه يتفق مع الطرح، ولكنه من قوم يسمون أنفسهم: «خيالة التوحيد» ويشككون في إيمان ولاة الأمر وعامة الناس، ويستحلون أموالهم وأعراضهم. وأنه قد جادلهم حينما كانوا ذات يوم عند المسجد الحرام وشاهدوا معدات الحفر والبناء الضخمة، وأوضح لهم أن هذه أيدي حديدية جبارة تقوم في ساعة بما لا يقدر عليه مائة من الرجال في يوم بأيديهم، ومع ذلك فهذه الأيدي الحديدية ليس لها أظافر ولا تشبه أيدي الناس أو الأنعام، وهذا يوضح معنى [ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] .

كما شرح لهم أن العين لا يشترط أن تكون شحمة بيضاء وسوداء، فهذا جهاز التلفاز الذي وصل مكة حديثاً يجعلنا نرى مباراة الكرة بواسطة عدسات زجاجية رغم بعد المسافة عن ساحة الملعب، فلماذا ننكر أن الله

يبصر ولكن ليس بشحمة، وكذلك السماعات ليست غضروفا ولكنها مع الميكروفون تتلقى وتنقل الصوت. وأفاد أنه نصحهم بعدم التكفير بدعوى الإلحاد في الأسماء والصفات ولكنهم يأبون. دعا له الوالد بالمزيد من الرشاد والهداية وحثه على أن لا يكون أحد «دراويش الخوارج»، وأن يرفض السير في طريق اليائسين من رحمة الله والمؤذين لخلق الله. أمر السائق بإيصاله إلى مسكنه، وعندما عاد أشعرنا أن ذلك المدرس يسكن في «ربع اللصوص» الواقع شمال غرب العتيبية وهي من أحياء مكة القديمة آنذاك.

ونعود الآن- مع فارق الزمان والمكان- إلى جامع الحريق في رمضان (1320 هـ)، حيث تنعقد حلقة الدراسة اليومية بعد صلاة العصر. انتقلت المداولات بعد إنهاء الذكر والتسبيح، إلى موضوع الدعاء الذي هو مخ العبادة والأساس الأول للتوحيد فلا يجوز طلب الحاجات والدعاء إلا من الله، لا من قبور الموتى ولا حكام البلاد، فإن الأقدار كلها بيده سبحانه: [إياك نعبد وإياك نستعين] . كان ضمن المشاركين في الحلقة شاب لبيب خلوق من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب واسمه عبد اللطيف، له من اسمه نصيب حيث كان سمحاً في تعامله لطيفًا في معشره، وقد وفر له أهله في المنزل كتبا ومراجع شرعية نهل منها واستفاد وحفظ، وكان يتحدث ببعض من ذلك في الحلقة كلما سنحت له فرصة مواتية.

أفادهم أن الدعاء على أنواع كثيرة وأهمها الاستغفار، حيث وعد الله المستغفرين بالخيرات الدنيوية الجمة مثل الرزق الواسع: [استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا] ويأتي بعد ذلك في الأهمية: «الاسترحام» أي: طلب الرحمة منه سبحانه، الذي سمى نفسه الرحمن الرحيم، ومن سعة رحمته جعل شيئا خاصا منها لعباده المؤمنين، وآخر نشره على خلقه أجمعين من كل البشر وحتى البهائم، ترحم صغارها بوحي منه؟ تناقش البعض حول الربط المتكرر في كتاب الله بين الاستغفار والاسترحام، حيث ورد في آيات كثيرة صفة الله سبحانه بأنه غفور رحيم، كما أشار أحدهم أن المغفرة والرحمة تنزل من الله لعباده الذين تتوفر فيهم ثلاثة شروط، أولها: التوبة من الخطايا والسيئات. ثم: تقوى الله وخشية سخطه. وثالثها: هو العمل الصالح. ويلي ذلك نزول المغفرة والرحمة بهم. أورد شخص من الحاضرين تأكيدا لذلك، أنه سبحانه قد وصف نفسه بأنه: [ألا أن الله هو الغفور الرحيم] كما حثهم على التقوى قائلا: [واتقوا الله أن الله غفور رحيم] لذلك فإن التقوى هي مفتاح الوصول للمغفرة والرحمة. وحول أهمية التوبة والعمل الصالح قال تعالى: [ثم تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم أن الله غفور رحيم]. وبعد تأكيد أهمية التوبة

وامتلاء النفس بتقوى الله وأداء العمل الصالح، حتى يسبغ الله على عبادة المغفرة والرحمة انتقل الجميع لذكر صيغ الاستغفار وطلب الرحمة من الخالق عز وجل.

ذكر أحد الحضور أن استغفار ذي النون هو خيرها [لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين]. وقال آخر: أن الإمام البخاري خرج حديثا عن الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، أن المعصوم عليه الصلاة والسلام قد علمه أن يقول: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» . قال رجل من الحضور: أن سيد الاستغفار هو: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

تذكر رواد الحلقة بقية الأدعية المستحبة فأفادهم أحدهم، وكان أبوه طالب علم يرتاد مجالس الفقهاء في العارض، قائلا: أن خير الدعاء هو ما ورد نصه في آيات كتاب الله الحكيم، مثل دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام: [رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب] أو: [**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**] [البقرة- 250] أو قول: [**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**] [البقرة- 201] وإن زاد عليها: [وأدخلنا الجنة مع الأبرار] فذلك طيب. قال أحد الحضور: أن من أفضل ما يطلب من الله هو: «الهداية للصراط المستقيم» الذي ألزم المولى سبحانه نفسه به [**إن ربي على صراط مستقيم**] وأشار إلى أن فاتحة القرآن تبدأ بتمجيد الله ثم توحيده ثم آية هي زبدة السورة: [**اهدنا الصراط المستقيم**] وإن الرشاد إلى ذلك الصراط السوي أهم من العافية والغنى والأمان، فإن الضالين عن الطريق الصحيح تتفرق بهم السبل عن سبيل الله ولا يلقوا خيرات في دنياهم ولا أخراهم. وأشير هنا إلى أن الأوروبين قد أخذوا منا كلمة الصراط فنجد الألمان حاليًا يسمون الطريق: «ستراد» والإنجليز يسمونه: «ستريت» وهذه ربما عرفوها أثناء وجود المسلمين في غرب أوربا (الأندلس) لعدة قرون ونسأل الله أن يرشدنا جميعاً إلى صراط الله المستقيم.

في الأيام التالية استمرت تلك الجماعة في مناقشة الدعاء باستفاضة، حيث اتفق الكثير منهم على صيغ الدعاء المأثورة عند التعوذ من جهنم أو طلب الفوز بالفردوس، وسؤال المولى أن يهبهم وأحبتهم العفو والعافية،

إضافة إلى ذكر أهمية الدعاء للوالدين والذرية والأزواج، كما تطرقوا إلى دعاء الله أن يهب كل منهم الرزق الحلال الواسع ويرشدهم إلى حسن العمل ويوفقهم فيه وأن يعافيهم من المرض والعجز والكسل وسوء الخاتمة. ذكر الملمون بالفقه من بين أفراد الحلقة، صيغ مفضلة ومأثورة عن السلف الصالح عند المشي للصلاة أو أثنائها وكذلك عند الإفطار من الصيام وأدعية الحج والدعاء للجنائز أو عند مشاهدة هلال غرة الشهر وكذلك أدعية الاستغاثة للمطر والقنوت وعند لقاء العدو المقاتل، إضافة إلى أدعية الصباح والمساء ودعاء ختم القرآن. انتقل البحث بعد ذلك إلى العمل الصالح وأصنافه وفنونه، حيث أشار بعض منهم إلى أهمية الصدقات لمساعدة الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل وذوي الحاجات من مدينين وأبناء السبيل، بينما أشار آخرون إلى دور نشر العلم بين أبناء البلاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأسلوب الصحيح وإغاثة الملهوف أو المظلوم ومساندته للحصول على حقه الشرعي سواء بالأسلوب الودي أو بالجهاد المسلح.

حينما دخلت العشر الأواخر من الشهر سارع أعضاء الحلقة أو من تبقى منهم بعد انصراف البعض لأشغال خاصة، إلى مناقشة الأزمنة والأمكنة المفضلة للذكر والدعاء والعمل الصالح، حيث تلخصت مباحثهم في اتساع ذلك بفضل الله، فإنه سبحانه مدح المؤمنين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، أي في كل حال ومكان، كما يذكرونه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهاء وأدبار السجود.

قبل العيد بأيام قدم إلى الحلقة رجل من أهل الحريق، وأفادهم أنه قد سمع عن اجتماعهم المبارك وقرر المشاركة فيه، وأفادهم أنه حضر إلى البلدة لزيارة أقاربه في تلك المناسبة، وأنه لديه أعمال في الخماسين، وهي بلدة تقع إلى الجنوب الغربي بمسيرة نحو أربعة أيام، وقد قام هناك رجل يدعي أنه «المهدي» الوارد ذكره في بعض الأثر، وسيملأ الأرض عدلاً بعد الجور، وأمر الناس باتباعه ومعاونته لفرض نفوذه، وقد قبل ادعائه شرذمة من الناس وأخذوا يعيثون الفساد. ولكن كبار البلدة قاوموهم مما اضطره للهروب إلى تثليث، وبخاصة عندما وردت أنباء هروب ابن رشيد من الخرج. أفاده فقهاء الحلقة أن كل من يدعي أنه المهدي قبل ظهور المسيح الدجال علانية، يعتبر كاهنا مخالفاً للشرع ولابد من إقامة الحد عليه ومن يتبعه، وأشار أحدهم أن هؤلاء هم الخوارج.

استفسر البعض عن فئة الخوارج، فقالوا لهم إنهم فئة تترك العمل بكتاب الله وسنة نبيه وجماعة أهل القبلة، وتنشر الفساد باسم الإصلاح، وأنهم ينقسمون إلى عدة طوائف، تشمل على رأسهم فئة الحرقوصيين،

وهم اتباع ذلك الأعرابي الجلف «حرقوص» الذي اتهم رسول الله بعدم العدل، ومنع المصطفى قتله، وحذر أنه سيخرج من «ضئضئه» أقوام مصلون صائمون حافظون، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ويلزم محاربتهم. وهناك الخوارج الذين انشقوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين بعد التحكيم، ولم يبق منهم سوى الإباضية في عمان وتونس والأزارقة (الزرقلية) في العراق، وهم لا يخرجون عن الكتاب والسنة ولكن لهم اجتهادات شرعية بعضها مختلف عليه، وهم ليسو ممن يجب قتالهم أو نبذهم.

وهناك الخوارج الصادة ويتركزن في بلاد السند، ويتظاهرون بالحرص على السنة والتوحيد، ولكنهم يكفرون المسلمين إذا ارتكبوا الأخطاء أو المخالفات اليسيرة مثل اللمم، وهم يدعون أنهم حريصون على التوحيد والسنة وأنهم الفرقة الناجية وحدها وبقية أهل القبلة كفار يستحل دمهم ومالهم، وهؤلاء المنافقون هم أخبث فرق الخوارج، ويشابهم وإن كان بدرجة أقل خوارج التكفير على المعاصي. أما خوارج السلفية فهؤلاء أيضًا من فرق المنافقين، الذين لا يتبعون أسلوب السلف الصالح الذين أشار اليهم المصطفى بأنهم قرنه والذي يليه والذي يليه، أي حتى عام ثلاثمائة من الهجرة بل يتبعون بعض المعتوهين الذين ظهروا في القرن الثامن بعد أزمة الاحتلال الصليبي ثم الغزو المغولي للشام، وأخذوا يحثون على الردة عن الإسلام عبر تنفير الناس من الدين، ويدعون أنهم على نهج السلف الصالح الذي هو بريء منهم ومن مشايخهم.

ومن فرق الخوارج من يسمون أنفسهم الموحدين وآخرون يسمون أنفسهم «أهل الدعوة» مثل حزب الرافضية الذي يحكم العراق في هذا الوقت (1435هـ)، ويضاف إليهم طائفتان أخريان من بين الخوارج هم الفتانون والمتربصين، الذين يفسرون أحوال المسلمين ويثيرون نعرات طائفية تفرق بينهم. يضاف إلى أولئك طائفة خوارج المرتزقة الذين يتكسبون المال والجاه من التشكيك في إيمان أهل القبلة. وأتباع الخوارج على عدة أنواع فمنهم: المريدون، وهم الذين يجتمعون عند زعماء الفتنة ويهتفون لهم ويمدحونهم ويقبلون رؤوسهم ويكفرون من لا يرفع قدرهم عند أهل السلطة أو العامة.

ونوع آخر من الأتباع هم الدراويش الذين لا يفقهون في الدين شيئا سوى تمجيد سادة الخوارج، إضافة إلى عمال الخوارج، الذين يستغلونهم لإيقاع الأذى بعامة المسلمين الذين لا يماشونهم على الضلال والنفاق، ويستغلون أولئك البسطاء لتنفيذ الأعمال الإجرامية للخوارج من قتل وسلب وتدمير، ويحملون لهم الأمتعة والأسلحة ويقدمون لهم خدمات المعيشة اليومية. استعاذ الجميع بالله من شرور كافة طوائف الخوارج،

وبخاصة الزنادقة منهم الذين يدعون أنهم يعملون للدعوة الإسلامية أو ينهجون طريقة السلف الصالح.

في نهاية الشهر قرر المشاركون في تلك الحلقة المباركة، أن يعيدوا الاجتماع كلما سنحت لهم فرصة ملائمة، وسألوا الله أن يتقبل منهم صالح عملهم وأن يمد في عمرهم للعام المقبل ويفسح لهم الأجل ويمهلهم لبلوغ ذلك ويطيل أعمارهم على العمل الصالح ويبارك لهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم.

منعطف العيد:

ذكر لي والدي «صاحب هذه السيرة» أن أحد أهم مراحل حياته جرت له حينما استيقظ فجر عيد الفطر في تلك السنة، وشعر أن شخصيته وفكره وتجاربه وقدراته قد اتجهت نحو منعطف جديد، غادر فيه مرحلة الفتوة إلى مرحلة الشباب، حيث اكتسب مهارات وقدرات جديدة في إدراك الأمور الشرعية والسياسية وإدارة الأعمال والقدرة على حسن التعبير. بعد أن اغتسل وارتدى سترته وعباءة شمالية من الوبر الدافئ في ذلك الصباح البارد، وغطى رأسه بالغطرة العربية التي فوقها عقال مقصب فاخر من النوع المسمي «مخومسي» وهي مما منحه إياه عمه حمد بعد عودتهم من الصحنة، كما لبس في قدميه النعال «المتوسمة» التي أهداه إياها عمه الكبير زيد بن عبد الله، توجه بعد ذلك إلى دابة أعدها له الخادم بريه وهي برذون (بغل عراقي) داكن اللون وذهب مع والده وأعمامه إلى مصلى العيد الواقع خارج البلدة. بعد أداء الصلاة قام الشيخ بإلقاء خطبة العيد حيث تحدث فيها عن الرجولة والأخلاق.

شرح الإمام في خطبته أهمية الالتزام بالمستوى الخلقي الإسلامي للرجال الصالحين، وركز في ذلك على تقوى الله ثم العمل الصالح لفائدة كل شخص وأفراد أسرته ومجتمعه، كما ركز على إيضاح دور الشجاعة في اتخاذ القرارات ثم تنفيذها مع وجوب ملائمة التعبير عن الرأي والفكر بالأسلوب الواضح المحبب وبالعبارات التي تجلب الموائمة والائتلاف، وتبعد الناس عن الشحناء والمصادمة. ذكر لي والدي- رحمه الله- أن الخطيب في ذلك اليوم قد أوضح للحضور، أهمية توجيه الفكر بالأسلوب الملتزم بتعاليم كتاب الله وسنة نبيه، والابتعاد عن الأفكار النابعة من المصالح الذاتية الضيقة لكل فرد، وحذر من التمادي في وضع الأولوية للمنافع التي حث عليها الإسلام، كما تقيد الوالد بحفظ نصائح الخطيب لشباب البلدة لتعديل أفكارهم إلى المستوى الراقي والعمل على تنفيذ المميز منها بالتعاون مع بقية أهلهم وجيرانهم، وغادر المصلى وهو ممتلئ

بالحيوية النفسية، داعيا الله أن يرشده إلى حسن الفكر والعمل والخلق والقول في هذا الطور الجديد من حياته.

خارج المصلى تبادل تحية العيد مع أهله وأقاربه وأصدقائه ومعارفه، وتلفت يمنة ويسرة وسره أن يرى نفسه في وضع أفضل من غالبية الحضور، ليس فقط في ملابسه ومظهره ولكن في ثقته بنفسه وحرصه على تنسيق أفكاره لتكون متماشية مع المعايير الخلقية التي أشار لها الخطيب، واهتم بأن لا يدخله الزهو والغطرسة والإعجاب بالذات، حيث تذكر أن ما هو فيه ممن يحبونه هي من فضل الله أولا ثم مما وفرته له أسرته، وتساءل هل يا ترى أستطيع أن أقدم أنا لأسرتي أكثر مما وفرته لي أسرتي، وتساءل هل يا ترى أستطيع أن أقدم أنا لأسرتي أكثر مما قدموا لي؟ وهل سأكون فخرًا لهم، وما يجب أن أقوم به حتى أجلب لهم الراحة والمنفعة والطمأنينة.

وتذكر قول الخطيب حول أهمية أن يتجنب الرجال ذوو الخلق الطيب كافة الأفكار الطائشة والأفعال المستهترة والأقوال البذيئة، وعليهم أن يكفوا أيديهم وألسنتهم عن كل ما يسيء للآخرين سواء القريبين أو البعيدين. كما أن على كل منهم أن يعمل بهمة لكي ينفع نفسه وأهله ومعارفه. بعد قليل شعر بالنعاس وهو على دابته يسير مع جماعته ذاهبين إلى منطقتهم، فقد كانت ليلة العيد مزدحمة بالأعمال اللازمة للإعداد للصلاة ثم وجبة الإفطار، وتهيئة مستلزمات ذلك تطلبت عدة أشغال مع العاملين في المنزل، كما أن ذلك الوقت كان في اليوم السابق (آخر رمضان) موعدا لنوم الضحى حتى قبل الظهيرة. اندفعت أفكاره نحو طعام العيد الذي تتفنن والدته والأقارب في إعداده على أفضل وجه، وتذكر مزاحه مع رفاقه العام الماضي أثناء تنقلهم من طعام أهل بيت إلى آخر ضمن المائدة المعروضة في الطريق العام ليأكل منها الأهل والجيران وحتى عابروا السبيل. كانوا يبدون إعجابهم بحسن بعض الوجبات، ويسخرون من وجبات أخرى أعدها بيد أحد أعمامه على كتفه ينصحه بالاستواء على الركوبة حتى لا يسقط. عند ذاك قرر في خاطره، أن لا ينضم إلى جماعة الفتيان أثناء تناولهم إفطار العيد، وعدم مشاركتهم التعليقات والاستهزاء بالآخرين، وأن يلتزم بمرافقة والده وأعمامه وكبار الأسرة، وتناول الطعام معهم في وقار وسكينة، فقد ألزم نفسه عدم العودة إلى التصرفات الصبيانية، وإن كانت ما زالت تدخل في قلبه الحبور.

مخافة الخيلاء والغرور:

بعد انتهاء وجبة العيد ذهب إلى سوق آل خثلان، الذي هو عبارة عن طريق أو شارع يمتد من الشمال الغربي (نحو التلال) منحدراً باتجاه

الجنوب الشرقي (نحو الوادي) ولا توجد عليه أية دكاكين أو محلات للبيع أو الصنع، ولا يعرف لماذا سموه سوق وهو ليس كذلك؟ توجه بعد ذلك وهو في كامل زيه وملابسه الفاخرة، بعد أن أعاد ترتيبها للسلام على قريباته، حيث أعدوا عروسا جميلة يريدونه أن يتزوجها قريبا.

لقد شعر في نفسه بالفخر والثقة، ولكن خشي على نفسه من الخيلاء والغرور، وسأل الله أن يجعله من الذين لا يصعرون وجوهم للناس ولا يمشون في الأرض مرحا. استبد به النعاس وذهب لخلع ملابسه، وارتدى ثياب المنزل ليأخذ قسطا من الراحة، إلا أنه فوجئ بوالده يناديه لإحضار شفرته والالتحاق بهم لذبح ثلاث نعاج لتجهيز عشاء لبعض الأقارب بمناسبة العيد. توجه لهم وهو متضجر من إشراكه في تلك العملية وهو في حاجة لقسط من النوم. لما خرج اليهم كانوا قد أتموا ذبح إحدى النعاج، وفوجئ بهم يزيحون أخرى ويحثونه للبدء في عملية الذبح بنفسه، وكانت تلك أول مرة يشارك فيها بذلك، حيث لم يسبق له سوى القيام بأعمال السلخ والتقطيع. شعر بالوجل والعيون تترقب مباشرته لذلك العمل، وتذكر فورا مشهدا رآه قبل شهور في الحلة، حيث عاين امرأة لم يتعرف عليها إذا كانت حريقية أو بدوية تقوم بنحر بعير ضخم، ثم إجلاسه على الأرض ولوي رأسه نحو مؤخرته. تقدم ومعه الشفرة الحادة وأخذ يزيل شعر النعجة التي أضجعها ثلاثة من الحضور على جنبها الأيسر، وسمى بالله وأهوى بشفرته على حلقها وقطع أوداجها، حيث سالت دماء قليلة لا تقارن مع فوران الدم الذي نزف من نحر البعير. كانت تلك أو مرة يجهز على بهيمة بشكل مباشر ومنفرد.

أثناء رحلات النزهة والقنص، كان أقاربه والأصدقاء يتيحون له الفرصة لإطلاق النار على أرنب أو وعل صغير من على مسافة بعيدة، وأحياناً بالمشاركة معهم بعد طلقات مختلفة، أما تزكية الذبيحة بهذا الشكل فقد كانت أمرا يحدث لأول مرة في حياته. كان يشعر بالرهبة من ذلك الحدث، ومازح أحدهم قائلا: أن عبد الله قريبا سيتمكن من المشاركة في ذبح الرجال. سارع والده للإجابة: أن ابنه لن يشارك في القتال إلا لخمس حالات هي: رفع كلمة الله، والدفاع عن الأرواح والأعراض والديار والأموال. انسحب والدي بعد ذلك ولم يشارك في أعمال السلخ والتقطيع، وتوجه لأخذ قسط من النوم حتى الظهر.

قبل صلاة العصر توجه إلى والده برجاء إعفائه من الإشراف على تقديم الخدمات والضيافة للزوار، وتمنى أن يكلف شقيقه الأصغر (سعود) بالمتابعة مع العمال وتوجيههم للقيام بتلك المهام، وتساءل والده عن أسباب ذلك، فشرح له أنه يود أن يجلس مع الرجال لكي يتبادل معهم الحديث ويستفيد من خبراتهم وتجاربهم. أشار والده أنه لاحظ عليه في الصباح،

ابتعاده عن رفاقه من الفتية وعدم مشاركتهم في جلستهم حول مأدبة إفطار العيد المقامة في الطريق، وتبادل الأحاديث الفكاهية معهم على حسب عادته في كل سنة. أوضح لوالده أنه لم يعد يستحسن مثل تلك اللقاءات التي لا توفر له أي زيادة في المعرفة أو القدرة الذهنية، نصحه جدى بأن لا يندفع سريعاً نحو مرحلة الرجولة، فلابد أن يمر بفترة انتقالية تتيح له المرور بذلك الطور المعقد بشكل آمن لا يؤثر على أسلوب حياته ومعاملاته بشكل سلبي، وحتى يستطيع هو أن يتقبل التحول في ذاته كما لا ينفر منه مخالطوه سواء من الفتية أو الرجال.

سأل والده عن خصائص تلك الفترة ومدتها، فشرح له العديد من الجوانب الواجب عليه مراعاتها حتى أن ذلك قد يستغرق بين ثلاث إلى خمس سنوات، لقد كان يؤمل تجاوز تلك المرحلة في شهور وليس سنوات. دعا له والده بالرشاد والتوفيق، وحثه على الفطنة والتحلي بالحلم والصبر على الشدائد. شعر في قرارة نفسه بالعرفان لتلك النصائح الفاضلة والدعاء المخلص من والده، وباشر فور توجيه شقيقه للإشراف على العمال أثناء قيامهم بخدمات الضيافة للزوار، وتبين له أن عليه أن يقوم بعبء كبير من ذلك، قبل أن يتمكن أخوه من الاضطلاع بكافة مهام المتابعة، وتذكر ما سبق أن سمعه أن سيد القوم خادمهم.

العيد ليس عطلة من العمل، فإن من يشتغل برعاية المزروعات والبهائم يعرف الجوائز وهنيئاً للفائزين بشيء منها وعلى رأسها جائزة رضا الرحمن. وجد الوالد نفسه مضطرا للقيام بأعمال مضاعفة في اليوم التالي لتلافي ما حدث من تأخير في متابعة الأعمال يوم العيد. أخذت نفسه تراوده بوجوب البحث عن عمل يتجاوز الأشغال الرعوية والبستنة التابعة لعائلته، وصار يتجه كل يوم نحو وسط البلدة لأداء صلاة العصر ثم التجول في أسواقها ومحلات الحرفيين فيها، ويعود عند الغسق.

تحسست والدته من دوام غياب ابنها في تلك الفترة ولعدة أيام، واستفسرت من الخدم وأفادوها أنه يأخذ إحدى الركائب ويتجه غربًا ولا يعلمون مقصده بالتحديد. أوضح لوالدته أنه زاهد في الأعمال الحقلية وتربية الطيور والمواشي، وأنه يذهب إلى الحلة لمشاهدة الأعمال هناك، على أمل أن يجد ما يلائم قدراته لكي يعتمد على الله أولاً ثم على نفسه في كسب المعيشة، وأنه إذا لم يعثر على شيء من ذلك فسيضطر للتوجه شرقا نحو البحر للبحث عن الرزق.

وصف سوق الحريق:

لاحظ أن المنشآت المقامة في وسط البلدة تنقسم إلى عدة أصناف، الشائع منها هو محلات التجارة، والبعض منها كبير ويحوي أنواعا مختلفة

من السلع الرابحة، وأكثرها وارد من خارج القرية أو من دول أجنبية، وتتمثل أساساً في الملبوسات والأغذية والأدوات المنزلية، وهناك حوانيت تبيع الأطعمة المحلية مثل التمور والحنطة والذرة والشعير، إضافة إلى الدهون سواء الحيوانية من الأغنام أو الأبقار، والزيوت النباتية وبخاصة زيت السمسم والزيتون، يضاف لذلك مجموعة من الدكاكين الصغيرة التي تعرض مستلزمات خشبية أو معدنية مثل الخاشوقة (الملعقة) والسكين وبعض القدور، ومواد غذائية مجهزة منزلياً مثل دبس التمر أو كعك محشو باللوز المستورد (كليجة) أو معجون التمور، كما تعرض فيها قطع قماش صغيرة للإمساك بالأدوات الساخنة لتقديم القهوة أو الحليب والمسماة بيوز.

يغلب على تلك المحلات عدم الترتيب، وتعالي الأتربة على البضائع، وانتشار الهوام الطائرة أو الزاحفة، مع عدد كبير من القوارض التي تعيش في المكان وتتلف بعض المنتجات، أرضية تلك المحلات من التراب غير المستوي وأسقفها من أخشاب بعضها مهترئ، وإذا جاء المطر ينفذ منها فيلوث تلك الأعمال الحرفية مثل النجارين والحدادين، حيث يقومون بإنتاج بعض المستلزمات المنزلية أو الزراعية أو الحربية، ومنها بعض أدوات الطبخ والضيافة، فهناك أدوات نحاسية يمكن وضعها على النار لتسخين الطعام أو طهيه، إضافة للسكاكين، وأدوات القطع أو الحفر مثل الفأس أو المحش أو المعدل، أما الخناجر غير الصلبة وأحزمة الطلقات النارية أو حوامل البنادق من الجلد فلها محلات متخصصة لتجهيزها وبيعها.

ومعظم تلك المنشآت الحرفية يوجد بها أدوات إنتاجية إما لقطع الخشب، أو لخياطة الجلود، أو قص المعدن غير الصلب، مما يساعدها في تعديل أو تجهيز تلك المستلزمات، إلا أنها تقوم بأعمال بسيطة لا تصل إلى المستوى الصناعي. **أما** حوانيت المهنيين فكانت تصطف في أحد الأزقة الضيقة أماكن أولئك الأشخاص مثل العطارين أو الحلاقين والحجامين، كما يجاورهم الوراقون الذين يخزنون الكتب ويستفيدون من إعارتها مقابل رسم بسيط لمن لم يرغب في اقتنائها، وفي مكان قصي توجد محلات القصابين العاملين في مجال اللحوم.

كما توجد الحوانيت الخاصة بـ «الخدمات» والبعض منهم وبخاصة الصرافين لديهم أماكن عمل مرتبة ويوجد بها مكان لحفظ النقود، وعادة يكون ذلك كجزء من المنزل الخاص بالتاجر حيث يوجد للمحل باب على السوق، وفي الخلف ممر إلى داخل المنزل، أو أحيانا حجرة بها كوة يمكن مناولة بعض الأشياء عبرها لتحفظ داخل المنزل أثناء الليل خشية السرقة. وبعض الصرافين أحواله ضعيفة ولا يوجد له محل دائم للعمل، وإنما يحمل معه العملات المعدنية في كيس كبير من القماش ويقوم بفرشة على

قارعة الطريق أمام أحد المحلات الرائجة، ويصف حامل ذلك الكيس بضاعته من عملات أوروبية وهندية ويقوم بالتبديل بينها لمن يرغب.

وإضافة لهم توجد أماكن لجلوس المراسلين، الذين يتولون إرسال خطابات أو طرود صغيرة للأماكن المجاورة للحريق أو في قرى بعيدة، كما يجاورهم في العادة الكتبة وهم الذين يتولون صياغة وخط الرسائل أو عرض الحال الذي يقدم للأمير أو القاضي، وكذلك المبايعات أو الحجج والوثائق بين أهالي البلدة شاملة المبايعات والمصالحات ووثائق النكاح والطلاق والعتاق. كما يوجد مكان جوار الجامع يصطف فيه العمال المؤقتين، فذلك أستاذ مباني، وآخر عامل زراعي، وغيره عامل نظافة.

أمضى الوالد عدة شهور وهو يتردد على منطقة السوق في وسط (مركز) البلدة، واضطر لاحقا لتقليل عدد أيام ذهابه، فأصبحت في حدود يومين في الأسبوع نظرًا لزيادة ارتباطه بأعمال الأسرة. كما أنه تعرف على بعض أصحاب المحلات من كثرة تردده عليهم، ويدعوه البعض منهم لتناول القهوة والتمر في منزلهم، والسلام على أهله وتقديم بعض المستلزمات لهم بدلاً من ذهابهم للسوق لجلبها. لفت نظره في السوق وجود أماكن متميزة، مرتبة الأحوال ويعمل فيها المالك ويساعده بعض أقاربه أو أبنائه أو العمال، ويقدم سلعة أو حرفة بدرجة جودة مقبولة وأسعار رخيصة وحجم تعامل كبير، بينما البعض الآخر أعماله ذات حجم صغير، ولا يتوفر لديهم نوعيات مختلفة ويعانون من الكساد. أعجب كثيرًا باثنين من محلات الطعام حيث يوجد لديهم أصناف متعددة من داخل البلدة أو جلبت من بلدان أخرى، إضافة إلى أطعمة مستوردة من خارج البلاد وهي التي يسمونها «عصيدة» لاحظ دقة عمل منشأة تخصصت في تجارة وصنع المفاتيح، كان فيها رجل يقال له الشايقي، وهو ووالده من قبله كانا يصنعان الأقفال والمفاتيح الخشبية للأبواب القديمة المصنوعة من جذوع النخل، وكان القفل يتكون من ثلاثة أجزاء أحدها ثابت يركب على طرف الباب، والآخر يتحرك يمنة ويسرة لفتح وغلق الباب. أما الجزء الثالث فهو ينزلق داخل القفل لكي يرفع أربعة أسنان تعيق حركة الجزء الثاني إذا لم يكن المفتاح هذا بداخله، وهذه الأسنان توازيها أجزاء معاكسة في الجزء الثالث، فإذا دخل المفتاح في الجزء الثاني تطابقت الأسنان في الجزأين ين فسمحت بحركة القفل يمنة ويسرة لكي ينفتح الباب، أما إذا خرج الجزء الثالث من التركيبة فإن ذلك يمنع حركة الجزء الثاني المنزلق، وبالتالي يتعذر فتح الباب.

كانت صناعة وتركيب تلك الأسنان على مقاسات مختلفة ولا يمكن أن ينفتح المزلاج. وكانت جميع الأجزاء بما فيها الأسنان من الخشب، مما يجعلها تهترئ مع كثرة الاستعمال، لذا يلزم بعد فترة العودة للمشغل

لتجديدها. كما لاحظ في ذلك المحل وجود أقفال مستورة من الخارج مصنوعة بالكامل من المعدن، وتتميز بأن الجزء الثابت أو المنقول(المفتاح) ذات حجم صغير، حيث لا يتعدى الثابت طول شبر واحد (25.2سم) والمنقول في حدود طول أصبع السبابة. وذلك مقاس صغير مقارنة مع المفتاح الخشبي الذي يصل طوله إلى نحو قدم (30-28 سم) وعرضه نحو أصبع مما يجعل من الصعب حمله. ولاحظ أيضًا وجود أقفال صغيرة ولكنها تستخدم في إغلاق الأوعية الحديدية أو لربط السلاسل المعدنية. جذب انتباهه أيضًا في أحد محلات الصاغة، وجود عمال مهرة يقومون بإذابة المعادن الثمينة من الذهب و الفضة في بوتقات حجرية على نار شديدة الحرارة، ثم يسكبونها على شكل مشغولات للزينة، وتوجد إمكانية لتطعيم تلك المنتجات بأحجار ثمينة مثل الزمرد والمرجان، كما أن أحد العمال لديه مهارة عالية لعمل الخواتم ذات الفصوص اللامعة.

كان ذلك العامل يتميز بشخصية بشوشة وقد سبق أن التقاه الوالد في منازل أقاربه أكثر من مرة حينما كان يذهب إليهم بشأن بعض الحلي المطلوبة للنساء في مناسبات الزواج، وهو من أصول بلوشية وجاء أجداده إلى السيح قبل مائتي سنة، وجدة زوجته كانت متزوجة من ضابط تركي أثناء حملة خورشيد. فتعلم الوالد تفاصيل العمليات الإنتاجية في ذلك المشغل، وكان ذلك العامل يحث الوالد للتفكير في إنشاء مشغل مماثل، مع استعداده للدخول كشريك فيه يضمن الجودة العالية والتكلفة المقبولة وخدمة العملاء، حيث مل من العمل كأجير في مكانه الحالي.

أما محلات الصرافة فقد حازت على قدر وافر من التأمل فيها، حيث لا يكفي ملاحظة التناقض بينها، فأحدها كبير مؤثث ونظيف ومرتب، وآخر على قارعة الطريق، ويضاف إلى ذلك غرابة الأعمال التي تمارسها الشخصيات العاملة فيها. كان العمل الأساسي والظاهري هو صرف العملات المعدنية إلى تفاريقها الأصغر، مثال على ذلك الروبية الفضية يصرفها للعميل ويعطيه بدلا منها ستين أو سبعين بيزة، وكان ذلك يتم أحيانا يدا بيد، وفي أحيان أخرى عن طريق التحويل لطرف ثالث، أو التأجيل لمدة زمنية محددة. كان سوق الحريق يزدحم بمختلف العملات، فمنها الذهبية مثل الليرة العثمانية أو الليرة السترلينية (جنيه إنجليزي) وكلاهما وزن نحو ربع أوقية سبائكية تروى (أونصة) التي تبلغ (31.5 جرام) مقارنة مع الأوقية العادية التي تزن (28.3 جرام). وتوجد أيضًا عملات فضية مثل الريال المجيدي والريال الفرنسي الذي يبلغ وزنه أوقية كاملة من الفضة النقية وهو الأصلي، ويسبك في النمسا ويسمى: ريال ماريا تريزا الإمبراطورة، وسمي بالريال الفرنسي لأن نابليون بونابرت أحضره معه أثناء غزوه لمصر والشام في نهاية القرن الثامن عشر،

وتوجد ريالات فرنسية ليست نمساوية وإنما تقليد لها، وهي مسبوكة في مالطا ومستعمرات فرنسا في شمال إفريقيا (قسطنطينية القيروان)، وهي أقل صرفا من الريال الأصلي. إضافة لذلك توجد عملات من النحاس والنيكل بالتبديل بينها حسب المفاهمة بين الصراف والعميل.

صنف آخر من الدكاكين حيث يعرض عددا من المنشورات والمطبوعات الواردة من العراق والشام ومصر من المنشورات الدورية مثل الصحف. كان أصحاب المحلات يسمحون بأخذ المجلدات الثمينة مع العميل لمدة أيام قليلة ثم يعيدها ويسترد نقوده بعد خصم جزء يسير لقاء الاستعارة، وإذا حاز الكتاب إعجابه فيحتفظ به، أما المنشورات والكتب الصغيرة فلا يسمح بردها، كما لا يعارضون أن يقوم العميل بمراجعة ما يريد أن يشتريه والاطلاع على محتوياته لوقت قصير وهو واقف قبل أن يتخذ قرارا بالشراء من عدمه، ولكنهم يتذمرون إذا قام الشخص بالجلوس مدة طويلة وهو يقرأ فيه داخل المحل ثم يغادر دون أن يشتريه. شعر الوالد حينها بشغف شديد للاطلاع على كافة محتويات تلك المحلات.

فكرة والدي عن أوضاع سوق الحريق:

بعد فترة تكونت لدى والدي رحمة الله فكرة عامة عن أوضاع السوق في بلدة الحريق، وقد شرح لي أن خلاصة ملاحظاته كانت فيما يلي:

- السوق غير منظم ولا يوجد ترتيب واضح للمحلات أو العاملين، حيث لا توجد جهة مشرفة عليه، وفي حال حدوث نزاع يرفع الأمر للقضاء.
- السلع المعروضة بعضها شبه تالف.
- تنتشر في الحوانيت الهوام والآفات.
- محلات تقديم الخدمات ليس لها معايير للعمل، ولا يوجد رئيس أو شيخ للمهن يمكن الرجوع إليه في حال حدوث اختلاف أو مخالفة.
- تعاني معظم المنشآت من الركود والكساد، رغم أن الشهور الماضية قد شهدت تدفق كثير من الأموال والمنتجات بعد معركة الدلم.
- كثير من المحلات تعاني من العجز عن تغطية نفقاتها، حيث أن القيم المضافة للسلع متدنية ولا تغطي تكاليف التشغيل، وباستثناء المشاغل التي تقوم بجلب مكونات المنتج ثم تعالجها بالجهد البشري أو بالمعدات ثم تحقق قيمة مضافة عالية من سعر

البيع الذي يتجاوز كثيرًا كلفة المكونات، فإن بقية المنشآت تعاني أكثرها من عدم تغطية مصاريفها.

- هناك خلط وتداخل بين أماكن المعيشة (نوم وطبخ)، وأماكن ممارسة البيع أو الإنتاج أو العرض.

- ليس هناك انتظام في مواعيد العمل وأسلوبه.

- غياب بعض الأنشطة الضرورية، أو تشرذمها، فخدمات العلاج متناثرة بين محلات العطارة أو الحلاقين والحجامين، كما يؤتى بالمرضى من منازلهم مثل عمليات الختان أو تجبير الكسور أو معالجة الجروح. أما خدمات التوليد فتقوم بها القابلات في المنازل.

- بغض النظر عن السلبيات العديدة في السوق، إلا أنه يسد احتياجات ومستلزمات أهل البلدة، ويرد إليه مشترون من البادية في المناطق المجاورة، بل ومن بعض القرى غير البعيدة، لأنه مقارنة مع المناطق الأخرى يعتبرونها جيدة، ويوفر الكثير من السلع والخدمات التي لا توجد في بلدات أكبر من بلدة الحريق، وبخلاف ذلك فبعض محلاته على مستوى طيب.

ظهور فكرة العمل بالتجارة:

راقت للوالد خاطرة أن يبدأ في تأسيس عمل تجاري أو إنتاجي أو خدماتي خاص له، بحيث يتفادى معاناة الاغتراب، ويحصل على المساندة من أفراد أسرته، وقد كانت أول بادرة هو إعجابه بمشغل صياغة الحلي، وقد فهم من العاملين أنه يحتاج رأس مال مرتفع وهو ما يتوفر لدى عائلته. أما النشاط الآخر الذي راق له فقد كان محل الصرافة، ويليه حوانيت الوراقين وما يحتويه من كتب وصحف. فاتح والدته بفكرة قيامه بإنشاء مشغل للصياغة يقوم بالإشراف فيه على عمال الإنتاج، وبيع الحلى لسد احتياجات نساء البلدة، كما يخدم والدته وقريباته والجيران، وبدأ في شرح الفوائد الجمة التي ستعود على الجميع من قيامة بذلك، ولكنها استشاطت غضبا ولم تمهله حتى يتم حديثه الذي أعد له بعناية ليكون أسلوبه مقنعا لوالدته، فقد أمرته فورا بالسكوت وأن «يغلق» الكلام في هذا الأمر، حيث أن أعمامه وأخواله وجميع أقارب والده ووالدته من أهل الحسب الذين لا يجوز لهم الاشتغال مع الصناع في مثل هذه الأنشطة، وأن أملاك أسرته توفر له فرصا جيدة للعمل فيها وتحقيق عوائد جيدة له ولعائلته، أما مزاحمة ذوي الحرف فهذا أمر مرفوض التفكير فيه قطعيًّا، ونهرته أن يعود للحديث في ذلك مع أي شخص. حاول إقناعها بأن دوره سيكون في الإدارة والرقابة، ولكن اشتد غضبها ورأى عدم جدوى الحديث معها في ذلك.

بعد أيام ناقش الأمر مع بعض الفتية من أقاربه والشباب الذين تزيد أعمارهم عنه قليلاً، وكان هناك إجماع أن أهل الحريق يرون أنه من العار على أبناء أي «حامولة» ذات نسب طيب أن تمتهن مثل تلك الأعمال. حينما وجد ذلك الإصرار السلبي بعدم دخول ذلك المجال، لم ير بداً من الإذعان وصرف النظر عنه، وعاود ملاحظة السوق حيث ترك انتباهه نحو أكبر محلات الصرافة الذي يلاحظ عليه حسن التنظيم وكثرة المرتادين والمتعاملين معه، ورأى بعض العملاء يأتون من البادية أو بلدات بعيدة لتداول الأموال عنده. وهو الأفضل مقارنة مع بقية محلات الصرافة، ويمتد بديع ترتيبه إلى خارج المحل حيث يكلف عمالة بتسوية الممر الترابي أمامه، وإزالة أي أوساخ تحدث أمامه، كما يأمرهم برشه بالماء بين آونة وأخرى لمنع ارتفاع الغبار، ولا تتجمع مياه الأمطار عنده ولا تتواجد به الحيوانات الضالة والهوام، كما أن أرضيته مفروشة ببساطة.

قرر الوالد أن يبدأ التعامل معهم ماديًّا وليس بمجرد الوقوف والاستفسار مثل المتطفلين. طلب من والدته إقراضه جنيها ذهبيا على أن يعيده لها في المساء، وقد رفضت في البداية إلا بمعرفة الغرض من ذلك،

ولكنه ألح عليها، كما أنها رحمها الله لم تشأ أن تزيد في الشدة عليه بعد ذلك الجدال حول عمله مع الصاغة، لذا فقد أفرضته مع التنبيه المتكرر بعدم فقدان ذلك الجنيه الثمين.

توجه مسرعًا إلى الحلة، حيث دخل أكبر محلات الصاغة، وتوجه إلى أحد العاملين ومد له الجنيه قائلا إنه يريد صرفه إلى ريالات فضية، أخذ العامل القطعة الذهبية يقلبها بين أصابعه، ويسمع رنينها على قطعة من الحجر المصقول ويتأمل جوانبها ثم انتقل يحدق النظر في الوالد وسأله من أين أحضرت هذه؟ فأجابه أنه من والدته وتريد بدلا منه ريالات لنفقات لديها، ثم استفسر منه عن سبب عدم تصريفه لدى الصرافين الجلوس على جوانب الطريق أو الذين يعملون في منازلهم؟ رد عليه بأن والدته حذرته من التعامل مع من يصرفون الدراهم غير الأصلية. أثناء ذلك كان العامل يجيل النظر نحو باب الدكان ثم يتأمل في القطعة الذهبية، وسأله: ما اسمك؟ وأجابه: عبد الله بن خثلان. وعلى الفور سمع صوتا من الخلف يقول: صرف له إياه وخذ منه ثلاث بيزات فوق الجنيه، التفت وراءه فرأى رجلا كبير السن يجلس على يسار الداخل متكئًا باستراحة ويتناول الشاهي الذي يقدمه له أحد الخدم. لاحظ أن العامل أثناء ذلك قد أعد الريالات وطلب منه فرق الصرف أو العمولة فناوله إياها واستلم نقوده، وأثناء المغادرة ألقى التحية على ذلك الشيخ الذي ما فتئ يطيل النظر فيه.

آمال عريضة:

بعد أكثر من خمسين عامًا على ذلك، أفادني الوالد أنه كان مسرورًا ومعجبًا بتنظيم العمل في ذلك الدكان أكثر من إعجابه بالمقر الرئيسي للبنك العربي في وسط ساحة بيروت، الذي كان أنذاك في مطلع ستينات القرن العشرين أقدم وأكبر بنوك المنطقة ومقره الأساس في القدس وله فرع كبير في جدة. عاد بالنقود إلى والدته وطلب منها أن تحفظها في صندوقها الحديدي لبضعة أيام، وبات تلك الليالي يمني نفسه أن يتمكن من إقامة منشأة على مستوى منظم للصرافة وتحويل العملات المعدنية، حيث لم توجد في الحريق بعد العملة الورقية، التي قد تقرضها الفويسقة أو تتلفها الحرارة.

كانت آماله تحوم حول ما شاهده في ذلك الصندوق، والكمية الكبيرة من البيزات النحاسية ولكنها لم تؤثر عليه، ظل يتذكر الآية القرآنية في سور آل عمران عن حب الناس للقناطير المقنطرة من الذهب، كانت كل طموحاته هو أن ينجح في إقامة محل صرافة ويكون لديه ألف جنيه.

لقد كان رقم الألف هو آخر ما وصل إليه درس الحساب في الكتاتيب، ولم يكن يعي أو يدرك وجود أرقام تزيد عنه. استلم الخرجية المعتادة من

والده، والتي عينها له كل يوم جمعة لشراء أي مستلزمات خاصة به منذ أن بلغ العاشرة، وهي تزداد مع مرور الوقت، ولكنها ما زالت لديه وبعض البيزات لدفع عمولة الصرف ليستعيد الجنيه الذهبي، وقصده الأساس مراقبة العمل في المحل، والتخطيط لإنشاء محل مماثل تمتلكه أسرته ويتولى هو إدارته. عندما دخل المكان بدأ بإلقاء التحية على ذلك الشيخ الجالس على يسار الباب، وتوجه إلى أحد العاملين طالبًا تحويل الريالات الفضية إلى جنيه ذهبي إنجليزي مماثل لما سبق أن أخذه من والدته، ولم يستغرق الأمر طويلاً حيث عرفه العامل وطلب منه ثلاث بيزات رسوم الاستبدال فدفعها له، وبينما ذهب العامل لإحضار جنيه ذهبي جال ببصره في أرجاء المكان، ولاحظ طريقة حفظ العملات المعدنية وكذلك وجود دفاتر كبيرة مصفوفة في الركن، كما شاهد أداة غريبة فيها عدد من الأسلاك المعدنية في صفوف متراصة بعضها فوق بعض، وفي كل صف توجد مجموعة من المكورات الملونة بعدة ألوان، وكل ذلك في إطار خشبي لامع في أسفله سلك واحد أصغر من البقية ولكنه يحوي خمس مكورات أكبر حجماً من الصفوف العلوية، وهي بحجم حبات المسابح الكبيرة التي رأى بعض الحجاج من غير العرب يستخدمونها، ولم يعرف كنه تلك الأداة. استلم قطعة الذهب وبعد أن تفحصها جيدًا، لم ير ما يستدعي استمرار بقائه رغم شغفه بالتطلع والتعرف على ما يدور في ذلك المكان، لذا فقد اتجه للمغادرة وهو يفكر في الطريق الملائمة للعودة إلى المحل بعد أيام لدراسة أوضاعه بشكل أوسع.

في طريقه للخروج دعاه ذلك الشيخ لتناول الشاهي معه، ورغم أن الوالد لم يكن يحب شربه مثل القهوة إلا أنه لم يفوت تلك الفرصة وسارع لقبول الدعوة، سأله الرجل عن اسمه وعن والده من أي فرع من آل خثلان، فأجابه أنه ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن علي، عندئذ تجهم وجه الشيخ واستفسر منه عن عمه زيد، وإذا كان في صحة جيدة، أجابه بالإيجاب، وأنه خرج معهم العام الماضي إلى الدلم، ولم يذكر عودته للبلدة في الطريق جيدا ولكنه لم يقابله منذ عشر سنوات بسبب مشكلة حدثت بينهما آنذاك. بينما كان الرجل يسكب المشروب في الفناجيل سأله عن تفضيله لمقدار السكر، فلاحظ أن السكر كان داكنا إضافة إلى وجود مواد غريبة فيه، لذا طلب أن يكون السكر قليلا عكس ما كان يفضله في منزله. وأثناء ذلك دخل شخص وحياه بـ «أبو صالح» قبل أن يتجه نحو العمال لإنجاز غرض له. استفسر منه الوالد عن تلك المشكلة مع عمه فأفاده أن سببها أن العم زيد لديه «زود في الدين» وبقدر هائل من التهذيب ومراعاة الخاطر، أجابه الوالد: أن الدين كما أنزله الله ولا يجوز الزيادة أو النقص فيه. وافقه أبو صالح على ذلك قائلاً: أن الإشكال هو كثرة التحوط لدى

البعض مما يؤدي إلى التوسع في منع بعض الأمور التي لا يوجد نصوص صريحة في الكتاب والسنة على تجنبها، ولم يرغب في التوسع في ذلك فقد أدار الحديث نحو جهة أخرى حيث قال: لو أن عمك زيدا أطاع مشورتي منذ حين لكان حفدته الآن أكبر منك يا عبد الله، فرد عليه: أن الخالق هو من يدبر الأمر.

سأله الرجل أن كان تلقي شيئا من التعليم وفي أي مكان؟ فأجابه بتلقيه بعض مبادئ العلوم الشرعية وأخبره بأسماء الكتاتيب والمشائخ الذين تلقى عنهم تلك العلوم بشكلها الأولى. ظن أن الفرصة ملائمة لمعرفة المزيد، وتظاهر الوالد بالرغبة في المغادرة، وأثناء قيامه سأل الرجل عن ذلك اللوح ذي الأسلاك والمكورات، لكن صادف ذلك دخول عميل يبدو أنه مهم، فقام له أبو صالح وودع الوالد قائلا له أن لا يقطع زياراتهم وسيحدثه عن الآلة في وقت لاحق. هرول الوالد للبيت مسرعا وقد امتلأ قلبه حبورًا فقد وطد علاقته مع محل الصرافة، وعقد العزم على الاستمرار في دراسة أوضاع بقية الصرافين حتى تتوفر لديه معرفة مصرفة كافية بذلك الصنف من العمل الذي يختلف جذريًا عن رعاية المزروعات والحيوانات.

كان أبي يعلم أن والدته (رحمها الله) تخفي الريالات في قدر معدني صغير تضعه داخل حفرة أسفل فراش النوم مغطاة ببساط أسفله حصيرة، وأما الجنيهات فتضعها في صرة تحملها معها، وتحرص دائما على عدم دخول أحد إلى غرفتها، وتغلقها بإحكام عند مغادرة المنزل وتأمر أحد الخدم بالبقاء حولها، وكان الجد كثير الخروج لأشغاله، لذا يعهد إليها بحفظ المال. ذات يوم فاتح والدته بأن الأفضل أن تحول عددا من الريالات إلى جنيهات يسهل حملها، وإذا أرادت الصرف ذلك أمر سهل بالنسبة له، لذا طلب منها خمسين ريالا ليجعلها جنيهات ووافقت على ذلك مع إعادة التأكيد على عدم التفريط فيها. قرر عدم الذهاب مباشرة إلى محل «أبو صالح» حيث ارتابت نفسه أن الرجل يتحدث «من خلف لسانه» ويغير أسلوبه حسب الشخص الذي يحادثه، وكما لو كان يخفي أمرًا، لذلك توجه إلى صراف ممن يجلسون في زاوية عند بداية السوق وسأله أن يعطيه جنيهات مقابل الريالات، وأفاده أنه سيصرفها له مقابل ثلاثة جنيهات وعليه الانتظار حتى يذهب لإحضارها من مكان آخر لأن ليس لديه الآن ذهب، فتركه وذهب إلى محل صرافة صغير، وبعد مشقة وكثير من الأسئلة عرض أن يعطيه ثلاثة جنيهات مقابل ثمانية وأربعين ريالا.

توجه بعد توفر معلومات لديه عن المنافسين إلى محل «أبو صالح» وساومهم حول شراء الجنيهات فأعطوه سعرا أفضل فوافق الوالد على أن يدفع عمولة الصرف من خرجيته. دعاه الشيخ إلى فنجال الشاهي غير أنه سأله عن أحواله، وبعد ذلك ذكره الوالد بوعده إياه أن يشرح له تلك الآلة.

أمر أبو صالح أحد العاملين بإحضار اللوح الذي لا يزيد عرضه عن شبر إلا قليلاً، أما طوله فنحو شبرين، حيث قام العامل بإيضاح طريقة الحساب على تلك الآلة التي يوجد بها صفوف علوية في كل منها تسع مكورات من البيلسان وهي مادة قاسية مثل اللبان العربي ولكنها مصقولة ومرتبة الأجزاء كأنها من الكهرمان الملون، وتشبه حبات المسبحة ويستخدم كل صف لاختيار إحدى الكرات التسع لترمز للرقم في الخانة الأولى (آحاد) وإذا انتقل للصف الثاني يحرك المكورات يمنة ويسرة ليكون في الوسط رقم الخانة الثانية (العشرات) أما إذا كان الرقم صفرا فإنه يزيح جميع المكورات التسع جهة اليسار، وفي أسفل اللوح صف واحد لمكورات أكبر حجما لعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، ويقوم العامل بإجراء الحسابات بشكل سريع ودقيق بعد أن يتدرب عليها فترة من الزمن. وعندما سألهم عن حدوث الخطأ أفادوه أن ذلك وارد ولكن بنسبة أقل مما هي عليه في حال استخدام الورقة والقلم، أما استخدام الذاكرة فيؤدي إلى أخطاء كثيرة، وبخاصة إذا تجاوز المبلغ مقدار «لك»، واستفسر عن ذلك. فأجابه العامل أنه يعني مائة ألف، كما توجد لديهم لوحات أخرى أكبر تصل في ذلك لحساب مقدار ألف ألف «مليون» وهذا مقدار لا يستخدم في بلدة مثل الحريق في ذلك الوقت ولكنهم يحتاجون لمعرفة حسابات المحل في نهاية الشهر وليس مع العملاء.

سأل عن كيفية الحصول على هذه اللوحة الحاسوبية؟ فأفاده أبو صالح أن بعض الحاسبين العرب العاملين في كراتشي بالهند يرسلونها لهم وهي غير مرتفعة الثمن مقارنة بفوائدها الجمة. طلب استعارتها فأفاده العامل أنه لن يستطيع العمل عليها إلا بعد أن يمر بفترة تدريب قصيرة، ويمكن لاحقا شراء واحدة خاصة له، استفهم من أبي صالح عن إمكانية حضوره بعض الوقت للتدرب عليها، فأفاده أنه ما دام قد درس الخط والحساب في بعض الكتاتيب فيمكن ذلك بشرط أن يكون في فترة قبل الظهيرة حيث لا يوجد الكثير من المرتادين للمحلات، وطلب من العامل إعطائه ورقة وقلما لكي يشاهد خطه، ثم سأله عن حاصل جمع خمس عشر مع سبعة وخمسة وثلاث بدون كتابة، فأجابه سريعا: إنها ثلاثون، أعجب بسرعة حسابه ولكنه أفاده أن خطه غير جيد ولابد أن يتعلم طريق الكتابة بخط الثلث حيث أن رسمه هذا غير واضح ويصعب قراءته، كما أفهمه أنه إذا أراد التدرب على الحسابات فلابد من موافقة والده أولا.

لقد خالج السرور الوالد لعدة أسباب، أولها أنه قد علم أن أبا صالح من إحدى الحمائل (العائلات) ذات الحسب والنسب في البلدة، ولن يعترض أحد على عمله في ذلك بدعوى أنها مهنة خاصة بالبسطاء من الناس. كان الوالد في صباه وشيخوخته يكره ذلك التمييز بين الأهالي، ويرى أن تعامله

مع الآخرين يعتمد على عنصرين أولها مكانته الشخصية هو نفسه وما يجب أن يتحلى به من الخلق الإسلامي الطيب، وثانيها هو أسلوب الشخص المقابل في التعبير والتصرف، وأما التمييز على أساس النسب فقط فهذا أمر مقيت لديه، فكم من رجل يتمتع آباؤه وأجداده بالخصال الطيبة ولكنه محروم منها، لذا فهو لا يستحق التقدير، والعكس صحيح.

أما ثاني أسباب المسرة فقد كان إحساسه باكتساب ثقة مالك ذلك المحل، وقبوله تدريبه على الحسابات وعدم الحاجة مستقبلا لإحضار عملات نقدية لصرفها كعذر لتواجده لديهم. وأمر آخر جعله مبتهجا ويتمثل في إدراكه لأسباب النجاح في الأعمال، وهي ما يجعل مكانين متقاربين يمارسان النشاط نفسه ويلقى أحدهما رواجا بينما الآخر يعاني التدهور، وعرف أن أهم عوامل النجاح هي الجودة في السلعة أو الخدمة إلى الحد الذي يرضي القطاع الأكبر من العملاء، وبعد ذلك التكلفة الفعلية لأداء العمل مقارنة بالمنافسين. ويلي ذلك القدرة على مواجهة متطلبات العملاء وسدها على أفضل وجه ممكن. والعنصر الآخر هو توفير مخزون جيد من المواد والمستلزمات، وعدم تكليف العميل للعودة لاحقا للحصول على ما يريده. لقد كان يحرص أن يكون استثماره في منشأة جيدة توفر أسباب النجاح بعد توفيق الله، وعندما اقترب من منزله تحسس العملات في جيبه وسارع لإعطائها لوالدته، التي نفحته ريالا كاملا مع البيزات مما زاد من سروره.

بعد التفكير العميق في أفضل وسيلة للحصول على موافقة والده للتدرب على المحاسبة، قرر أن أنجع طريقة هي الانفراد به للحديث حول ذلك بعيدا عن العم زيد، الذي فهم من أبي صالح أن هناك إشكالا بينهما مما قد يسبب معارضة حصوله على المزيد من المعرفة العملية، فتحدث بذلك إلى والده وبين له أن معلوماته الحسابية من الكتاتيب غير كافية، كما أنه يريد تحسين خطه وقدراته الكتابية لتكون بشكل أسهل للقراءة.

وعده والده بالتفكير في ذلك وإفادته لاحقا. بعد أيام بينما كانوا جميعًا جلوسًا قبل صلاة المغرب تحدث والده عن رغبة ابنه (عبود) في دراسة الحسابات لدى أبي صالح، فاستفسر العم زيد الكبير عن موقع التدريب، فأفاده أنه صاحب محل الصرافة في الحلة، فاستشاط غضبًا قائلاً «يخسأ فريميش الدلخ» هذا ليس لديه تعليم بل ضلال وفساد، فإنه يستأجر «مطاوعة» ويعلفهم حتى يفتوا له بجواز ممارسة العمل الربوي المحرم، وهذا لا خير فيه ولا يستفيد منه أحد إلا كسب الإثم والخطيئة، ويلزم البعد عنه، وقد سبق أن ناصحته للكف عن تلك الممارسات المخالفة للشرع الإسلامي، ولكنه لم يستمع، واستمر في تلك الأعمال فرحا بالمكاسب المالية التي يحصل عليها من المداينات، ويجب عدم تعلم الحساب أو الخط

عنده حيث توجد كتاتيب في البلدة تقوم بذلك، فقد وعد الله على لسان نبيه بالويل لمن يمارس الربا ولمن يكتب أوراقه أو حتى يشهد عليه، ومن يتق الله يرزقه من حيث لا يحتسب، وأملاكنا والحمد لله كافية لنستغني عن أن نربي أموالنا عند الناس. حاول الوالد أن يشرح لعمه أنه سيكتفي بدراسة الحساب على آله متطورة لديهم حتى وجوده في المقر عندهم سيكون بحسبان، وأن المحاسبة تفيد في متابعة أعمال الزراعة والتجارة والفلك وغيرها وبدون التعرض لأي أعمال أخرى. رفض ذلك بشدة ونهره على غير العادة في تعامله، وأمره بصرف النظر عن ذلك الأمر نهائيًا.

العيب والحرام:

صدم الشاب عبد الله من فحوى كلام عمه زيد الكبير ومن أسلوبه، وانتابه التجهم، ولم يدر كيف يواجه الموقف، وشعر بانعقاد لسانه بل وحتى انغلاق فكره عن الطريقة المناسبة للرد وشرح وجهة نظره. شعر أقاربه في المجلس بما يدور في خلده ولم يستطع التعبير عنه، بادر أحدهم بالقول أن عمليات الصرافة لدى «أبو صالح» ما هي إلا ستار على حرفته الأساسية وهي المداينة الربوية، وأن أنشطة الصرف لا تغطي مصاريفها، وإنما يستخدمها غطاء لحيل يقترحها عليه بعض المتفقهين والمنافقين لخداع البسطاء بعمليات بيع وهمية للوصول إلى عين الربا. قريب ثان شرح للجميع أن الحرام قد يؤدي إلى أرباح وفيرة لأن القليل يتجرؤون عليه، ولكن البركة قليلة، ولقد وعد الخالق سبحانه الفساق بأنه [**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**] [الأعراف:182]ولكن حذرهم [إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ]، والذي يكسب الحرام لا يشعر بأي متعة في حياته بل يشعر أنها ضنك دائما وإشكالات يومية تنغص عليه تناول اللقمة أو النوم الهانئ لساعة. ونصحه الجميع التوجه إلى الأعمال غير المشبوهة وإن كان ربحها قليل العدد ولكنه كثير البركة . شخص ثالث تبرع بالمواساة وللحث على البعد عن أعمال الصرافين قائلاً: أن كل ما يريده منك أبو صالح هو أن تساعده في ضبط دفاتره وحساباته، وأن تكتب وثائق المداينة التي يقوم بها ذلك الذي ليس له من كنيته نصيب، أو يتوسط للقيام بها بين المقرض والمقترض بالفوائد الربوية لقاء فائدة محددة مقدماً. قريب رابع أفاد أن لوح الحساب الذي سيدربه عليه ليس هنديا ولا حديثاً، وإنما هو اختراع صيني[1] من أمد بعيد وقلده الهنود، وحيث إنه يعتمد على حركة

(1) المعداد (لوح الحساب) هو وسيلة حساب يدوية تتكون من إطار بأسلاك متوازية أو قضبان تمر خلال خرزات أو حصيات وتستخدم اليوم لتعليم الحساب للأطفال في المراحل الابتدائية.
استخدمها الإغريق والرومان والصينيون واليابانيون وبعض البلدان الأوروبية قبل وصول الحساب العربي أوروبا في القرن 13 الميلادي. وكان يجري من خلال لوحة العد هذه عمليات الجمع =

الأصابع فإنه يربك الحساب ويؤدي إلى أخطاء تستلزم تكرار الإعادة وبحاجة إلى تدريب طويل، والآلات الحديثة شاهدها لدى العقيلات الذين أحضروها للقصيم من الشام وقد صنعها «الجرمل» (ألمان) وفيها أزرار كبيرة مرقمة من صفر إلى تسعة، ويوجد بداخلها عدد كبير من التروس المسننة وتشبه ساعة الحائط من حيث تداخل الزنبركات مع التروس، وعلى جانبها يد معدنية فيها عقفة مزدوجة، ويقوم المحاسب بضغط المبلغ الأول على الأزرار حتى تظهر أمامه على الخط العلوى، ثم عند الاكتمال يضغط زرا آخر فيخزن الرقم، ثم يدخل المبلغ الثاني ويتأكد من صحة إدخاله بالنظر إلى الخط العلوى للتأكد ثم يدير المقبض المعقوف باتجاه عقارب الساعة إذا اراد جمع رقمين، أو يديره عكس ذلك (باتجاه الطواف) إذا أراد طرح أحدهما من الآخر. وأفاده أن تلك الآله هي الحديثة وتعمل بدقة وسرعة وغير مربكة، ولا تحتاج للتدريب عليها سوى ساعة واحدة، وإن كان يعاب عليها كثرة التعطل وتداخل التروس مع بعضها ولكن إصلاحها يسير، وأبدى استعداده لعرض ذلك عليه إذا سافر معه لاحقا.

لم تنبس شفتاه بحرف واحد وظل واجما كأنه لا يستمع، ويحدق في الجدار ثم استأذن الحضور للانصراف. في تلك الليلة وما تلاها كان النوم لا يراود جفنيه إلا لماما، حيث فكره وفؤاده مشغولان ببحث وضعه مما ستكون عليه حياته مستقبلاً. لقد تحطمت آماله وطموحاته على تلك الصخرة الضخمة، فإن العمل على إنشاء مشغل المجوهرات واجهته جوانب الصخرة المتمثلة في «عيب»، وأما محل الصرافة فواجهه قول «حرام». لقد كان والدى يرحمه الله حريصا للغاية على تلافي الوقوع في العيب والحرام، ليس بسبب أسرته وعادات أهل بلدته ولكن لخصائصه الذاتية التي تأنف ذلك بشدة . لقد سبق له أن صرف النظر عن السفر للغوص بسبب «الخطر» وها هو الآن يواجه المزيد من العقبات في إيجاد وسيلة لكسب المعيشة بعيدًا عن رعاية النباتات والحيوانات. أخذت تراوده فكرة الذهاب إلى الصحنة والسكن فيها والبحث عن عمل في الدلم وما جاورها، لا يشتمل على الخطر والعيب أو الحرام. كما أخذ يقلب بقية الأفكار في رأسه وأصبح القلق والكآبة يستبدان به طيلة الوقت. ولا

والطرح والضرب والقسمة.

تطور المعداد خلال الزمن وأصبح هناك أكثر من نسخة (نسخة صينية ونسخة يابانية، وغيرها)، ويتم استخدام المعداد في التدريب على الحساب الذهني من خلال أكاديميات معتمدة عالميًّا تجمعها جمعية عالمية مقرها في بكين، وتقيم الجمعية مسابقات عالمية بين الطلبة والطالبات من الأكاديميات الخمسين الموزعين في أغلب دول العالم تقريباً. واليوم تجري أيضًا في اليابان والسعودية وغيرهما من الدول مسابقات بين أطفال المدارس في حساب أعداد كبيرة باستخدام المعداد في أقل زمن ممكن.

يستطيع ليلاً النوم، بل يبقى يتفكر في أحواله، ثم يمضي بقية وقته يصلي ويتهجد داعيا الله أن يهديه سواء السبيل. استولى عليه الأرق ليلاً وأصبح يردد قول ملك الشعراء[1]:

أرَقٌ عَلـــى أرَقٍ وَمِثْلـــي يَـــأرَقُ وَجَـــوًى يَزيـــدُ وَعَبْـــرَةٌ تَتَرَقْـــرَقُ

أبَنـــي أبِينَـــا نَحْـــنُ أهْـــلُ مَنَـــازِلٍ أبَـــداً غُـــرابُ البَـــينِ فيهـــا يَنْعَـــقُ

نَبْكـي علـى الـدّنْيا وَمَـا مِـنْ مَعْشَـرٍ جَمَعَـــتْهُمُ الـــدّنْيا فَلَـــمْ يَتَفَرّقُـــوا

أيـــنَ الأكاسِـــرَةُ الجَبـــابِرَةُ الأُلـــى كَنَـزُوا الكُنُـوزَ فَمـا بَقـينَ وَلا بَقـوا

(1) هو شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي، وترتيب الأبيات مخالف لما جاء في الديوان.

هواجس ومخاوف:

مع كثرة الهواجس والمنغصات تدنت صحته، وراودته أفكار سوداوية، إلا أنه أيضًا صار يطرح البدائل ويبحث عن خطط جيدة لتقوية مهاراته، ليكون شخصاً قادرا على الاعتماد على الله أولا ثم إمكاناته الذاتية، ويحقق النجاح العلمي والعملي الذي يوفر له سبل العيش الهانئ ويجعله قادرًا على إسعاد أفراد أسرته وأقاربه ومعارفه. وأثناء تلك التأملات استعاد ما قاله أحدهم عن الصيرفي أبي صالح أنه «منافق» واسترجع في ذهنه كافة أقواله وتصرفاته ووجده بعيدا عن ذلك، فهو لم يَدَّع عليه أحد أنه خان الأمانة أو غدر بالعهد أو كذب في حديثه، بل على العكس من ذلك كان ليتحلى بالصدق والوفاء وحسن التصرف ورقة الحديث والخلق الحسن، ثم عاد يراجع نفسه هل يمكن أن يكون ذلك مجرد ستار آخر للتغطية على ممارسته للعمل المحرم، دارت في رأسه الظنون، وأخذته يمنة ويسرة وتعوذ من الشيطان، وسأل الله لنفسه وللمسلمين الرشاد إلى الصراط المستقيم.

في ظهيرة ذات يوم التقى أحد أصدقائه القدامى لم يشاهده منذ عدة أشهر، فتوجس منه خيفة وسأل الوالد عن سبب هزاله واصفرار لونه وانكسار مشيته على غير العادة، ثم جلسوا في ظل حائط وتناقشوا حول ما يدور في خلده. في نهاية الجلسة أفاده الصديق بأنه ليس «إمَّعَة» وعليه في هذه السن والمكانة أن يدرس أحواله بدقة، وليس هناك ما يمنع من مراجعة أحد الفقهاء ومعرفة رأي الشريعة في معاملات الصرافة، بعيدًا عن الحزازة الشخصية بين البعض، كما يمكن مراجعة أبي صالح نفسه ومناقشته حول ذلك، ما دام أنه رجل خلوق وذو صدر رحب ويستقبل الملاحظات الموضوعية، وليس ممن يصرون على رأيهم وإن كان أعوجا.

قرر التوجه إلى مؤذن المسجد (أبو عثمان) ولديه إلمام بالفقه، وسأله عن حل أو حرمة اقتراض أحد أقاربه من الصرافين، فأفاده أنه لا يستطيع أن يصف بلسانه أن هذا حلال وهذا حرام إلا بعد التثبت، وأن المشائخ الذين درس عليهم يجيزون بعض القروض أو البيوع التي لم يجزها مشائخ مذاهب أخرى مثل، القرض التبادلي التعاوني (سفتجة) في حال السفر للتجارة، وكذلك يجيزون الخصم لقاء تعجيل السداد (ضع وأجل) وشبهوه ببيع السلم الذي فيه خفض السعر لقاء الدفع مقدمًا وتسليم السلعة لاحقا، كما أجازوا بيع التورق غير المدير حينما لا يعلم البائع عن ترتيب المشتري لإعادة بيع السلعة، وأن فقهاء آخرين لم يجيزوا مثل ذلك لوجهة نظر لديهم، وسبب الاختلاف هو في اجتهادات المتأخرين حين لا توجد آيات صريحة على التحريم، والأحاديث فيها لم يتفق على صحتها. ولكل

ذلك فإن هناك خلافا حول مشروعية بعض المعاملات المالية، وعلى العموم فإن جماعتنا (أهل الحريق) ينظرون بريبة شديدة لكل أعمال الصرافين ويتهمونهم بممارسة أمور مشتبه بها.

بناء على ذلك فقد استقر رأي أبو عثمان على صرف النظر عن الاقتراض منهم والاحتياط بالبعد عن الشبهة. زادت تلك المعلومات والأقوال من تشوش الوالد وجدته حول الأمر، واتضح أن هناك خلافا جذريا بين بعض الفقهاء وبعضهم حول مسائل صرف العملات والمتاجرة فيها، بناء على السبب الفعلي وراء سؤاله، أوضح له أنه يريد أن يعمل متدرباً لدى «أبو صالح» صاحب محل الصرافة الكبير في الحلة ويود لاحقا أن يفتح محلا مشابها ولكنه سيتفادى المعاملات المحرمة شرعاً، أبدى الرجل دهشته من ذلك الأمر، وأفاده أنه في حال يغبطه عليه كثير من الناس، فأعمال وأملاك أسرته واسعة وفضل الله عليهم جزيل، وهو ليس بحاجة لفتح محل تجاري يؤدي إلى المعاناة والمشقة مع قلة العائد.

أجابه أنه قد سئم العمل في مجال (الزراعة والمواشي)، كما يرغب في الاعتماد على ذاته وعدم الارتباط الدائم بأسرته والبقاء في ظلهم حتى يبلغ الأجل، ثم يؤول إليه شيء من الأملاك، بدون أن يشعر أنه قد أنجز لنفسه بعون الله إمكانيات ذاتية. حدثه المؤذن عن الفرص البديلة مثل العمل في الشأن العام كالإمارة أو العسكرية ومساعدة الحكم في المهام الإدارية، لكن ذلك سيعني الاعتماد على أقاربه أيضا، كما أجابه أيضًا بأن مثل تلك الأعمال لا تجلب الثروة إلا إذا كان الشخص يستغل وظيفته للتكسب من أمور فيها شبهة أكثر من أعمال الصرافة، أو قد تجلب عليه متاعب أكثر، إضافة إلى أنه لا يريد أن يكون مأمورا في عمله، بل يكون هو المالك الآمر حتى وإن كان العائد ضعيفا، لأن هذا ما يرتاح له شخصيًّا. حدق فيه الرجل وهز رأسه كأنه غير مقتنع بذلك، ثم طلب منه أن يصف له أبا صالح وهل عليه سيماء الخير أو الشر، أجابه: أن كل ما يظهر منه فيه علامات الخير والإحسان، وقبل النداء على فريضة الصلاة يكون قد غادر مجلسه الوثير للغسل، ويتوجه للمسجد لإدراك السنة وتلاوة القرآن وأداء الفريضة خلف الإمام مباشرة، كما يسارع للنفقة على المستعطين والسائلين ولا ينهر أحدا منهم، ويضع ماء نظيفا في قلال باردة لمن يشعر بالعطش، كما يسقي الشاهي والقهوة لمن يمر عنده.

إضافة إلى ذلك فإن لحيته كثة ويغير بياضها بصبغة من الحناء والمخلوط معه الكتم مما يجعلها ذات لون رمادي غامق مشوب بسواد متفحم. لاحظ ذات مرة أنه طرد من محله شخصا معه لفافة تبغ يصدر منها الدخان، كما كان يوزع الطعام على بعض الأسر الفقيرة في المناسبات، وبالإجمال فإنه كان يبدو شخصا محبا للعمل الصالح، ولم

تظهر عليه أي بوادر شريرة أو التعرض بالأذى للآخرين. أبدى أبو عثمان اهتمامه بذلك الصراف ومعرفة المزيد عنه، ونصح الوالد بأن يقوم بمفاتحته بما يدور في خلده حول شبهة عدم شرعية بعض الأعمال، ويناقشه حول الأمر، ولكن بعد أن يقوم بدراسة الرأي الشرعي للبيوع وصرف الأموال وبخاصة ما يتعلق بالمذهب الشافعي والحنبلي، ووجهه إلى زيارة محلات الوراقين والاطلاع على الكتب التي لديهم بشأن القضايا الفقهية المتعلقة بالتبادل المالي والسلعي المجاز شرعا.

أمضى الوالد الأيام اللاحقة عند محلات الكتب، يطلع على الآراء الشرعية حول مختلف أنواع البيوع والتداولات المالية، لقد استفاد كثيرًا في توسيع قاعدته المعرفية وإدراك بعض تفاصيل الاختلافات الفقهية في تلك المسائل، إلا أن التشويش حول بعض الاجتهادات وعدم توفر مرجع يمكن أن يستند عليه لفهم ما غمض منها جعله في حيرة وارتباك، ومع ذلك فقد كانت تلك بداية اطلاعه على تنوع الآراء لدى الفقهاء ومدى اعتمادها على تأويلات وتفسيرات الآيات القرآنية، أو مدى صحة الأحاديث وبخاصة المرفوع[1] أو المرسل[2]، وآليات الاستناد للفقه وبخاصة القياس والاجتهاد والمصالح المرسلة وسد الذرائع، كما كان يلزمه تمييز الأحكام الخاصة المستخدمة على وجه العموم، أو الأحكام العامة ذات التطبيق الخاص مثل قول ابن عباس أن الآية: [**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**] [آل عمران 188] إنما تخص اليهود، ولكن الواضح أنها عامة للبشر كلهم، وعكسها آية: [**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**] [آل عمران 173] فتبدو هنا أن الناس هم كل البشر والواقع إنها ليست عامة بل تخص فريقا من الكفار.

لقد أدى الخلاف حول تأويلات الآيات القرآنية وصحة الأحاديث النبوية إلى كم هائل من تفاوت الفتاوى حول بعض المعاملات في الإسلام، وأصبح الأمر خاضعًا لاجتهادات بعضها مقبول مثل ما صدر عن الأئمة الأربعة، ولكن خلفائهم لاحقا توسعوا في الاجتهاد حتى دخلوا في أمور

---

(1) **الحديث المرفوع**: هو ما أضيف إلى النبي ﷺ قولًا أو فعلًا عنه، وسواء كان متصلًا أو منقطعًا أو مرسلًا، ونفى الخطيب أن يكون مرسلاً، فقال: هو ما أخبر فيه الصحابي عن رسول الله ﷺ.

(2) **الحديث المرسل**: حديث التابعي الكبير الذي قد أدرك جماعة من الصحابة وجالسهم، كعبيد الله بن عدي بن الخيار، ثم سعيد بن المسيب، وأمثالهما، إذا قال: «قال رسول ﷺ». والمشهور التسوية بين التابعين أجمعين في ذلك. وحكى ابن عبد البر عن بعضهم: أنه لا يعد إرسال صغار التابعين مرسلًا. ثم أن الحاكم يخص المرسل بالتابعين. والجمهور من الفقهاء والأصوليين يعممون التابعين وغيرهم.

خلافية، وبخاصة بعد بدء القرون الرديئة (الرابع الهجري وماتلاه) الذين شهد عليهم المصطفى عليه الصلاة والسلام بأمور غير طيبة في كثرتهم، والقلة النزيهة التي تترفع عن الجدال واللغط.

رأى في بعض كتب الفقه ما خطه أحدهم بتحريم القياس، وجعل أن أول من بدأ «التقييس هو إبليس» حينما قال: [**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**] [الأعراف: 12] وبعد بضعة أسطر نجده يبدأ هو في ممارسة القياس لمجرد دحض رأي زملائه الذين يصفهم بأمور سيئة مثل: «إنه قول الفساق» أو: «لقد أخطأت إسته الحفرة» وما إلى ذلك من أمور يتعفف عنها الصالحون. وآخر يتعوذ بالله أن يقول في دين الله برأيه لأن ذلك من الزندقة، وبعد بضعة أسطر يعرض ما يراه أو «ما يشوفه» على القارئ بشك مرتبك وغير مدعم بالأدلة والأسانيد، ولا يبدو أن غرضه سوى تعلية شأنه الذاتي والحط من شأن أقرانه. أدى ذلك إلى خلق شيء من التشويش على فهمه لبعض الأمور المختلف عليها، ولكنه قاده أيضًا إلى تعلم البحث في مصادر المعرفة وتحليلها واستنباط النتائج من الأقوال التي قد يتعارض بعضها مع بعض، كما أكسبه قدرا مناسبا من التفقه في شرع الله.

عقد الوالد العزم بعد ذلك على التوجه إلى محل أبي صالح للمداولة معه حول المفاهيم التي لديه بشأن بعض عمليات البيوع أو صرف العملات. استقبله الرجل ببشاشة مستفسرًا عن أسباب انقطاعه عن زيارتهم كل تلك المدة، فأفاده أن بعض الأمور طرأت عليه ولم يستطع مواجهتها، وأنه قد جاء للمحل لطلب المشورة والرأي في ذلك. تهلل وجه أبو صالح وعرض تزويده بما يستطيع من نصائح تعينه على مواجهة أوضاعه.

بدأ الحديث بالسؤال عن وجود شبهة ربا في بعض معاملات المحل، أفاده الرجل أن الربا هو النسيئة، حسب حديث ابن عباس وأسامة بن زيد الذي صححه البخاري[1]، وفي آية تحريم الربا يتضح ذلك من قوله تعالى: [**وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ**] [البقرة:280]، والنسيئة هي أن يحل موعد سداد دين على شخص فيطلب من الدائن أن يمهله وقتا إضافيا

(1) يعني الحديث الذي خرجه البخاري في باب «بيع الدينار بالدينار» وفيه:« حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الله حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ أن أَبَا صَالِحٍ الزَّيَّاتَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ الله عَنْهُ يَقُولُ الدِّينَارُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمُ بِالدِّرْهَمِ. فَقُلْتُ لَهُ فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَا يَقُولُهُ فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَأَلْتُهُ فَقُلْتُ سَمِعْتَهُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ أو وَجَدْتَهُ فِي كِتَابِ الله قَالَ كُلَّ ذَلِكَ لَا أَقُولُ وَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنِّي وَلَكِنْ أَخْبَرَنِي أُسَامَةُ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا رِبًا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ**» .

للسداد مقابل زيادة مبلغ الدين، فهذا هو ربا الجاهلية الواضح والمذكور في الآية، بأن يوصي الدائن أن ينظر أوضاع المدين، فإذا كان لديه ظرف طارئ يمنع السداد فعليه أن يمهله بعض الوقت بدون زيادة على المبلغ الأساسي، [فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ] [البقرة: 279]، أما إذا كان عجزه عن السداد لأوضاع ثابتة بأنه يواجه أزمة شديدة، فقد أوصى الخالق بالتصدق عليه بطرح جزء من الدين وإمهاله الباقي لحين تيسر أموره. أما إذا كان المدين مماطلا ولديه القدرة على السداد، فعلى الدائن الشكوى للقاضي لإجباره على الدفع، أما زيادة مبلغ الدين لقاء زيادة وقت السداد فهذا محرم بنص القرآن. وقال أبو صالح إننا لا نمارس إطلاقا أي معاملات ربوية بالنسيئة المحرمة، كما إننا لا نقرض من يحتاجون للغذاء أو الكساء أو الدواء بل نعطيهم مما آتانا الله على قدر الممكن، ونقول لهم الكلام الحسن وندعو لهم بالبركة، ونغفر لهم أخطائهم علينا إذا ألحوا في السؤال أو طلب المزيد بالإلحاف.

والمقترضون من لدينا أكثرهم ممن يريد المال لاستثماره والحصول على فائدة منه، ثم إعادته إلينا في موعده، وضرب على ذلك مثالا عن رجل كَلَّ مِن العمل أجيرًا لدى مزاع الآخرين، ووجد أرضا يريد شرائها ليعمل فيها مع أسرته ويأكلون من ثمارها، فإذا كان لديه فقط أربعمائة ريال وسعرها ثمانمائة ريال، فيطلب منا قرضا بالفرق على أن يسدده على خمس سنوات في كل سنة مائة وخمسة عشر ريال، علما بأن صافي ثمرة الأرض بعد النفقات تزيد عن مائة وخمسين ريال في السنة، وبعد انقضاء المدة وسداد ما عليه تصبح الأرض ملكا خالصا له ولذريته وورثته لا يشاركه فيها أحد. وقارن هذا مع ما عمله ذلك المدعي كمال الدين، بأن لا يقرض الشخص ولكن يدخل معه شريكا بنصف الأرض، ويأخذ حصته من الثمرة حتى يشيب الغراب ويبلى التراب، فأيهما أفضل للمقترض؟! أن تصبح الأرض خالصة له بعد سنوات قليلة، أو أن يبقى مع ذلك الشريك المستغل، الذي يرفع صوته بالتسبيح بعد صلاة المغرب كل يوم، بينما يتحين الفرصة للقفز على المزارع لأخذ النصف الآخر من الأرض وإعادته ليعمل أجيرًا، متى ما سنحت الفرصة.

أجابه الوالد أن ذلك يعتمد على تقدير المخاطرة، فهذا نوع من المضاربة وليس المداينة، فإذا ساءت الأحوال وأصبحت الأرض بوارا أو غار ماؤها فإنه وشريكه سيقلبون كفيهما على ما أنفقوا فيها، ولكن المزارع لن يكون ملزما بدفع أقساط لعدة سنوات، بل سيتحمل معه الشريك جزءً من الخسارة، وقد لا يمكن إعادة بيع الأرض إلا بسعر زهيد يقل كثيرًا عن ثمن شرائها بعد أن تبين بوارها. ثم أردف قائلا له، بغض النظر عما يتبع شراء الأرض، أود أن أعرف كيف تسلمون أربعمائة ريال

ثم يعيدها على أقساط سنوية إجمالها خمسمائة وخمسة وسبعون ريالا، أفلا يدخل هذا في أنواع الربا. صمت أبو صالح هنيهة ونظر حوله ثم أجاب بقوله أريدك يا ابن خثلان أنت وأهلك وكافة البلدة أن تعرفوا أني حريص على آخرتي أكثر من حرصي على دنياي والله شهيد على ذلك، وأنا أضع «بيني وبين جهنم مطوع»، ولقد تفادينا إعطاء المزارع مالا، وإنما كتبنا عليه أنه اشترى نصف المزرعة بمبلغ خمسمائة وخمسة وسبعين ريالا، وحددنا الأقساط والآجل، ثم شرينا من المالك ودفعنا له القيمة من يدنا إلى يده.

أجابه الوالد: «المطوع» لدينا هو من يرشد الناس إلى صراط الله المستقيم متطوعا لا يقبض أي أجر على عمله الخير، أما من يفتي الناس بالحل والحرمة مقابل الدراهم فإن فتواه تلزم نفسه ومن دفع أجرته ولا تلزم عامة المسلمين. تبسم الرجل وقال: يبدو أنك صرفت النظر عن تعلم الحسابات وتريد الآن تعلم فقه البيوع والصرف، ولا بأس في ذلك وسيأتي إلي غدا رجل من الأفلاج يريد قرضًا ماليًّا ومعه صديق، ويحضر مطوعنا أبو حسين وسنبحث جميعًا في أنسب الطرق الشرعية لإتمام القرض، ويمكنك الحضور والاستماع ولكن بدون أي حديث منك. امتلأ قلب الوالد سرورا لحضوره جلسة مناقشة بعض الأمور التي قرأ عنها ولعله يتمكن من فهم التطبيق العملي أو شرح المصطلحات الغامضة عليه، وطلب من الرجل أن يسمح للمؤذن بالحضور معه فوافق.

التحريم والتحوط:

في اليوم التالي وصل مع أبي عثمان إلى محل الصرافة باكرًا، وبعد قليل جاء رجل من أهل الأفلاج ومعه أحد معارفه من أهل الحريق، وهو الواسطة التي تعرف بها على أبي صالح الصيرفي، كما حضر لاحقا رجل يقال له أبو حسين اتضح أنه مطوع محلات الصرافة، ويفتي لهم بما هو محرم تماما لتجنبه، أما ما فيه شبهة شرعية فعادة ما يجيزه على أساس عدم ثبات صحة حرمته.

رحب صاحب المحل بالقادم من الأفلاج ودعاه لتناول العشاء مساء الغد، فاعتذر لرغبته العودة إلى بلدته سريعًا، سأله عن لزومه فأفاده أنه بحاجة إلى ألفي ريال دينا على أن يعيدها في تمام الحول، وأجاب عن سبب حاجته فأفاد أن أحد أصدقائه في حاجة لمبلغ ثلاثة آلاف وليس معه إلا ألف ويريد استدانة الباقي له، لأن الرجل لا يحب أن يعرف أهله عن وجود ظرف طارئ لديه، ولم يتمكن من بيع شيء من الأملاك لأن أسعارها متدنية بعد هجوم ابن رشيد على المنطقة العام الماضي وقيامه بقطع النخيل وحرق المنازل، وإن الملأ هناك متخوفون من عودته للهجوم،

وبخاصة أنه في معارك مع أبناء الإمام عبد الرحمن في الوشم والمحمل، بل حاول الهجوم على الرياض، وإذا نجح في ذلك فسوف يوقع أشد العقوبة بمن ساندوا آل سعود، لذا فالبعض باعوا أملاكهم ويشترون في الأحساء والبعض الآخر يشترون في البصرة، حيث الأمور ساكنة في حمى الدولة العثمانية. شكره أبو صالح على أريحيته ودعمه لصديقه ودعا له بالبركة، ثم استفسر منه إذا كان يريد الألفين عملات فضية أو جنيهات، فأفاده أن الذهب أسهل عليه في الحمل بسبب بعد مسافة السفر. قال له سنعطيك ما يعادلها بالجنيه الإنجليزي، لكن مرافق طالب القرض قال: أن شراء الذهب بالفضة لأجل قد يكون معناه النسيئة في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي أورده ابن عباس، أجابه المطوع سريعا أن ذلك حينما يكون الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة، أما إذا اختلفت الأصناف فلا بأس.

ساد الصمت لحظات وبدا كما لو أن الصفقة ستتم، ولكن أبا عثمان سارع بالقول أن النقدين شيء واحد ويطبق عليها وجوب أن تكون: «هاء وهاء»[1]، تجهم وجه أبو صالح ونظر إلى الوالد الذي ظل صامتا حسب شرطه معه، أما أبو عثمان فلم يعلم عن شرط السكون، عند ذاك بادر المطوع قائلا للمؤذن: أن العملات المسكوكة تختلف عن بعضها، فالريال الفضة العثماني ليس مثل الريال الفرنسي الذي يوجد منه أنواع مختلفة، ولكل منها سعر مختلف حسب مقدار الفضة فيها، وكذلك الأمر على الجنيهات حيث بعضها تبلغ المخلوطات في السبيكة نحو العشر من مقدار الذهب، والبعض الآخر أكثر من ذلك أو أقل. أصر أبو عثمان على رأيه بأن النقدين لا يجوز فيها إلا البيع يدا بيد وبدون تأجيل لأنها صنف واحد، غضب المطوع وقال، إذا كان كذلك فأنت ترى أن الحنطة هي نفس الشعير أو الزبيب، ولابد أنك تخلط بين الريالات المنوعة التركيب أو حتى بينها وبين الجنيهات فليس الذهب فضة. احتد أبو عثمان قائلا: أن الحديث واضح: «أوه أوه عين الربا»[2] وهذه معاملة بيع ربوي لا تجوز، ولابد من عدم «تتبع الشبهات» لتحليل ما حرم الله.

---

(1) يعني الحديث الذي أخرجه البخاري وفيه إن: مَالِك بْن أَوْسٍ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ τ يُخْبِرُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ رِبًا إِلاَّ هَاءَ وَهَاءَ**». وقوله : (إلا هاء وهاء) قال ابن الأثير: هاء وهاء هو أن يقول كل واحد من البيعين: هاء فيعطيه ما في يده كالحديث الآخر : «**إلا يدا بيد**» يعني مقابضة في المجلس وقيل : «خذ وأعط».

(2) يقصد الحديث الذي أخرجه البخاري عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي τ قَالَ: «جَاءَ بِلاَلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ =

انفرجت شفتا أبي حسين في حركة غيظ تشبه ابتسامة السخرية قائلاً، هل صح عندك أن «أوه» تخرج من «مشكاة النبوة»، أن الأصل هو أن كل المعاملات جائزة إلا ما ثبت يقينا حرمته بآيات قرآنية صريحة، أو أحاديث نبوية صحيحة، أما الاحتياط لتجنب الشبهات أو لسد الذرائع فذلك يؤدي إلى أحكام لا تنطبق تماما مع شرع الله، بل تؤدي إلى فتنة الناس عن الدين، كما قال المصطفى: «**أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ**»[1] حينما أطال القراءة في صلاة العشاء، حتى قطع بعض الصحابة صلاتهم وذهبوا من المسجد، فهل زيادة قراءة القرآن ليست من العمل الصالح؟! الذي اتهم بسببه معاذ بالفتنة وهي أشد من القتل. ساد الوجوم على الجلوس وقطعه طالب القرض قائلا إنه يريد طريقة أخرى، سارع المطوع بالعرض عليه أن يشتري بضاعة لأجل منهم ويكتب على نفسه سندا بالقيمة يدفعه بعد سنة، ثم يأخذ البضاعة معه للأفلاج ويبيعها هناك ويتورق (يستلم الفضة) ببيعها حاضرة هناك، رفض الرجل ذلك قائلا إنه ليس لديه ركائب لحمل البضاعة مسيرة ثلاثة أيام أو أكثر.

أخذ أبو صالح يحدق في الوالد وهو يحرك لحيته بأصابع يده اليسرى، بينما اندست يده اليمنى تهمز المطوع، عند ذاك وضع الوالد شفتيه عند أذن أبي عثمان وأسر له قائلا: أن الصراف قد اشترط على عدم الحديث والاكتفاء بالسماع، قرر المؤذن مغادرة الجلسة، ولكنه أشار بأصبعه للمطوع محذرًا إياه بالتقوى وتجنب الشبهات، أجابه الرجل بالدعاء له بالهداية، وأن يتجنب الغيبة، وذكره بما بلغه أنه يلوك بلسانه في ورع البعض ويتحدث عنهم بأمور باطلة، وقال إياك ولحوم العلماء فإنها مسمومة.

غادر أبو عثمان المحل وهو يقول: العلماء لا يأخذون الدراهم مقابل الفتوى، وإنما يقوم بذلك المتكسبون بالدين، وهؤلاء ليست لحومهم مسمومة بل أفكارهم، ويلزم على الجميع الحذر منهم، وتنبيه عامة المسلمين

بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ «**مِنْ أَيْنَ هَذَا**». قَالَ بِلاَلٌ: كَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ، فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ، لِنُطْعِمَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**أَوَّهْ أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا عَيْنُ الرِّبَا، لاَ تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْرَ بِبَيْعٍ آخَرَ ثُمَّ اشْتَرِهِ** ».

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب «الأذان» باب «من شكا إمامه إذا طول» حديث (705)، ومسلم في كتاب «الصلاة» باب «القراءة في العشاء» حديث (465) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. ونصه: «سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله الأَنْصَارِيَّ قَالَ أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أو النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أن مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ- أو فَاتِنٌ ثَلاَثَ مِرَارٍ - فَلَوْلاَ صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ»

لأخطارهم على العقيدة الإسلامية والتوحيد. قال المفتي المطوع- غير المتطوع: هداك الله يا أبا صالح، لو علمت أن هذا الآفة عندكم ما حضرت، إنه من معشر يسيئون الظن بأهل القبلة، ويديمون التربص بكل قول أو عمل ويؤولونه نحو التكفير بقصد إعلاء قدرهم عند الناس سواء العامة أو الأعيان، ويدَّعون أنهم الأكثر ورعًا وحرصا على الدين، إنهم يتتبعون الشبهات ويحتاطون لتفاديها، ويحرمون على أساس التحوط، وبذلك يمارسون الغلو في الدين الذي أمر الله أهل الكتاب قبلنا بتجنبه قائلا: **[يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ]** [النساء:171]. وهم يتجنبون قول الحق الذي أمر الله به، ولو أن أحدهم قال: لا أدري فهو خير له من الإفتاء بالتحريم بدون دليل كاف، وإضافة إلى ذلك فبعضهم يزيد المسلمين نفورًا عن الدين بممارسته الخاصة، مثل أن يقوم أحدهم بعد الصلاة بإلقاء كلمة يظن أن فيها خيرًا وهي من عامة الكلام الذي يعرفه حتى الصبيان.

وإذا غادر المسجد أحد لحاجته زعق قائلا: أن من يعرض عن ذكر الله فإن له: **[معيشة ضنكا]** ويحشره الله يوم القيامة أعمى، وهم بذلك يضربون عرض الحائط بقوله تعالى: **[فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض]** ولكنه يرى أن ترك الاستماع إلى كلامه الأخرق هو إنقاص لقدره عند الناس، وهو يريد «العلو في الأرض». لقد نسي ذلك الشخص وأمثاله إنهم ليسوا خيرًا من رسول الله، الذي انفض عن الاستماع لبقية خطبته بعض الصحابة عند وصول القافلة التجارية يوم الجمعة، فهل قال لهم: إنكم في جهنم معرضون ذكر الله؟ لم يقل ذلك بل نزل عليه الوحي: **[إن ما عند الله خير من اللهو والتجارة]**. أن استمرارهم في تنفير الناس من المساجد ومن شرع الله، والتوسع في تحريم أشياء غير ثابت حرمتها قطعيا ولكنها مكروهة أو مشتبه بها، هو أكبر خطر على العقيدة الإسلامية والتوحيد، ولابد من الإنكار عليهم حتى لا يندفع المسلمون نحو النفور عن دينهم.

اكتفى الوالد بما سمعه وما رآه في ذلك المجلس، وأصابه النفور من ممارسات البعض وأعمالهم المتنافية مع الضمائر الحية، هب واقفا مستأذنا في المغادرة، فحياه أبو صالح، وكلفه إبلاغ سلامه وتحياته لأهله. رغم ذلك بقي هاجس العمل في مجال الصرافة والخدمات المالية ولكن بالشك الذي يبعد النفس عن الوقوع فيما لا يرضي الله، بقي ذلك في نفسه واستمر حتى أواخر حياته، وسيرد في هذه السيرة ما قام به من أعمال وأنشطة تجارية مقاربة لذلك أثناء وجوده في الحجاز، ثم في بورت سودان وعدن وكراتشي. لقد حضرت شخصيًا نقاشا بينه وبين اثنين من أصدقائه في مكة المكرمة بعد هذه الواقعة بنصف قرن، حينما تجادل الاثنان حول محل صرافة يقع في أحد أسواقها، مما سنذكره في حينه.

كما كان الوالد معجبًا بما قام به «آل شومان» من تأسيس أول بنك عربي[1] في بيت المقدس فك الله أسره من الصهاينة المجرمين، وكان دائم التردد والتعامل مع فرعيه في جدة وبيروت، وله أصدقاء في الإدارة يناقشهم حول أهمية تنزيه عملهم عن أي شبهات شرعية. عندما عاد إلى البديعة في ذلك اليوم كان صدره مليئا بالكدر والضيق مما جرى، وقرر أن يزيد من فهمه للعلوم الشرعية وبخاصة في مجال البيوع والتمويل، لذا قرر استمرار رحلاته إلى محلات الكتب في البلدة والاستعارة منها أو الشراء، والاطلاع على ما لدى الأهل والأصدقاء من كتب في فقه المعاملات المالية. أخذت تراوده فكرة الإعراض عن العمل في مجال الصرافة، والتوجه إلى إنشاء محل متميز يجلب فيه المطبوعات والدوريات من داخل البلاد أو من الخارج ويستطيع أن يمارس فيه أعمال التوزيع والمتاجرة كما يتيح له زيادة الاطلاع على مختلف الثقافات.

(1) هو البنك العربي: بنك فلسطيني ثم نقل إلى الأردن وأصبح بنكا أردنيا، أسسه عبد الحميد شومان في القدس بفلسطين عام (1930م)، ابتدأ بسبعة من حملة الأسهم بقيمة خمسة عشر ألف جنيه فلسطيني، وبعد أكثر من 70 عاماً أصبح البنك مؤسسة عالمية وأحد أضخم المصارف العربية بأصول بلغت عشرات المليار من الدولارات. وتنتشر فروعه اليوم في خمس قارات حول العالم.

حال الكتب والمطبوعات في الحريق:

تختلف محلات الكتب في الحريق عن بقية المتاجر، حيث تتسم بالفوضى وسوء الترتيب إلى درجة زائدة عن الحد المعتاد في القرى أثناء ذلك الزمن، حتى إنه لدى بعضها عمال لا يحسنون القراءة، ولا يعرفون عن أصناف الكتب ومواضيعها وإنما على كل مراجع أن يبحث بنفسه وسط الركام، ثم يبيعون بأسعار تخمينية تعتمد على نظرة العامل لكومة الأوراق المطلوبة، وعلى مهارة المشتري. وأهم الملاحظات على تلك المحلات ما يلي:

- كانت الطباعة رديئة في معظم الكتب والمنشورات الدورية (صحف ومجلات) وبعضها حروفه مطموسة وأحيانا كلمات بأكملها غير مقروءة، وبسؤاله عن ذلك أجابوه: أن المطابع في الهند والشام ومصر تستخدم معدات قديمة مثل ألواح الرصاص أو حروفه، وبعضها متهالك ولا يكاد يظهر عند الطباعة، كما يستخدمون أحبارا غير جيدة مقارنة مع الكتب المطبوعة في تركيا وأوربا، ولكن عددها قليل باللغة العربية. كما أن بعض المطابع ما زالت تستخدم الطباعة بألواح شبه حجرية، وتعتمد أساليب صف غير جيدة.

- بعض الكتب مخطوطة باليد وليست مطبوعة ويلاحظ عليها سوء الكتابة ونقص الحروف، أو حتى كلمات في بعض الأحيان، كما تعاني من تنوع أشكال الخط من الحروف الأوردية أو الفارسية، أما الحروف العثمانية والمصرية فهي جيدة، ولكن القليل يحسنون الكتابة بها. هناك مخطوطات كتبت على عجل، وبقلة عناية، وللحصول على مكسب مادي، ويواجه القارئ صعوبة تخمين الصواب فيما هو أمامه من كتابة غير واضحة. ويشار إلى أن الوالد قد أعجبته بعض الخطوط مقارنة مع خطه الذي اكتشف أنه غير جيد، حيث لم يقم بالتدرب على الخط كثيرًا منذ مغادرته الكتاب القروي.

- محلات الكتب مبنية بالطين وسقفها خشبي، وتصيب السماء أحيانا المحتويات مما يؤدي إلى تلف عدد غير قليل منها.

- تنتشر الهوام والقوارض في تلك الأماكن، مما يؤدي إلى الإساءة إلى الكتب والأوراق، وبعض منها توجد به حفر عميقة أنشأتها الأرضة أوعثة الورق، إما للغذاء، أو لجعلها

بيوتا لتفقيس بيوضها، وبخاصة أن معظم الكتب ليست مصفوفة بشكل رأسي وإنما توضع بعضها فوق بعض على الأرض أو الحجارة، وقليلا ما تكون مرتفعة على أرفف من الأخشاب المحلية الرديئة.

● تعاني كثير من المعروضات لدى أولئك «الكتبجية» من التمزق نتيجة عدم توفر الصف والتجليد الجيد، ولكثرة استخدامها من المستعيرين أو الملاك السابقين، كما أن نوعية الورق رديئة.

● عاني الوالد أثناء تجوله في تلك المحلات من عدم توفر كافة أجزاء الكتب في مكان واحد، حيث إنه وجد بعض أجزاء تفسير الطبري التي تزيد عن خمسة وعشرين في محل ولكنها متناثرة ولا تتجاوز ثمانية، وفي محل آخر وجد أجزاء، ولدى آخر جزء واحد، والبقية غير متوفرة، حيث إنها مشتراة أو مستعارة أو تالفة، أو لم ترد للبلدة مع قوافل التجارة التي لا تهتم كثيرا بالكتب.

● تعاني كافة تلك المحلات من سوء الترتيب مما يؤدي إلى صعوبة إيجاد الكتاب المطلوب، فالعامل يعلم بوجوده ولكنه لا يستطيع تحديد مكان تواجده وسط تلك الأكوام المكدسة بطريقة غير منظمة، وعلى المشتري أن ينفق كثيرا من الوقت والجهد لنبش المحل ومحاولة العثور على غايته.

بعد الإشارة إلى كل تلك السلبيات، فقد كانت محلات الكتب تحوي ثروة كبيرة من المعلومات المفيدة، وقد وجد الوالد فيها معينا لا ينضب من المعرفة والعلوم المختلفة، وكان يسره أن يمضي الوقت في البحث داخل المحلات عن الكتب المفيدة، ثم يستعير شيئا منها للقراءة في المنزل، أو لشراء المهم منها بقصد الاقتناء وعمل مكتبة منزلية مصغرة. أخذ ينهل من تلك المصادر ويشبع حاجته للحصول على المعرفة التي لم يجدها في كتاتيب الحريق، كان أول ما ركز عليه هو كتاب الله حيث لاحظ وجود، طبعات هندية بحروف أوردية ولكن لا يصعب قراءتها بسبب حفظ معظم الآيات وامكانية تخمين شكل الكلمة بالعربية، رغم أنه في ذلك الحين كان الخط الأوردي يختلف كثيرا عن العربي.

أما المصاحف باللغة الفارسية فقد كانت قريبة كثيرا من الحروف العربية، وكانت طباعتها أجود وحروفها واضحة والورق ليس سريع التمزق. المصاحف المطبوعة في العراق والشام ومصر كانت على معدات بسيطة ومعظمها غير مكتمل وينقص منه صفحات عديدة، كما

يختلف الخط المصري عن بقية الخطوط بشكل طفيف ولكنه مقروء إذا سلمت أوراقه من التلف. وقعت يده على أحد المصاحف العثمانية التي يبدو أنها طبعت في ألمانيا وبمعدات متطورة، حيث كتب عليه: السلطنة العثمانية ثم إشارة إلى «هايد لبرغ» التي علم أنها مدينة في ألمانيا وشركة لصنع مكائن الطباعة، لقد كان ذلك المصحف ذا طباعة جيدة، والحبر متجانس في كل الأسطر، والحروف ذات شكل بديع يسهل قراءتها، والورق من نوعية قوية وناعمة، والمصحف له غلاف مزين بالأشكال والرسومات الهندسية، وبأحبار ملونة، وهو مكتمل الأجزاء وزخرفت صفحاته الأولى بخطوط ذات نوعية فاخرة. لقد كانت المشكلة الوحيدة في ذلك المصحف هو سعره الباهظ حيث طلب البائع فيه ليرة ذهبية كاملة، وكان لا يسمح بإعارته قط، ويحفظه في لفافة من القماش القطني لحمايته من الغبار والهواء. حاول إقناع والده باقتنائه لاستخدام الأسرة والأقارب والأصدقاء، ولكنه أجابه: أن كلام الله ليس في القراطيس، ولكنه في صدور الذين آمنوا. وشعر الوالد بالاقتناع بالاكتفاء بالمصاحف العربية والأوردية.

اطلع أيضًا على كتب في تفسير القرآن، وكان أحدها من تفسير البغوي[1] وكانت تلك النسخة ممزقة بعض صفحاتها، وقد استفاد من معرفة تفسير آيات معينة، وأسباب نزولها ومعاني كلماتها، التي يصفونها أحيانًا بالغريبة، وشعر أن كلام الله فصيح واضح وليس فيه غريب، ومع تلك الاستفادة إلا أنه تألم من تأويلات مختلف عليها وتركز أحيانا على رفع قدر أشخاص أو الحط من آخرين، وهي تأويلات مغرضة، والبعض منها تسرب إلى الفكر الإسلامي عبر تأويلات إسرائيلية على مختلف العصور. والمدهش عندما يصر البعض على صحة تأويله لكلام الله رغم أنه سبحانه قد حكم أن لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ويعرضون عن التأويلات الجانبية. أعجب الوالد كثيرًا بتفسير ابن جرير الذي اطلع على مخطوطة منه توضح بيان بعض سور المفصل، ومعلوم أن الطبري قد وضعه في نهاية القرن الثالث الهجري، وهو من القرون المشهود لها بالخيرية، أما ما وقعت عليه يده من تفاسير وضعت في القرنين السابع والثامن الهجري بعد الغزو المغولي الشرس فقد حوت تأويلات سلبية ونقل عن بعض محبي الإساءة للغير، حيث شاهد أن المعني

(1) البغوي: (436 - 510 هـ = 1044 - 1117 م) الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنة، البغوي، فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان، بين هراة ومرو. له مؤلفات عديدة منها تفسيره المسمى: «لباب التأويل في معالم التنزيل».

بالشجرة الملعونة في القرآن (سورة الإسراء: الآية60) هي شجرة بني أمية، أو أن آية: [يؤتون الزكاة وهو راكعون] يقصد بها الإمام علي بن أبي طالب حينما كان يصلي فجائه سائل فمد له يده وفي أحد أصابعها خاتم فضة ليأخذه.

لم يسترح للاطلاع على كثير من التفسيرات التي تزيد عن عشر لبعض الآيات، أو تعدد المسائل التي تبحثها الآية الواحدة والمختلف عليها، وبعضها لا يتجاوز حشو الكتب بآراء في غير محلها، وتستند إلى روايات إسرائيلية أو لمغرضين بقصد الإساءة إلى أحد من الصحابة، أو رفع قدر أحد من ذوي السلطة والنفوذ في العصور المختلفة.

الوعي الشرعي:

أهم ما استغرق وقته بعد كتاب الله هو أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد وجد نسخة بالية من صحيح البخاري، لقي عناء شديدا أثناء قراءتها سواء من وضعها العملي شبه التالف، أو من صياغة وسرد الأحاديث بطريقة لا يسهل فهمها لمن لم يتعمق في دراستها. ووقعت يده في أحد المحلات على بعض أجزاء من كتاب ابن حجر «فتح الباري» شرح فيه صحيح البخاري، وقد كان ذلك أقرب للفهم وأيسر في القراءة، وقد عرف مسبقاً أن ذلك الكتاب هو أصح ما بين أيدينا بعد القرآن الكريم، وإن كانت عليه بعض ملاحظات مثل قبوله أحاديث من قال فيه تعالى: [ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا] ويبدو أن البخاري رحمه الله قد تنزه عن جرح وتعديل الصحابة واعتبرهم جميعا عدولا بغض النظر عما جرى منهم.

وكان كثيرا ما يتأسف لما قام به من ذكر بعض من يدرجون ضمن التابعين أو تابعيهم بوصف بعضهم أنه مدلس أو يخلط أو وضاع وغير ذلك من الجراحات التي تستدعي رفض أحاديثهم ولم يدرجها في الصحيح، الذي استبعد منه كل شبه في السند أو المتن، وترك الحكم النهائي للقارئ العارف بتاريخ رجال الإسلام في القرون الأولى، وبذلك فإن صحيحه لم يشمل سوى نحو ستة آلاف حديث إذا حذفنا المكرر، حيث ورد بعضها في أبواب مختلفة مثل الصلاة والزكاة، وهي في مجملها متفق على صحتها ما عدا شواذ قليلة أشار لها العلماء.

أما منهجه في استبعاد الأحاديث الضعيفة فيغبطه عليه أقدر الأكاديميون في أرقى الجامعات العالمية، ومع ذلك لم يسلم من القدح فيه وادعاء أنه لم يراع الشروط التي وضعها بنفسه، وأسقط أحاديث تنطبق عليها شروطه، وادعى كتاب أنهم استدركوا عليه أخطاء، ثم جاء آخرون بعدهم كتبوا المستدرك على المستدرك، ثم تبعهم من ألف مستدرك المستدرك على المستدرك، حتى قيض الله للأمة من نقض أول كتب المستدرك للنيسابوري، وأثبت أن كل (جميع) الأحاديث في المستدرك الأول ضعيفة، ولا ينطبق عليها شرط البخاري، وبالتالي تهافتت وسقطت كل ادعاءات الاستدراك، وبقي صحيحه كما هو منذ القرن الثالث الهجري وحتى الآن مشهودا له بالدقة والعناية بكلام خاتم المرسلين، و قد قرأ في بعض الأوراق أن هناك طعونا على عقيدة البخاري تخالف آراء الحنابلة، وبخاصة في مسألة «خلق القرآن» كما تسربت إلى محلات الوراقين من الحريق منشورات من البحرين، يطعن فيها الرافضة على الإمام أبي إسماعيل لأنه لم يصحح الأحاديث التي تمجد أمير المؤمنين علياً وتضعه في منزلة فوق بقية الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة المقربين، وتقربه من درجة النبوة.

لقد سرني كثيرًا أن أستمع في مجالس والدي رحمه الله في سبعينات وثمانينات القرن الهجري الماضي نقاشًا صميما علميا حول ذلك الكتاب المشهود له بالدقة والعناية، مع عدم الإعراض عن الأحاديث التي لم يصححها البخاري، واعتبار أنها جميعا ضعيفة. اطلع في تلك المحلات على صحيح الإمام مسلم، وهو يتفق مع سابقه في بعض الأحاديث، ولكنه وضع معايير خاصة له لاعتماد صحة الحديث وسار عليها، وبعضها قد يختلف عن أسلوب البخاري في اعتماد صحة الحديث.

أما مسند الإمام أحمد فقد حوى عددا كبيرا من الأحاديث التي اطمأن إلى صحتها بناء على المعنى، حتى أن كان بعضها مشوش السند، وعلى أساس أنها تخص مسائل «الترغيب» في العمل الصالح و الترهيب من السيئات، ولم يحرص كثيرا على تفاصيل السند إذا كان مرفوعا أو مرسلا أو منقطعا، ولذلك لم يسم كتابه صحيح ابن حنبل. وتذكر بعض الروايات أنه علم ابنه ألف ألف حديث كلها ضعيفة، ولا يمكن إسناد شيء منها إلى النبي إلا ما ورد في كتابه الذي حوى أقل من ثلاثين ألف حديث.

لقد كثر التدليس والكذب على رسول الله، ولكن الله سخر رجالا مثل هؤلاء الثلاثة من السلف الصالح قرون الخير ونقحوا وغربلوا وفرزوا كل ذلك، ووضعوا لنا منهج معرفة الأحاديث التي يصرف النظر عنها، وإضافة إلى هؤلاء الكبار لا ننسى ما أورده الإمام الشافعي في الأم والرسالة من أحاديث صحيحة، وكذلك بعض ما أورده الطيالسي من أحاديث، والإمام مالك في الموطأ أثناء القرون الأولى الصالحة.

لقد كان مجلس والدي يزخر بالنقاش حول مشكلات الأحاديث المدلسة، وعلى رأسها ما أصيب به الحرم الشريف في القرن الرابع (بداية عصور الشر) من قتل للحجاج بين الصفا والمروة وتحت باب الكعبة بعد أن جاءوا [آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا] فتسلط عليهم أبو طاهر الجنابي ومعه جيش القرامطة متذرعين بأقوال تافهة ومكفرين لعامة أهل القبلة ومستحلين الدماء والأعراض والأموال. أن أولئك المفسدين في الأرض لا يعرف لهم ملة ولا مذهب، وإنما يدعون أنهم من المحبين لآل بيت النبي وهم أعداء لهم ولكافة المسلمين. وبعد أن امتلأ بيت الله بالدماء نزعوا الحجر الأسود من الكعبة المشرفة وأخذوه معهم إلى شرق جزيرة العرب، مستندين إلى أدلة كاذبة وأقوال مدلسة، فعليهم من الله ما يستحقون هم ومن عمل مثل عملهم في القرون اللاحقة. وعلى الجميع الحذر من مدلسي الحديث، فهل نقبل رأيا من الذي وضع خطة غزو الحرم مؤخرًا وتعطيل الصلاة فيه وسفك الدماء، بل أن البعض للأسف يقدسون من يصحح نحو مائة ألف حديث ويرفعونه للدرجات العالية في خاطرهم، وقد دس السم في أحاديث

المصطفى وصحح بينها عشرة أحاديث تجيز تكفير أهل القبلة وسفك دمائهم، ثم ينخدع بها الغلمان السفهاء ويسيرون خلف زبانية الخوارج لنشر القتل والفتنة بين المسلمين، فكيف نحارب الفتنة والبعض في المنابر يقدس من أساء للإسلام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا كان هناك شك حول أوضاعهم فكفوا عن ذكرهم وتقديسهم في بيوت الله ووسائل الإعلام، ودعونا نعود للسلف الصالح في قرون الخير فذلك كاف.

جاء في المقام الثالث من الأهمية علم لسان العربية وهو ما يسميه الناس اللغة، وهي كلمة يونانية ولكن «الخطأ الشائع خير من الصواب الضائع» كما يدعي البعض. اللغة العربية هي أساس ديارنا وأهلنا، وبدونها لا نفهم كلام الله ولا نستوعب أحاديث نبيه، ومن لم يتقن لغته الشريفة التي تنزل بها خاتم كتب الله على خاتم الرسل، فلا خير فيه، لأن من لم يتفقه في الدين لا خير فيه حسب ما ورد في الأثر. وضعف المعرفة بلسان العرب وكلامهم يؤدي إلى ما نراه اليوم من ضعف إدراك مقاصد الإسلام وأحكامه، مما يجعل البعض يكثر التساؤل في تلك الأمور الواضحة حتى للصبية الذين يحسنون القراءة والفهم. ومع كل ذلك فإن التنطع في تطبيق قواعد النحو، والإصرار على إلزام الآخرين بالكلام بأسلوب يتماشى مع بعض فلاسفة اللغة، وبخاصة من الشعوب غير العربية الذين تباروا في نقض آراء بعضهم بقصد التعالي عند الحكام والعامة، أن تلك الممارسات لا تخدم لغتنا الفاضلة. لقد غاص والدي رحمه الله في أكوام من المطبوعات والمخطوطات التي تتحدث عن أصول العربية، وفهم المبادئ الأساسية لها والتي بدونها يتحدث المرء بلكنة معوجة.

رغم النقص والتلف في مصادر المعلومات لدى الوراقين في الحريق، فقد تمكن من تثقيف نفسه وإدراك المبادئ الأولية لقواعد تركيب الجمل ونطق وكتابة الكلمات حسب موقعها من الإعراب. وقعت يداه وعيناه واستوعب فكره ثلاثة من الكتب التي تصادف وجودها لدى بعض المحلات رغم تلف أجزاء منها، وهي البيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرد، ولسان العرب لابن منظور، وقد احتوت على معلومات مفيدة، وتعلم منها أسس الكتابة والمحادثة العربية، حيث تعرف على ما لم يتعلمه من كتاتيب القرية، مثل تقسيم الكلمات إلى أسماء وأفعال وحروف، وأن الأسماء قد تكون فاعلا أو مفعولا به أو علما، والأفعال حاضر (مضارع) أو ماض أو مستقبل، وهناك الحروف مثل الجر، كما تعلم أن الجمل تتكون من مبتدأ وخبر لكي تكون متكاملة ومفيدة للمستمع والقارئ.

لقد عرف الأسلوب الذي أمر به سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه وأرضاه، لكي ينحو على نحوه أبو الأسود الدؤلي

وينهي كتابه في قواعد اللغة العربية، الذي لم يكمله إلا بعد مقتل أمير المؤمنين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب بأكثر من عشرين سنة، وأصبح منهجًا لكافة من جاء بعده، ثم أكمل بعد ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه الذي كان يريد أن يتفوق على أستاذه، وبدأ يدخل على قواعد اللغة تفاصيل بعضها طيب ومقبول والآخر قد يكون لا داعي له، ثم جاء بعد ذلك الكسائي والفيروزأبادي وابن درستويه ونفطويه اليمني، وزادوا في تلك التفاصيل. علم من قراءته عن النزاع بين أهل النحو في البصرة والكوفة، وكان يحبذ اجتهادات البصريين لأنها أقرب إلى جذور العربية من أقوال أهل الكوفة الذين كان كثير منهم من غير العرب الذين درسوا قواعد النحو، وكان كل منهم يريد أن يتفوق على أقرانه ويحوز قصب السبق على غيره ويفوز بالمكانة العالية.

كان مندهشا من تركيز علماء النحو على أقوال الأعراب في البادية، وأخذ كلامهم على أنه حجة لوضع قواعد اللغة، حيث كان يعلم عن الخلافات الواسعة في لهجات البوادي، حيث كان نطق البدو المترحلين جنوب شرق بلدته يختلف كثيرًا عن لهجة أولئك في شمال غرب القرية، وبالتالي، فإن البادية ليست هي معين أساس كلام العرب، بل تغلب عليهم لهجات بعضها شاذ لا يعتمد عليه. ضحك كثيرا على مثال يتردد في شأن مسائل الرفع والنصب والجر والمنع من الصرف، حيث يدرج بعضهم استشكال الأسماء الخمسة بما رواه أحدهم أنه سمع صبية عربية تحاول ملء قربتها بأنه قد «غلبني فوها أدركوا فاها ضعوه في فيها» حيث كان يعلم أن لا أحد من صبية أو فتيات البادية أو الحاضرة أو حتى مشايخهم يتنطع بمثل ذلك، وإلا لقال عنه الناس إنه «ذو جنة» وافرجوا عنه، حيث لا يلزم للرفع الواو، بل قد تكفي الضمة، وكذلك النصب بالفتحة كاف ولا يشترط الألف، وفي الجر يمكن الكسر بدل الياء، كان يعلم أن لهجة العرب في قريته وبواديها هو استخدام اسم الفم في هذه الحالة، كما أن مسألة المذكر والمؤنث التي أطالوا بحثها تبرز هنا، حيث القربة في بلدته تسمى عادة «صميل». أن اختلافات البصريين والكوفيين حول ملكية المؤنث كانت لا تروق له والمسألة تتعلق بمبادئ الإملاء أكثر منها بقواعد النحو للكلام العربي.

لقد تذكر وهو صغير كيف أنه عندما قال: «أعطني إياه» رد عليه دارس نحو معترضًا: «قل: إياها ولا تقل إياه» لأن هذه عبارة مؤنثة، ورد عليه فورًا إنه يقصد الرداء وهو مذكر. وبالطبع أعجب كثيرًا بالمبادئ الأساسية للحديث الفصيح بعيدًا عن التنطع.

وقفة مع ثقافة والدي الشرعية:

كان والدي يرحمه الله يتحدث دوما عن القدر الجزيل من المعارف التي تحصل عليها من تلك الأوراق المتناثرة في بعض المتاجر، وبخاصة القاموس الذي اشتراه ويحوي معاني الكلمات العربية والمعربة وأصولها، ونماذج من استخداماتها، وما وردت فيه من آيات قرآنية أو أحاديث شريفة وأبيات شعرية، وكذلك كتب الفقه التي اطلع على بعض أجزاء منها. كان بينها كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي، وكتاب «بداية المجتهد» الشامل مقارنة للمذاهب الأربعة مع التركيز على المذهب المالكي السائد في الأندلس والمغرب، والمغني لابن قدامة. أعجبه في مجال الأدب كتب الشعر بأنواعه المختلفة من مدح ورثاء وافتخار وهجاء وعزاء واعتذار، وعرف المعلقات السبع في الزمن الجاهلي، وديوان البحتري والمتنبي وابن الرومي وأبي فراس، وحفظ أبيات عديدة في الحكمة والورع والغزل. اطلع على كتب آداب القصة والنثر مثل ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، ورسالة الغفران للمعري، والبخلاء للجاحظ، والأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد- مخطوط جزئيًّا- لابن عبد ربه، ورغم أن بعض تلك المواضيع غير مفيدة كثيرًا للمرء في دنياه ودينه إلا أنه استمتع بالاطلاع على ما فيها من طرائف وحبكات مشوقة. أما المجلدات والأجزاء المكتوبة في علم التاريخ فقد لقيت نصيبًا وافرًا من اهتمامه وبخاصة السيرة النبوية لابن هشام، والتي تعتبر أقدم ما كتب عن مغازي المصطفى عليه الصلاة والسلام وجهاده لنشر الدعوة الإسلامية ونبذ الجاهلية. أشير في تلك السيرة إلى أن أجزاء منها منقولة عن كتاب سابق لابن إسحاق، وقد سأل عنه كثيرًا، واستفسر من المتعلمين في قريته عن ذلك الكتاب وأفادوا أنه مفقود، إلا أن أحدهم أفاده أن سيرة ابن اسحاق هي نفسها سيرة ابن هشام بعد أن قام الأخير بإحداث تعديلات وتحسينات عليها، وقد أشار إلى ما سبق من باب الأمانة العلمية.

أما أجزاء كتاب منتظم التاريخ لابن الجوزي فقد حوى معلومات مفصلة عن الأحداث منذ بداية الخلق وحتى القرن الخامس الهجري، والتي حوت معلومات مفيدة إضافة إلى كوكبة من الأنباء المشكوك فيها، وأما أوراق من مخطوطة كتاب الوفيات لابن خلكان فلم تحتو فقط على تواريخ ولادة ووفاة أهم أعيان المسلمين والمعاصرين، بل تحتوي على سرد لوقائع حياتهم وتاريخ أعمالهم. اهتم الوالد أيضًا بتلك الأوراق والكتب المحتوية على سرد أحوال البلاد المختلفة وشعوبها وأراضيها وما فيها من نباتات أو مصادر مياه، وراق له كتاب معجم البلدان للحموي وصفة جزيرة العرب للهمداني الذي احتوى وصفا موجزا لمنطقة اليمامة من الناحية الجغرافية. وقعت في يده معلومات في مجالات عامة كثيرة منها

مقامات بديع الزمان، وكتاب في الفلسفة هو: «تهافت التهافت»[1] وقد جذبه العنوان أكثر من الموضوع الذي كان يعتبره مثل معظم معارفه من أعمال الكفر، وأقواله تبين له صعوبة فهم تفاصيل الأمر، ولكنه اطمأن للتعمق في قراءته حيث أن مؤلفه أحد علماء الفقه المالكي وقاض وطبيب ومصلح اجتماعي، وقد وضع الكتاب للرد على ما سبق به الإمام الغزالي من نقض وإسقاط فكر وقول الإغريق، ولكن ابن رشد ناقش نحو عشرين مسألة قالها الفلاسفة ولم يجد ما يخالف الشريعة الإسلامية بوضوح سوى ثلاث منها، وحتى تلك المسائل قد تعتبر من البدع وليست من الكفر البواح.

كان يريد التأكد من كنه أقوال الفلاسفة، وهل يستحقون القتل لما يقولونه؟ ولكنه لم يستطع فهم ذلك الأسلوب الغامض في الكتاب ولا التحقق من ادعاءات الفلاسفة. لجأ إلى أحد المعارف وتمنى أن يجد لديه تفصيلا عن حقيقة أفكار أولئك الإغريق حول الخلق والخالق والوجود وبداية النشأة للبشرية ونهاية حياتها. كان ذلك الرجل (عبد الرحمن) من أفاضل أهل الحريق علما وثقافة وخلقًا، يزور عمه زيد بين آونة وأخرى، حيث كان والده ذا علاقة عمل معه، وبعد أن أصابته الشيخوخة أصبح ابنه يراجعه في تلك الأعمال. وكان هذا الرجل يملك أحد محلات الكتب والمنشورات ويبيع فيه القراطيس وأدوات الكتابة وبعض مستلزمات الخط وألواح الخشب للكتاتيب وأصابع الطباشير. ومحله ذاك لم يكن على درجة عالية من التنظيم، نظرا لكثرة مرتاديه، إلا أنه كان في منزله مكتبة خاصة تحوي كتبا جيدة ونفيسة وذات طباعة وتجليد فاخر، ولكنه يأبى إعارة شيء منها لأي شخص، وسمعه ذات مرة يرد طالب استعارة بقوله: أن والده قد نبه عليه بوجوب عدم إعارة شيئين قطعيا وهم: «الزوجة والكتاب»، لأنهما خير شريكين في حياته إذا كانا صالحين.

وجده ذات يوم عند عمه زيد، وكان أحد أفراد الأسرة يستفسر منه عن إقامة والده في مصر التي ذهب إليها قبل أكثر من ستين عامًا بعد حملة خورشيد باشا، وموافقته على الهدنة لقاء سفره للإقامة في مصر، وترك نجد للحكم العثماني، وكان والده في ذلك الحين من صغار المرافقين للإمام حيث لم يتجاوز عمره العشرين، وبقي هناك نحو عشر سنوات حيث استمر في المعيشة هناك حتى بعد عودة الإمام إلى البلاد، بعد أن أقام أسرة ومشروع تجاري له، كما أنه استمر في العودة إلى مصر بعد وفاة زوجته لكي يقوم بإنهاء أعماله هناك، وفي مرتين اصطحب ابنه عبد الرحمن

(1) أحد مؤلفات الفيلسوف والطبيب والفقيه العربي: محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي.

لزيارة مصر. سأله أحد الحضور إذا كان الإمام عبد الرحمن قد سافر مع والده (فيصل بن تركى) إلى المنفى في مصر، أو أنه ولد هناك؟

أجابهم إنه ربما لم يولد إلا بعد العودة، نظرًا لأنه ما زال صغيرًا على أن يكون قد ولد هناك، أشار أحدهم أنه كان في مجلس الإمام قبل شهرين ولاحظ أنه يستخدم بعض الكلمات المصرية أثناء حديثه، أجابهم عبد الرحمن أنه شخصيًّا يدرج كلمات مصرية في حديثه مثل: «عاوز» أو «كويس» وذلك لكثرة استخدامها من قبل والده، كما أنه أحياناً يضيف كلمة «شيء» إلى بعض الأفعال مثل قول: «ما أعرفشي» اختصار وتخفيفًا من قول: «ما أعرف شيئا»، وأردف قائلا: أن والده أخبره أن بعض العمال المصريين الذين رافقوا الإمام فيصل أثناء وجوده في مصر قد عادوا معه للرياض واستمروا في خدمته، وربما بعضهم كان مرافقًا للأمير عبد الرحمن بن فيصل حينما كان صغيرًا، والتصقت في ذهنه تلك الكلمات.

تدخل الوالد في ذلك الحديث نحو ما يريده من زيادة المعرفة، فأشار إليه إلى أنه قد طالع كتاب التهافت لابن رشد في محله ولكنه صعب القراءة، ولم يستطع فهم بعض العبارات. بدت على محيا ذلك المثقف علامات الدهشة، وقال ماذا تريد من هذا الكتاب، فعليك أن تبدأ مع مواضيع أبسط للفهم وأيسر للاستيعاب، وقد شرح له الوالد أنه قد قرأ كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا وغيرها، كما اطلع على عدد من الصحف والنشرات الدورية ولم يجد أي صعوبة فيها، وقد استوعبها جميعا فيما عدا ذلك الفن الذي وجد صعوبة في فك طلاسمه.

جاءه الجواب بأن النسخة التي اطلعت عليها ربما إنها طبعة «الكستلية» وهي ذات معدات حجرية قديمة، وإن لديه في مكتبته المنزلية نسخة خاصة للمطبعة «الأميرية» أفضل من حيث قلة الأخطاء في الطباعة ووضوح الحروف، وتقارب الكلمات، مما قد يساعده في تقليل صعوبة القراءة ولكنه حذره من وجود تعقيدات في ذلك الموضوع بالنسبة له، ولم يشر إطلاقًا إلى مسألة البحث الفلسفي الذي كان غالبية أهل البلدة يعتبرونه كفرًا، وقد دعاه للحضور إلى مكتبته الخاصة يوميًّا بعد صلاة العصر حتى قبل آذان العشاء. بادر أحد شباب أسرة آل خثلان النابهين بسؤاله عن كيفية اكتساب الثقافة والمعرفة؟

فأجابه أنه يلزم توفر ثلاثة عناصر:

أولها القدرة على الحفظ وتذكر ما سمعه أو قرأه وشاهده.

وثانيها استيعاب ما حفظه وفهمه بدقة، ثم تحليليه والاستنتاج منه.

وثالثها هو إمكانية استرجاع المعلومات المحفوظة والاستنباطات المشتقة من معانيها والاستفادة منها في ترقية ذاته أو المحيطين به.

في اليوم التالي سارع إلى منزل عبد الرحمن فاستقبله ببشاشة وأثنى عليه قائلاً: إنه قد لاحظ قدراته الطيبة أثناء مشاهدته في مجلس العم زيد بن عبد الله، كما سمع تنويهات العاملين في محله عن حبه لطلب العلم والمعرفة وترقية القدرات لبحث مواضيع الفلسفة التي اعتبرها معظم المسلمين من الكفريات. سأله الوالد عن رأيه الشخصي في الفلسفة واذا كان يعتبرها كذلك؟

أجابه أن ذلك يستدعي أولا معرفة خلفية ذلك الأمر وأصوله وبداية نشأته، وهذا يصعب بحثه في هذا المجلس المفتوح، واقترح أن يجتمعوا في المسجد بعد صلاة العشاء للحديث في ذلك، ثم اصطحبه إلى غرفة مجاورة فيها أرفق خشبية وضعت عليها حقائب جلدية أو قماشية أو أغلفة ورقية في تنظيم جيد ورص متقن بعيدًا عن الأتربة والغبار وعوامل الجو أو الحشرات والهوام والقوارض، وكانت الأرفف مرقمة بشكل متسلسل بديع. عثر فورًا على ما كان يبحث عنه، وأحضر كتاب التهافت وناوله إياه.

قصة وعبرة:

اندهش الوالد من حسن مظهر الكتاب وغلافه المزين بالخطوط والنقوش الذهبية والفضية، كما أعجب بالطباعة الواضحة الحروف والمتراصة الكلمات والبديعة الإخراج. استأذنه في أن يمضي الوقت حتى المغرب للاطلاع على بعض صفحاته المرتبة جيدًا، ثم يغادر لشأن خاص بأسرته على أن يعود لأداء فريضة العشاء معهم لمناقشة خلفية الأمر. بعد ذلك عاد للمسجد مع الرجل وطلب منه أن يشرح له معنى اسم تلك المطبعة للنسخة الموجودة في المحلات ذات النوعية دون المتوسطة مقارنة بهذه النسخة. أفاده أن كنيسة روما قد أوفدت إلى مصر في القرن التاسع عشر رجلا من الطليان اسمه «كاستيلو» بغرضين أساسين هما: التبشير بالديانة النصرانية، وحث المسلمين للردة عن دينهم والدخول فيها، وكذلك الترويج للمذهب الكاثوليكي بين نصارى مصر وإقناعهم للعدول عن مذهبهم القبطي (أرثوذكسي) والدخول في كنف كنيسة بابا روما الأكبر.

وطلب ذلك الراهب مساندته بأمور مادية كثيرة بينها مطبعة يقوم فيها بإخراج منشورات وكتب للتوزيع على المسلمين والنصارى. لقد نجح ذلك الراهب في صرف بعض الأقباط عن ملتهم إلى مذهب الروم، ولم ينجح في شيء من ذلك مع المسلمين، وبعد أن تكالبت عليه الشيخوخة قرر

العودة لبلاده وباع المطبعة إلى ابن أحد الفقهاء الذي استخدمها لإخراج بعض الكتب، إلا أن معداتها القديمة كانت شبه متهالكة، وبعد ذلك وجد العمل جيداً فاشترى له والده معدات جديدة وسمى المطبعة على اسمه «جاهين» وبقيت المطبعة القديمة «الكستلية» تعمل بضع سنين حتى انقضت.

سأله الوالد إذا كانت تلك أول مطبعة في مصر فأجابه بالنفي قائلاً: أن نابليون عندما جاء لاحتلال مصر وانتزاعها من العثمانيين في نهاية القرن الثامن عشر أحضر معه من فرنسا مطبعة متوسطة، ومر في طريقه على صقلية ووجد من يعرفون الحروف العربية المصفوفة بسبائك معدن الرصاص، وأقام المطبعة لكي ينتج بها منشوراته وبياناته العسكرية للأهالي، وبعد مغادرة الفرنسيين تركوا المطبعة، ثم حولها أمير مصر إلى مطبعة مطورة، تنشر صحيفة مبسطة عن أحداث البلاد وأنبائها اسمها: «الوقائع المصرية» وتطورت بعد ذلك لتصبح: المطبعة الأميرية، ذات المستوى الجيد، ومن ثم انتشرت في مصر عدة مطابع جيدة كما في حلب وبغداد.

سأله الوالد عن أربعة أمور تتعلق بالفلسفة وهي:

من هم الإغريق أو اليونان؟

وما هي الفلسفة؟

وكيف نشأت وتطورت؟

وهل هي من الكفر أو البدع؟

أبدى عبد الرحمن سروره بعرض الأمر بشكل مرتب، وأفاد أن ذلك يجعل البحث ميسرا.

أما الإغريق، فهي حضارة ودولة نشأت في القرن السادس قبل ميلاد المسيح عليه السلام في المنطقة المساة الآن: «غريك» [اليونان] وهي خاضعة للدولة العثمانية حاليا، وكانت في أوج قوتها قد اتسعت لتشمل الساحل الغربي لبلاد الأناضول (تركيا)، وكذلك مقدونيا في الشمال وحتى صقلية غربًا، أما من الجنوب فقد تمكنت من ضم الشام ومصر إلى أقاليمها، حتى انتهت تلك الدولة عندما استولت عليها جمهورية روما ثم تأسست الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني قبل الميلاد، وزالت حضارة الإغريق التي ساهمت خلال أربعة قرون في تطور العلوم والفنون والآداب والفكر، طور الإغريق الهندسة الإنشائية وعلم الرياضيات، وأثبتوا حقائق مثل: أن العلاقة بين مساحة أي دائرة ونصف قطرها يربطها ثابت سموه «باي» حيث ط = حاصل قسمة 22 على 7

وهذا بغض النظر عن حجم الدائرة، كما أثبت عالمهم فيثاغورث أن المربع القائم على وتر المثلث ذي الزاوية القائمة لابد أن يساوي في مساحته إجمالي مساحة المربعين القائمين على الضلعين الآخرين للمثلث. كما اقترحوا أهمية استخدام العامل الموحد وهو «فاي» و يساوي(1،618) للحصول على مثلث بديع زينوا به مبانيهم التي ما زالت قائمة إلى الآن ويشهد عليها القاصي والداني لجمالها. لقد بدأوا أيضًا أول كتابة للتاريخ بواسطة هيرودوت.

أما غالينوس فهو عالم الطب الذي وضع الأسس العامة لعلاج الأمراض، وسارت عليها البشرية حتى طورها الطبيب المسلم ابن سينا بعد نحو ألف سنة، واستمرت تلك الأسس مدة ثمانمائة سنة بعد ابن سينا.

وفي مجال الطبيعيات تعرف العالم أرخميدس على قوانين الكثافة واحتسابها بدون الخلط السابق بينها وبين الوزن.

أما في مجالات الفلك والجغرافيا فقد كان لهم فيها باع طويل وإنجازات معروفة، وكذلك في الآداب وإن قصص هوميروس مثل الإلياذة والأوديسة ما زالت تجلب الانتباه إلى الآن. وقد استفادت الروم كثيرًا من حضارة الإغريق وأسست قواعدها العسكرية ونظام الحكم الديمقراطي على تلك المبادئ.

أما اليونان فهي إحدى مناطق الإغريق، وقد سكنوا في بلاد الشام فترة طويلة، وحفظوا لغتهم اللاتينية وأخذ منهم المسلمون بعض العلوم.

أحاديث ومناقشات فلسفية:

انتقل النقاش بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهي تعريف الفلسفة، وبشكل مختصر وعام فإن معناها: «**التفكير الحكيم**» أي أن يوجه المرء ذهنه للتفكير في كل ما يحيط به، ولابد أن يصاحب التفكير المعرفة والاطلاع والتعمق للوصول إلى نتائج صحيحة من التفكير والحكمة، أما التفكير العشوائي أو غير المرتب أو المتسرع أو بدون خلفية علمية كافية فإنه لا يعتبر فلسفة وإنما يسمونه «هرطقة» ويقوم بها البسطاء وليس الحكماء.

وفي عالمنا حاليًّا يسمون الفلسفة: «الكلام الفاسد» وذلك خطأ شائع للأسف، ولا يمارس الفلسفة عند الإغريق إلا نخبة من العلماء الذين بلغوا درجة فوق العلم وهي «الحكمة» التي يؤتيها الله سبحانه لمن يشاء من عباده، وكانوا لا يسمحون للبسطاء أو العامة بالبحث في أمور الحكمة، وإنما يقصرونها على من بلغ درجة عالية من القدرات «الذهنية والتعبيرية» ويسمونهم: «سفسطائيين» وأصبح البعض لدينا يطلقون عليهم مصطلح: «أهل الكلام» لأن حديثهم وكتابتهم تتميز بدرجة عالية من الدقة

رغم ما يشوبها من غموض لا يدركه البسطاء، وسبب تدني الفهم لدى بعضهم. اكتشف الإغريق في الأجيال اللاحقة أن تعليم شبابهم أسس التفكير الحكيم قاد في بعض الحالات إلى سوء استغلال تلك الأفكار من قبل بعض ذوي النوايا الشريرة الذين أخذوا يفكرون في طرق الحصول على أموال الناس بأساليب غير طيبة، لذلك طوروا تعريف الفلسفة إلى أنها: «التفكير الحكيم الأمين».

اتجه تفكيرهم بعد ذلك لتطوير علوم الحساب والكيمياء والفيزياء، وأدى ذلك إلى تحسين القدرات الصناعية وبخاصة في المجال العسكري، مما مكن الدولة أن توسع حدودها وتحتل بعض المناطق المجاورة أو حتى عبر البحر المتوسط تجاه مناطق في إفريقيا (قرطاج) أو في آسيا (طرابلس) مما رفع مستوى المعيشة في عاصمة الإغريق (أثينا) والمدن المجاورة لها، والتي تتمتع بحكم ذاتي شبه مستقل عبر وجود مجالس شعبية تضمن مشاركة الجماهير في اتخاذ القرارات، بهذا شعرت غالبية المواطنين بالرخاء والمتعة من طرق التفكير بالحكمة والأمانة.

السؤال الثالث كان يتعلق ببداية وتطور تلك الطريقة في التفكير، حيث قال عبد الرحمن: أن الفلسفة لم تبدأ في لحظة واحدة، وإنما تطورت تدريجيًّا عبر عدة قرون، ويكاد الإجماع على أن المفكر الإغريقي سقراط هو أول من وضع أسس الفلسفة، رغم أن هناك مؤشرات على أن الحضارة الصينية والهندية كان لها مساهمات في بدء أسلوب التفكير الحكيم. لقد كان سقراط يعمل سحابة نهاره في صنع التماثيل والأصنام المنوعة التي كان يعبدها الإغريق في ديانتهم الوثنية، بينما يقوم في المساء بتدريس بعض الصبية والشباب أسلوب التفكير الصحيح وطرق التعبير عن أفكارهم، وتقول بعض الروايات إنه كان يعمل ذات ليلة على ضوء القمر وينهي تمثالا لإله الحرب «مرخ» [أريس] الذي يسمونه في بلاد الإغريق «مارشي»[مارس]، وعندما تأمل السماء ذات النجوم الكثيرة المتنوعة.

سأل نفسه هل التفكير السليم يتماشى مع ادعاء أن هذه الاصنام التي أنحتها من حجر الصوان أو الرخام هي التي أوجدت هذا الكون، وهي التي تتحكم فيه، وكيف أن هذا الحجر يدفع عن قومه الهزيمة أمام العدو بينما هو غير قادر على الدفاع عن نفسه عندما أصفعه على قفاه؟ لقد أخذ يفكر بالأسلوب الذي يعلمه للأحداث، مَن أوجد هذا العالم؟ وعلم فورًا إنها ليست تلك التماثيل التي يعكف قومه على عبادتها.

بعد ذاك اتجه تفكيره نحو المصير النهائي للوجود، ماذا يحل بالبشر بعد الموت وإلى أين يتجه الكون في النهاية، علمًا بأن الإغريق كانوا

يعتقدون بتقمص الروح بعد الموت في حيوان أو إنسان آخر أفضل أو أسوأ مما هو عليه قبل الموت وذلك حسب عمله. فالشخص الصالح ستنتقل روحه إلى شخص أفضل والعكس، وفي المرحلة الانتقالية قد تذهب إلى حيوان راق (أسد) أو منحط (قرد) ريثما يتوفر لها جسد بشري ملائم لسابق أعمالها، وعلم أن هذه ترهات لا أساس لها، ولكن تفكيره العميق لم يصل به إلى أي نتيجة. أخبره أحد زملائه أن هناك قوما في الجنوب الشرقي للبحر المتوسط لديهم معتقد أوحي إلى جدهم الأكبر، وهو يجيب على أسئلته، وأنهم يسمون بنو إسرائيل ويوجدون في مصر والشام. كانت تلك البلاد خارج السلطة الإغريقية ذلك الزمن وخشي من الذهاب إليها، ولكنه طلب من بعض رفاقه الحكماء زيارة أولئك الناس وتزويده بأفكار عن معتقداتهم.

وصل الرفاق إلى فلسطين ولم يكن هناك نبي ولكن يحكمهم الملك (حزقيل أو ناحيم) وكانت أمورهم مرتبكة ونسوا: [**نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**] [المائدة- 20]، وبعد التعرف على مبادئ الديانة اليهودية، وأن هناك خالقا أوجد الكون والبشر وسوف يتوفى الجميع كلٌّ في حينه ثم ستحل القيامة والدمار للجميع، حيث يبعثوا للحساب وكل يجد جزاءه العادل إما بالذهاب إلى الفردوس أو إلى جهنم، بعد ذلك ناقشوا مع أهل الذكر إمكانية دخول الإغريق في ديانتهم فحدث الإشكال حيث أصر حكماء بني إسرائيل أن ذلك مقصور على ذرية يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ولا يريدون لغيرهم الدخول في ذلك معهم.

قالوا: إن البعث والحساب يتم في واد ضيق شمال أريحا ولا يريدون أن يزاحمهم فيه أحد، فهم العنصر السامي المحبوب لدى الخالق، وحتى بني عم جدهم إسماعيل بن إبراهيم لا يريدونهم الاشتراك معهم في عطايا الخالق، وبخاصة أنهم قد تعرفوا على بعض التجار الإغريق ولا يرتاحون للتداخل معهم على الأرض، ناهيك بأن يضايقوهم بعد البعث.

عاد الوفد إلى سقراط بنتائج مخيبة من نقاشهم مع ذرية يعقوب (إسرائيل) عليه السلام، لذا فقد قرر الحكيم أن يبدأ في إعمال فكره هو وطلابه للوصول إلى نتيجة توجد عقيدة للإغريق بواسطة التفكير العميق، وتتماشى مع أوضاعهم المعيشية، حيث جرى استخدام أسلوب التحليل والاستنباط الهندسي والرياضيات والحسابات الرقمية للوصول إلى نتيجة مفادها: أن هنالك خالقا واحدا، وهو المسير لكل الكون والبشر، وأن الناس سوف يبعثون بعد موتهم لتجد كل نفس ما عملت محضرا، ويكون الثواب والعقاب لكلٍّ على قدر عمله ونياته. لقد حث سقراط جهده وفكره وعلومه

لمحاولة التوصل إلى أمور ثلاثة هي: الوجود والأخلاق والعلوم، وكيفية التوجه نحو معرفة كافة تفاصيلها. وبعد سنين من الفكر الشاق اتضحت له عدة أمور أساسها أن هذا الوجود لم يحدث من تلقاء نفسه، كما لم يخلقه البشر وأصنامهم، إذ لابد أن هناك خالقا أنشأ هذا «الوجود من العدم»، ثم أخذ يتخبط بين مفهوم المعدوم والموجود وأيهما أثبت، وهل بالفعل كل موجود سيذهب إلى عدم، وأن هناك أشياء أزلية لا يلحقها العدم، ثم دخل في بحث علاقة الحركة بالوجود، وسبب الحركة في الانعدام.

إن ما توصل إليه لم يتجاوز ما فكر فيه حكما آخرون في عصره أو قبله، وحتى في زمن الجاهلية كان حكماء العرب يتحدثون عن أهمية معرفة الخالق على أساس أن البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير.

استمر سقراط في تفكيره الحكيم فوصل إلى نتيجة مؤداها استحالة أن يكون موجد هذا الكون والبشر والشجر والحجر أكثر من واحد، وأن الأصنام لا علاقة لها بالوجود فإن موجدها ومعدمها معروف! هنا بدأت الأقاويل تثار حوله، وانتشرت في البلاد بعض أفكاره، ورغم حكمته إلا أنه لم يفطن إلى اصطدامه بمشكلتين، أولهما أن البحث في الوجود يستدعي اتصالا بالخالق عن طريق رسول أمين وليس بالاستنباط، أما المشكلة الثانية فهي رجال المعبد العالي (برثنيون) الذين كانوا يحصلون على «العلو والمال» ثم يفسدون في الأرض. لقد أمروا سقراط بالكف عن أفكاره وعندما أبى حاكموه. لقد رفع الطاغوت الكبير في المعبد والذي يعتقد بتفوقه على البشر وأنه من الفئة المقدسة، رفع عقيرته قائلا ذرونا نقتل سقراط إنا نخاف أن يبدل الدين، وأن ينشر الفساد، لقد كانت الأصنام هي وسيلتهم الأساسية لادعاء التفوق والحصول على العلو والمال، وبالفعل أعدم سقراط بالسم.

قال عبد الرحمن إن هذه بإيجاز كيفية نشأة الفكر الفلسفي، أما تطوره فقد حدث بعد إعدام سقراط بتهمة الهرطقة وسب الأصنام، فقد تولى تلميذه النجيب أفلاطون تدريس «التفكير الحكيم الأمين» ولكن مع عدم التعرض للأصنام أو كهنتها من ذوي اللحوم المسمومة. ولكن النقلة الكبيرة في الفلسفة جاءت على يد أحد كبار الحكماء وهو أرسطو طاليس، الذي لم يتعرف على سقراط حيث بينهما نحو قرن من الزمان ولكن تعرف على أفكاره من أساتذته، علماً بأن كتب سقراط قد أحرقت قبل تنفيذ حكم الإعدام بحقه.

لقد شاهد أرسطو التطور العلمي والصناعي والمعماري الهائل الذي نتج بعد تطبيق مبادئ «التفكير الحكيم الأمين» مما أدى إلى تزايد قوة

الإغريق العسكرية والمالية. يعاب على أرسطو أنه خاض في مسائل الوجود وتخبط فيها، حيث أغرق التفكير في الموجود والمعدوم حتى اعتقد أن المعدوم أقوى وأثبت من الموجود، كما احتار في مسألة أن موجد الكون هو أقدم الأشياء أم لا؟ وما إذا كان هو القديم فهل سيستمر أو ينقضي قبل انعدام الكون، وهل القديم سيبقى إلى الأبد ويكون أزليًّا أم لا؟ قاده ذلك الفكر إلى معضلة صعبة وهي تعريف «الزمن» فلقد كان أسلافه يرون أن الزمن ينشأ من الحركة، وأن الجوامد لا تعرف الزمن ولا تشعر به، أما أرسطو فقاده فكره إلى أن الزمان يرتبط بالمكان، فعندما نقول: «صباح» نقصد أن الشمس موجودة جهة الشرق. وعندما نقول: «مطلع الشهر» يكون الهلال في جهة الغرب، وأما الشتاء فهو حينما تتجه الشمس أثناء مطلعها من جهة الجنوب الشرقي.

وهكذا ربط الزمان بالمكان، وأخذه تفكيره نحو مكان موجد الكون وطبائعه، وهل له أحاسيس، وهل يكره أو يتلذذ بأشياء مثل غيره؟، وذلك بالطبع من التفكير الخاطئ الذي نهينا في الشرع الإسلامي عنه لعدم التفكر في ذات الله لأنه يقود إلى الهلاك، وإنما حثنا الدين على التفكير في قدراته سبحانه. حاول سقراط الدخول في شطحات ذهنية مع بعض علماء الرياضيات والحساب والهندسة، عندما زعموا أنهم سيعرفون عدد حبات الرمال التي تملأ السماء أو تسد المسافة بين الكواكب، وأدى ذلك للإساءة إلى نفسه وطريقته. إلا أن ما يقدر له هو تركيزه على أهمية الأخلاق الفاضلة وعلى المعارف والعلوم، فقد أصبح لدى الإغريق بفضل أفكاره معايير إنسانية للتعامل الاجتماعي تعتبر جيدة بمقياس ذلك العصر، إلا أنها كانت تقوم على الطبقية واستغلال بعض فئات البشر لصالح فئة أخرى.

أما العلوم الزراعية والصناعية والمالية والعسكرية فقد تطورت كثيراً من قبل عدة باحثين ساهموا في النهضة العمرانية والحضارية للإغريق. أن استمرار أرسطو الحذر في مناقشة الأمور اللاهوتية، جلبت عليه سخط تلك الطبقة من رجال الدين الذي يكسبون قدرا كبيرا من المال والمنزلة الاجتماعية العالية، فقرروا الهجوم عليه ولكنه حظي بحماية أحد طلابه (الإسكندر) الذي منعهم من البطش به. لكن الطغاة انتهزوا سفر الإسكندر لمحاربة الفرس وبدأوا إجراءات محاكمة أرسطو تمهيدا لإعدامه بسبب تحرشه بمكانتهم، ولكنه تمكن من الهرب منهم.

أما سؤالك الرابع يا عبد الله عن عقيدة الفلاسفة الإغريق ومن درس على منهجهم من المسلمين مثل الكندي والفارابي وابن سينا فقد تأخر الوقت ليلاً الآن ولا يتسع المجال لبحثه إلا أنني أقول: أن المسلم الذي يخاف على خواتيم أعماله لا يتجرأ على تكفير أحد من أهل القبلة، بل أن التشكيك في إيمانهم يؤدي إلى فتن نهى الله عنها، فإنه سبحانه قد قال:

[وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا] [الحشر- 10] والخوارج وحدهم يكفرون الناس ويزكون أنفسهم أنهم هم الفرقة المحبوبة عند الله، ونسأله تعالى ألا نكون منهم.

وختم قائلا: إنه قد شارف الآن على الأربعين ولم يستوعب بعد تناقضات أقوال كثير من علماء أهل القبلة مثل المعتزلة والأشاعرة، ولا ما ذكره بعض فلاسفة المسلمين من أفكار قد يكون فيها شطحات ذهنية غير واضحة، وربما أن القصد منها إظهار التفوق على الأقران في مجالس خلفاء الدولة العباسية. أجابه الوالد أن ذلك غير كاف له، وأنه يريد أن يطلع على كتابات أرسطو والفارابي والغزالي وابن رشد، ورغم أنه لم يبلغ العشرين إلا أنه يرى أن: «لا فشل مع الحماس» وأن: «لا نجاح مع التراخي» وقد تواعد الاثنان على استمرار النقاش بينهم، وذلك أثناء اللقاء في محل الكتب أو في المسجد. وقد حدث ذلك فعلاً، إلا أنه لاحظ إصرار عبد الرحمن لصرفه عن كتب الفلسفة ونصحه بالاتجاه نحو دراسة اللغات الأجنبية، وبخاصة الأوردية والفرنسية، حيث قال: إن طلب المعيشة خارج الحريق يكون في البحرين أو الشام ومصر وكلها عربية، ويلي بعدها الهند الكبرى حيث موارد الرزق متوفرة وبخاصة لمن يحسنون الأوردية والحساب، أما النشرات العالمية والبريد فلغته الشائعة هي الفرنسية. شكره الوالد على ذلك وبدأ يدرس هاتين اللغتين بصعوبة بدون معلم، ولكن شغفه استمر في حب دراسة الفقه فهو علم «أهل الخير» كما ورد في الأثر، وكذلك علوم الفلاسفة المتقين الذين يتفكرون بحكمة وأمانة في مخلوقات الله وشرائعه الحميدة.

ملقى المذنب:

انكب رحمه الله على موارد المعرفة للحصول على أقصى قدر مما هو مفيد منها، وأخذ يطالع باهتمام بعض الصحف والمنشورات الدورية، ولفت انتباهه صحيفة اسمها «المقطم»[1] يحضرها عبد الرحمن إلى محله

(1) جريدة المقطم هي جريدة يومية سياسية، صدرت في الفترة 1888 - 1952 م.
أنشأها يعقوب صروف و فارس نمر و شاهين مكاريوس في القاهرة. صدرت في ظل الاحتلال البريطاني في 18 أبريل 1888، تعجب الرأي العام من سهولة الحصول علي ترخيص من وزارة الداخلية آنذاك, الأمر الذي كان متعسرا بل ومستحيلا على باقي الصحف الأخرى.
وذكر فارس نمر باشا أحد مؤسسي الجريدة في مجلة الاثنين والدنيا في عددها الصادر في مارس 1942م, أن سبب اختياره اسم المقطم اعتقادا منه أنه الجبل الذي بنيت من حجارته الأهرام الثلاثة وأن هذا الاسم غرض يجب على الجرائد أن تسعى إليه في أيامهم, وكأنه أراد لها الشموخ والاستمرار.

للبيع، ورغم أنه مدرج في رأسها أنها يومية، فلم يكن يصل الحريق منها إلا أعداد متفاوتة ومتباعدة، كما لاحظ نقص بعض الصفحات إضافة إلى وجود بعض العبارات الغامضة مثل: «عاد عزتلو مردم بك» وحتى الاسم غامض وظن أنه ينطق بكسر الميم الأولى على وزن «المغرف» المعروف في قريته، ورغم كل ذلك إلا أنه وجد في الصحيفة أنباء وتحقيقات حول الأوضاع السياسية في مصر والشام وعن التطورات العلمية في أوربا، وكانت هناك منشورات أخرى من العراق والجزيرة ولكنها أقل فائدة وقد عرف أن المقطم صحيفة (جريدة) تصدر في مصر أسسها بعض نصارى الشام بعد أن ضايقتهم السلطة العثمانية هناك واتجهوا لمصر التي أخرجها الاحتلال البريطاني من التبعية التركية. لقد تعرف عبر قراءته لتلك النشرات على أوضاع اجتماعية مختلفة عما هو سائد في وسط جزيرة العرب، واندهش من اختلاف طباع العرب والمسلمين في تلك البلاد ذات الأوضاع المختلفة الأعراف والعادات. وأثناء شهر رمضان أمضى كثيرًا من الوقت في مراجعة تفسير كتاب الله، والاطلاع على آراء فقهية مختلفة، وقد استاء من تعرض البعض لتأويلات عن ذات الله سبحانه وخلط الفقهاء لأرائهم مع أقوال حكماء (فلاسفة) الإغريق والمسلمين حول صفات الخالق سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته وتجسيمه، وخوض البعض في فهم كنه الروح وبقائها بعد الموت وعودتها للجسد بعد الموت، وهل يعذب الجسد أو الروح، وأمور كثيرة لا طائل منها، يتأولون فيها تفسيرات ذاتيه لهم، أو يعتمد على أحاديث ضعيفة، رغم أن النصوص الشرعية واضحة بعدم جواز البحث فيما لا تدركه أفكارهم.

ولقد لاحظ النصوص القرآنية الصريحة والأحاديث الصحيحة التي لا تجيز البحث أو التفكير فيما يتجاوز قدرة الذهن البشري، رغم أنها مليئة بالبحث على التفكير والتدبر وطلب الحكمة في الأشياء الأخرى.

ومما أزعجه مسألة النظر إلى الله، فوجد البعض ينكرون ذلك كليًّا سواء على البشر قبل موتهم أو حتى بعد البعث، بينما آخرون يرون ذلك بعد البعث ممكنًا وينفون عن الأحياء، بقولهم العين الفانية لا ترى الخالد أما

العين الخالدة في الجنة ترى خالقها الحي الذي لا يموت، وآخرون يدعون أن ذلك ممكن فقط للرسل دون غيرهم. ولقد تطاول البعض حتى ادعى أن الآية الكريمة **[وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ]** [القيامة:22-23]، خطأ في الكتابة والنطق، فإن حرف (ظ) ليس صحيحًا أو إنما هو أيضاً (ض) مثل الكلمة السابقة، وقد استندوا إلى حديث أم المؤمنين- التي تعرف نصف الدين- الذي نفت فيه النظر. مع ملاحظة أن حديث (الحميراء) ضعفه الكثيرون، كما يشككون في معنى الآية **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14)** [النجم:12-14]، وكان الأجدر بهم الرجوع إلى قوله تعالى[**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**] [النجم:11] كما أنه **[لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ]** [الحج: 46]، أن عمل كثير من فقهاء ذلك الزمان أو الأزمنة الحديثة يشوبه الخلط والتخبط، وحري بالجميع التنزه عن ذلك لأنه يقود إلى التباري في دعم الآراء، أو بإسناد شيء للشريعة، ومن ثم إثارة البغضاء والفتنة بين أهل القبلة حتى يكفر بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا. وأنعم بكل من يصدق قوله تعالى : **[وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا] [آل عمران: 7]**، ويكف عن الادعاء بأن مشايخه قد آتاهم الله العلم بالتأويل، الذي نص الكتابة صراحة على حصره في الخالق سبحانه، ولم يمنحه حتى للرسل، فلماذا ادعاء معرفة التأويل وبخاصة إذا كان لأجل التشكيك في حقائق الشريعة من كتاب وسنة، ولأغراض دنيوية رخيصة.

مع السرور بما حباه الله من موارد معرفية، وأشخاص يوجهون ويشرحون له بعض ما صعب عليه استيعابه، فقد لاحظ على نفسه بعض التحسس في صدره وحشرجة وسعال، وكان يظن ذلك بسبب فصل الشتاء، ولكن والدته حذرته من كثرة التعامل مع الكتب والأوراق التي تحوي مخلفات العثة والأرضة وحشرات أخرى، تسبب له مشاكل في

التنفس، ولكنه صرف النظر عن ذلك واستمر ينهل من تلك الأوراق القديمة ما يتوفر من معارف وعلوم.

ذات يوم كان يستفسر من عبد الرحمن عن شيء قرأه في المقطم، وسأله عن بعض الأمور الواردة فيها وأجابه عن ذلك، وأفاده أنها قد سميت على جبل غير مرتفع شرق عاصمة مصر، وتأثر من عوامل البيئة فتساقطت بعض صخوره بعد أن قطعتها وحطمتها الرياح والرطوبة والزلازل، وقد سميت عليه. وحذره عندما لاحظ مشاكل التنفس لديه أن أوراق بعض الكتب والنشرات القديمة كانت تصنع بإضافة مواد كيميائية مثل الشبة أو الجير، كما تحوي مركبات البوتاسيوم والكبريت وعناصر أخرى تسبب مشاكل في الرئة تشبه أثر التبغ على المدخنين، وإن عليه تقليل تعرضه لها، شعر الوالد بخيبة أمل فقد كان يطمح أن يقوم بإنشاء وإدارة محل كبير للكتب والقرطاسية، يساهم به في نشر الثقافة بين أبناء قريته، وهذه المرة يصطدم بمشكلة (خطر) بعد أن واجه سابقًا في خططه مشكلة أن هذا عيب وذاك حرام، فتوجه لخالقه أن يعينه.

بعد مغرب غرة شهر الحج عاد عبد الله بن خثلان إلى البديعة قادما من منزل الاطلاع على الكتب لدى عبد الرحمن حيث ناقش معه وسائل حصوله على المطبوعات والمنشورات حيث أفاده بأن لديه اتفاقيات مع محلات في مكة والبحرين على أن يرسلوا له مع قوافل التجارة مرة أو مرتين كل شهر ما يطلبه منهم من صحف أو كتب، وبينما كان أهل البلدة يوصون قوافل الحجاج لإحضار بعض الأطعمة أو الملابس والأدوية وأدوات الطبخ، كان يرسل إلى أصحاب المحلات النقود لتزويده بمتطلباته من المواد العلمية والكتبية / وكان الوالد قد مر في طريقه على محل عطارة للحصول على بعض من زيت النعناع وخلاصة الكافور الصيني، لعلاج التحسس في صدره الذي يعاني منه منذ أسابيع، وعندما دخل المنزل وجد أعمامه وبعض أقاربه جالسون مع ضيوف من خارج البلد، كان يبدو أنهم من علية القوم، ويقوم الخدم بمباشرة الضيافة لهم بعد أن تناولوا عشاءً خفيفًا مثل بعض الصائمين. كان عددهم ثمانية أشخاص غرباء عن المنطقة كما يبدو من ملابسهم ومن حديثهم، وقد بحثوا مع العم

زيد أنهم في عجله من أمرهم ويريدون البت في الغرض من قدومهم، ولكن العم كرر الترحيب بهم، وأنه يعتقد أنهم متعبون من وعثاء السفر الطويل، وما داموا قد جمعوا العشاء مع المغرب فيمكنهم الخلود للراحة، وأنه قد رتب دعوة لوجهاء الحريق لتناول الغداء معهم والقيام بالواجب نحوهم للتعرف على أهل البلدة، ثم بعد ذلك يتم مناقشة الغرض من قدومهم، وعرف الوالد في تلك الليلة أن هؤلاء الزوار هم من أهل القصيم واثنان منهم من أقارب أمراء عنيزة وهم من بني ثور من أطيب عروق قبيلة سبيع هناك، واثنان من العرينات في سبيع في رماح، وواحد من سبعان الحائر، وأما الثلاثة الباقون فمن أتباعهم، بعد تناول الغداء أصر الأمير محماس على دعوة ذلك الوفد لتناول العشاء عنده، ولكنهم اعتذروا فأقنعهم العم زيد بقبول الدعوة، وعدم التعجل في السفر. عقد لقاءً معهم حضره مجموعة من أعيان أسرة آل خثلان وسبعان الحريق، حيث عرض الوفد غرضهم من الحضور للحريق، حيث أفادوا أنه خلال السنة والنصف التي تلت بعد معركة الدلم، أخذت البلدان الواقعة في العارض تسقط الواحدة تلو الأخرى تحت حكم آل سعود، حتى أصبحت جميع مناطق الوشم والمحمل ومعظم سدير خارج سيطرة آل رشيد، وأنه قد نما إلى علمهم أن آل سعود يعدون العدة لغزو القصيم لإخضاعها لسيطرتهم، وأنهم عازمون على البدء بمدينة عنيزة وهي قاعدة أسرة سبعية منذ مئات السنين، وهم يعلمون أن جماعتهم من سبيع لن يرضوا المشاركة في العدوان على فخذ آخر من سبيع وما سيؤدي إليه ذلك الهجوم من سفك دماء وتلف أموال، وتعدي آخرين إلى مدن أخرى في نجد للحث على تكاتف القبيلة وعدم إحداث شرخ داخلها يؤدي للإساءة للجميع، وبخاصة أمام القبائل الأخرى المنافسة، وإن حدوث قتال بين طرفين في كل واحد أعضاء من نفس القبيلة سيولد حزازات وأمور غير محببة يفضل تلافيها، وبعد الإسهاب في شرح تفاصيل وجهة نظرهم، أفادوا أن بقية بلدات القصيم تشاركهم الموقف وأنهم يودون البعد عن النزاع القائم بين آل سعود وآل رشيد الذي لا ناقة لهم فيه ولا جمل، ولا يريدون جر أنفسهم وإخوانهم استقلال مناطقهم عن النزاع السعودي الرشيدي، وهم سيقفون على الحياد

. رغم أن في أعناقهم بيعة لابن رشيد ولا يريدون نقضها بدون الاتفاق معه مسبقًا، وبذلك فإنهم يناشدون كافة أفراد قبيلة سبيع وعشائرهم وأحلافها التضامن معهم لتلافي الإساءة للجميع.

بادر أحد الحاضرين لذلك اللقاء بالقول أن لا مقارنة بين آل سعود وآل رشيد فالجميع يعلم أن جد الرشيد عبد الله كان يعمل في (الخدمة العسكرية) تحت إمرة الإمام تركي بن عبد الله مؤسس الدولة السعودية الثانية، ثم استمر في خدماته تلك مع الإمام فيصل بن تركي وهو الذي عينه أميرا للجبلين، ثم إن ابنه محمد بن عبد الله الرشيد استمر أيضًا في تقديم خدماته للإمام فيصل وابنه عبد الله حتى ثارت الفتنة بين أبناء الإمام فيصل وسقطت الدولة السعودية الثانية، وآل رشيد لم يكونوا يومًا ندًا أو حتى مقاربين لآل سعود الذين حكموا البلاد برأي أهلها، أما ابن رشيد فيحكم بناءً على عمله مع القوات التركية ويحرس قوافلها. وتحدث شخص آخر أن بيعتهم قبل سنوات كانت للإمام عبد الرحمن القائم حاليًّا بشؤون البلاد بمساعدة من أبنائه، وقد سبق لآبائهم أن بايعوا الإمام فيصل بن تركي، وبايع أجدادهم الإمام تركي بن عبد الله قبل ذلك، أما آباء أجدادهم فكانوا على بيعة للإمام محمد بن سعود وذريته من بعده، ولم يقلهم أحد من تلك البيعات. وأردف قائلًا: إن رغبتهم الاستمرار على بيعتهم لابن الرشيد والتخلص عن البيوع السابقة يؤشر على أنهم يفضلون التبعية للأتراك مثله، وأشار إلى أن عددًا غفيرًا من سبعان القصيم، لا يؤيدونهم في إدارتهم لحكم عنيزة، وقد غادر البعض منهم القصيم بعد معركة المليدا إلى الكويت للالتحاق بالإمام عبد الرحمن وبقية آل سعود في المنفى، وآخرون ذهبوا للوشم ومازالوا فيها وهم الآن يعاونون أبناء الإمام في جهودهم لتطهير الديار من أدران الأرناؤوط والبشناق والانكشارية، ولا يؤيد الأمير الحالي سوى أقاربه من اليحيا.

انبرى أحد الحاضرين تلك الجلسة وهو من أهل الحريق ولكن ليس سبيعيًّا ولكنه قريب آل خثلان من الخؤولة، وتكلم بحدة قائلًا : إن الحكم الحالي في عنيزة غير صالح فالمجاهرة بالمعاصي موجودة ولا نهي عن المنكرات، وأنهم يستعملون أساليب المكر والدهاء والحيلة للتكسب

والتغلب، ومقارنة مع أهل بريدة التي لا تبعد عنهم سوى 3 ساعات للراكب فإن أوضاعهم غير طيبة، بل يوجد بعض وسائل لئيمة لسياسة الأمور والسماح لأهل المنكرات والفسقة أن يعيثوا الفساد في المنطقة. عندما رفع العم زيد يده قائلًا قصروا، واستدار نحو أهل القصيم مكررًا الترحيب بهم عندما لاحظ امتعاضهم مما سمعوه بل تغيرت وجوه البعض منهم، وقال إن بني ثور خيرة الناس، ونفخر بمواقفهم المشرفة مع بقية قبيلة سبيع منذ مئات السنين، و نحن وإياهم على معرفة منذ مرت تلك الأزمان وسنبقى كذلك مستقبلا بعون الله.

ثم أردف قائلا: تعلمون أن من حاج ضيفه غلبه، و لا نريد غلبة لنا ولا لكم فنحن إخوة سواء، وجودكم عندنا شرف عظيم، ولو قدمنا أبنائنا طلبًا لرضاكم ما كفانا ذلك للوفاء بواجبكم علينا، وأشار إلى أبي فلم يستوعب القصد هل هو يقصده من ضمن (الفداء) أو أنه يريد مباشرة الضيافة، ولكن أبي أشار إلى الخادم لتقديم المزيد من الإكرام للضيوف.

قال العم زيد: إن القصيم وأهلها غالين عندنا، وهم أهل الورع والتجارة والعلوم والأدب والثقافة ولا نذكر عنهم إلا كل خير. ثم قال: إننا في زمن يجعل اللبيب حيرانا، وهناك تغيرات كثيرة تحدث في وسط جزيرة العرب والمناطق التي حولها ويلزم الانتباه لها، وتلافي الوقوع في أخطارها.

أضاف بعد ذلك: إن جميع مدن العارض قد خضعت مع آل سعود، وأخرجت مندوبي ابن رشيد ومناصيبه من بلادهم، ولم يطلبوا دعمًا أو مساندة من أحد، بل اكتفوا يا أحبائنا أن عبد العزيز بن متعب كان مستقرًا في القصيم يهاجم العارض، وقد تمكن في سدير، بل واعتقد بإمكانية استعادة الحكم في الرياض وإعادة آل سعود للمنفى، ولكن دحره الله بفضله ثم بهمة الرجال المخلصين للديار، والراغبين في إبعاد السيطرة التركية بالقوات العسكرية العثمانية لاستعادة السيطرة على العارض، وهم حاليًا يتجمعون استعدادا للقدوم إلى القصيم لاتخاذها قاعدة للهجوم على العارض. لا يخفى عليكم يا أهلنا أن القصيم كانت على مر القرنين الماضيين مقرا وممرا للهجوم على العارض وقتل أهله وإتلاف أموالهم وهتك أعراضهم، وعندما جاء إبراهيم باشا كان هجومه على الدرعية

والمذبحة التي أجراها فيها يستند إلى قواعده في القصيم، ثم حملة خورشيد باشا على منطقتنا بعد ذلك كانت عن طريق القصيم، ولقد حاربنا الترك في الحلوة على مسافة بضع ساعات من مجلسنا هذا، وقبل نحو خمس عشرة سنة جاءنا في العارض محمد بن رشيد عن طريق القصيم، وقام بإفساد المنطقة وأسقط حكم آل سعود المقبول لدى جمهرة أهل البلاد، وبذلك نرجو أن تتفهموا تخوفنا في العارض من موقف القصيم مع أعداء العارض، إننا نقول دائمًا إن علينا (ترك الترك إذا تركونا)، ولكن لم يتركونا، وهاهم الآن يعدون عساكرهم النظامية ومدافعهم للتوجه إلى القصيم واتخاذها قاعدة للهجوم على أهلكم وإخوانكم في هذه المنطقة، وهو ما نرى أنكم لا ترضوه على أنفسكم أن تكونوا ممرات أو (مقراية) [مقر] للإساءة إلى بني عشيرتكم من سبيع أو غيرها من القبائل.

واختتم العم زيد الكبير حديثه قائلًا: إننا سنعاهدكم أن لا نرضى بأي إساءة لإخواننا من سبيع في عنيزة، ونتمنى منكم أن تعاهدونا أن لا تجعلوا أرضكم مقرات أو ممرات للأتراك الذين يريدون الإساءة إلينا في أرواحنا وعقيدتنا وأموالنا وكرامتنا.

سكنت النفوس وهدأت الخواطر بعد أن سادت السخونة النقاش في تلك الجلسة، وتحدث أحد أعيان عنيزة قائلا: إننا نعاهدكم بالطبع أن لا نسمح بالإساءة إلى إخواننا في العارض سواء من قبيلة سبيع أو غيرها، وإننا لا نرحب بالعساكر التركية في البلاد ولن نقف معهم أو نساندهم، وفي نفس الوقت نود أن يكون لنا اعتبارنا في بلدتنا، فإن عنيزة هي أكبر مدن القصيم، وهي قاعدة المنطقة ونريد أن ندبر أمورنا بأنفسنا بعيدًا عن أي سيطرة خارجية عن بلدتنا، من أي جهة كانت. لقد حصل حمد العسكر على استقلاله من آل سعود وآل رشيد، وهو يحكم المجمعة مستقلا بما يراه هو وأعيان البلدة في صالحهم، وأما قول البعض إننا في نزاع مع بني عمنا على الحكم في عنيزة فهذا أمر داخلي نحله بيننا، ولا داع لتدخل أي جهة أخرى، وأضيف أن ما يقال عن المنكرات في عنيزة غير صحيح، والمساجد لدينا عامرة ومدارس قراءة الكتاب والسنة مزدهرة، وعلماء الشريعة عندنا يلقون كل تقدير واحترام، وانطلق أحدهم قائلًا: وكذلك

البحرين فيها مساجد عامرة، ولكن المنكرات منتشرة، وإن النهي عن المنكر هو ما ينقص عنيزة.

بادر العم: العهد بعدم السماح للعثمانيين باتخاذ منطقتكم قاعدة لإيقاع الأذى بنا، أما من جهة المجمعة فوضعها يختلف، حيث إن (العسكر) له علاقة غير حربية مع الخلافة في إسطنبول، ومع آل رشيد، ويتعامل بحذر مع الجميع، واقترح العم زيد التوجه الآن إلى مكان عبد الله الكثيري لتناول القهوة، ثم بعد ذلك لتناول العشاء لدى الأمير محماس الهزاني، على أن يعود الجميع إلى البديعة بعد المغرب لاستكمال بحث الأمر.

توجه عدد غير كثير من آل خثلان لمرافقة ضيوفهم من سبعان القصيم إلى الكرامة المعدة لهم، وصلوا العصر في الطريق، ثم دخلوا عند أفراد وأسرة (الكثير) الذين قاموا بواجب الضيافة المضادة في هذه الحالات، حيث باشر عمالهم تقديم القهوة والشاهي وبعض الخضار المصبرة الواردة للحريق من السواحل. لقد سر الوالدة بما قام به أخوال والده من استقبال جيد وحفاوة بالضيوف من أهل البلدة أو الغرباء من خارجها، وألح عميد الكثران على أن يتناولوا عندهم طعام الغداة صباح اليوم التالي، ولكنهم أصروا على وجوب مغادرتهم البلدة قبل طلوع الشمس لإدراك المسير نهارًا.

عند ذاك وصل مندوب الأمير يشجعهم لسرعة الحضور إلى داره، وركب الجميع إلى هناك حيث وجدوا طعام العشاء الحافل باللحم والثريد والمأكولات الأخرى المجهزة من قمح العارض المشهورة بجودته، وسمن شياه الضأن النجدية الذائع حيث طيبه في كل الأنحاء، وغادر الجميع شاكرين للأمير محماس الهزاني وجماعته كريم ضيافتهم، وصلوا الحريق عند المغرب، حيث اتجهوا بعد الصلاة لمناقشة الأمر، وأيدوا الاتفاق، على أن يعرض على الإمام عبد الرحمن أن تسليم عنيزة الحكم له فور تمكنه من طرد مندوبي ابن رشيد المتواجدين خارج أسوار قريتهم. كما نوقش موضوع حضور عساكر الترك إلى المدينة واستعداد بني ثور وكافة الأهالي لمحاربتهم وصدهم، مع عدم التعرض لابن رشيد وقبيلته من شمر. أفادهم العم زيد أن الأمر في غاية الحساسية ويتطلب التعامل

معه بأعلى درجة من الكياسة والانتباه، وأشار إلى أن هناك أربع مسائل تلزم معاملتها بعناية وهي :-

1- إيضاح الالتزام التام من أمير عنيزة (اليحيا) بأن يغادر مندوب ابن رشيد وحاميته إلى خارج أسوار المدينة، وأن لا يتلقوا أي دعم من داخل المدينة أثناء اشتباكهم مع قوات ابن سعود. إضافة لذلك: الالتزام التام بمقابلة القوات العثمانية إذا جاءت إلى منطقة القصيم، وتزويد آل سعود بكل الدعم سواء الرجال أو السلاح أو المؤونة لدحر الأتراك.

2- اقتراح التكتم حول هذه الزيارة للحريق ولغيرها من البلد أمر جيد وحميد ويلزم تقديره، ومع ذلك فالأمر يتطلب إجراء اتصالات مع بلدات وقبائل أخرى، لأن السبعان في الحريق ونعام سواء من آل خثلان أو غيرهم قلة وليسوا ذوي ثقل مؤثر، ويتسع الأمر ليشمل السبعان في العارض، الذين يلزم التأكد من رأيهم حيال ذلك، وعلينا أن نكسب مساعدة حلفائنا في حوطة بني تميم الأفلاج والخرج، للتقدم لآل سعود بأن أمير عنيزة وأهلها يودون عدم تعرض بلدتهم للهجوم العسكري مما يلحق الضرر بالأبرياء، وأنهم سيخرجون آل رشيد من أسوار أكبر مدن وسط الجزيرة العربية آنذاك، كما سوف يساندون آل سعود بكامل قدراتهم إذا حضرت قوات تركية للمنطقة.

3- اقتراح أن تبقى إمارة عنيزة لدى أهلها ويجب أن لا يأتي إليهم أي أشخاص من خارج البلدة، وبخاصة أفخاذ قبيلة سبيع، وإنما يلزم أن يأتي من أهل عنيزة ذاتهم، ولمن يرون الأصلح.

4- يفضل بقاء ثلاثة من أفراد الوفد من سبعان الحائر ومن رماح لمرافقة جماعة منا لزيارة الحوطة والخرج والأفلاج كل على حدة، بينما يعود البقية وأتباعهم إلى عنيزة، وبعد عودة المرسلين إلى المناطق يركب الجميع إلى الرياض لمقابلة الإمام عبد الرحمن لإقناعه بعدم الحاجة لاكتساح مدينة عنيزة بالقوة، وأن أميرها

وأهلها موالون لآل سعود، مع تجنب المقارنة مع أوضاع بلدات أخرى مثل المجمعة أو بريدة لاختلاف الأوضاع.

قبل طلوع الشمس كانت ثلاث مجموعات قد ركبت متوجهة إلى المناطق الثلاثة المجاورة، يرافق كل مجموعة واحد من قبيلة سبيع، أما الخمسة الباقين فقد تمهلوا حتى بعد ذلك بقليل، وقد توجهوا نحو الشمال الغربي، يرافقهم أبي ووالده وبعض أفراد الأسرة، وكانت قد سبقتهم قبل صلاة الفجر حملة من العمال لإقامة مخيم الوداع وإعداد طعام الغداء وتوديع أهل القصيم، من هناك سار الركب بسرعة أقل وهي محملة، وعندما وصلوا إلى مخيم الوداع، أناخوا ركائبهم واستراحوا لتناول القهوة والتمر لغير الصائمين، بادر أحد السبعان بشكر الجد على حسن مشاعرهم وضيافتهم وأنه لم يكن من داع للمشي معهم تلك المسافة، ولا إعداد طعام الغداء هناك، فأجابه الجد إن ذلك للعلاقة الوطيدة ببني أفخاذ قبيلة سبيع. أجابه السبيعي: إننا نود بعد أن تسكن الأمور أن نزور ونأتي القصيم ونتعرف على جماعتكم هناك. أفاده الجد بقبول الدعوة مع تمنياته للجميع بزوال الفتن والأحداث المؤلمة، رأى الوالدان الفرص سانحة للحديث معهم، فبادر قائلا: إنه سمع أن عنيزة أكبر مدن وسط الجزيرة العربية ولا يضاهيها سوى حائل في جوار الجبلين، من حيث عدد السكان وانتشار العمارة وازدهار الأسواق، وطلب منهم أن يصفوها لهم مقارنة مع الحريق التي غادروها للتو. تبسم الجميع؛ وتساءل أحد القصمان عن عدد سكان الحريق، فأجابه الوالد: إنهم يراوحون بين ألفين وثلاثة آلاف شخص، ولكنهم يزيدون عن ذلك في مواسم حضور البادية أو بعض أهالي القرى المجاورة.

أفاد الحضور أن عنيزة يقطنها بشكل مستمر ما يزيد عن عشرة آلاف شخص، ويصلون في المواسم إلى خمسة عشر ألفا، وتوجد بها مزارع كبيرة لشتى المحاصيل والنباتات، وكثير من بيوتها متعددة الطوابق، وأسواقها دائمًا مكتظة بالبضائع المحلية أو الواردة من الخارج عن طريق البر أو البحر، وبعض سكانها يعملون في العراق والهند والحجاز، وهناك رحلات دورية للعقيلات للتجارة في المواشي والمزروعات ومنتجاتها مع

الشام ومصر، وهناك مناطق لهم في درعا وبصرى الشام وفي بلبيس وإمبابة في مصر، ويعودون معهم بأصناف كثيرة من مستلزمات الزراعة والصناعة والحرب والمنازل. أضافوا أيضًا أن في عنيزة عددًا من المدارس لتعليم القرآن الكريم والحديث وغيرها من علوم الحساب والهندسة، وتتوفر فيها الكتب التعليمية ويوجد بين أهلها عدد من الشعراء والقصاصين والأدباء، وهي بالفعل درة نجد المضيئة بالفكر والمعرفة والحكمة، كما أفادوا أن لديهم أساليب طوروها ويدرسونها لتحسين رعاية المواشي، وكذلك طرق البستنة الحديثة، ويدرسونها لأبنائهم، أفادهم والدي أن عمه زيد الكبير لديه طرق حديثة ومتميزة في ذلك المجال وبخاصة تطعيم بعض الأشجار بأغصان أخرى، كذلك يقوم بالتلقيح عن بعد للإناث الجيدة من الخيل والإبل والبقر والضأن التي تنفر من الفحل. ردوا على ذلك أن هذا جيد ولكن هل تدرسون للآخرين حتى يقوموا بالاستفادة منه ثم يقوم المتفوقون بتطوير وتحسين تلك الأساليب وترقيتها، إن ذلك يضمن المحافظة على الاكتشافات وتطويرها وتثبيت طرق الاستفادة منها ومن ثم نشرها للآخرين ليستفيدوا من علم غيرهم.

قام أحد رجاجيل القصمان قائلًا: إنه لاحظ أن الطباخ يعمل على أساس أنه في (ضيفة) وليس لإعداد طعام المسافرين، بل يعمل وكأنه (حضري) يعمل في بيته، وها هو يعرض كأنه أم عياله، لذلك استأذن في أن يقوم بإعداد وجبة سريعة. أجابه أحد أفراد أسرة آل خثلان، افعلوا ما بدا لكم فانتم أهل المكان واعتبرونا ضيوفًا عندكم. توجه الرجل نحو أحد رواحلهم وأخرج منها سكاكين حادة وشبك معدني ومعاميل لتجهيز الطعام والقهوة، كما جلب من الجانب الآخر (بقشة) من القماش السميك تحوي أكياسًا من البهارات والأبازير والأفاويه ذات الرائحة النفاذة، والتي ذكر لاحقا أنها جلبت للقصيم من كافة البقاع سواء الهند أو تركيا وفارس أو بلاد القيروان وأرض الزنوج (زنجبار)، وقام يقطع من أفخاذ الضأن شرائح رقيقة للغاية قام بقسمها في وعاء نحاس مع مزيج من تلك المواد المصلحة للنكهة وتركها في الشمس، حيث أخذ بعض من الأكتاف (الزند) بعظمه، وبعد أن غسلها بقليل من الماء، لفها بطبقات من كيس دهن البطن ثم جزء من

الأمعاء النظيفة وتركها لتجف بينما قام أحد العمال بعمل حفرة عميقة غير متسعة وفرش فيها حصى مستدير ثم سكب كمية كبيرة من الفحم المتلهب، وأنزل فيها اللحم بعد أن لفه ببعض الألياف وأوراق الشجر، ثم سكب المزيد من الجمر الملتهب وطلب من العمال مساعدته لسرعة دفن الحفرة بشيء من الحجارة الصغيرة، ثم تراب نظيف وتركها وهو يقول لهم كأنكم ما عزيتم مع مهنا حتى ليجد كل منكم ما يتمنى، عاد بعد ذلك إلى شرائح اللحم المغموسة في مزيج الماء والبهارات وانتشلها منها بعناية، وصفها على شبكة معدنية ركبها على بعض الأثافي (قطع صخور) وتحتها كمية أخرى من الفحم الساخن وقطع من الحطب وأمر أحدهم بان يستمر في تقليب ذلك اللحم بين آن وآخر .

كان العمال قد اعدوا عجينة من دقيق بر الصمة وأضافوا لها قليلا من الخميرة ثم الملح، وأعدوا حفرة واسعة ولكن غير عميقة، ثم تعاون الرجل معهم على تشكيل عدة أقراص ولفها بعناية وتركوها بعض الوقت ثم أسقطوها في الحفرة المفروشة بالحصى الصغير المتجانس مع كمية وافرة من الجمر الملتهب وغطوها بمزيد من الحصى والجمر وسارعوا إلى دفن الحفرة بالتراب الناعم لتلافي احتراق العجين وحتى تنخفض حرارة الجمر سريعًا.

تناول الجميع وجبة طيبة من اللحم المسلوق وآخر مشوي ومن ثريد القرصان والأرز وجريش البر والخبز، توجهوا لتناول القهوة، وأثناء ذلك تحدث معهم الجد عبد الرحمن قائلًا: إنكم الآن مقبلون على وقت صعب فيه أحداث جسام تستدعي الفطنة والتركيز. ودعا الله لهم بالرشاد والعمل الصالح.

أفادهم أيضًا أنهم ليسوا في حاجة إلى أي نصائح ولكنه يريد أن يوصيهم بالتركيز على مسألتين:

أولاهما: وضع كتاب الله وسنة نبيه أمامهم في كل عمل.

وثانيهما: نبذ أي خلاف أو نزاع بين أفراد قبيلة سبيع من الأفخاذ والعائلات المختلفة.

شكره أكبر السبعان سنًا وهو ثوري من آل زامل، وأكد أن أكثر أهل عنيزة متفقون على الوصيتين ولا خلاف عليهما، ويتمنى الجميع أن يوفقوا لتطبيقها، أما الآخر وهو ثوري من آل يحيا فقد أشار إلى أن هناك ما هو أهم من ذلك ولا بد أن يعتبر قبلهما، أي مسألة الاستقلال في إدارة الحكم عن أي نفوذ داخلي أو خارجي، وأن تبقى قرارات إدارة كل منطقة في يد أبنائها، أما مسألة الشرع فلا أحد يعترض على أهميتها، ولكن المشكلة هو سعة أبوابها والتأويلات المختلفة لها وللأسف بعض فقهائنا يؤولون الأمور الشرعية على حسب ما يصلح لمن يدفع لهم أكثر، وتجد المنافسة بينهم وتخطئة بعضهم لبعض يحاول كل منهم إثبات صحة تأويله ليفوز بأكبر قدر من المكاسب المالية أو المعنوية.

وأود أن أقول أيضًا إننا في عنيزة واثقون من قدرتنا على صد أي اعتداء علينا، والأمير رتب أحوال البلدة بشكل جيد، ولدينا مخزون من الذخيرة والزاد يكفي لحول كامل. إضافة لذلك فقد وضع عبد العزيز بن متعب حامية قوية تزيد عن ألف مسلح برئاسة ابن عمه ماجد، يعاونه أحد أبناء خؤولته من آل سبهان وهما من القيادات التي تتسم بالشجاعة والمهارة وحسن الرأي وشدة البأس وقوة الشكيمة والخبرة الحربية الطويلة.

وأردف قائلًا: إنه من المؤسف يا بني خثلان أن الجميع يتحدثون عن دولة سعودية ثالثة، ويغفلون عن حقيقة الحملة العسكرية الثالثة، لقد غادرنا ابن رشيد قبل أكثر من شهر إلى البصرة، وهو حاليًّا يجهز لحملة كبيرة من آلاف من قبيلة شمر في العراق، إضافة إلى ترتيب قدوم أكثر من عشرة طوابير نظامية معززة بالمدافع الضخمة والسلاح المصنع حديثًا والذي يتفوق على ما هو معروف لدينا. كلنا نعلم أنه قبل نحو مائة سنة جاءت الحملة الأولى بقيادة والي مصر محمد علي باشا وأبنائه طوسون وإبراهيم، وأخرجت آل سعود من مكة والمدينة ثم ساقت الحاكم عبد الله بن سعود إلى المشنقة في إسلامبول (إسطنبول)، وقبل أكثر من خمسين عامًا جاءت الحملة العسكرية العثمانية الثانية بقيادة خورشيد باشا وساقت الحاكم آنذاك فيصل بن تركي آل سعود إلى الأسر في مصر، واليوم ها هي

الحملة الثالثة قادمة للقضاء نهائيًّا على أي أحلام لآل سعود في العودة لحكم وسط الجزيرة العربية.

استطرد اليحيا قائلًا: إن السلطان عبد الحميد لديه حاليًّا نفس خطط جده محمود خان، لعدم السماح بفتح نزاعات داخلية، وبخاصة أنه في شغل تام حاليًّا مع الروس واليونان والبلقان الذين يحاربون الخلافة الإسلامية، التي نرى من الواجب الشرعي علينا أن نساندها، لا أن نفتح جبهات عدائية ضدها. إن الخليفة في إسلام بول قد حاز على البيعة من غالبية المسلمين شرقًا من بلاد الملايو والجاوة وغربًا حتى مراكش، ولم يعارضه سوى الرافضة في بلاد فارس (الصفويون) وآل سعود في وسط الجزيرة العربية، لكل ذلك قرر السلطان (الخليفة) إرسال قوات كافية لدحر أي محاولة لخلق جيب معارض للدولة العثمانية يضعف قدرتها على مواجهة أعدائها من غير المسلمين. وكاد يستمر في تلك الأقوال لولا أن رفيقه الزامل تدخل وأشار إلى أن الوقت قد حان للإعداد للمغادرة حتى يكسبوا ضوء النهار القصير في هذا الوقت من السنة.

بدر من الجد عبد الرحمن وبعض آل خثلان التمعض مما سمعوه، وقال الجد: إن الله غالب على أمره، وقد تعهد سبحانه بنصر المؤمنين عندما قال: [**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**] [الروم-47]، ولم يزد على ذلك أي كلمة، بينما ساد صمت للحظة وانتهز الوالد انقضاء الحظة، وشعر أن الغالبية لا تشعر أن النقاش قد اكتمل، لذا سارع قائلًا: إن الخليفة المشار إليه، لم يعد لديه سلطان ولا قدرة على تدبير الأمور في عاصمة العثمانيين، وأنه يمضي معظم وقته متنقلا بين (دولما بهجة)[1]، و (طوب قابي)[2] المقر القديم للسلطان، مستمتعا بمباهج الحياة المرفهة وصحبة

(1) قصر دولما بهجة أو: طولمة باغجة.(تعني حرفياً باللغة العربية :الحديقة المردومة. وقد سمي بهذا الاسم نظرا لأن الأرض التي شُيد عليها القصر تم ردمها، لأنها على شاطئ البوسفور. وينقل البعض كلمة طولمه باغجة للعربية: دولما باخشة. أو: دولما باهتشة. وتارة يكتبونها: دولما باشا:، أي كما تنطق أو لما هو أقرب لنطقها في التركية،) وهو قصر يقع في منطقة بشكطاش بإستانبول في تركيا على الساحل الأوروبي من مضيق البوسفور، وكان بمثابة المركز الإداري الرئيسي للإمبراطورية العثمانية منذ عام 1856م حتى 1922م.

(2) طوب قابي: أكبر قصور مدينة إسطنبول التركية، ومركز إقامة سلاطين الدولة العثمانية =

المحظيات[الجواري]، وأمور الدولة تديرها أحزاب متناحرة، والسلطة في يد ضباط الجيش من بقايا فلول عسكر الإنكشارية القدامى، وأردف قائلًا: الأوضاع في الآستانة مشوشة، وهناك تضارب في قرارات تسيير الحكم، وكثيرًا ما تصدر فرمانات ثم تلغى بعد وقت قصير، إضافة إلى المشاكسات بين السلطان وإخوته محمد ووحيد وعبد المجيد الثاني مما يؤدي إلى تفاقم النزاع الداخلي والانشغال به عن معالجة التهديد الخارجي سواء في أوربا أو غرب آسيا أو بلاد العرب. وبالتالي لا توجد آمال كثيرة يمكن أن تنعقد على قدرة السلطان على مواجهة الهجوم الشرس على إمبراطورية آل عثمان، وحبذا لو قرأ أحدهم عليه قول الشاعر :-

لا تَحْسَبِ الْـمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ الْـمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

دَبَبْتَ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا ... جَهْدَ النُّفُوسِ وَأَلْقَوْا دُونَه الأُزُرَا

أو ما نظمه ملك الشعراء[1] :-

أُطاعِنُ خَيلًا مِن فَوارِسِها الدَهرُ ... وَحيداً وَما قَولي كَذا وَمَعي الصَبرُ

لأربعة قرون من عام 1465م إلى 1856م.

أصبح القصر اليوم يجذب أعدادًا كبيرة من السياح بعد أن كان في السابق يستخدم لمناسبات الدولة، وهو يحوي بعض الأثار المقدسة الإسلامية، مثل بردة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وسيفه. صنفت اليونسكو القصر على أنه من ضمن المعالم المنتمية للمناطق التاريخية في إسطنبول وفي عام 1985م أصبح موقعًا للتراث العالمي ووُصف على أنه من أفضل الأمثلة على التنوع الثقافي في الدولة العثمانية.

يتألف القصر من أربعة أفنية رئيسية وعدد من المباني من مساكن ومطابخ ومساجد ومستشفى وغيرها، بدأ بناء قصر طوب قابي في 1459م بأمر من السلطان العثماني محمد خان الثاني فاتح القسطنطينية وأخذ القصر اسمه الجديد "طوب قابي" بمعنى (باب المدفع) في القرن التاسع عشر، وقد جرى توسيعه على مر العصور، وتجديده بعد زلزال 1509م وحريق 1665م.

وعقب سقوط الدولة العثمانية في عام 1923م حولت الحكومة التركية القصر إلى متحف بتاريخ 3 أبريل 1924م، وانتقلت إدارة القصر إلى وزارة الثقافة والسياحة التركية. يحتوي مجمع القصر على مئات الغرف، كما يحتوي على مجموعات كبيرة من الخزف والألبسة والأسلحة والدروع والمنمنمات العثمانية والمخطوطات الإسلامية والمجوهرات.

(1) الشعر لأبي الطيب المتنبي.

وَلا تَحسَبَنَّ المَجدَ زِقًّا وَقَينَةً فَما المَجدُ إِلّا السَيفُ وَالفَتكَةُ البِكرُ
وَتَضريبُ أَعناقِ المُلوكِ وَهامِها لَكَ الهَبَواتُ السودُ وَالعَسكَرُ المَجرُ

أو ما قاله بشأن أهل المجد:

لَا افْتخَارَ إلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ مُدْرِكٌ أَوْ مُحَارِبٌ لَا يَنَامُ
ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الْحِمَامُ
وَاحْتِمَالُ الأذَى وَرُؤْيَةُ جَانِيه غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ
كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لَاجِئٌ إلَيْهَا اللِّئَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَالِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلَامُ

إن السلطان في الآستانة لا يستمع حاليا إلا إلى طغمة من المهللين والهتافين، و لا يسدون له النصح، فها هو منذ ربع قرن مستمر في المحاولات التي بدأها والده عبد المجيد ومن قبله جده محمود لتطوير أوضاع القوات المسلحة لإمبراطورية آل عثمان بن أرطغرل، واتجهوا إلى تطبيق الأساليب الأوربية الحديثة، وللأسف لم يصلوا إلا إلى أنهم قد غادروا أصول الإسلام وتمسكوا فقط بمظاهره الخارجية، وهجروا مقاصده وشعائره الأساسية، ومع ذلك فلم يأخذوا من النظام الأوربي سوى المظاهر مثل: المعازف العسكرية وملابس الجنود والضباط؛ ولم يطبقوا أساليب الحرب الحديثة سواء للهجوم أو الدفاع.

لاح على وجه اليحيا شيء مختلط من الامتعاض والبسمة، وقال للجد من أين جاء ولدك بكل هذه (السوالف)؟

سكت الوالد منتظرا جواب أبيه على الرجل الذي استخف بحديثه، وظن أن والده إما أنه سيؤيده قائلًا: إن ابني وكثير من أهل الحريق لديهم سعة

اطلاع ومعارف، أو أنه سيزيد الثقل على نفسه ويقول: دعك منه فهو يحب الكلام.

جاء رد والده محايدًا، حيث قال: هذا هو عندك فاسأله. سارع أحد أفراد أسرة الخثلان: قائلًا: إن مشكلتنا مع الترك هي أنهم لم يتركونا ويتفرغوا لمواجهة العدو الحقيقي لهم، فبدلا من إرسال قواتهم لمحاربة الروس والصقالبة في غرب آسيا وشرق أوربا، ها هم يرسلون عشرة طوابير كما تقول لإذكاء الصراع الأهلي بين العرب وتشجيع الفتنة بينهم، ولماذا لا يكف الترك عن التدخل في شؤون المسلمين وتغذية الفتن بينهم، وعند ذاك سيجدون إخوانهم العرب خير نصير لهم، ولماذا يتدخل الترك في نزاع محلي بين آل سعود وآل رشيد؟

عند ذلك انطلق اليحيا مدافعًا عن وجهة نظره قائلًا إننا لا ندرك أحوال العالم الآن، ولا نعلم عما يدبره اليهود والنصارى للاستيلاء على الشام وتقسيمه بينهم، وها هي روسيا الآن تعيث فسادًا في بلاد وسط آسيا، يقتلون ويشردون المسلمين في تركمانستان وتركستان وداغستان والشيشان وأرض الجركس (جرقيزستان)، وأسواق الشام والعراق تباع فيها الحرائر الصغيرات بعشر ليرات ذهبية، وأما الخادمات فلا يتجاوز سعرهن الخمسين ريالا، وهاهم المسلمون في سنجق (شرق اليونان) يتعرضون للمذابح أو الردة عن الإسلام، والواجب دعم جهود خليفة المسلمين في حربه ضد أعداء الإسلام وليس إشغاله بفتن و نزاعات محلية لا طائل منها.

إن الوضع هناك مؤلم لكل إنسان، وحتى قيصر الجرمن أعلن عن نفسه أنه: (حامي المسلمين) إضافة إلى لقبه الأساسي وهو موحد الألمان، وذلك لما رآه من فظائع يندى لها جبين كل من لديه حس حضاري.

رغم شعور الوالد بتذمر أبيه من استمرار ذلك النقاش، فقد قال: إن ختام البحث هو معرفة لب المأساة التي تتحدث عنها، حيث إن حل مشاكل المسلمين لا يتأتى بمجرد السماح للترك للعبث في بلادنا، لأن الوضع لديهم يعاني من قصور مزدوج، يتمثل شقه الأول في (نقص العزيمة)، وحبذا لو أن قيادات العثمانيين تحلت بالعزم على إدراك الأمور كما هي،

ورؤية الأوضاع بوضوح ثم التصرف تجاهها بذكاء وبعد نظر كما فعل محمد الفاتح، و لكن يبدو أنهم ليسوا من أهل العزم، الذين قيل عنهم[1] :-

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْم تـأتي العَزائِمُ وَتـأتي علَـى قَدْرِ الكِـرامِ المَكـارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُها وَتَصْغُرُ فـي عَين العَظيمِ العَظـائِمُ
وَمَـنْ طَلَـبَ الفَـتْحَ الجَليـلَ فإنّمَـا مَفاتِيحُهُ البِيضُ الخِفافُ الصّوَارِمُ
وكيـفَ تُرَجّـي الـرّومُ والـرّوسُ هـدمَها وَذا الطّعْـنُ آسـاسٌ لهَـا وَدَعـائِمُ
هَنيئـاً لضَـرْبِ الهَـامِ وَالمَجْـدِ وَالعُلَـى وَرَاجِيـكَ وَالإسْـلامِ أنّـكَ سـالِمُ

والشق الثاني للمأساة هو: (تفشي الوهن) لدى القيادة في إسطنبول، كما أن الدولة تبدو وقد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة المنذرة (بالانقراض الوشيك)، فقد مرت أربعة قرون منذ دخلت قوات العثمانيين إلى الشام ثم مصر والعراق وبعد ذلك كافة ديار العرب، وقد أخذت منذ أكثر من قرن تتردى قدرتها على (الرؤية والتفكير) ولا يوجد أمل في لوح اتجاه التدهور في كيان الإمبراطورية، وكما قال الطيب الرندي:-

لكـل شـيءٍ إذا مـا تـم نقصـانُ فـلا يُغـرُّ بطيـب العـيش إنسـانُ
هِـيَ الأَيّـامُ كَمَـا شَـاهَدْتُها دُوَلٌ مَـنْ سَـرَّهُ زَمَـنٌ سَـاءَتهُ أَزْمَـانُ
وَهَـذِهِ الـدَّارُ لَا تُبْقِـي عَلَـى أَحَـدٍ وَلَا يَـدُومُ عَلَـى حَـالٍ لَهَـا شَـانُ
يَـا مَـنْ لِذِلَّـةِ قَـوْمٍ بَعْـدَ عِـزِّهِمُ أَحَـالَ حَالَـهُمُ جَـوْرُ وطُغْيَـانُ

(1) الشعر لأبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني.

واختتم قوله: إن الدولة العثمانية بسبب تدني العزم وتفشي الوهن قد أصبحت (آيلة للسقوط) وهي حاليًّا في مرحلة متقدمة من التفكك، وإن كانت تستطيع إلحاق الأذى بالبعض إلا أن قدرتها على إفادة نفسها مضمحلة.

قال اليحيا: إنك لم تجب على سؤالي السابق يا عبد الله، عن مصدر معلوماتك هذه؟

أفاده: إني أطلع على بعض المخطوطات والكتب في الشعر والتاريخ والفلسفة والفقه، كما أتابع بعض المنشورات الدورية مثل صحيفة المقطم.

انتفض الرجل حانقًا وقال: ألا تعلم إنها وغيرها مثل الأهرام والهلال كلها قام عليها نصارى الشام الذين عادوا أمير المؤمنين في إسطنبول، ثم قدم لهم الإنكليز الدعم وأحضروهم إلى مصر بعد أن احتلوها قبل عشرين عامًا، فأخذوا هناك يروجون لأخبارهم المغرضة، وينشرون الأكاذيب عن الخليفة، وهم آمنون تحت حماية العساكر البريطانيين وفي غفلة من إدراك العرب والمسلمين للمخاطر التي تحيط ببلدانهم إذا ما ضعفت دولة الخلافة، وكما قال الشاعر:-

أَكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السّوْءِ سَيِّدَهُ ... أَوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبُهُ ... إِنِّي بِمَا أَنَا شَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصرَ عَنْ ثَعَالِبِها ... فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفنى العَنَاقِيدُ

إن علينا جميعًا الحذر مما يحيكه ضدنا النصارى واليهود، بدعم من روسيا وإنجلترا ولابد من التنبه لتلك الخطط الخبيثة ضد الإسلام، وأن لا نركض وراء أكاذيب أعدائنا.

وفي خاتمة الختام أود أن أنهي حديثنا، بأن الأفضل إذا ذهبت جموعكم إلى الرياض لمقابلة آل سعود، أن يناقشوا مع الأمير عبد الرحمن بن فيصل وأولاده مسألة إعادة العمل بالاتفاق المبرم بينه وبين آل رشيد قبل خمس عشرة سنة، وعندما استفسروا عن ذلك الاتفاق أفادهم أنه في ذلك

الحين جرت مفاهمة بين عبد الرحمن آل سعود ومحمد آل رشيد (عم عبد العزيز بن متعب) بأن يتولى الأول حكم العارض منفردًا لا يتدخل في حكمه أحد وملتزما بالشروط التالية :

1- أن يحمي السبل في بلاده، ولا يسمح لقطاع الطرق باتخاذها مأوى لهم، ويقدم الرعاية للقوافل المارة من عنده سواء كانت للحجيج أو التجارة.
2- أن يجبي الزكاة الشرعية ويحتفظ لمنطقته بالخمسين ويرسل الثلاثة أخماس إلى الباب العالي.
3- أن يلتزم بالمشاركة في جهاد الدولة بإرسال العدد المقرر من الرجال، وعلى أن تتحمل الدولة نفقاتهم وتجهيزهم بالسلاح والذخيرة والمؤونة.

كما أوضح لهم أن الأمير عبد الرحمن التزم بذلك لمدة سنتين فقط، ثم أغراه بعض أهل القصيم بنقض ذلك والهجوم سويًا على الرشيد، الذي لم يمهلهم كثيرًا حيث هجم عليهم في المليدا أو هزمهم ثم بطش بهم، بينما كان السعود في طريقه من الرياض، وعندما بلغته الأنباء فر هاربًا إلى الكويت. وأن الأمير عبد العزيز بن متعب في البصرة الآن ليس لجلب قوات عثمانية لمساندته، وإنما لوضع حل يتلافى الصدام المستمر بين البيتين السعودي والرشيدي، والذي يتلخص في أن يكون عبد الرحمن آل سعود متصرف منطقة العارض، ويحمل رتبة لواء باشا في الجيش بكل مزاياها، بينما يوجد في القصيم قائم مقام عن والي البصرة يعين من قبل الدولة، وعلى أن تكون هذه المنطقة فاصلة بين بلدات ابن سعود وبلدات ابن رشيد في الجبلين، وبذلك تسكن النزاعات ويتوقف سفك الدماء. وإذا قبل آل سعود بذلك فإن ابن رشيد سيقدر على إقناع الترك بذلك، وهو رجل لم يعرف عنه الغدر أو نقض العهود قط في أمر سبق ذلك، ونؤمل أن تقنعوا الأمير عبد الرحمن في الرياض بهذا، علمًا بأن الحكم سيكون مقصورًا عليه وذريته وسيحصل على حماية ورعاية الدولة.

نهض الجد عبد الرحمن قائلًا: إن الشمس قد بدأت بالزوال نحو الغرب ودخل وقت فريضة الظهر، حيث إن أهل الحريق كانوا دون مسافة قصر

الصلاة، فقد أمهم أحد مرافقي أهل القصيم وصفوا جماعة ورائه، بينما اصطف البقية على يمينهم وميسرتهم، وبعد الجلوس في الركعة الثانية سلم الإمام وأنهى صلاة الظهر وقام أهل الحريق لإكمال الأربع ركعات كل منهم منفردًا، بينما أقام المسافرون لصلاة العصر وصلوا اثنين حيث إنهم على سفر بعيد، تلا ذلك أن بدأ فك المخيم والاستعداد للرحيل، وتحميل الأدوات والأمتعة على الدواب، وأعد العمال ركائب المسافرين إلى القصيم نحو الشمال بميل نحو الغرب، استكمل والدي وأبوه وبقية الجماعة التجهيز للرحيل في قافلة واحدة مع العمال سويًّا، وكان جدي يستحثهم لسرعة المغادرة حيث بدأت تهب نسمات (برد الشبط) والنهار ما زال قصيرًا، وكان لا يريد أن تغيب الشمس إلا وقد وصلوا إلى منازلهم. دخلوا البلدة قبل مغيب الشمس بقليل، وأثناء توجههم للبديعة شاهدوا لأول مرة هلال الشهر الذي غمت عليه سحب متفرقة في الأيام الأولى لبزوغه، ودعا الجد رفاقه إلى مباشرة ما تبقى من عشر ذي الحجة بالصيام والدعاء لله أن يحفظ الحجاج ويتقبل منهم وأن يشرك الجميع معهم في الأجر، وأن يجعل العام القادم سنة خير وبعد عن الفتن.

بعد عصر الثامن من ذي الحجة ذهب الوالد إلى مجلس عمه زيد، حيث وجد لفيفًا من أسرة الخثلان يناقشون ما ورد للإمارة في البريد صباح ذلك اليوم، وهو خطاب من الإمام عبد الرحمن يوضح أن ابن الرشيد قد اتخذ القصيم قاعدة لهجماته على العارض وقد تمكن رجال الإمام من الهجوم على جنوب المنطقة والقضاء على مندوب الرشيد في السر وتشتيت قواته والاستيلاء على تلك الجهات، وحرصا على منع الهجمات على أرضنا من هناك فيلزم إخراج مندوبي الرشيد من المدن الرئيسية مثل عنيزة وبريدة والرس والبكيرية والخبر، حتى تأمن البلاد شر هجماتهم، وقد حث الإمام في خطابه من يرغب من أهل الحريق المشاركة في تلك العمليات للتجهيز للتوجه إلى بلدة المذنب، حيث ستتجمع قوات العارض مع مؤيدي آل سعود في القصيم لإخراج مندوبي ابن الرشيد من المنطقة، وعلى أن يبدأ التوجه إلى هناك بعد إنهاء الأضاحي فورًا، على أن يتوافد الجميع للمذنب قبل نهاية الشهر بجمعة أو عشرة أيام.

كان هناك نفر قليل من آل خثلان، ودار نقاش حول الأمر وكانت الأنباء التي جاء بها أهل القصيم قبل أيام قد بلغت الجماعة، وأفادهم بعض العمال عما ذكره أولئك الزوار من أنباء قدوم عساكر الترك، وأهمية الإذعان لخليفة المسلمين العثماني، وعرضهم تولي الإمام عبد الرحمن رئاسة منطقة العارض. أخذ الجدل يحتد حول تلك الأمور، وأوضح أحد المشاركين ملاحظتين على الخطاب بما يلي :-

1- صيغته لا تدل على الاستدعاء أو النفير للجهاد، وإنما دعوة لمن يرغب المشاركة في صد القوات القادمة للقصيم .
2- اشار الخطاب إلى ابن الرشيد ومحاولاته استغلال القصيم قاعدة للهجوم على العارض، ولم يشر قط إلى عساكر الترك الذين قال عنهم اليحيا، فهل قدوم الترك مجرد وهم أو أن الخبر لم يصل إلى الرياض أو أنه وصلهم الخبر ولا يريدون التركيز عليه .
3- إذا كان آل سعود قد سيطروا على السر فما هو دور باديته وهم من قبيلة عتيبة من أكثر العرب عددًا وشدة بأس ومشهورين بخصالهم الفريدة. فإذا كانوا مع آل سعود فإن تحرير القصيم من آل رشيد سيكون أمرًا ميسرًا، أما خلاف ذلك فإن الهجوم على المنطقة سيبقي الخاصرة اليسرى والمؤخرة مكشوفة لهجمات معادية، أو على الأقل متقلبة الولاء.

وبناء على ذلك فإن الرجل اقترح عدم المشاركة في تلك العملية، لما فيها من سفك للدماء لا داعي لها، وبخاصة أن أهل عنيزة جلهم من سبيع وبخاصة رؤسائهم.

بادر البعض إلى الاعتراض على ذلك الرأي، وأشاروا إلى أن أمن وسلامة العارض تستوجب السيطرة على المنطقة التي تعتبر ممرًا أو مقرًا لتهديد ديارهم. وأشار البعض أن مسؤولية وعبء الدفاع عن العارض تقع على أهلها، وكذلك أهل القصيم عليهم الدفاع عن أرضهم، و أوصوا أن تترك القصيم في (كبد أهلها) .

عندما اقترب موعد غروب الشمس بدأ الكثيرون يبدون الرغبة في الذهاب للإفطار مع أسرهم وفي منازلهم. كان ضمن الحضور العم سعود

وهو من كبار آل خثلان، ويعمل في التجارة ووسع الله عليه بكثرة المال والذرية، وعنده عدد من الخدم، وعرض على الجميع الالتقاء غدًا على الإفطار ثم استكمال مناقشة الأمر مع بقية أفراد الجماعة، ويكون الوقت متسعًا بعد العشاء الأخير لبحث كافة جوانب الموضوع.

قبل مغرب اليوم التالي كانت طرقات البلدة شبه مقفرة، حيث الجميع صائمون في يوم عرفة، ويسألون الله في تلك الساعة أن يشركهم في عطاياه لحجاج بيته، وأن يهبهم رضوانه ورشاده ويرزقهم العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة والذرية، حيث كان حتى من لم يتسنى له الصيام في عشر ذي الحجة لا يفرط في صيام يوم عرفة لفضله الجليل. وصل إلى مكان العم سعود وهو من النوع المسمى في الحريق (قصر) أي مقصور على من يدعى لدخوله حيث يحيطه سور ويقع داخل بستان عامر بالأشجار المثمرة، ويتكون المبنى الرئيسي من طابق أرضي للضيوف ثم يعلوه مجلس متسع في الطابق الذي فوقه، مع خارجة تشرف على الحديقة الخلفية التي تحوي بئر الماء المطوية والمنحاة التي تسير عليها البهائم لرفع المياه، وجد عددًا قليلًا في المجلس السفلي من كبار السن ومن لا يستطيعون صعود الدرج للطابق العلوي، حيث توجه إلى هناك ولاحظ أن المكان مزدحم بكثير من أسرة الخثلان، بينما الشباب قد جلسوا في الخارجة حيث أعدت لهم الأبسطة الوثيرة المفروشة على الأرض، مع مساند وتكايات محشوة بالطرف والليف، فأخذ مكانه بينهم، كان الجميع في حالة إرهاق وظمأ، يتطلعون إلى شيء من القهوة والتمر ولا مجال للنقاش أو الحديث.

هبت نسمات باردة خفيفة قبل مغيب الشمس بدقائق، رغم أن النهار كان دافئًا، ومن لم يتأهب للجلوس في الهواء الطلق شعر بالضيق. معظم أهل الحريق يرتدون في فصل الشتاء سترة خارجية (عباءة) إما من جلد وصوف الضأن تسمى (فروة) وهي دافئة وتجلب الحرارة إلى الداخل ولكنها غير مريحة وثقيلة عند الحركة، والبعض الآخر يرتدي البيدي وهو مصنوع من وبر الجمال ويعاب عليه أن أدنى رطوبة تلامسه تؤدي إلى إصدار روائح غير مستحبة منه، أما أهل اليسار فعلي مناكبهم البشت

المنسوج قماشه من خليط من شعر الماعز والصوف والوبر، وتحلى أكتافه وأطرافه الأمامية بالنسيج الموشى بالقصب والخيوط ذات اللون الفضي أو الذهبي، وهي خفيفة عند الحركة بها ودافئة ومتينة، وتعطي مظهرًا أنيقًا، حيث عادة تستورد من الشمال في قطعتين ثم يجري تقييفها لدى أحد البزازين أو الخياطين، مما يجعلها تبدو مطابقة لملابس الشخص المقيفة على مقاسه. انشغل الجميع بالتسبيح وذكر الله والدعاء في الدقائق الأخيرة من ذلك اليوم الفضيل، وحينما اقترب وقت الأذان نادى أحد المضايفية على الرجال الموجودين في القاعة العلوية للنزول إلى الفناء والتوجه إلى مائدة الإفطار، توجه الشباب الجالسون في الخارجة نحو سلم صغير ينحدر مباشرة إلى باب القوع، ومن هناك لا حظوا أن كبار السن قد أخذوا مجالسهم في صدر السفرة، وبعضهم يجلس على حائط حيث يعانون من آلام في الركبة أو الفخذ ولا تتوافر لهم جميعًا المقاعد الكافية، بينما انتشر الرجال على يمين ويسار السماط المفروش على الأرض، أما الشباب فقد حشروا أنفسهم في بداية ذلك المجلس الممتد على مساحة كانت مزروعة ببعض العلف، ولولا سماكة الأبسطة والزرابي لما استطاعوا الجلوس إلى جوار الحصير الذي وضعت عليه صحاف الطعام. كان صغار السن والخدم يباشرون الضيافة على الحضور حاملين معهم أوعية معدنية وفخارية فيها الماء وحليب النياق الطازج ولبن البقر والماعز الخاثر، بينما يقوم المضايفية بحمل دلال القهوة وفناجيل التقديم استعداداً لانطلاق الجميع في تناول الإفطار فور بدء المؤذن نداء صلاة المغرب امتدت الأيدي وهي تذكر اسم الله نحو صحون وسلال من التمر المكنوز من النوعيات الجيدة، ثم يتبعونها برشفات من الماء ويلي ذلك القهوة، رأى الوالد رحمه الله أن الأنسب البدء بصحن الحريرة الذي يليه، والتي تتكون من حساء به بعض البقول والخضروات واللحم والبهارات المصلحة للنكهة، حيث إن هواء المساء البارد قد أخذ يؤثر على الأطعمة التي يوجد بها كمية وافرة من الدهن الذي قد بدأ يغلظ من تدني الحرارة.

كانت مأدبة العم سعود هذه مثل عادته تحفل بفنون من الأطعمة الشهية وأصناف المأكولات الراقية والحلويات المنزلية التي لا تصنع عادة إلا في

شهر رمضان، كما تضمنت المائدة بعض الأطعمة المحفوظة و المصدرة للحريق من مسقط والبحرين، غادر أشخاص من الحضور المائدة عاجلا بعد أن التهموا أكبر قدر من المعروضات المميزة، وهم يطبقون المثال المعروف حول تناول الطعام مثل الجمال والمغادرة قبل الرجال، بينما تريث البعض في أخذ الحصص المعتدلة من الأغذية تناسب خواء المعدة طيلة النهار، وقد أخذت العتمة تسود في الحديقة والمصابيح الزيتية ضعيفة لا تكاد تجعل الشخص يميز الجالسين عبر السماط، صاح بعض المضايفية على الحضور بأن الصلاة ستقام جماعة قبل غياب الشفق، وبالتالي لا داع للاستعجال في مغادرة المائدة لإدراك جماعة المسجد، حيث معظمهم حاضرون هنا وستقام الصلاة في آخر الوقت الشرعي، غادر الوالد المكان لغسل يديه والوضوء لأداء الفريضة، ولاحظ دخول الصبية والعمال لتناول الطعام في جولة ثانية على المائدة، وهي تكفي لعدة جولات تتعاقب عليها، ويفيض الكثير ليرسل إلى منازل المحاويج في القرية . غادر عدد غفير من المدعوين المصلى، رغم أن الإمام قد أشار على الجميع بالانتظار لوقت قصير، ريثما يدخل وقت العشاء حتى ينصرف الجميع بعد ذلك، أمضى الوالد ذلك الوقت في أداء السنن الراتبة لفريضتي المغرب والعشاء، وتلاوة كتاب الله على ضوء سراج صغير.

توافد جمع غير كبير من أسرة الخثلان وبعض أسر الحريق الأخرى من سبيع إلى القاعة، وبدأت مناقشة مستفيضة حول مسألة الرحيل إلى القصيم لمنازلة عساكر الترك وآل رشيد ودعماً لجهود آل سعود، واستطرد النقاش إلى مواضيع متشعبة تدور حول ما سبق أن ناقشه والده مع آل يحيا قبل أيام عند رحيلهم للقصيم، لم يخل المكان من المثبطين الذين يرون البقاء في ديارهم وعدم النفرة للجهاد، وآخرون من المسترزقين الذين يحبون الحصول على قدر من المتروكات المتوقعة بعد المعركة ولكن مع تفادي أخطارها. وانصب الحديث حول أهمية منع رجال الدولة العثمانية من اتخاذ القصيم قاعدة للهجوم على العارض، بينما الطرف الأخر يرى أن النصر حليف آل سعود ما داموا في أرض صديقة وبين عشيرتهم، وإن الخارجون من العارض سيواجهون أرضًا غريبة

وأناس متقلبو الولاء. كان الضجيج يعلو في بعض الأوقات، ولم يستطع الوالد هو والشباب في سنه من دخول القاعة، وبقوا خارجها ينصتون للنقاش، حيث دخل الضجر نفوس الكثير وأفادوا أنهم يريدون الخلود للراحة بعد الصيام واستعدادا لصباح العيد والصلاة والأضاحي ويودون الانصراف، تدخل صاحب المكان العم سعود قائلًا: إن المسألة اختيارية، وكل من يجد في نفسه «الرغبة والقدرة» يسجل اسمه، ويبدأ الإعداد للسفر بعد أسبوع واحد. طلبوا أوراقا وأقلاما ودواة وثلاثة من الشباب القُرَّاء، كان والدي أحدهم، وأخذوا يكتبون أسماء المتطوعين للسفر، على أن يرسل السجل للإمارة بعد العيد مباشرة، كان ثلاثتهم يجتمعون حول أحد مصابيح الكاز، ويملون على كل منهم أسماء يسجلها، وكان الوالد غير سريع في الكتابة لأنه يحاول تحسين خطه، كما أن القلم المعطى له ذو ريشة رديئة، ولا يكاد يكمل اسم واحد بغمسة من الدواة، ولم يكن هناك الأقلام ذات الحبر الجاف، وتكون الكتابة في أول السطر بعد الطمس مباشرة مضمخة بالحبر وتعتدل وتتضح في الوسط، ثم تتدنى في النهاية. سمع أحدهم يملي على زميله اسم والده عبد الرحمن بن عبد الله بن علي ويضيف عليه: «وإذا لم يتمكن يرسل أكبر أبنائه عبد الله بفرسه وسلاحه» شعر بالقلق وتوقف عن الكتابة قليلا ليتأكد مما سمعه، ثم عاد لإكمال عمله وهو يشعر بزيادة نبضات قلبه.

أخذ شعوره الباطن يتساءل عن حقيقة ما سمعه، وأنه سيشارك في القتال نيابة عن والده، حتى انتهى إملاء الأسماء، وكانت ورقته على وشك الامتلاء بعد أن أخذت أكثر بقليل من عشرين اسم، وتبين أن زملائه مثله، وأن المتطوعين لم يتجاوزوا خمسة وستين شخصًا من بين الحضور، ناول الورقة إلى العم سعود، وغادر المكان مسرعًا إلى المنزل والحيرة تستغرق كل أفكاره، فهل سيتمكن فعلا من السفر إلى القصيم وهل ستوافق والدته على ذلك؟ انتابته الهواجس والمخاوف حول ذلك الأمر وعواقبه، وإذا كانت إيجابيتة تفوق مساوئه.

بعد أن تشوشت أفكاره حول ذلك وطردت عنه النعاس، اتجه بفكره إلى اثنين من أهل القرية سمعهم يتحدثون بأسلوب ساخر عن مأدبة الطعام التي أقامها العم سعود، ويستهزئون بنوعيات الطعام، وهم ممن يحضر كل «مأكلة» في البلدة، ولكنهم لا يشكرون النعمة. لقد استفزه ما قاله أحدهم،

هذا كل ما عنده «عساه الطاعون» وأجابه الآخر: لديه كل تلك الأموال وهذا القصر وقد بخل علينا! فأجابه الأول بتهكم «عسى بيته يطبز عليه هو وعياله» فاستشاط غضبًا وكاد يوبخهم على ذلك ولكنه تذكر فارق السن الكبير بينه وإياهم فآثر الصمت واسترجع. وقد قص علي لاحقًا أن قائل ذلك قد تهدم منزله بعد هذا بنحو سنتين حينما هطلت أمطار متوسطة على البلدة، [**فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**] [النحل: 26] وسأل الله أن ينجيه وأحبته وصالح المؤمنين من سخط الخالق عز وجل. لقد تألم كثيرًا من أقوال أولئك الأشخاص، وبخاصة أن الجميع شهدوا للعم سعود بحسن الضيافة، كما كان البعض قد نصحوه أن يؤجل الوليمة لليوم التالي، ولكنه لم يشأ أن يخلط بين طعام المأدبة ولحوم الأضاحي أو ما يتصدق به على المحتاجين يوم العيد.

بعد بضعة أيام سمع والده ووالدته في جدال حول مسألة ذهابه إلى القصيم مع فرقة المدافعين عنها ضد الهجوم التركي، وفهم أن والده يريده أن يقوم مقامه في ذلك، وأنه سيكون مرافقاً لعمه حمد، الذي سيحرص على أن لا يعرضه للمواجهة الحربية مباشرة، وسيقتصر دوره على المساندة في الخطوط الخلفية، وتقديم الخدمات للمقاتلين بدون المشاركة في الالتحام.

أما والدته فقد اعترضت بشدة على مغادرته الحريق في هذه السن المبكرة وفي غير صحبة أبيه. ولم يرغب أن يشارك في ذلك النقاش بل يكتفي بالتريث لحين انجلاء الأمر على ما يختاره الله له. استدعاه والده في اليوم التالي وأمره بالاستعداد للتوجه إلى القصيم مع عمه حمد، وزوده ببندقية ألمانية جيدة ذات مدى بعيد، وأفاده أن العامل بريه قد جهز له فرسا أصيلة جيدة وذلولا نجيبة، طلب إعطائه «الغيداء» حيث إنها قد اعتادت على ركوبه لها، ولكنه رفض قائلا: إنها متوعكة مثل راعيها، ولا تتحمل السفر البعيد. صباح يوم الرحيل كان باردًا رغم إنه آخر أيام نوء الشبط[1]، وهو في تلك المنطقة آخر نجوم الشتاء، اتجهت القافلة نحو

(1) نوء الشبط (شباط)هو النوء الذي يحل بعد نوء (المربعانية) مباشرة ويأتي بعد نهايته نوء (العقارب) ويبدأ أول أيامه من يوم 15 كانون ثاني (يناير) لنهاية يوم 9 كانون ثاني (شباط) لمدة (26 يوماً).

ونوء شباط (ليس نجماً) إنما هي صفة، اتصفت بها الأيام التي تقع بين نوء (المربعانية) ونوء (العقارب)

حيث أن مجموع تلك الأيام المتشابهة في سماتها المناخية، وسماتها النباتية يبلغ مقدارها (26يوماً) وقد سمي (شباط) بهذا الاسم، نسبة إلى شهر (شباط) السرياني الذي يوافق شهر (فبراير) الميلادي. ويشتمل نوء (شباط) أو (الشبط) على (منزلتين اثنتين) من منازل الشمس، والقمر وهما =

الغرب وعبرت وادي باطن الحريق، حيث أفادهم أحد المرافقين أن بعض سبعان الأفلاج قد «أمرحوا» على مسيرة ساعتين وقد يكون مناسبًا مرافقة البعض منهم في المسير على أن تبقى كل «خبرة» مستقلة بنفسها. كانت الأرض جرداء حيث أن أمطار الخريف في تلك السنة كانت شحيحة، وعندما وصلوا إلى مقر أهل الأفلاج وجدوه ذا كلأ، فقرروا الجلوس بعض الوقت حتى ترعى الدواب منه، كان العدد المصاحب لهم يقل عن أربعين شخص، انقسموا إلى «خبرتين» إحداهما بقيادة عمه حمد، رغم أن المسجلين سابقًا للخروج كانوا أكثر من ستين، ولكن البعض تخلفوا لظروفهم أو «لبعد الشقة» عليهم.

كان معهم عبدالرحمن مالك محل الكتب في الحريق، وبينما كانوا متجهين غربًا بميل يسير نحو الشمال للقاء إحدى مجموعات أهل الأفلاج، أخذوا يتبادلون الحديث حول مسميات وادي الحريق، وعدد الشعبان و المجاري التي تصب فيها، وأفاد الرجل أن البعض ذكروا له أن عددها يفوق على مائتين.

بعد قليل تبين لهم عن بُعد منازل الأفلاجيين وقد تأهبوا للرحيل، وانضموا جميعاً في قافلة واحدة تسير على مهل، ولكن في أكثر من خبرة، كان من بينهم رجل من سبيع الأفلاج يقال له سعود، وقد تعرف عليه عبد الرحمن حيث كان يبدو عليه حبه للمعرفة ومتابعة العلوم والدراسات مثل نفر قليل من سكان وسط جزيرة العرب في تلك الأزمان، ترافق الثلاثة في المسير سويًا ورابعهم العامل «بريه» ودوابهم تحاذي بعضها في المسير، يتبادلون الأحاديث حول عدة أمور تاريخية أو أدبية أو شرعية، عند الظهيرة توقفت القافلة وأقامت كل مجموعة منزلا مؤقتًا لها.

تولى العمال خدمة الركائب وجرى تجهيز وجبة خفيفة، واستراح العم حمد في أحد بيوت الشعر حيث كانت الشمس حامية الأشعة، رغم برودة الهواء. انضم إليه الوالد وعبد الرحمن وسعود لتناول الطعام أو الاستراحة، ولكن لم يتمكن أحد من أن يغفو للقيلولة، وسأل أحد الحاضرين من أهل الأفلاج إذا كان أحد منهم يعرف قصة مكان غار آل سعود الواقع شمال شرق الحريق، فأجاب العم حمد أن عبود «والدي» سبق أن سمع

منزلتا:

1- النعايم، أو كما يسميها العامة: (شباط أول) .

2- البلدة، أو كما يسميها العامة: (شباط ثاني) .

ومجموعة نجومهما تقع كلها ضمن مجموعة نجوم برج (القوس).

وأهم سماته: وضوح هواء الزفير الخارج من الرئتين، لتكثفه من شدة البرد .

- البرد القارص الشديد، المصحوب بالصقيع، والضباب.

عن العم زيد الكبير ويمكن شرح ذلك لهم. قال لهم أن عام (1234 هجرية) كان سيئًا حيث جرى إعدام آخر زعماء الدولة السعودية الأولى، وكانت قوات والي مصر الغاشمة مستمرة في عدوانها على مدن العارض، وقد تمكن الإمام تركي بن عبد الله بن محمد حفيد مؤسس الدولة الأولى من الاختباء في منطقة علية (علياء) في الحريق وسط تلك الجبال النائية التي نراها شرقنا، وأثناء ذلك تمكن من إعادة تنظيم الوضع العسكري وإقامة الدولة السعودية الثانية.

استنكر البعض ذلك السرد وأفادوا أنه يدخل ضمن التلخيص المخل، وأنهم يريدون معرفة تفاصيل الأمر بشأن ذلك الغار، وما جرى حوله في تلك الحقبة البعيدة.

قصة غار آل سعود:

أفادهم الوالد أن من الصعب التماشي بين «التلخيص المخل» «والتفصيل الممل» حيث تختلف رغبات المستمعين، ولكن كان هناك ما يشبه الإجماع على معرفة تفاصيل الأحداث حول ذلك الغار.

قال لهم أبي رحمه الله: أن من المعلوم أن مؤسس الدولة السعودية الأولى الإمام محمد كان له اثنان متميزان من أولاده هما عبد العزيز وعبد الله، رغم فارق السن بينهما إلا أنهما ساهما مع والدهما في توطيد الحكم، الذي تولاه عبد العزيز بن محمد بعد وفاة والده، ثم تلاه ابنه سعود بن عبد العزيز، الذي كان لديه عدد كبير من الذرية الذين كان يطلق عليهم آنذاك «آل سعود» تمييزًا لهم عن بقية آل مقرن.

وقام الإمام سعود هذا بفتوحات عديدة يسانده فيها ابن عمه «الأقرب» تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، وأثارت تلك الفتوحات حفيظة السلطان محمود في إسطنبول، فأرسل جحافل عديدة من العساكر من كافة أنحاء الإمبراطورية العثمانية للقضاء عليهم بقيادة حاكم مصر «محمد علي» ثم أبنائه الذين وكلهم لإتمام المهمة بعد أن نجح في إخراج آل سعود من المدينة المنورة ومكة المكرمة. وصلت القوات إلى نجد ثم حاصرت الدرعية ودكتها بالمدافع الثقيلة التي لم يعرفها أهل البلاد من قبل. كان الحكم في الدرعية قد آل إلى الإمام عبد الله بن سعود بن عبد العزيز، وقد تكالبت عليه قوى الشر، ولم يكن في قدرة والده، لذا رأى قبل فترة قصيرة من عيد الأضحى عام (1233هـ) أن يوقع اتفاقية تسليم المدينة (عاصمة الدولة السعودية) إلى إبراهيم باشا بن محمد علي مقابل حقن دماء أهلها وصيانة أملاكهم وأعراضهم، ووافق أن ينتقل إلى مصر لإبعاد النزاعات المحلية. إلا أنه بعد مغادرته بأسابيع قليلة، جاءت إلى الباشا أوامر من

القاهرة للقيام بما يخالف المعاهدة حيث جرى ذبح السكان وتدمير المباني وإحراق المزروعات ومصادرة المواشي والأموال.

كما كان من ضمن الأوامر القبض على كافة أفراد البيت السعودي، وقد تمكن ابن عم الإمام عبد الله بن سعود بن عبد العزيز وهو الأمير تركي بن عبد الله بن محمد، من الاختباء عند بعض أفراد قبيلة العجمان، وهو متزوج منهم، فوفروا له الغطاء في مناطقهم الواقعة جنوب شرق جزيرة العرب من شرق نجران وحتى مسقط وساحل الخليج إلى قطر، يشاركهم النفوذ فيها قبائل من يام والخوالد ومُرَّة وغيرهم، كما يسيطرون علي أجزاء من الربع الخالي، ولهم إقامة في ضواحي الخرج والأفلاج، ورغم ذلك فلم يتمكنوا من إخفاء الأمير تركي، حيث كانت عيون وجواسيس العساكر المصرية تبحث بهمة عن كافة أفراد البيت السعودي. لجأ العجمان إلى بعض أفراد سبيع في الخرج الذين تحدثوا مع معارفهم من سبعان الحائر والحريق، وقد أبدى الجميع ترحيبهم باستضافة الأمير، إلا أن كلا البلدتين فيها أفخاذ من قبائل أخرى، ويرد إليها البدو والتجار وبعض الحجاج، ويصعب إخفاء شخصية كبيرة مثله عن الأعين والألسن. لذا استقر الرأي على البحث عن مكان آمن منزو عن الطرق العامة، وجرى اختيار منطقة التلال العالية الممتدة من طويق، ووجد هناك غار كبير في جبل علية، وهو ليس كهفا بالمعنى الشائع، ولكنه مثل المصطبة التي تقع داخل فتحة غير عميقة داخل الصخور، وهي مظللة بواسطة شرفة علوية عن المطر، ومحمية من الرياح والغبار من ثلاث جهات، وتقع «علية» على مسافة غير بعيدة شمال شرق الحريق (مسيرة نحو أربع ساعات) بينما تبعد عن الحائر ما يقارب مرحلة كاملة (7 – 10 ساعات) ولكنه طريق غير وعر.

أقيم هناك مخيم كبير أمام الغار، بينما انتشرت وحدات المراقبة على قمم الهضاب والتلال لإعطاء إنذار في حال وجود أي قوات عثمانية. أما الطريق للغار من الحوطة فهو وعر، كما أن تلك المنطقة تحت تدقيق سبيع وملاحظتهم. وفي تلك السنة (1234هـ) زادت القلاقل في وسط جزيرة العرب، وأخذ عساكر الدولة العثمانية يعيثون الفساد، والأمير تركي بن عبد الله قابع في ذلك الغار ينتظر الفرصة السانحة للقيام بمقاومة مسلحة ضد الغرباء، وأفادهم الوالد أن جده عبد الله قد زار الأمير تركي في الغار بصحبة والده علي بن حمد وذلك للتهنئة بمولود ذكر أنجبته زوجته في ذلك الغار، وعندما سألوه عن الاسم الذي اختاره للغلام أفادهم أنه سماه «جلوي» لأنه ولد وهم في حالة جلاء وترحل بعيدًا عن بلدتهم الدرعية، و منذ ذلك الحين وهو يسمى غار جلوي وليس غار ابن سعود. وقد تناقش

معه الحضور حول قيامة بحركة حربية لاستعادة الحكم، ولكن الأمير تركي أفادهم أنه لا يمكن القيام بذلك حالياً لثلاثة أسباب هي:

- قيام بعض أبناء وأحفاد عمه (عبد العزيز بن محمد بن سعود) حاليًا بتنظيم أعمال مضادة لجيش العثمانيين انطلاقًا من قواعد في ضَرّمَا وشقراء، والبعض الآخر يتودد للترك ويحاول كسب إقناعهم بالرحيل عن البلاد لقاء ضمان عدم القيام بأي هجمات ضدهم مستقبلاً. وأن (الأمير تركي) لا يود التصادم مع أقاربه في جهودهم سواء الحربية أو السلمية، وبخاصة «آل سعود بن عبد العزيز»، كما يلاحظ أن هناك حركات أخرى يقوم بها آخرون من الخوالد (العريعر) أو من آل معمر ويود ملاحظة ما ستسفر عنه تلك الأمور.

- أن ابنه الكبير فيصل قد وقع أسيراً في أيدي المصريين وأرسلوه إلى بلادهم وقد غدروا بالإمام عبد الله بن سعود بعد أن أعطوه الأمان، وأرسلوه إلى السلطان محمود في الآستانة حيث شنقه بعد أن صادر ما معه، ويخشى أن يتعرض بقية أسرة آل سعود الأسرى لمثل ذلك، إذا قام الآن بحرب واسعة ضدهم في وسط جزيرة العرب.

- لا تتوفر لديه حاليًّا قوات كافية لاستعادة الحكم، حيث يوجد نقص في السلاح والذخيرة والمال، أما الرجال فعددهم قليل لا يتجاوز ألف شخص من سبيع وقحطان والعجمان وتميم.

أفاد الحضور أنه لو أعلن شن هجوم لتطهير البلاد من أولئك العساكر، فسيلقى الدعم والمساندة من معظم الأهالي، ولكنه آثر التريث لحين تبين الوضع بشكل واضح، وعندما جاءت السنة التالية، كانت القوات المعتدية قد أنهكت من قلة الموارد والبعد عن خطوط القيادة والتموين وجرى سحب عدد كبير منهم، وتولى الحكم في الدرعية المدمرة «ابن معمر» لبعض الوقت حيث أصلح قليلا من المباني وهو في حين على وفاق مع «آل سعود» وفي حين آخر على خلاف معهم.

أمرت إسطنبول حاكم مصر بسحب معظم قواته من وسط الجزيرة، وأرسلت ضابطا تركيا هو اللواء بكوش ليعمل كمتصرف لإقليم القصيم حيث تتوفر المياه والمزروعات والمراعي والأيدي العاملة، وتركوا العارض لابن معمر الذي ساندته قوات من بني تميم والمطران، وتخلص من ذرية عبد العزيز بن محمد بن سعود، الذين أصبحوا بين قتيل أو أسير، ووردت أنباء إلى «ظهرة عليا» أن المعمر يخطط للبحث عن ذرية عبد

الله بن محمد بن سعود، وعلى رأسهم الأمير تركي المختبئ هناك والقضاء عليهم.

الطريق إلى الدرعية:

استقر الرأي على جمع قوات والسير إلى الدرعية لمحاربة المعمر، وتجمع لدى الأمير تركي بن عبد الله عدد يناهز الألفين من سبيع والسهول والقحاطين وبعض العجمان الذي وصولوا من الخرج، واتجه الجميع إلى الحائر، ومن هناك إلى الدرعية، وكان في رفقتهم جد والدي الذي كان شابًا في العشرينيات من عمره، ومعهم لفيف من فرسان آل خثلان وبقية سبعان الحريق ونعام، أما أهل حوطة بني تميم فقد اختاروا عدم المشاركة لعلاقتهم مع المعمر التميمي، قال الوالد: أن عمه زيد الكبير قد سمع من والده عبد الله بن علي إنهم أثناء دخولهم الدرعية مع أبيه علي بن حمد، وهم مع الأمير تركي بن عبد الله هالهم القدر المخيف من الدمار الذي أنزلته المدافع بتلك المدينة العظيمة ذات القصور الشامخة، والتي كانت قبل شهور عاصمة لدولة راسخة تمتد في كافة أنحاء جزيرة العرب وتشمل أجزاء من العراق والشام واليمن ومسقط، لقد تهدمت القصور المشيدة من الحجارة و الأخشاب وطوب اللبن على ساكنيها، بفعل ذك المدافع العثمانية والمصرية لها، وكانت رائحة البارود والدم مازالت تفوح في المكان، وكانت الطامة الكبرى هي في وجود عدد كبير من الجثث المتعفنة تحت الركام، ولم يستطع من تبقى من سكان العاصمة إزالة الأنقاض ودفن الموتى وإكرامهم، لذا كان التواجد هناك أمرا غير صحي، وبخاصة مع انتشار الهوام والكلاب التي تنهش ما تحت الخرائب التي مازالت قائمة حتى وقتهم ذاك. لقد أفادهم الجد أن الدموع قد ترقرقت في عين الأمير تركي وبعض رجاله، وهم يرون لأول مرة ما حدث لبلدتهم العامرة يحتسبون ذلك عند الله، سائلين أن ينزل بمن تسبب فيه ما يستحقه من سخط. سارع الأمير تركي لمغادرة الأطلال البائسة وأخذ يبحث عن المعمر وتبين له أنه ترك هناك أحد أبنائه وآخر في منفوحة وتوجه هو إلى بلدته سدوس التي تقع على مسيرة خمس ساعات من الدرعية على وادي الحيسية وهو الطريق للقصيم.

تمكن الأمير تركي والقوات المرافقة معه من القضاء على ابن معمر سريعًا، واستبشر أهل المنطقة بعودة ذلك القائد الشجاع من آل سعود ليسترد الحكم، ويشيد الدولة السعودية الثانية هو وزمرة من الرجال المخلصين له، ونظرًا لعدم صلاحية الدرعية في ذلك الوقت وفي تلك الحالة المزرية لتكون عاصمة لدولته، فقد تقهقر نحو الجنوب الشرقي للدرعية باتجاه منفوحة ومكال وصياح التي كانت قرى صغيرة، تبعد عن الدرعية نحو ثلاث ساعات، ويوجد بين منفوحة والدرعية عدة روضات

من بينها روضة الوشام والمعذرة وغيرهما، وقرر الأمير تركي إقامة عاصمة مؤقتة هناك بين تلك الروضات وقرر أن تسمى «الرياض». كان هناك بستان صغير يسمى دخنة، على بئر فيه يتصاعد منها بخار الماء في أوقات الصباح الباكر عند برودة الجو، وقد سكن هناك أحد أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب لظروف خاصة به، وكانت الأرض الواقعة على بعد خطوات شمال غرب بستان دخنة ذات طبيعة صلبة ومرتفعة من شعيب يمر شمالها ويتجه للشرق نحو وادي الوتر الشهير، وجرى اختيار تلك المنطقة لتشييد ثلاثة مباني رئيسية أولها هو الجامع، وثانيها قلعة تقع شرق الجامع ذات حوائط سميكة وأربعة أبراج، وثالثها قصر لإقامة الحاكم، واستقبال المراجعين أو الزوار من خارج المنطقة ويقع جنوب الجامع، توافدت عدة جماعات من أهالي سدير والمحمل والوشم والخرج والحريق، كما جاء جماعة من الحوطة لمبايعة الأمير تركي، بعد أن قضى على آل معمر واستقرت له الأمور في العارض، وبذلك حصلت له البيعة وأصبح إماما يتولى مسؤولية التوجيه الديني والإدارة السياسية والقيادة الحربية.

واستبشر الكل بقيام الدولة السعودية مرة أخرى والعمل على إنهاء حالة الاضطراب والفساد التي سادت منطقة العارض في الشهور الماضية، كان من ضمن الزوار وفد جاء من قبل متصرف القصيم التركي، عارضا على الإمام أن يتعهد بضبط الأمن في العارض على نفس شروط من سبقه، وتحت ولاية الخليفة العثماني، وفي حال ذلك سيكتب إلى والي البصرة ليحصل على موافقة الباب العالي لإقراره في منصبه على تلك الشروط، كان الإمام في أيامه الأولى في الحكم، ويود التعامل مع الوضع بالروية والحكمة، ورغم أنه لم يشعر بالراحة من تصرفات «بكوش» إلا إنه لم يستطع سوى الموافقة المبدئية على أن تحدد التفاصيل لاحقا. كان ذلك الضابط قد اقتنع أن العارض لن يتمكن من إدارتها إلا أحد الرجال المخلصين والطيبين من البيت السعودي، الذي يحظى بموافقة غالبية الأهالي. وقد كتب إلى مرجعه بذلك، حيث إنه لم يكن في مزاج الدخول في إشكالات مع سكان العارض، وقد ارتاح للإقامة في القصيم، حيث يدير المنطقة بالشدة والعنف، ويسخر الرجال للعمل لديه دون مقابل، كما يلزم البعض بتزويده وعساكره بالنساء لقضاء شهوته، ويصادر الأموال والمواشي من معارضيه.

بعد مرور شهرين استأذن جد والدي من الإمام تركي بن عبد الله للعودة إلى الحريق لمتابعة أملاكه وأعماله، حيث استتب الأمر في الرياض، والأعمال الحالية تتطلب مهام معمارية وليست عسكرية، وقد وعد الإمام أن يرسل له من هناك «أستاذا خبيرا في وضع أساسات المباني» وبَنَّاء للإشراف على إقامة الحوائط السميكة و«سقافا» لإنشاء

أسطح المباني بالطرق المتينة، وذلك للمساهمة في تشييد العاصمة الجديدة المؤقتة للدولة. البريد في ذلك الوقت كان يستغرق وقتًا طويلا، وريثما وصلت رسالة بكوش إلى البصرة، ثم ذهبت إلى الآستانة وعاد الرد كانت قد انقضت عدة أشهر، ورد جواب سلبي على ذلك الاقتراح حيث كتب الصدر الأعظم إلى والي البصرة، بعدم الموافقة على تولي أي شخص من الأسرة السعودية حكم العارض، ورغم إنهم قد شرحوا له أن الإمام تركي ليس من ذرية الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود الذين لم ينصاعوا لأوامر الخليفة، وإنما هو من ذرية أخوه عبد الله بن محمد بن سعود، فقد كان الرفض باتًا، ومعه أوامر بسرعة القبض على الحاكم الجديد وإرساله أسيرًا إلى المعتقل ليلقى العقوبة المناسبة.

توالي الحشود للقتال:

توجهت أعداد كثيفة من قوات «آل أرطغرل» من القصيم نحو العارض تساندها قوات من مطير وتميم، وحيث كان هدفها الأساسي هو إلقاء القبض على الإمام الجديد «تركي آل سعود» فقد انقسمت إلى فرقتين، الأولى قوامها نحو خمسة آلاف رجل اتجهت من الوشم نحو الحيسية صعودًا إلى سدوس ثم العينية والدرعية والرياض، وقد كشفت عن نفسها للجميع، بقصد ورود النبأ للإمام مما يضطره للهروب نحو مخبأه الذي ظنوا أنه في حائر سبيع، بينما تخفت فرقة أخرى قوامها نحو ألف وخمسمائة مقاتل، واتجهت من الوشم جنوبا حتى بلغت وادي «لحاء» وسارت فيه وقد جعلت ثنية الأديراب على يسارها، وهي متجهة نحو الجنوب الغربي حيث يصب وادي لحاء في وادي حنيفة عند الحائر، وهو ما سبب ذلك الاسم، حيث في موسم المطر الغزير جداً (كل ثلاثين سنة)، تندفع مياه هادرة في كلا الواديين، وعند التقائهما يحدث اصطدام ويحتار السيل عن معرفة مكان توجهه، وبعد ذلك ينساب في وادي حنيفة نحو الخرج.

قامت تلك الفرقة بالعسكرة على بعد مسيرة ساعة شمال الحائر، في انتظار قدوم الإمام وفلوله للاختباء هناك ويلقوا القبض عليه. ولكن الله سلم، فقد رصد جماعة من السبعان والسهول تلك الفرقة وعرفوا مكمنها وسارعوا بالاستدارة شرقًا ثم شمالا نحو جبل «الهيت» لتفادي التصادم مع العسكر الأجانب، وذلك الجبل مشهور بوجود غور «حفرة» غير عميقة مليئة بالمياه معظم الوقت، وتوجد بها أسماك وكائنات صغيرة ذوات زعانف وكانوا يسمونه "الدحل ذو الحيتان» ومع الوقت أصبح اسمه جبل

هيت، بعد ذلك أسرعت الفرقة الراكبة إبلا نجيبة بالتوجه نحو ضلع الشقيب الذي يبعد قليلا عن الرياض وأخبروا الإمام بوجود الكمين، وبعد وصولهم بساعات وردت أنباء أسوأ، بوصول جحافل العثمانيين إلى العينية شمال الرياض، وكانت القيادة في الآستانة قد أمرت والي مصر بإعادة إرسال عدد كبير من القوات للقصيم، واجتمعت مع الموجودين سابقاً من الأتراك والعراقيين وتميم الوشم، وهم جميعًا متجهون للعاصمة الجديدة، التي لم يكتمل إنشاء كافة مرافقها بعد، عند ذاك لم يجد الإمام تركي بد من مغادرة الرياض والتوجه نحو الشمال بميل يسير شرقاً حتى وصل إلى «تمير» ثم انتقل إلى «عشيرة» في «سدير»، وبقي متخفيًا لبعض الوقت هناك هو وأخوه زيد بن عبد الله آل سعود وأخوه إبراهيم، وأذن لبقية المقاتلين، بالانصراف حقنًا للدماء.

لم يتمكن الإمام من البقاء في الأطراف الجنوبية الشرقية لإقليم سدير بسبب انتشار جواسيس من قبيلة مطير والموالون للخلافة العثمانية. أما القوات الأجنبية فلم تتمكن من الاستقرار طويلا في أرض مجهولة وسكان معادين لهم، وحينما فشلوا في العثور على الإمام، قرروا العودة إلى مقرهم في القصيم، بعد أن تركوا حامية صغيرة في الرياض.

عندما وصلت تلك الأنباء للحريق شعر الجميع بالقنوط والحزن وخيبة الأمل، وانكسرت خواطرهم بعد تبدد الأحلام في استعادة الأمن والعدل والرخاء لأرضهم بإعادة إقامة الدولة السعودية، وبخاصة لما تحلى به الإمام تركي من خصال حسنة، فهو شجاع كريم متواضع وعلى خلق طيب، وساهم في الشهور الماضية للعمل على تخفيف معاناة المواطنين من موسم الجفاف وضبط الأمن، وفي الوقت نفسه كانوا مسرورين لأفول نجم ذلك الضابط الذي منح نفسه لقب باشا وكان يسوم أهل البلاد بسوء معاملته وغطرسته وتعدياته عليهم وتسخيرهم لإرضاء شهواته. وقد برز في العارض لاحقاً مثل يقول: «موية الباشا تطلع»!

والسبب في ذلك هو أن بكوش قد اختار لنفسه أرضا مرتفعة ليقيم عليها مسكنه و بستانه، وأفاده الأهالي أن الماء لن يصعد إلى المنطقة المرتفعة، وعليه اختيار منطقة ذات منسوب أقل حتى تتجه المياه في جدول حجري نحوها، ولكنه طغى وأمرهم بحمل المياه إلى الأعلى قائلا: «موية الباشا تطلع» وقد أصبح مثلا على من يفرض بغطرسته على الناس أمورا شاقة.

بعد أسابيع قليلة عاد الإمام تركي إلى «ظهرة عليا»، ورحب به وفد من أسرة آل خثلان، حيث أفادهم أنه سيرتب مقاومة مسلحة للقوات الغازية، وفعلا استمر في ذلك خلال ثلاث سنوات لاحقة، يحارب في

منفوحة و ضَرّمَاء والوشم وسدوس بل وفي شرق جزيرة العرب، وبخاصة عندما رأى قوات النصارى الإنجليز تحتل بعض سواحل الخليج. وقد نجحت في النهاية تلك الجهود المخلصة والذكية في سيطرته على العارض، بعد أن حصل على مساندة من «القريب والغريب» ووضع أسس الدولة السعودية الثانية،

أفاده عبد الرحمن وسعود أن ما ذكره عن تأسيس الدولة مفيد ولكنه لم يفصل أحداث تلك السنوات الأخيرة، كما سرده اله عمه عن أبيه عن جده، كما لاحظوا أن بعض معلوماته تتناقض مع ما ورد في كتب التاريخ التي قرءوها.

بادر العم حمد قائلا إننا على وشك استنفاذ وقت الاستراحة، وعلينا التجهيز للمغادرة، وأود أن أوجز لكم ما حدث في تلك الفترة، ولكن لابد من الإشارة إلى أن ما لدينا من معلومات هي من أبي الذي شارك في بعض المعارك وهو شاب يرافق جدي عليا بن حمد، حيث عملوا مع الإمام تركي رحمه الله في تلك المرحلة، ومعلوماتهم من معايشة فعلية وليست أخبارا تلقوها من الغير أو أملاها عليهم أحد آخر، أو كتبوها في مخطوطاتهم لأغراض شخصية، وقال لهم العم حمد إنه في عام(1240هـ)، جاء وفد من العجمان إلى الإمام تركي وهو يدير من غار عليه أعمال المقاومة ضد الأجانب، وأفادوه أن أهل العارض وحدهم لن يتمكنوا من مساندته، وبخاصة أن الوهن قد دخل الكثير منهم بعد أن شاهدوا سلاح الدمار المرعب «مدفع الطوب التركي» يدمر الحصون والقلاع، لذا فقد أوصوه بضرورة الاتصال مع آخرين من العرب، وقد التقى مع أمراء منطقة عسير الذين زودوه بعدد كبير من الرجال والسلاح.

ولكن الدعم الأساسي جاء من بعض أفخاذ قبيلة يام القحطانيين أقارب العجمان، وكان الـمُكْرَمِية[1] في نجران هم أكثر المتحمسين لمساندة الإمام تركي، رغم إنهم من طائفة غير مستساغة في جزيرة العرب، وكان أتباع محمد بن عبد الوهاب يرون أنهم على ضلال، كما كان أئمة اليمن الزيدية يرون مثل ذلك، ولكنهم لاحظوا أن دخول الدولة السعودية في طور الضعف والانهيار، أدى إلى تزايد عداء الزيود للإسماعيليين وتدخلهم في شؤون منطقتهم لذا كانوا يرون أن وجود دولة سعودية قوية شمال أرضهم، تساعد في درء مخاطر الأئمة في صنعاء ضدهم. وفي تلك السنة تجمعت لدى الإمام تركي قوات ضخمة بتجهيزات قوية ويقارب عددها

(1) الـمُكْرَمِية: من فرق الخوارج وهي فرقة إسماعيلية، انشقت عن الطيبية «البهرة» الداودية عام:(999م)، ونسبتهم إلى سليمان بن حسن, وتوجد في مدينة حراز باليمن, و في مدينة نجران.

العشرة آلاف من نجران وعسير وأهل العارض من سبيع والسهول وتميم في الحوطة وعنزة وقحطان، وقام بتوطيد سيطرته على الرياض والمناطق المجاورة لها، ودحر أعدائه دون أن يثير حفيظة العثمانيين أو يشاكسهم.

ما بين وادي نساح إلى بلدة ليلى العامرية:

استأنفت القافلة مسيرتها باتجاه الشمال الغربي، وعندما وصلوا إلى واد ضخم يتجه من الغرب صوب الشرق بميل طفيف نحو الجنوب، وقد تساءل أحدهم إذا كان هذا هو وادي «لحا»، فأجابوه: أن هذا هو وادي نساح أحد أكبر وديان نجد، ودار نقاش حول مصبه الأخير، فقال رجل: إنه ينتهي في وادي حنيفة، ولكن العم حمد أفادهم أن نساح يتجه إلى الكثبان الرملية شمال غرب الهياثم وينتهي هناك، إلا أنه في حالات نادرة عند غزارة الأمطار، قد يغادر تلك المناطق الرملية ويفيض متجه شرقًا (جنوب وادي حنيفة) حتى يتصل مع وادي السهباء الواقع شرق الخرج. ووادي نساح حمى خاص لقبيلة سبيع، ولا يحق لغيرهم الرعي فيه وإقامة مزارع أو التعدي عليه بأي إحداثيات، تؤثر على مصالح القبيلة، التي تسمح لحلفائها من القبائل الأخرى بالاستفادة من موارده بترتيبات خاصة.

وبعد مسافة من المسير، تجاوزوا بعض مساكن السبعان في الحفيرة، وتلا ذلك وصولهم إلى وادٍ صغير، يبدأ من نفس منابع نساح ولكن شمالها ويسمى: «الأوسط»، وفي نهايته شرقًا وقبل أن يصل إلى وادي حنيفة يتفرع منه جزء يسمى «البعيجاء» يلتف يسارًا نحو الحائر، حيث يصب في وادي حنيفة جنوب الحائر و هذا الوادي خاص منذ مئات السنين كحمى لبني عامر، وهم أجداد سبيع والسهول وعدد من القبائل الأخرى المنتشرة في جزيرة العرب من سلالة عامر بن صعصعة، وبخاصة أولئك الذين سكنوا المنطقة من الأفلاج حتى نعام ثم الحائر والرمحية والعتش، أفادهم سعود أن قاعدة الأفلاج مدينة «ليلى» مسماة على ليلى العامرية المعروفة قصتها مع قيس بن الملوح (مجنون ليلى)، وأحداثهم المدونة شعراً ونثراً منذ أكثر من ألف سنة، وما زالت هذه المناطق أراض سبيعية خالصة، ويرحبون فيها ببقية القبائل التي تحترم أصول الجوار والتعاون المشترك، وتقدر مصالح الآخرين ولا تعتمد على الأنانية البغيضة.

وصلت القافلة بعد ذلك إلى واد لحاء الذي يبدأ من تجمع السيول المنحدرة من السفوح الغربية لتلال وجبال طويق، ثم يتجه شرقاً نحو حائر سبيع ويصب في وادي حنيفة، وهو يشق جبال طويق من ناحية ديراب، حيث يوجد طريق تسلكه الدواب والمشاة الراغبين تجاوز طويق عند قدومهم من جنوب الرياض متجهين إلى المناطق الواقعة غرب جزيرة

العرب، ونزلة ديراب تتفرع هبوطاً بشكل سلس مما يجعلها طريقا مفضلا للقوافل والرعاة، وتقل وعورتها كثيراً عن بقية المسالك التي تتجه من مناطق وادي حنيفة غرباً.

سارت المجموعة مصعدة في وادي لحاء متجهة نحو أعلاه، وتاركة جبال طويق على يمينها، وفي تلك المنطقة تكون الجبال في أقصى ارتفاعها، حيث تزيد في بعض الأماكن عن مائة قامة. لاحظ أفراد الجماعة وجود جبل دقيق منفصل عن غيره، وهو يرتفع شامخاً وسط سهل منبسط وقد تساقطت حوله قطع من ذلك الجبل كونت قاعدة من الصخور والأتربة، بينما ظهرت شرقاً منه على بعد يسير تلال طويق المرتفعة. ذكر لهم العم حمد أن الضلع المنتصب هناك يسمى «خشم زبيدة» ورغم إنه يبعد كثيراً عن درب زبيدة الذي يربط بين البصرة والأراضي المقدسة، إلا أنه يعتقد بإقامة بعض تسهيلات لقوافل الحجاج هناك، تشبه ما هو قائم على درب زبيدة الواقع على مسافة خمس مراحل شمالاً. قبل مغادرة «لحاء» سأل أحد المرافقين عن قدم مصبه في الحائر فأجابه الوالد: أن الحائر معروف منذ العصر الجاهلي، وقد ورد ذكره في أشعار أعشى منفوحة، الذي سمي كذلك لضعف بصره ليلا وهو يسكن قرية منفوحة، وتمييزا له عن بعض شعراء العرب المسمين «أعشى »، وقد قال في إحدى قصائده :

شـامتك مـن مثلـة أطلالهـا بالشـط فـالوتر إلـى حـاجر

فـركن مهـراس إلـى مـارد فنقـاع منفوحـة والحـائر

إنـي رأيـت الحـرب إن شـمرت دارت بـك الحـرب مـع الـدائر

وقد أورد فيها أسماء عدة مواقع مجاورة للرياض.

استمرت القافلة بعد ذلك متجهة شمالا، وتلال وجبال طويق تعترض الأفق الشرقي على يمينهم، بينما ظهرت على الأفق الغربي على ميسرتهم كثبان رملية، تساءل البعض عنها، فأجابهم عبد الرحمن: إنها جزء من عدة عروق من الرمال المتحركة، والتي تسمى النفود الصغيرة، تمييزا لها عن النفود الكبرى الواقعة شمال حائل وجنوب دومة الجندل. أما نفود ورمال الربع الخالي فتختلف عنهما، وهذه النفود يصعب اجتيازها، حيث تنغرس فيها أقدام الركائب، باستثناء أنواع من الإبل ذات الخف العريض، وهذه النفود تتكون من عروق مختلفة وأكبرها نفود السر، ثم نفود قنيفدة ونفود الثويرات باتجاه الشمال الأقصى، أما النفود الأدنى فهي «الغزيز»

ونحن الآن في سهل يسمى البطين وهو جزء من منطقة «القرقري» الواقعة بين جبال طويق والنفود. على يميننا طريق شقه بعض الأهالي في العقبة التي تصعد إلى أعلى جبل طويق، وتسمى أم قديد أو قديدان أو القدية وسبب التسمية أنه جرى «قَدّ» وتكسير الصخور لصنع مدرج تتسلقه بعض المواشي المدربة خصيصاً على صعود الطرق الجبلية الوعرة، والتي تتميز بأنها أقرب طريق للوصول من هنا إلى القرى القائمة على وادي حنيفة شرقاً. لقد قام أحد الأهالي واسمه «غازي» بإرشاد بعض قوات إبراهيم باشا، لسلوك ذلك الطريق الوعرة للالتفاف على الدرعية وحصونها ومهاجمتها من الناحية الجنوبية، وأما على يسارنا فتبدو بعيدا منازل بلدة المزاحمية. عم والدي «حمد بن عبد الله» قائد تلك المجموعة، أمر بعض العمال بالإسراع في التوجه بالرواحل التي تحمل المعدات والمؤونة باتجاه الشمال، على أن يقيموا المخيم على ميمنة الدرب المطروق بعد مسيرة ساعتين وبحيث يكونوا شمال شرق البلدة، مع مراعاة اختيار المكان الذي ينزلون فيه بحيث يكون بجواره بعض النباتات والأعشاب لترعاها الدواب، حيث كانت أمطار الخريف في تلك السنة شحيحة والأرض شبه قاحلة.

كما أعطى اثنين من العمال بعض الروبيات لشراء الأغذية من سوق بلدة المزاحمية، حيث نفذ ما لديهم من الخضار والطحين. كانت القافلة تسير الهوينا بينما انطلق العمال مسرعين لتجهيز المنزل لتلك الليلة، وبعد قليل عاد إليهم أحدهم قائلاً إنهم قد التقوا بمجموعة من أهل المزاحمية، وقد نصبوا الخيام على جانب الطريق، ويعدون الطعام للقادمين وطلبوا منهم عدم السير لحين وصول البقية. وجدوا في ذلك المخيم مجموعة من أهالي المزاحمية الكرام من قبيلة تميم، الذين أصروا على أن ينزل أهل الحريق لديهم، وقد أعدوا طعام العشاء، وقد وردهم نبأ اقتراب وصولهم من بعض أقاربهم، ورغم محاولة العم حمد الاعتذار منهم، وطلبه السماح لهم بالاستمرار في المسير حتى قبل مغيب الشمس، على أن يحطوا رحالهم في معسكرهم ولكنهم رفضوا تماماً أن تتجاوزهم القافلة، وقد عملوا على تخفيف المسير عليهم بعدم تكليفهم عناء دخول البلدة. لاحظ العم أنهم قد ذبحوا ثلاثة كباش وباشروا في تجهيز الطعام، ولم يجد بدا من قبول دعوتهم، وهم قوم كرام ويستحقون احترام خاطرهم ورغبتهم. أمضوا الوقت في الحديث عن الأوضاع الحالية، حيث قال بنو تميم أن الإمام عبد الرحمن قد قرر عدم التوجه إلى القصيم وسيبقى في الرياض، بينما توجه ابنه الأكبر عبد العزيز وشقيقه سعد للالتقاء مع أفراد من قبيلة عتيبة وحرب والدواسر الذين يسكنون المناطق الواقعة جنوب القصيم، وبخاصة السر التي تمكنوا في الشهر الماضي من القضاء على مندوب ابن رشيد

وعساكره فيه، ولكن مازال الجمع هناك في معظمه لا يحبذ الدخول في معركة ضد أهل القصيم، وبخاصة إذا عاد عبد العزيز بن متعب من البصرة ومعه قوات عثمانية. قبل الخلود للنوم، رتب العم حمد مع العمال القيام في وقت السحر وقبل الفجر بتجهيز طعام الغداة، وذلك كرامة لأهل المزاحمية.

عند الضحى بدأت أعمال المغادرة، وأفاد بنو تميم إنهم سينتظرون جماعتهم من أهل الحوطة المتوقع وصولهم بعد يومين للتوجه سوياً إلى المذنب، وهم ليسوا في عجلة، لأنهم لا يتوقعون وصول أبناء الإمام إلى القصيم إلا بعد دخول هلال السنة الجديدة، أحد أهل المزاحمية واسمه محمود التميمي كان على معرفة سابقة وصداقة مع سعود السبيعي من الأفلاج، وكانوا يتمازحون ويتبادلون المعارف بينهم ومع عبد الرحمن وبقية شباب القافلة، وقد قرر مصاحبتهم في تلك الرحلة نحو الشمال .

تنازع الأقارب يجلب العقارب:

أثناء جلسة الاستراحة في الخيمة دخل على الجماعة عبد الرحمن وقال مازحًا: «هل تحملوني أم أحملكم» وكان العم حمد متعكر المزاج في يوم أغبر، فرد عليه بأن لديه دلولا نشيطة أو فرسا جيدة وإذا يلزمك حمل كلفنا اثنين من الرجال لإعادتك لأهلك في الحريق، أفاده والدي أن الرجل يقصد ما ورد في طرفه «شن وطبقة» حول تجاذب أطراف الحديث للتخفيف من وعثاء السفر. وبعد شرح التفاصيل تبين أن العم لم يكن مرتاحًا للثرثرة.

تساءل عبد الرحمن عن خلفية تأسيس بلدة المزاحمية، وأفاد محمود إنها تعتبر مدينة حديثة، ونشأت قبل أكثر من قرن من الزمن في أثناء الدولة السعودية الأولى، وقد أسسها بعض الوافدين من الحوطة، ليكونوا بجوار أقاربهم من تميم الموجودين في منطقة الوشم والمحمل, انتقل الحديث بعد ذلك عن وجهتهم، أي منطقة القصيم، واستفسر البعض عن معنى الاسم، وأفادهم عبد الرحمن أن الاسم مشتق من الأرض القصماء، أي التي توجد بها رمال شبه متماسكة وليست ناعمة متنقلة، وهي تربة متكسرة تعاني من القصم. ثم تساءل أحدهم إذا كانت القصيم ضمن إقليم نجد أو إنها إقليم بذاته؟ أفادهم الوالد أن قراءته في كتب البلدان، أو ما يسميه الإغريق علم الجغرافيا، قد أوضحت له وجود اختلاف واسع في تحديد إقليم نجد، حيث قصره البعض على منطقة اليمامة فقط، بينما وسعه البعض ليشمل كامل وسط جزيرة العرب، وليس الهضبة الوسطى فقط، أما آخرون فقد أضافوا إلى نجد كثيرا من أراضي جزيرة العرب، وعدوا

إنها تحد من الشمال بجبل صغير اسمه صفوان (سفوان) يقع غرب البصرة والزبير، وشرقًا بتل الظهران الذي يقع بين منطقتي هجر والقطيف (البحرين) ومن الغرب جبل حضن الواقع شرق الطائف، ومن الجنوب جبال نجران، ومن الشمال الغربي تل درعا بحوران. ومن ذلك يتبين صعوبة تحديد ما إذا كانت القصيم جزء من إقليم نجد، الذي لا يوجد له تعريف دقيق، ويمتد ذلك إلى تحديد إقليم العارض الذي قصره البعض على جوانب جبال طويق الوسطى، الممتدة من سدير إلى الأفلاج فقط. أثناء سير الركاب شاهدوا بعيدًا منازل مدينة ضَرّمَا، وتبادل الجميع الرأي حول معنى الاسم وأورد كل منهم ما لديه من علم حول ذلك، وكان أطرفها ما قاله سعود السبيعي: أن البلدة قد بنيت بجوار كوخ رجل ضعيف كان يشتكي من سوء حاله، وأنه قد أصابه «الضر من قلة الماء» وسميت المدينة على ذلك، وقد شجب العم حمد ذلك التعليل، لأن الأسماء لابد أن تقبل كما هي.

كما أفادهم أن هذه المدينة ذات موقف مشرف عندما وقفت ضد طغيان عساكر إبراهيم باشا المتوجهة إلى الدرعية لتدميرها، وقد أدى ذلك إلى دكها بالمدفعية وقتل بعض سكانها وتشريد البقية، ولكنها عادت للحياة بتوفيق الله ثم بهمة أهلها الأشداء ضد الطغيان الأجنبي، أما محمود فقد ذكر أن ضَرّمَا في الأصل كان اسمها قرماء، وذلك لأن بعض السيول المنحدرة من سفوح طويق الغربية، كانت تقر (تسكن أو تستقر) في منطقة من سهل البطين وتكون غديرا مؤقتا لبضعة أسابيع أو أشهر، لذلك فإن «قر الماء» في ذلك الغور، أعطى لها اسم قرماء الذي حور لاحقًا إلى ضَرّمَاء، وهي معروفة منذ العصر الجاهلي مثل نعام المجاورة لمنطقتكم، أما المزاحمية والحريق فهي بلدات حديثة لم تنشأ إلا في القرن العاشر الهجري.

تركت القافلة بلدة ضَرّمَا على يمينها بعيدًا لعدم تكليف أهلها مشقة ضيافة الركاب أو علوفة البهائم، وذكر أحدهم أن هذه القرية أسسها قديما قوم من بني عامر وهم أقارب سبيع، ويوجد فيها الآن عائلات من قبيلة سبيع، وكذلك من الكثران القحطانيين أخوال العم حمد ولا يريدون أن يتأخروا عن المسير عندهم. استمر الركب في دربه وسط سهل القرقري متجهاً صوب الشمال بميل طفيف نحو الغرب.

وهنا أود التوقف للحظة حيث سألت والدي رحمه الله عند سرده لي أحداث رحلتهم، عن حي اسمه القرقري يقع في الركن الجنوبي الغربي لمدينة الرياض، وكان ذلك في النصف الثاني من الثمانينيات في القرن الهجري الماضي، كان ابن العم سعود بن علي رحمه الله قد اشترى منزلا حديثا مبنيا من الطين ولكنه على طراز عصري، قبل أن يقوم رئيس بلديه

الرياض الأمير عبد العزيز الثنيان رحمه الله بمنع إصدار فسوحات بناء طين في العاصمة، وعندما سألته عن اسم الحي الذي كان يقطنه جماعة من أهل الحريق، أفادني أنه حي القرقري، وكان ينطقه بلهجة الفلاحين في العارض، وذلك بتحويل القاف المكسورة إلى «زاء» أي إنه يكون «الزرزري »، وعندما استغربت ذلك الاسم غير المعروف لدي، أفادني أن سبب التسمية هو أنه يوجد في الحي منزل كبير (فيلا أنيقة) بناها أحد مستشاري الملك عبد العزيز، وكان اسمه خالد قرقني، وإن القوم الذين بنو جواره سموها منطقة القرقري محرفة عن قرقني، قال والدي إنه يشك في تلك الرواية، ولكنه لا يعلم عن وجود منطقة تسمى القرقري في ضواحي الرياض الجنوبية.

كما أكد إنه يعرف خالد قرقرني حيث أرسله ملك ليبيا السنوسي مع وفد للتوسط في الصلح بين الملك عبد العزيز والإدريسي حاكم المخلاف السليماني وهي منطقة جازان حالياً، وقد كان شاباً على دراية وتهذيب عال، وكان يتقن الإيطالية لغة الدولة المحتلة لبلده حينذاك، كما كان ملماً بالفرنسية والإسبانية وقد أعجب بالملك عبد العزيز وبقي يعمل مستشاراً عنده، وهو ذو ذوق رفيع وبنى له مسكنا على الطراز الأندلسي، إلا أنه بعد وفاة الملك باع أملاكه وغادر للسكن في الخارج.

حملة إبراهيم باشا:

بعد هذه الوقفة نعود إلى القافلة التي تسير في سهل القرقري على يمينها جبل طويق وعلى يسارها الرمال المسماة «نفود الغزيز»، حتى وصلوا وادٍ متسع، أفادهم محمود التميمي إنه الحيسية، وهو يسيل من الأمطار التي تهطل على السفوح الغربية لطويق ويتجه غربا نحو روضة سمحان، أما الأمطار على السفوح الشرقية فهي الجزء من الوادي المتجه نحو سدوس ثم الدرعية والرياض عبر وادي حنيفة. لقد أدت عوامل التعرية من رياح وأمطار إلى جعل ذلك المسيل هو أقل الدروب وعورة للوصول إلى الدرعية حيث يوجد طريق عبر الوادي أثناء جفافه ذو ميل معتدل، ويمكن للدواب صعوده إذا كانت لا تتأذى من الحجارة الصغيرة (جراويل) المنتشرة في أرضه، والتي تؤثر على حوافر وأظلاف وأخفاف الحيوانات الصاعدة وبخاصة إذا كانت تحمل الأثقال. لقد جاء إبراهيم باشا بأمر من السلطان محمود خان في إسطنبول وبأمر من والي مصر محمد

علي لكي يقضى علي عاصمة الدولة السعودية، وكان أخوه طوسون قد عقد مصالحة مع الإمام عبد الله بن سعود، تتضمن بقاء العارض في حكم آل سعود مع عدم تجاوزهم تلك المنطقة غربًا، ومنع قطاع الطرق من استخدام العارض كممر ومقر لهجماتهم.

ولكن أهل القصيم استمروا في الشكوى من تدخل ابن سعود في شؤون منطقتهم لذا صدرت أوامر إسطنبول، بعدم قبول المصالحة، وإرسال قوات لتدمير عاصمة السعوديين والقضاء على دولتهم نهائياً. قرر والي مصر محمد علي الألباني عدم قدرة ابنه طوسون على العودة إلى القصيم والقيام بتلك المهمة الشاقة، لذلك اختار ابنه الآخر إبراهيم وفوضه للتوجه إلى قلب جزيرة العرب، وإبادة الدولة القائمة هناك، وزوده بإمكانيات ضخمة، ومستشارين عسكريين من إيطاليا وفرنسا، وكميات كبيرة من الذخائر والمئونة والأسلحة والنقود، وعندما غادر القصيم عام (1233هـ) متوجهاً للدرعية عبر هذا الوادي، أفاده الخبراء العسكريون أن من الواجب حماية جناحيه الأيمن والأيسر من الهجوم المضاد، وكانت شقراء هي أكبر المدن الواقعة على الناحية اليسرى، ومدينة ضَرّمَا ء تقع على الجانب الأيمن لمن يصعد طريق السيل المتجه إلى الأعلى شرقاً نحو الدرعية، كما أشار عليه البعض بوجوب اختبار المدفعية وأساليب الهجوم والتدمير قبل صعود جبل طويق، وكاد يباشر ذلك ضد مدينة شقراء، ولكن قيادتها أجروا صلحاً مع إبراهيم باشا، وأنقذوا بلدتهم من الدمار.

أما أهل ضَرّمَا فقد رفضوا المصالحة، وتعرضوا لدك مدينتهم بقذائف الطوب العثمانية مما أدى إلى استشهاد المئات من أهل تلك البلدة الباسلة، كما أصيب عدد كبير من عساكر مصر والشام والعراق العاملين في تلك الفرقة العثمانية المتجهة لتدمير عاصمة السعوديين، وبعد أن أجهزت القوات الأجنبية على ضَرّمَا، بدأت صعود «درب السيل» الهابط من أعالي طويق، وكانت أرضية الوادي مغطاة بالحصى ذي الحجم المتوسط وحجارة في حجم قبضة اليد مما عرقل سير الدواب التي تجر عجلات المدافع، ولم تتمكن سوى البغال القوية وبعض الثيران من الاستمرار في ذلك «المطلاع» الشاق. لقد فوجئ الغزاة أن ابن سعود (الإمام عبد الله) قد أعد تحصينات قوية في منتصف الطريق، تتكون من «مراقيب» حجرية، وهي أبراج يختبئ فيها المسلحون، وتوجد فيها فتحات لفوهات البنادق، وحيث كانت الأوامر لهم بتركيز مقذوفاتهم على الدواب التي تجر المدافع، مما أدى إلي عرقلة المسيرة. كانت الثيران المصابة بالطلقات تصاب بالهيجان، وترتد على أعقابها محدثة الخلل والاضطراب بين العساكر، وكذلك الأمر للإبل والحمير. لقد كان كل مرقب يحوي ثلاثين إلى خمسين مقاتلا يدافعون بحماس وإخلاص عن الممر الرئيسي المؤدي إلى الدرعية،

وقد كان من بينهم عدد من آل سعود (أبناء وأحفاد الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود) واضعين أنفسهم في الصف الأول مع المدافعين، لقد تعرقلت مسير الباشا أمام تلك المقاومة والصمود ضد العدوان.

ولكن للأسف جاء الخائن غازي بفكرة الهجوم على وادي حنيفة من الجهة الجنوبية بدلا من التركيز على الجهة الغربية وحدها. لقد أخذ فرقة من العساكر على ظهور الحمير والبغال عبر عقبة القدية (أم قديد) حتى تمكنوا من الوصول إلى الأبراج المحصنة من الخلف وتدمير قدراتها الدفاعية. بعد أن انفتح الطريق الصاعد عبر وادي الحيسية.

وصلت قوات الباشا إلى سدوس، ومنها إلى العينية ثم الجبيلة فالعمارية حتى انتهوا إلى الدرعية، وركبوا عليها المدافع في صفوف منتظمة دكت قصورها ومبانيها وأسوارها، ونشرت الدمار والموت في رحابها، فعليهم من الله ما يستحقون. استمع القوم إلى رواية ابن محمود عن الأحداث التي جرت في ذلك الوادي الشهير قبل نحو تسعين سنة من وقتهم، وتمنوا أن لا يتمكن ابن رشيد وقوات العثمانيين من تكرار المأساة ضد الرياض. كان المحمود يعرف مكان المضيق حيث لا يتجاوز عرض الوادي فيه مائة خطوة وأخذوا بالعبور منه، وقد عانت الرواحل بشدة من السير على تلك الأحجار حيث أن بعضها مدبب، وعلموا أن الحجارة تصبح أكثر إيلامًا في أعلى مجرى السيل، وتخيل الوالد مقدار الكلفة في نقل المعدات الحربية والجنود صعوداً في ذلك الطريق الوعر.

منازل امرؤ القيس:

بعد مسيرة بضع ساعات، شاهدوا بالمنظار المقرب (دربيل) مساكن وبيوت إحدى البلدات وأفادهم سعود السبيعي «راعي الأفلاج» أنها مدينة «مُرَاةُ » وهي محل الشاعر الجاهلي الشهير امرؤ القيس، الذي وصف تلك الأماكن وذهابه للصيد غرباً نحو عالية نجد في الدوادمي وما جاورها وقال فيها :

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل ... بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ

فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمهاَ ... لما نسجتْها من جَنُوب وشمألِ

ألا رب يوم لك مِنْهُن صالح ... ولاسيّما يومٍ بدارَة جُلْجُلِ

وَقَـد أَغتَـدي وَالطَيـرُ فـي وُكُناتِهـا بِمُنجَــرِدٍ قَيــدِ الأَوابِــدِ هَيكَــلِ

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقبِــلٍ مُــدبِرٍ مَعــا كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ

وإن تلك الأسماء مثل (الدخول) و(حومل) تقع هناك، أما (جلجل) التي ذكرها في معلقته الشهيرة فربما أنها جلاجل الواقعة شمال الرياض، سارع عبد الرحمن للقول بأن امرأ القيس الذي في مُرَاةُ شاعر، ولكن لا علاقة له بامرئ القيس صاحب المعلقة الشهيرة، وهو من أمراء قبيلة كندة في حضرموت الواقعة جنوب جزيرة العرب، وكان في أثناء مواسم الصيد يتجه مع حاشيته للتنزه في أرجاء بلادنا وقد وصف في أشعاره أماكن في وسط وغرب وجنوب الجزيرة، ولكنه ليس من أهل مُرَاةُ، وربما أقام فيها بعض الوقت أثناء ترحاله في بلاد العرب. أضاف محمود التميمي أن امرأ القيس الذي سكن مُرَاةُ هو من شعراء بني تميم ولا علاقة له بقبيلة كندة، كما أضاف أن مُرَاةُ وما جاورها هي بلاد شعراء تميم المشاهير في صدر الإسلام مثل الفرزدق وجرير، الذين كانوا أصلا من هذه الديار ولكنهم مثل كثير من الشعراء المستعطين يرحلون إلى الحجاز والشام والعراق، للحصول على الأموال من الحكام.

عندما اقتربت القافلة من مُرَاةُ أشار لهم الوالد إلى جبل صغير ذي لون، يميل إلى الحمرة وأفادهم أنه «كميت» الوارد ذكره في كثير من أدبيات العصور الماضية، وجرت حوله أحداث تاريخية عديدة. هنا انبرى أحدهم قائلاً انظروا إلى تلك القرية الصغيرة بجوار مُرَاةُ، وهي تسمى «وثيثيا» وأهلنا عادة ما يسمون من يتخذ قرارته على عجل وبقلة معرفة بأنه: «أحرم من وثيثيا» حيث وردت قصة عن جماعة من شرق الجزيرة متجهة غربًا نحو مكة للحج، ولكنهم حينما هبطوا جبل طويق ظنوا أنهم قد تجاوزوا جبال الطائف، ودخلوا منطقة الحرم وقد تجاوزوا الميقات، لذا فقد سارعوا بدخول نية الإحرام واستبدال ملابسهم، جاهلين أن الميقات يبعد عنهم مسافة بعيدة.

أشار له الوالد أن هذه البلدة اسمها الفعلي هو «أثيثية» وليس كما هو في اللهجة الدراجة لدى الفلاحين في العارض. تدخل عبد الرحمن قائلا: أن الاسم الوارد في المراجع القديمة هو «أَثْيَفِيَة»، والاسم يعني القطعة المتوسطة من الحجارة التي توضع عليها قدور الطبخ، ويستند الوعاء عادة على ثلاثة صخور مناسبة لحجم الماعون، وهناك مثل عربي قديم، يقول عن المشكلة الصعبة، إنها «ثالثة الأثافي» حيث تكمل متطلبات رفع

القدر وإشعال الحطب أسفله للطبخ، وقد أورد زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة، حيث قال :-

أَثـافِيَّ سُـفعاً فـي مُعَـرَّسِ مِرجَـلٍ وَنُؤيـاً كَجِـذمِ الحَـوضِ لَـم يَتَـثَلَّمِ

وَمَـن لا يُصـانِع فـي أُمـورٍ كَثيـرَةٍ يُضَـرَّس بِأَنيـابٍ وَيوطَـأ بِمَنسِـمِ

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَـةٍ وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش ثَمـانينَ حَـولاً لا أَبـا لَـكَ يَسـأَمِ

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

أوضح لهم ابن محمود أن القريتين مُرَاةُ وأثيثية هي من ديار بني تميم ويسكنها بعض من خيار أفخاذها سواء من العناقر أو الوهبة وغيرهم.

بعد مسيرة نحو ساعتين من مُرَاةُ ظهر لهم في الأفق تل متوسط العلو يتكون من الحجارة وكثيب رملي ذي لون أصفر مشوب بقليل من الحمرة، ومن وراء ذلك التل وجدوا مدينة شقراء المسماة كذلك لانعكاس أشعة الشمس من تلك الرمال على المدينة، فتبدو من بعيد ذات طبيعة شقراء. وأمرهم العم حمد بالانسحاب في المسير باتجاه الغرب، وتفادي إثارة انتباه أهل البلدة الكرام وحث الخطى باتجاه الشمال نحو المذنب. تحدث بعض أفراد الركب عن تلك المدينة، وأشاروا إلى أن كثيرا منهم قد استضافوا بعضا من كبار قبيلة سبيع الذين فروا من القصيم للاختباء من سطوة محمد بن رشيد الذي أوقع بهم في معركة «المليدا» الشهيرة، وأنزل عليهم عقوبات الطغاة المستبدين من قتل وحرق وهدم ونفي، والبعض منهم من آل سليم حكام عنيزة قاعدة القصيم الرئيسية، كما أشاروا إلى أن غالبية السكان هم من بني زيد (قحطان الواسعة) المنتشرين في الحوطة والوشم، والكثير منهم يعملون في التجارة سواء داخل جزيرة العرب أو مع البلاد الأخرى المجاورة سواء في العراق والشام واليمن أو حتى الهند.

أما العلوم فهي مزدهرة في شقراء، وتنتشر المدارس القرآنية، ويوجد فيها كثير من علماء نجد الذين كانت لهم مساهمات في حركة الإصلاح الديني خلال القرن الماضي، ويشتهر عامة أهل البلدة بمحافظتهم على الفرائض الإسلامية والشعائر، ويكثرون الصلاة والصيام والصدقة

والحج، تذكر أبي ما سمعه من أحد الظرفاء أن شاباً من شقراء وضع أبياتا شعرية لطيفة حينما كان في سن صغيرة ويتغزل بإحدى فتيات القرية في أسلوب لا يخلو من الحدة والأفكار السلبية الجائرة، ومن تلك الأبيات قوله :-

من خبر جارٍ ذبح بالود جاره بالمبيسم والثنايا المرهفاتِ

حالف ما اسلى ولا انسى حب سارة لين أهل شقرا يخلون الصلاة

جعل ضلع طويق يمحل هو وداره جعل يمحل والوشوم مربعاتي

والدي وسر علاقته بأسرة الجميح:

استمرت المسيرة ساعة ونصف بعيداً عن شقراء حيث وصلوا إلى المخيم الذي سبق للعمال إقامته لتمضية الليل، إلا أنني لا أستطيع مغادرة الحديث عن شقراء العزيزة بدون أن أعرج للحديث عن إحدى أشهر أسرها التجارية وهم «آل الجميح» المعروفين للقاصي والداني استأذن أحبتي القراء الأفاضل، أن انتقل بهم من رتابة السرد الزمني الممل، نحو مكة المكرمة بعد خمسين عاما من تلك الأمسية، لقد بدأت الوعي والتعرف على أقارب وأصدقاء والدي في تلك الفترة، وكان من أكثرهم مودة له هو الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الجميح، الذي صدم والدي بخبر وفاته في منتصف خمسينيات القرن العشرين، حينما كان في بيروت. لقد ورثه في إدارة أعماله التجارية أبناؤه النبلاء وأكبرهم محمد، وكانوا لا يخرجون عن رأي شريك والدهم في تأسيس ذلك الصرح التجاري الصناعي وهو عمهم محمد بن عبد الله الجميح. لقد كانت جلسات والدي مع آل الجميح (رحم الله المتوفى منهم ووفق الأحياء) مليئة بالقصص والنوادر المفيدة، سواء في الأمور الدينية أو التاريخية أو الأدبية، وكانت في تلك المجالس طرف جادة وأشعار مسلية مثل ما ورد سابقاً عن ضرب المثل بحرص أهل شقراء على أداء الصلاة.

لقد عمل والدي في بعض الاستثمارات العقارية مع أفراد تلك الأسرة ومن المعلوم أنه في تلك الفترة (قبل توليه أمانة العاصمة) كان هناك برنامج لدعم إيرادات الدولة، ببيع قطع أراض في المدن الرئيسية بسعر لا يتجاوز ريالين في المناطق القريبة من مراكز المدن، وبريال واحد في أطرافها، وذلك حينما كان «الريال يتكلم». أما المنح فقصرها الملك عبد

العزيز على الأكابر من الوزراء والأمراء وغيرهم، وتتركز فقط على مساحة محدودة لإقامة مسكن في الرياض ومكة والطائف، لمن يتطلب وضعهم مصاحبة الشيوخ في مواسم إقامتهم في تلك المدن. أما جدة فلم يكن لها دور يتجاوز ميناء البضائع ومدينة حجاج البحر و «الكرنتينا» وهي الحجر الصحي للمغادرين من المشاعر والمطار والقنصليات. كان أبي ذا نظرة استشرافية، نحو الدور المستقبلي لجدة، وقد تلمس المناطق ذات الإمكانيات المستقبلية الواعدة، وقد ركز مع بعض أصدقائه لشراء قطع أراض في المنطقة الواقعة بجوار قبر «أمنا حواء» القشلاق العثماني، وقد شكلت تلك المشتريات استثمارا جيدا وقدمت لوزارة المالية مصدراً مهما للإيراد.

ولكن لم يسلم من بعض الارتباك والتورط في شراء أراضي من المالية يوجد عليها إشكاليات. لقد كان الجميح من أهم تجار المواد الغذائية مثل السكر والأرز والأرزاق الأخرى، وكان يورد إلى المنطقة الوسطى في البلاد قدرا كبيرا من احتياجاتها من الأطعمة الأساسية، وبعد ذلك دخل في مجال الصناعة، حيث جاءت للبلاد شركات المياه الغازية، والتي كانت تقوم على أساس توريد المعدات ومادة الكولا ونكهات الفواكه والعبوات من الخارج، ومن الداخل يلزم توفير العمالة والسكر، لذا كانت تلك الشركات تبحث عن رجال الأعمال المتوفر لديهم مخزون جيد من السكر، وكان من أوائل الرواد في هذا المجال أسرة الكعكي (سراج وصدقة) حيث بدأ إنتاج المشروبات الغازية محلياً.

وبعد ذلك دخلت شركة الجميح ذلك المجال حيث تأسس مصنع لها في طريق الأحساء بالرياض ولاقى نجاحاً جيدا. ومن المستظرف أن بعض العمالة المحلية في مجال البناء بالطين، كانوا يتناولون وجبة الظهيرة من الخبز الذي يغمسونه في سائل من عجينة التمر (عبيط)، وعندما وجدوا المشروب الغازي استخدموه كبديل، ويدعون لمن صنع ذلك «الإدام» الطيب والرخيص، حيث لا يتجاوز سعر القارورة أربعة قروش آنذاك، حينما كان الريال السعودي يحتوي على (22 قرشًا) وعندما توسعت أعمال توزيع المشروبات والأغذية في أنحاء المنطقة، تطلب الأمر شاحنات عديدة، وحصل الجميح على وكالة إحدى السيارات الأمريكية الكبرى، ثم بعد ذلك بعقود إنشاء مصنع لزيوت السيارات وتجميع الحافلات (الأوتوبيس). لقد كانت تلك الأسرة من المساهمين في أعمال الخير والبر، وقد لاحظت كبر حجم المبالغ التي يدفعونها لجمعية الأيتام وجمعية الأطفال المعوقين، والتي كنت أشارك فيها وأعرف تفاصيل ما يقدمونه من أعمال يرجون بها وجه الله وحده.

ونعود الآن سنوات بعيدة للخلف، حيث كان الوالد وعمه ورفاقهم في نهاية عام (1321هـ)، في مخيم يقع شمال مدينة شقراء الحافلة بعدد من الأسر الطيبة مثل العيسى والمانع والبواردي والسدحان والجماز وغيرهم من العائلات العريقة.

مخبأ الإمام تركي بن عبدالله:

بعد أداء فريضة الفجر جلس العم حمد في مصلاه يسبح ويذكر الله في انتظار طلوع الشمس كعادته اليومية، بينما اندفع الشباب في سرد القصص الطريفة وتمضية الوقت ريثما يعد العمال قهوة الصباح ويتناولون الافطار قبل استئناف المسير. قال محمود التميمي ها نحن نغادر بلاد الكرام متوجهين صوب بلاد الرمال والسبخات والمياه المرة، وهذه بلادنا التي آوينا فيها الإمام تركي بن عبد الله عدة سنوات منذ هربه من الترك والمصريين عام (1234هـ) حتى تمكن من تأسيس دولة آل سعود مرة أخرى حيث أمضى تلك السنوات بين المزاحمية و ضَرّمَا ومُرَاةُ، كما تزوج عندنا من أسرة الفقيه وولدت له ابنه فيصل، ثم قمنا معه وحاربنا عساكر العثمانيين وبفضل الله وبمساعدتنا تمكن من دحرهم وبناء العاصمة الجديدة لدولته في الرياض.

استاء والدي من كلامه وقال أن الإمام تركي كان في علية مختبئا في غار في تلك الجبال ومعه زوجته العجمية وقد ولدت له جلوي، وأما ابنه فيصل فكان آنذاك شاباً أسر وأخذ مع بني عمه من آل عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى مصر، وكانت الرسل إليه تفد إلى الحائر، ويسلمون رسائلهم إلى مندوبين فيها، ثم يقوم آخرون بالتسلل ليلاً إلى «ظهرة عليا» الواقعة جنوب الحائر ولكنها تقع ضمن مناطق سبيع في وادي الفرع. رد محمود بتعجل ولا مبالاة قائلا ذلك الغار في جنوب وادي حنيفة كانت له فيه زوجة يسير إليها بين وقت وآخر، ولكن معظم إقامته لدينا في المزاحمية و ضَرّمَا ومُرَاة عند تميم. أما سبيع فإن عددهم قليل ولا يقارنون معنا، ومعظم ذرية عامر بن صعصعة هم عتيبة، ومنهم أيضًا بنو نمير الذين هجاهم شاعرنا جرير قبل أكثر من ألف سنة.

سأله الوالد ما هي مصادرك، فإن ما تقوله يخالف المخطوطات التاريخية، أجاب محمود أن تلك المخطوطات متضاربة ومشوشة ولا تستند إلى حقائق ثابتة، ولكنها تعبر فقط عن رأي كاتبها الذي يعمل على خط ما يرضي الحكام أو من يقيمون له ولائم دسمة حينما يعلمون أنه يكتب التاريخ.

وما نقوله عن حائركم، فإنها نخل صغير عند نهاية وادي حنيفة، وقد جاءه الحشاشون من يام قبل أكثر من مائة سنة، وفتكوا بسكانه من السبعان

والسهول، لولا أن قبيلة تميم قد قامت معكم وأنجدتكم من إفناء قوات نجران لقرية سبيع. اعترض الوالد على كلامه قائلا أن ما تذكره يتعارض مع المصادر التي لدينا، فإن أكبر أعمامي زيد الذي تجاوز السبعين الآن لديه معلومات وآثار، من والده عبد الله، كما كان جده علي بن حمد يخط على القرطاس أخبار الوقائع والحوادث التي مرت به، وهي في حوزة العم، وهذا ليس وحده ما يخالف ما ذكرت، بل تخالف الحقائق التي عاصرها جدي ووالده، فلو كان ما تقول صحيحًا لكان معناه أن الإمام فيصل بن تركي قد توفى وهو في الخمسين من عمره، بينما لم يكن الأمر كذلك فقد زاره بعض أهلنا قبل وفاته بقليل وكان قد تجاوز الثمانين وضعف بصره، ولم يكن قادرا على السير إلا بصعوبة. أما غار جلوي في ظهرة عليا في شمال الحريق، فهو موثق حتى عند آل سعود، وفي العالم الماضي زار المنطقة الأمير عبد الله بن جلوي، وأقام لبضعة أيام فيه متحدثاً عن ولادة أبيه في الغار، ومعيشة جده الإمام تركي هناك مختفياً لثلاث سنوات، كان خلالها يقود عدة حملات ضد العثمانيين ومؤيديهم، حيث أجرى بعض هجمات سواء في منفوحة أو ضرما أو الوشم وغيرها متحركاً من الحائر الواقعة شمال ظهرة عليا.

تمعض محمود من ذلك الرد، وسأل أبي هل أنت قارئ؟ فأجابه سريعًا: إنه يقرأ ويكتب ويحسب، ويمكنه العد والجمع حتى «لك» على صدره بل ويصل إلى المليون على الورق. تساءل الرجل عن المليون؟ فرد عليه: إنه عشرة لكوك، كما أفاده أنه يعمل على آلة الحساب الهندية، وقد تعلم مبادئ الأوردية وقليل من الفرنسية. لاحظ أبي أن عمه حمد قد كف عن التسبيح وأخذ يتأمل في محرابه، ونظر إليه بحدة، وهو يقلب كفيه ويحرك أصابعه في إشارة فهم منها وجوب الكف عن مجادلة الرجل، لذلك صمت وأدار بصره نحو سقف بيت الشعر. عند ذاك انبرى سعود السبيعي مخاطبًا محمود قائلًا: هل أنت تمزح أو ترزح، أن معلوماتك أكثرها خاطئة ولا تريد سوى التطاول والتعالي الفارغ الذي تأباه الأنفس الكريمة. تبسم محمود باستهزاء وقال أنت يا سعود لا تقرأ ولا تكتب، ونحن خيرة الناس وأكثرها عددًا بين القبائل، ولا نعرف عنكم سوى أنكم أصحاب «الزولية»، احتد عليه الرجل وقال: هذه فرية يقولها الساقطون، وأنتم يكفيكم ما ورد في كتاب الله عنكم حيث ناديتم من وراء الحجرات لقلة إدراككم للأمور، وتدخلون عليكم من لا يعلم نسبه وقال فيكم الشاعر:-

إِذَا مَــا مَــاتَ مَيْــتٌ مِــنْ تَمِــيمٍ وَسَــرَّكَ أَنْ يَعِــيشَ فَجِــئْ بِــزَادِ

بِخُبْــــزٍ أَوْ بِلَحْــــمٍ أَوْ بِتَمْــــرٍ أَو الشَّــيءِ الْــمُلَفَّفِ فِــي الْبِجَــادِ

تَـــراَهُ يَنْقُـــبُ الْآفَـــاقَ حَـــوْلًا لِيَأْكُـلَ رَأْسَ لُقْمَـــانَ بـــن عَـــادِ

وإن اسمك محمود لا يليق بك بل الواجب أن تكون المذموم. عند ذلك بلغ الحنق أقصى قدره من العم حمد، ولكنه تماسك نفسه مع ضيوفه وقال: إننا في أفضل ساعة للذكر والتسبيح، وأنتم تضيعون وقتكم في التنابز والتفاخر الأجوف وذكر المساوئ، وتخوضون في أمور نهى الشرع عنها، فعليكم بذكر الله وكفوا عن هذا. أجابه محمود إننا نمضي الوقت ونتسلى بأمور عامة ولا نغتاب أحدا في شخصه، وقد نهى الله عن الخوض في آياته ورسله ونحن حاشا أن نخوض في ذلك. هب عبد الرحمن الحريقي واقفًا. لكي يعمل على إنهاء ذلك الجدل العقيم الكريه، وقال أريد أن أتنسم من صبا الوشم البديع بعد أن خرجت عنا أنواء الحوت الباردة قبل أيام. عندما أزاح ستارة الباب هبت نسائم صباحية باردة، فعاد لأخذ عباءته قائلًا: هذه برودة العقارب فلا تقارب، وذهب إلى خارج بيت الشعر، بينما استأنف العم حمد ذكر الله وتسبيحه، وتظاهر أبي برغبته في أخذ غفوة «صفرة» الشمس.

بعد قليل عاد عبد الرحمن قائلًا أن البرد شديد ولم تطلع الشمس بعد، والقمر بدأ المحاق ويعلو قليلا في الأفق الشرقي، وخاطب العم قائلاً: لم يبق في هذه السنة سوى خمس ليال أو أقل وتنصرم بعد ذلك. التفت إليه العم وقال: ولماذا تتعجل انقضاء الليالي والأيام، وهي نقص في العمر ودنو في الأجل، ألا تعرف قول الشاعر:-

نعـد الليـالي والليـالي تـعـدنا والأعـمار تفـنى والليـالي بزايد

الأيام ما بقـى بهـا كثر مـا مضـى والعمر مـا اللي مضى منه بعايد

اللـي دقـت الوسـطى بالإبهـام تـذكرت زمـان مضى ما هـو لمثلي بعايد

ومن عـود العـين الرقـاد تعودت ومـن عـود العين المساري تعاود

قـولوا البيت الفقر يرجـى الغنـى وبيت الغنى لا يـأمن الفقـر عـايد

مازحه عبد الرحمن قائلًا يا بومحمد لقد اهتزت عظام الخلاوي في قبره، فقد كسرت وزن البيت وصحته أن تقول. . . لم يدعه العم حمد أن

يكمل حديثه فقد بلغ «السيل الزُبى» وصب عليه جام غضبه وما كتمه من حنق على السبيعي والتميمي، فقد كان عبد الرحمن من أهل البلدة ويمون على الأسرة، وكما يقولون في الحريق «من يمون يهون» فرد عليه قائلاً وما شأني بالوزن والقافية، فأنا لست شاعرا، ولكني أعطي العبرة من الحكم التي قالها الأولون لنستفيد منها، كما أن هذا ليس شعر أحد الخلاوية ولكنه قصيدة لرجال من النبط(الفلاحين) العرب الأصائل، فدع عنا كلامك هذا، إننا لا نهتم بالأوزان بل بالمعاني، ويكفينا أن نهتم بكلام الله في كتابه وأحاديث رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكما قال سلفنا لأن يمتلئ جوف المرء صديداً خيراً له من أن يمتلئ شعراً. ثم أخبرني ما هي خزعبلات شعرائكم تلك، وما معنى القول: «إذا مات ميت» وهل الميت يعود للموت ثانية حتى يقال عنه ذلك، كفوا عنا يا إخواننا هذه المقولات الخاوية من المعاني الطيبة والحكم والعبر المفيدة للمرء في حياته. أخذ عبد الرحمن اللبيب والأديب ذلك الكلام على سبيل انه تعبير للمحبة رغم ما فيه من حدة، وقال نعم يا بو محمد وكلامك على الرأس، ودابتك: «عنزة ولو طارت» فاستراحت نفس العم حمد وسكنت نفسه وتبسم له ودعا الله أن يرضى عنه.

اتجاه سير القافلة:

أثناء فك بيوت الشعر وترتيب إخلاء المنزل والإعداد للمغادرة، ثار لغط بين أعضاء القافلة حول الاتجاه الأمثل للمسير، فقد رأى البعض أنهم سوف «ينطحون» نفود رملية عسرة وتنغرس فيها أقدام الرواحل، ويجدون صعوبة من السير فيها مع قلة الماء والكلأ. اقترح البعض التوجه شمالاً في الممر الواقع على يمينه نفود الثويرات وعلى يساره نفود السر، وذلك حتى يصلوا إلى محاذاة المذنب من جنوب الشرق، ثم ينحرفوا باتجاه الغرب بميل قليل شمالاً، والانتظار هناك حسب ما ورد من أوامر.

البعض الآخر رأى أن ذلك الطريق طويل، ويرون الأفضل الاتجاه غرباً من موقعهم ثم ينحرفوا يميناً باتجاه الشمال تاركين نفود السر على يمينهم وبلاد السر على ميسرتهم، متجهين مباشرة نحو الجزء الجنوبي للمذنب، ثم إرسال كشافة لمعرفة مقر إقامة آل سعود، وهو طريق أقصر وإن كان شاقاً قليلاً، العم حمد اقترح أهمية البعد عن المناطق الشرقية من قرى السر، التي يسكنها البرقاوية والروقية، حيث لابد أنهم قد خرجوا الآن بمواشيهم وأطفالهم ونسائهم يلتمسون شيئاً من النباتات بعد المطر الشحيح خلال الشهور الماضية. لذا فقد انقسمت القافلة إلى مجموعتين، كان الوالد مع عمه في اتجاه الشمال، يحثون السير للوصول إلى الملقى قبل نهاية ذلك الشهر.

استغرقت القافلة يومين لتجاوز مناطق الرمال الناعمة والكثبان والأراضي المالحة، وعند وصولهم شمال المذنب وجدوا معسكراً متكاملاً من الخيام وبيوت الشعر، وقد وصلت إليه جماعات عديدة من مدن العارض. كان المكان يوفر الإقامة وأماكن للدواب، وبدأوا في استلام السلاح من البنادق الحديثة والذخيرة، ويقوم بعض المرشدين بتوجيه الرجال نحو الأماكن الملائمة للتدريب والتنشيط، حيث تمارس الخيل والإبل أعمال المناورة، ويقوم البعض باختبار الأسلحة وتطوير قدرتهم على استخدامها بشكل فاعل. كان المكان يتسم بترتيب جيد وإمكانيات فوق المتوسطة، ولكن الجميع عانوا من شح المياه ومرارتها.

التقى الوالد مع عمه برجال من أفخاذ مختلفة من قبيلة سبيع، للتداول حول المفاهمة مع آل سعود لتلافي الأضرار من اقتحام عنيزة عنوة، وإيقاع الأذى بالشيوخ والنساء والأطفال، وقرروا سرعة البحث مع أبناء الإمام عبد الرحمن في ذلك الأمر. أفادهم أحد (رجاجيل) آل سعود أن الأمراء سيصلون جنوب عنيزة بعد يومين، وأن مسافة الطريق من المعسكر إلى هناك تستدعي مسيرة يوم كامل للسير الحثيث، ولكنه حذرهم من وجود بعض قطاع الطرق، ومرتزقة آل رشيد من القبائل المنتشرة في منطقة السر. أفادوه أن عليهم ترتيب لقاء مع بقية أفراد قبيلة سبيع لمناقشة بعض الأمور المهمة مع الأمراء، لذا نصحهم بترك الرواحل والأحمال الثقيلة في المذنب، والتوجه إلى عنيزة بأخف قدر من الأمتعة، حيث يوجد هناك مخيم مجهز بكافة المتطلبات، ويمكن استدعاء العمال لاحقاً للتوجه نحوهم على مهل. سارت مجموعتهم حثيثاً نحو الشمال، وقد سر الوالد أن سعود ومحمود لم يكونا في معيتهم، حيث أن عمه لم يستسغ المزاح والحديث الذي يجري بينهما، وبخاصة أن أحد بني تميم أخبره أن محمود ليس منهم، وإنما كانت جدته وأهلها يعملون لدى أناس من الأشراف في الحوطة، وحينما ألزمهم ضابط تركي بتزويجه تم ذلك وقد أنجبت منه ذكوراً وإناثا، وعندما غادر المنطقة لبلاده تركهم عند ذويهم، وكانت إحدى البنات ذات جمال ولب وتزوجها شخص من الحوطة، ثم نقلهم إلى مزرعة لهم في المزاحمية، وألحقوا نسبهم بالقبيلة، وكانت لديهم أموال من تلكما الزيجتين ساعدتهم على ذلك.

في اليوم الثاني من الشهر الأول لعام (1322هـ) وصلوا إلى مخيم آل سعود المقام جنوب موقع لقوات آل رشيد في عنيزة، وكانوا يبعدون عنهم مسيرة ساعة ونصف، واستطاع الوالد بالمنظار المقرّب ومن فوق أحد التلال مشاهدة ملامح ذلك المعسكر، ولاحظ قلة عدد بيوت الشعر فيه، إلا أن الإبل والخيل كثيرة العدد، ولم يستطع تبين الرجال نظراً لبعد المسافة، وضعف قدرة «الدربيل» الذي معه. وعندما عاد إلى مجموعته وجد عمه

مع عدد من رجال سبيع يتداولون حول اللقاء مع آل سعود، ومقترحات كل منهم حول أسلوب طرح الأفكار التي لديهم والتي تتلخص في تجنب نشوب قتال يؤدي لسفك الدماء بين أبناء قبيلتهم، وأهمية بقاء الإمارة في عنيزة في بني ثور.

كان ذلك المعسكر مليئا بالحركة وثري بالإمكانيات الحربية وخدمات التموين والدعم، وكان به حشد كبير يقارب الألف من كافة مناطق العارض سواء من اليمامة أو الوشم وسدير والمحمل والشعيب والأفلاج والسليل. كما احتوى المعسكر عددا غفيرا من أبناء قبيلة سبيع القاطنة في المناطق السفلية من جزيرة العرب، والممتدة من حفر العتش في الصمَّان وحتى الأفلاج مروراً برماح والحائر ونعام والحريق والخرج. ولم يتواجد أحد من سبيع القاطنين في المناطق العليا مثل رنيه وشرق الطائف، أما سبعان القصيم فكان كل منهم ما يزال في بلدته، يتأهب للدفاع ضد الهجوم العثماني المنتظر.

قبل عصر ذلك اليوم قرر العم ومعه بعض الجماعة التوجه إلى مقر قيادة المعسكر، حيث كانوا قد أدوا الفريضة جمع تقديم مع الظهر، وعندما سألوا أحد رجال الشيوخ عمن يتولى رئاسة العمل أفادهم إنه أحد أحفاد الأمير جلوي بن تركي، ويساعده عدد آخر من الأمراء، وذكروا من بينهم الأمير عبد الله بن صنيتان الذي زار الحريق قبل شهور وتعرفوا عليه، وطلبوا الإذن لمقابلته فرحب بهم وأدخلهم مقر القيادة وسلموا على الجميع واستفسروا عن موعد حضور أبناء الإمام. علموا أنهم غادروا الوشم واتجهوا إلى الغاط التي تقع بين سدير وشرقي القصيم، وأنهم يتوقعون وصولهم بعد ضحى الغد.

ملاحظة الأمير الصنيتان على والدي:

دار الحديث حول رغبتهم في عدم الدخول في عمليات ضد أهل التوحيد في القصيم، حيث إنهم إخوة للجميع، ولا نريد سفك الدماء بدون حق، وأنهم إنما جاءوا لصد الهجوم التركي على المنطقة من أولئك الذين لا يأتمرون بالمعروف ولا يتناهون عن المنكر. وبعد أن تداول الحضور الأمر من عدة جوانب، قال الأمير الصنيتان: أن الخلاصة هي ثلاثة أمور، وجمع إبهام يده اليسرى مع بنصرها وأشار بيده اليمنى نحو خنصر اليسرى قائلًا:-

1- يظهر أن زيارة آل يحيا لكم قد أثرت في مشاعركم، ونود أن نؤكد أن سبعان القصيم يختلفون عنكم، وأن ابن يحيا وضعه الرشيد في منصب الأمير بشكل ظاهري، لكي ينفذ تعليماته، والقرارات الرئيسية لقائد الحامية الشمري، وكل دوره هو تسكين مشاعر أهل عنيزة. وهو على خلاف مع

أبناء عمه من بني ثور سواء آل سليم أو الزوامل وحتى بعض آل يحيا، ولا يستطيع أن يدبر أي أمر في البلدة بمفرده أو بمشاورة أهلها.

2- ابن رشيد لن يحضر إلا بعد أن يتأكد تماماً من وصول آخر قوافل الحج إلى البصرة، حيث أن الخفارة هي مهمته الأساسية، ونتوقع أن يكون ذلك قبل نهاية الشهر القادم. ولم يتأكد بعد ما إذا كان سيرافقه قوات تركية حسب طلبه حيث لم تصل موافقة الباب العالي على ذلك، وعلى كل حال فقد أعددنا العدة لكافة الاحتمالات، ونخطط لإخراج مندوبي ابن رشيد من كافة مدن القصيم قبل وصوله، مما سيضطره وقواته للبقاء في الصحراء الواقعة شمال غربنا بعيداً عن خطوط التموين وفي منطقة شحيحة المياه والمرعى.

3- لا يخفى عليكم أن آل سعود لم يهتموا يوماً بالأمور العشائرية أو القبلية، والجميع سواسية ما داموا يعملون على صلاح الديار، ويقاومون التدخل الأجنبي أو الطغيان على العباد أو تخريب البلاد، وإننا لا نهتم إلا بما يحقق الطمأنينة والخير لكل أهل التوحيد بغض النظر عن انتمائهم لقبيلة أو منطقة.

لاحظ الأمير الوجوم لدى الحضور فلم يشأ الاستطراد، وتلفت حوله فرأى أبي جالساً في طرف المكان، تبسَّم مخاطباً العم قائلاً: أن ابنك هذا يشبه ابن أخيك الذي رأيناه في الحريق والجائر العام الماضي. اندهش الوالد من قوة ذاكرة الأمير، وأسرع العم قائلاً بل هو ابن أخي جاء لينوب عن والده الذي طرأت عليه أحوال منعته من الحضور فأرسله ليقوم مقامه. نظر إليه بدقة وقال الأمير الصنيتان: ولكنه يبدو صغيراً، فإننا لا نقبل من يقل عمره عن 18 سنة، فأجابه العم لقد أوشك أن يبلغها، وقال أحد الحضور أن قوامه كبير، ولكنه يبدو دون ذلك، فدعوني أفحص أسنانه لأقرر عمره بدقة، ولكن الوالد أبي أن يعرض فاتحاً فاهه في المجلس مثل الكبش. تبسم الأمير ودعا أحد رجاله وأمره أن يسجلوه مع أعمال المساندة الخلفية وأن يبعد عن منطقة الالتحام الحربي، ووجه بصرف بندقية عثمانية له.

أسرع أحد أفراد الأسرة قائلاً للأمير ابن جلوي، إننا ندعوكم لزيارة الحريق والتعرف على أحوالها، والاطلاع على الغار الواقع فيه حيث ولد جدكم الأمير جلوي بن تركي أثناء اختباء والده هناك بعد سقوط الدولة السعودية الأولى. شكره الأمير على ذلك وأفاده أنه وعمه الأمير عبد الله بن جلوي قد زارا الجبال التي يقع فيها الغار قبل عدة أشهر، وأقاموا في نواحيه لفترة من الزمن أثناء اتجاه قوات ابن رشيد للخرج، وأنهم تواقون

لزيارة الحريق نفسها أثناء انتعاش البراري، والعودة لزيارة الغار مرة أخرى حيث علموا أن الطريق إليه من الحريق أقصر وأقل وعورة.

بعد طلوع الشمس بنحو ساعة اتجه أبي مع أحد الخدم نحو الجنوب الشرقي بعيداً عن المعسكر، حيث توجد ساحة للرماية والتدريب منزوية خلف أحد التلال، وأخذ يجرب البندقية العثمانية، التي لاحظ إنها ليست في كفاءة البندقية الألمانية التي لدى والده. حيث إنها قوية الارتداد إلى الخلف وضعيفة الرماية، ولم يتمكن من إجراء تجارب كثيرة عليها حيث لم يعطوه معها سوى عبوة واحدة من الفشك يوجد بها ستين طلقة فقط.

بعد العصر جاءهم رجل من عند «ابن شوية» يطلب منهم الحضور لكي يتجهوا سويًّا لمقابلة أبناء الإمام. أخبرني أبي أنه حرص على لبس خف ونعل مزدوج ليبدو أكثر طولاً، كما اعتمر العقال المقصب على رأسه فوق «اليشمك» الهندي الأحمر، مع عباءة قصيرة قليلاً حتى يبدو طوله مقارنة بها، وقد تمنطق على خاصرته جنبية وفرد. عندما دخلوا السرادق الكبير، لم تخطئ العين مظهر الأمير عبد العزيز الذي أحاط به اثنان من إخوته أبناء الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي، ومعهم بعض أبناء عم الإمام من آل جلوي وآل عبد الله بن تركي ولفيف من ذرية الإمام محمد بن سعود وآل مقرن.

لقد كان الأمير عبد العزيز مميزاً ليس فقط بقامته المديدة التي تعلو على الجميع، ولكن بكلماته القوية ونظراته الحادة المتجهة نحو الجميع، وبإشارات يديه التي تبين العزم والإرادة. أثناء الجلسة قام شيخ كبير ذو لحية كثة بيضاء ويتعكز على عصا قصيرة وتحدث بصوت مرتفع، متسائلاً عن صحة ما ورده أنه خلال الثلاثة أيام القادمة سيجري اكتساح عنيزة بهجوم قوي، يخشى هو وبقية أفراد قبيلته أن يؤدي إلى إزهاق أرواح محرمة وسفك دماء معصومة في داخلها، وبخاصة أننا في شهر الله الحرام. كان العم حمد قد لفت نظرهم إلى وجوب الحذر في التعامل مع الوضع، بعد أن تبين من النقاش مع الأمير الصنيتان أن آل سعود غير مرتاحين لذلك الطرح.

لكن الأمير عبد العزيز أخذ الأمر بشكل ايجابي، فقال أنتم العرينات لستم من بني ثور، أولا يرضيكم فيهم ما يرضونه لأنفسهم؟ هؤلاء آل سليم وآل زامل وبعض من آل يحيا وهم لا يقبلون لأهلهم المضرة ويشفقون عليهم أكثر منكم، وسوف يتولون هم تسوية المسألة مع قريبهم الذي سمح لنفسه بأن يكون أداة في يد أعوان الترك ليسوم قومه سوء العذاب. وهم بينهم سوف يحلون الأمور بدون تدخل من أحد، ولن يمسوا أرحامهم بأي سوء. أما عن الشهر الحرام فنحن لم نأت مهاجمين أحدا وإنما مدافعين عن

الديار من الطغاة الأجانب [وهم بدءوكم أول مرة]. وأشار بسبابته إلى اليمين نحو رجل رزين ذي هيبة ووقار قائلاً: هذا هو الأمير عبد العزيز السليم إنه ليس فقط كبير آل سليم وليس فقط شيخ قبيلة سبيع في القصيم بل هو أيضاً أمير عنيزة كما كان آباؤه وأجداده، لقد هجم عليهم محمد آل رشيد قبل أكثر من عشر سنوات، وتغطرس عليهم، وسامهم سوء العذاب، وشرَّدهم في البلاد بعد [إخراجهم من ديارهم] وكان البعض منهم مع والدي الإمام عبد الرحمن في الكويت، وآخرون في الوشم وسدير والعراق. وهؤلاء هم أرحامه من آل زامل وآل يحيا، وسيتولون إخراج المتواطئين مع أعدائنا وأعدائكم الأتراك، وليسوا بحاجة إلى أي مساعدة إلا من الله وحده، ثم التفت نحو الأمير عبد العزيز متسائلاً، أليس شيخكم زامل السليم قبل استشهاده في معركة المليدا ضد ابن رشيد هو من قال:-

يا ودود يا رازق الدود في صم الصخر — مستجيب للدعاء ما يخيب سائله

من عصى الإسلام ما زبنه عنا البحر — ما ظهر من غبته كود نفسه زائلة

ربعي القصمان ما منهم اللي ما حضر — كلهم يا شيخ كسابة للطايلة

مع هل العوجاء كما السيل لا منه حدر — من وقف بنحورهم ركزت نصايله

تبسَّم الأمير السليم وهز رأسه بإيماءة خفيفة قائلاً بصوت خفيض: بلى. ثم ختم الأمير عبد العزيز آل سعود كلامه قائلًا: إننا على ثقة أن كافة أهل عنيزة يدعمون أميرهم المنفي، وسيهبون لطرد المتعاملين مع الأتراك وكذلك قوات ابن رشيد سواء القابعة داخل المدينة أو المتربصة خارجها، [**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**] وأنتم أشغلوا أنفسكم بطاعة الله وتدبير خصوصياتكم، وفقكم الله للخير، ثم صاح في أحد رجاله قائلاً: «قلطوا العشاء» وتردد الصوت من عدة خدم لتنفيذ الأمر.

بعد أداء فريضة العصر مع الظهر جمع تقديم لاحظ البعض وجود حركة لدى أهل القصيم الذين حضروا مع آل سعود، حيث كانت تجري تجهيزات ومداولات بينهم، وبعد ذلك ركب خمسة رجال الإبل وليس معهم أي سلاح أو وسائل دفاع، وكان في وداعهم مجموعة من آل سليم وآل زامل وآل يحيا، ويحادثونهم بأصوات خفيضة لا تكاد تسمع. اتجه ذلك

الركب نحو الشمال الغربي عابرون منطقة الشقيقة الرملية باتجاه وادي الرمة. تساءل الكثير عن الهدف من خروجهم في ذلك الوقت وهل هو بقصد الاستطلاع أو أنهم رسل إلى جيش ابن رشيد أو أنهم يرمون تحقيق غرض آخر. بعد المغرب ازدادت حيرة المتواجدين في المعسكر حينما تجمع نحو مائة مقاتل مجهزين بمعدات الدفاع والهجوم، وأخذوا موقعا منزويا يجهزون فيه رواحلهم وأمتعتهم للمغادرة. كانت تلك المجموعة تحوي رجال من عدة قبائل وليسوا كلهم من سبعان عنيزة، بل منهم أشخاص من آل مهنا وأبا الخيل أمراء بريدة وكذلك من بعض مدن القصيم الأخرى وقبائلها. عندما أوشك القمر على الغياب خلف الأفق تحركت جموع ذلك الركب نحو الشمال الشرقي متجهة إلى منطقة رملية شرق عنيزة تسمى الصفراء. ولم يجد أبي عند عمه أو أحد من أفراد الأسرة أي تفسير لتلك التحركات، وخاصة أن عددهم قليل مقارنة بقوات آل رشيد المعسكرة على مسافة تبلغ نحو مسيرة ساعتين عنهم، والتي يبدو من بعيد أنها لا تتجاوز الألف شخص.

أهمية الأمر الذي أصدره عمي حمد لوالدي:

فور الانتهاء من صلاة الفجر صدرت أوامر القيادة للجميع بالتوجه لأخذ وجبة خفيفة، وأخذ كافة الاستعدادات والتجهيزات الحربية معهم والتوجه شمال المعسكر نحو تل صغير مجاور لمزرعة مهجورة، وأشعلت فيه نار معها أعشاب رطبة تثير الدخان الكثيف في الهواء، وعلى أن يكون الجميع عند ذلك التل خلال أقل من ساعة. كما صدرت الأوامر لعشرة من (رجاجيل) الشيوخ ليتوجهوا مع العمال وصغار السن نحو الركن الجنوبي للمعسكر والتأهب لصد أي محاولة من «الحنشل» لنهب بعض الموجودات الخفيفة.

أمر العم حمد والدي بالتوجه مع بريه نحو ذلك الموقع، وأخذ البندقية الألمانية وكمية كافية من الطلقات النارية والكمون في مكان حصين لحين انجلاء الأمر. ارتفعت الجلبة والأصوات في المعسكر، واختلط كلام الرجال وثرثرتهم وصياحهم على بعض، لعمل هذا أو ذاك مع حركة الدواب ورغائها وصهيلها ونهيقها، كما علا الغبار في بقايا ظلام تلك الليلة الدامسة، التي لم تكد أول خيوط ضوء صباحها تبدو في الأفق الشرقي.

اندفعت الجموع شمالاً نحو منطقة التجمع الواقعة جوار تلك النخيل المهملة. شعر الوالد بالحسرة لعدم تمكنه من مرافقة عمه والبقاء جواره ليصد عنه أي تعدي، وجعل الله وكيلاً على ذلك وسأله أن يحمي عمه وبقية الأحبة المرافقين معه وكافة أهل القبلة، من شر الفتن التي يجرها

عليهم الطامعون في العلو حتى وإن وصلوا إليه عن طريق الفساد، أو التحالف مع العساكر الأجنبية.

انشغل أبي مع العمال في حفر الأرض وتشكيل ما يشبه القوس من الأتربة حولها من الزاوية الجنوبية الغربية حسب التوجيهات، وعندما أنهكه العمل بالفؤوس والمعاول التي أحضرها رجال الشيوخ، قال: إنني قد أصبحت «حِرَفِي» ولم آت للقصيم إلا لأكون «حربي» ولكن قدر الله وما شاء فعل. رد عليه بريه قائلًا: اترك هذا لي وسأكفيك القيام بالعمل يا بوزيد، ولكنه أبى واستمر في الحفر في ضوء أول النهار قبل أن تطلع الشمس بقليل، أصاخ السمع لما بدا له أنه أصوات رماية نارية تأتي من بعيد بشكل متقطع من جهة البلدة، ولكن من حوله نفوا ذلك واتهموه بالتوهم. سارع إلى مرتفع قريب وتطلع بالمنظار المقرب، فشاهد بيرق آل سعود عند النخيل والتل الشمالي، وأدهشه أن يلاحظ أن القوات التي تناهز الألف رجل قد انقسمت إلى فرقتين، إحداهما تقدمت غرب التل وتبلغ أقل من خمس البقية التي كمنت خلف التل.

انتظر قليلاً للاستطلاع ولكنه لم يسمع أي مزيد من أصوات الطلقات فعاد لاستئناف العمل في الحفرة. بعد أن أسفر النهار جداً، ومضى على بزوغ الشمس مقدار ما يصلي المرء المعتدل ثمان ركعات، سمع الجميع أصوات رماية كثيفة من داخل المدينة، وأخذت جموع القوات السعودية في الحركة باتجاهين، شاهد أبي راية صغيرة ومعها مجموعة تقل عن مائتي رجل تتجه مسرعة نحو أحد أبواب المدينة، بينما انطلقت الفرقة الكبرى نحو معسكر قوات ابن رشيد القابعة في جنوب غرب البلدة. رغم بعد المسافة إلا أن أبي تمكن من مشاهدة دخول تلك الفرقة وهي تهاجم المعسكر الرشيدي، وكان لدى أحد أعوان الأمراء منظار مقرب قوي، يتابع بواسطته التحركات، حيث أخذ بعد قليل يهلل ويكبر ويفيد أن قوات العدو قد انشطرت وأصبحت غير قادرة على رد ذلك الهجوم الكاسح من الخيالة والهجانة. صدرت الأوامر للحضور بأن يتوجه كل منهم إلى حفرته، وأفادوهم أن هناك بعض الأعراب المرتزقة قد يهاجمون المعسكر الآن، ظانين أنه هدف سهل لكي ينهبوه، وقال أحدهم في الشهر الماضي حينما كنا في السر حدث هذا عندما جرى الالتحام مع مندوب الرشيد، وللأسف كان ضمن الحنشل بعض أفراد قبائل موالية للسعوديين، وعند الالتحام تركوا أرض المعركة واستداروا لنهب المعسكر.

صدرت لهم الأوامر بإطلاق النار على من يرد من ذلك الاتجاه والتركيز على إصابة الركائب لأنها أسهل في التهديف، وعندما تسقط لا يتمكن الراكب من الحركة ويمكن التعامل معه بسهولة. وحدث ذلك فعلاً حيث بعد دقائق بدأت الحفر التي فيها (رجاجيل) الشيوخ تطلق النار على

مهاجمين من جهة الجنوب، حيث كانت حفرهم متقدمة نحو ثمانين خطوة عن حفر صغار السن والعمال، وبعض أولئك الرجال كانوا قناصة مهرة وقد أصابوا مباشرة معظم المهاجمين الذين فوجئوا بكثافة النيران المدافعة عن المخيم. تمكن أحد الحنشل من تجاوز خط الدفاع الأول هو وخمسة معه، وعندما شاهدهم الوالد متجهين نحوه دخله الفزع، ولم يستطع القيام بأي حركة، ولكنه شاهد بريه والآخرون يطلقون النار على اللصوص، فتماسكت نفسه وصوب بندقيته نحو أحدهم الذي يركب ناقة ثقيلة غير سريعة الحركة، فأصاب الدابة في بطنها وتعثرت وسقط قائدها وانقلبت فوقه، فلم يتمكن من الحركة لبعض الوقت. خلال لحظة كان بقية المهاجمين الذين لم يصابوا، قد أسرعوا للفرار من الموقع باتجاه الجنوب، وسارع الرجال للقفز من مكامنهم والقبض على البقية وقيدوهم وتعاملوا برصاصة الرحمة مع بعض المصابين بشدة وكانوا يعانون سكرات الموت.

بعد الزوال بقليل أقبلت مجموعة من المقاتلين، وعند اقترابهم تبيّن أنهم فرقة العم حمد على فرسه ومعه مجموعة من أسرة آل خثلان وبعض فرسان سبيع المشاركين معهم في الحملة. كانوا مرتدين زي الالتحام ومعهم أسلحتهم الشخصية وعليهم أحزمة ومناطق وكمرات تحوي صفوفا من الرصاص والذخيرة، إضافة إلى أسلحة بيضاء على جوانب الخيل، كان الإنهاك واضحًا على ملامحهم، وبدا أنهم لقوا في سحابة نهارهم تلك شيئا عظيما من النصب والإرهاق، والبعض منهم به جراحات خفيفة وسجحات. حمد أبي الله على سلامة عمه وبقية أفراد الأسرة، وسارعوا لتجهيز المكان لجلوسهم والاسترخاء، ولم ير أحد من الملائم الاستفسار منهم عما حدث في يومهم ذاك، وبخاصة أن العم حمد صاح على العمال: «صمدوا رأسي بالقهوة وزيدوا بهارها».

سارع بريه لتجهيز المعاميل وإعداد القهوة، وأخذ يدق في النجر البن اليمني المحمّص، وكذلك بهار الهيل (حب الهال) الهندي مع قليل من العويدي (القرنفل) والزعفران الإيراني الثمين. بينما اندفع عامل أخر يجهز للعم شراب «العبيط» المصنوع من عجينة التمر المنقاة من الفصم (النوى) والمخلوطة مع ماء بارد، لكي يتناوله مع القهوة المركزة. أثناء ذلك تطلع العم نحو جثة تلك الناقة الضخمة والتي فشل العمال في سلخها، ولكنهم قاموا بتقطيع شرائح من لحم الفخذ. أوضح له أحد العمال أن والدي قد أصابها أثناء هجوم اللصوص على المعسكر، وعندما سقطت أرضًا لم يصب راكبها بشدة، فانطلق وهو يضلع نحو أحد رفاقه وأردفه على فرس أصيلة وفروا جميعاً نحو الغرب. وسارع البعض إلى الناقة بشفراتهم وقاموا بتذكيتها، وها هم الآن يطبخون أجزاء من لحم الورك، أما الأجزاء

العلوية من الزند فهم قد صفوها لعمل شواء عاجل. تساءل عن دور البندقية العثمانية التي وهبها الأمير ابن صنيتان للوالد، فأجابه إنها غير فعالة وتشبه التفك القديمة، وهي طراز من البنادق الضعيفة الأداء، وأنه قد استخدم البندقية الألمانية المقدمة له من والده.

أخبره العم بوجوب عدم «عذربة» أو نقد عطية الشيوخ، فأجابه «سم وأبشر يا عم» بعد ذلك توجه لأخذ قيلولة لاستعادة نشاطه، وحتى يجيب عن أسئلتهم بخصوص ما جرى في صباح ذلك اليوم. لم تمض ساعة إلا وهبَّ العم قائماً حيث لم يتمكن من النوم بسبب الضوضاء في المعسكر ولتوتر أعصابه بعد أحداث ذلك النهار. أفادوه أن الطعام على وشك أن يجهز فأمرهم بالتريث لأن على كبده مرارة، كما يفضل انتظار قدوم بقية أفراد الخبرة، واتجه إلى والدي قائلاً: «هات علومك»، بدأ بالاستفسار منه إذا كان الحنشل هم اللصوص؟ وأفاده نحن نعتبرهم أسوأ، ولكن هم يرون وضعهم خلاف ذلك. إنهم قوم يدّعون أنهم يأخذون متروكات، وهي: «لك أو لأخيك» وهم أولى بها. حيث عادةً ما ينشقون عن الفرقة التي يقاتلون معها، ويدعون ذهابهم لأخذ أموالهم وأمتعتهم، ولكنهم يأخذون ما يخص الغير بدلًا من أن يغنمه العدو، وأحياناً يطلق عليهم اسم: «الحنتش» وبعضهم إذا لم توجد معارك يقطعون الطريق (شطار) ويسلبون المارة وأبناء السبيل. بعد ذلك سأله أبي عن الطلقات التي صدرت من داخل عنيزة قبل طلوع الشمس على مرحلتين بينهما نحو نصف ساعة، فأجابه: إننا مثلكم لم نعلم كنه تلك الطلقات، ولكننا لاحظنا أن أبناء الإمام عبد الرحمن كان معهم رجال من آل سليم وبقية بني ثور وكانوا على علم بما يجري، حيث أن المجموعتين اللتين غادرتا المعسكر يوم أمس وليلة البارحة كانت بترتيب مسبق معهم ومع أقاربهم في داخل المدينة، وقد تمكنوا من دخول البلدة بدون أن نعرف التفاصيل.

الاستعداد لمواجهة ابن الرشيد:

انقسم الجيش إلى فرقتين عند التل الشمالي قبل طلوع الشمس، فقد كان سببه أن القيادة لاحظت أن قوات ابن رشيد قد انقسمت إلى فرقتين، واحدة صغيرة اقتربت كثيرا من منازل البلدة، والأخرى اتجهت قليلا نحو الغرب. أمر الشيوخ أن تقوم الفرقة الأولى من قواتها بحمل راية صغيرة ويتولى قيادتها الأمير عبد الله ابن جلوي بن تركي، ابن عم الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي (مع فارق السن الكبير) وأن يتجهوا نحو البلدة. ولكن جرى جدال حاد، حيث أن بعض الثوريين رفضوا أن تدخل عنيزة قوات بقيادة ابن جلوي لأسباب لا نعرف كنهها، وقد صدرت له التعليمات أن يكتفي بالالتحام مع قوات ابن رشيد خارج البلدة. وبعد طلوع الشمس سمعت رماية كثيفة من داخل المدينة، مما يعني أنه قد بدأت

المواجهة بين أهل عنيزة والقوة الرشيدية الصغيرة المتواجدة داخلها، وكانت تلك إشارة للقيادة ببدء الهجوم على الفرقتين المتواجدتين في الخارج. أرسل الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن فرقة من نحو مائتي رجل إلى المجموعة الملاصقة للبلدة والتحمت معها في رماية كثيفة مما أدى إلى تشتت أمرها وهروب معظم من كانوا فيها، وسقط قائدها عبيد بن حمود آل رشيد، وكانت فرقة ابن جلوي تتكون قيادتها من عدد من أمراء آل سعود وآل مقرن وتشتمل على أهل القصيم مع مجموعة كبيرة من أتباع الشيوخ ومواليهم. انحصرت تلك الفرقة بين نيران ابن جلوي الكثيفة ورماية من أهل عنيزة، وأصبح جميع من فيها إما قتيل أو جريح أو أسير أو هارب، وسقط قائدهم عبيد أسيرًا وبه جراح. أما الأمير عبد العزيز آل سعود فقد رتب أهل العارض في صفوف منتظمة، وجعل على كل كتيبة قائداً من عشيرته، وأفاد العم حمد أنه وجمع غفير من أهل الحريق ونعام والحوطة كانوا مع كتائب الميمنة، بينما أهل الوشم والشعيب في كتائب الميسرة، ومجموعة أخرى في الخلف من أهل سدير، واستقر هو في القلب، بينما كانت المقدمة (رأس الحربة) فرقة من أمهر رجاجيل الشيوخ القناصة والفرسان والهجانة.

وعندما رأى بمنظاره المقرب أن فرقة ابن جلوي قد زعزعت فرقة عبيد، أمر شقيقه سعد أن يندفع بالراية نحو المقدمة كما وجه أخاه محمد للإشراف على الميمنة، وأمر عبد العزيز بن جلوي بالإشراف على الميسرة، وكلف ابن صنيتان لتولي حماية المؤخرة من أية كمائن والتفافات غادرة، وأطلقوا ثلاث رصاصات متقطعة إيذانا ببدء الهجوم الكاسح. اندفعت الإبل والخيل والبغال بأقصى سرعة مما رفع المزيد من الغبار في ذلك اليوم الربيعي المغبر أصلاً.

رؤية عمي حمد لسير المعركة:

عندما اقتربوا من معسكر الرشيد بدأت القيادة في إطلاق النيران قبل الوصول إلى مدى رمايتهم، وأفادهم العم حمد أنه قد لاحظ ثلاثة أمور غريبة:

أولها: أن بعض الطلقات المتناثرة قد طالتهم من جهة اليمين حيث التحمت قوات عبيد الرشيد مع فرقة عبد الله بن جلوي، ولم يعلموا إذا كانت طلقات طائشة أو مقصودة، وما إذا كانت من جانب رجال الرشيد أو آل سعود أو من داخل البلدة، وقد أدى ذلك لحدوث ارتباك في ميمنة الهجوم وتخبط اتجاه حركته بانزياحه يساراً نحو القلب. في الوقت نفسه لوحظ أن الفرقة التي يقودها عبد العزيز بن جلوي في الميسرة وجدت المنطقة سالكة، وحثت المسير للأمام بسرعة تتجاوز الجميع مما جعلهم

يندفعون لتجاوز المقدمة التي يقودها الشقيق الأصغر للأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن، مما أدى إلى حدوث لغط وجدال لاحق بين سعد بن عبد الرحمن والأمير عبد العزيز بن جلوي.

وثانيها: فهو أنه بمجرد وصول طلائع قواتهم إلى أطراف معسكر الرشيد فقد لاحظوا ضعف الإمكانات الدفاعية لهم، وبدأت القيادة في الانسحاب باتجاه الشمال الغربي، وبدا كما لو أنهم فوجئوا بالهجوم، أو أنهم أساءوا التقدير عندما ظنوا أن القوات السعودية التي رابطت على مقربة منهم منذ أيام، لم تكن جادة في نيتها لإخراجهم من المنطقة. كانت هناك حفر وسواتر ترابية يكمن فيها عدد من الرماة والقناصة وبعض العوائق أمام تقدم الركائب ولكنها كانت قليلة مقارنة مع كثافة الهجوم. وأشار العم حمد أن عدد تلك الحفر والعوائق لا يتجاوز كثيراً ما أقيم في هذا المعسكر للدفاع ضد اللصوص. ظن البعض أن ابن رشيد (ماجد بن حمود) قد أعد كميناً للسعوديين، حيث لم يتصوروا أنه سيرحل تاركًا أخاه يواجه مصيره مع عدد قليل من الجنود، لذلك أمرتهم القيادة بعدم تعقبه، وتركه يرحل لحين انجلاء الأمر.

وثالثها الذي أثار حيرة العم حمد وجماعته، هو قدوم بعض رجاجيل الشيوخ وهم يمسكون بعنف ستة شباب في مقتبل الرجولة (العشرينات) وعليهم ملابس شمالية من النوع الجيد، وغير مسلحين ويبدو عليهم القلق والحيرة من أمرهم. قالوا للأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن إنهم بنو عمه سعود بن فيصل، فاندفع نحوهم وعانقهم بحرارة ورحب بهم، أما شقيقه سعد فقد بدا متململاً وفي يده عصا صغيرة يضرب بها على ساقه، وقال: مَن هؤلاء؟ فأجابه عبد العزيز: إنهم ذرية عمنا الأمير سعود، وقد قتل آباؤهم حينما كنتَ بعد رضيعاً على يد رجال ابن رشيد، ووقع في الأسر عمهم عبد العزيز منذ ذلك الحين، وتوجهوا جميعاً نحو خيمة مجلس الشيوخ. أثناء ذلك أقبل عبد الرحمن الحريقي وبصحبته ثلاثة رجال، لا تبدو عليهم آثار السفر والمشاركة بالقتال، كان واحد منهم هو الأكبر سناً ويبدو أصغر من عبد الرحمن بثمان سنوات وأكبر من أبي بنحو ذلك، وهو غير طويل القامة ذو وجه صبوح متبسم وعينان حادتا النظرات وإشارات تدل على الانتباه والذكاء.

رحب بهم العم حمد وأفاد أن من حسن طالعنا أن أخرنا عشاء المعركة إلى العصر لتشاركونا فيه. كان «السماط» بسيطاً للغاية، ولكنه يبدو مثل الوليمة مقارنة بأحداث القتال في الصباح الباكر لذلك اليوم، وعند تناول القهوة، قدم عبد الرحمن رفاقه، حيث قال: أن هذا من جماعتكم بني ثور في سبيع واسمه عبد الله بن محمد الفضل، والفتيان معه

من أقارب خؤولته أحدهما من البسام والآخر دوسري من السر. دعاهم الفضل للذهاب معهم إلى منزلهم داخل البلدة، حيث أن الأمراء قد يبقون في المعسكر هذا بضعة أيام، والهواء مغبر والإمكانات محدودة، ويود أن يتعرفوا على جماعته من سبيع في عنيزة، اعتذر العم حمد قائلاً: إنه لم ترد لهم إشارة لدخول المدينة، كما يخشى أن تكون الأمور هناك، مضطربة منذ حدوث إطلاق النار داخلها بعد الفجر. أفادوه أن المدينة في هدوء وسكينة منذ ساعات الضحى، وشرحوا ما جرى هناك في الليلة البارحة وبكرة هذا النهار فإن آل سليم وعلى رأسهم الأمير السابق وأقاربه قد اتفقوا مع أهلهم داخل المدينة من آل زامل وآل يحيا على إزاحة الأمير المعين من قبل آل رشيد بطريقة سلمية، وقد دخل المدينة قبل مغرب البارحة عدد قليل من آل سليم غير مسلحين وكأنهم تجار عائدون لأهلهم، واتجهوا نحو منطقة الجناح حيث يسكن بعض أقاربهم إضافة إلى عدد من أهل عنيزة القدامى من بني خالد وغيرهم. لكن أمير عنيزة اليحيا بلغه نبأهم فأرسل أحد أقاربه مع أتباعه يطلب حضورهم إليه، وقد قابلهم أحد المسنين وأفاد أن الجماعة قد وصلوا متعبين وأخلدوا للنوم مبكراً، وها نحن قد ذبحنا لهم وأوقدنا النيران لإعداد طعام الغداة، وسوف يذهبون للأمير فور أداء صلاة الصبح وقبل أي شيء آخر يكونون عنده وعلى نظره.

بعد أكثر من ساعة عاد الرجل ومعه خمسة مسلحين وأفاد بوجوب حضور الجماعة إلى مقر الأمير الآن وليس لاحقاً، خرج لهم أحد آل زامل ومعه أكثر من عشرة مسلحين وتحدث إليهم بحزم قائلاً بلغ أخي حمد اليحيى بعدم إمكانية ذلك وأوصل إليه سلامي وتحياتي وطلبي منه أن يعرف أننا أسرة واحدة سواء آل زامل أو آل يحيا أو آل سليم، وإن الفتنة على مشارف البلدة كما يرى، ويؤمل منه أن يبحث عن العافية والسلامة للجميع، وأن لا يسمح للبنادق أن تثور في هذه الليلة الظلماء داخل بلدتنا وبين أهلنا ومحارمنا وأطفالنا وشيوخنا، وعليه أن يحمل مسؤولية المنصب الذي تولاه للمحافظة على المدينة وأهلها. كما أود أن تعطيه عهدي وذمتي ووجهي أن يحضر إليه الجماعة بعد صلاة الفجر مباشرة وقبل طلوع الشمس، وعندها يمكنه أن يتصرف بما يرى فيه المصلحة. بعد انصرافهم عاد الرجال إلى عملهم حيث استخدموا المياه الساخنة المعدة للطبخ لإحداث ثقب في أحد الحوائط الطينية، حيث أن استخدام المعاول سيؤدي إلى ضوضاء تلفت الانتباه. عند منتصف الليل كانوا قد أكملوا إحداث ثقب كبير في الحائط يكفي لمرور رجل وبجواره ثقب آخر صغير لتمرير السلاح. وحينما وصلت الفرقة القادمة من معسكر ابن سعود بقيادة

عبد العزيز السليم، دخلوا من الفتحة في الجدار وتجمعوا في أحد المنازل، أما آل مهنا الذين صاحبوهم فقد توجهوا شمالاً إلى بريدة.

بعد صلاة الفجر كانت الخطة قد أعدت بإحكام، وتوافد إلى مسكن الفرقة عدد من الشبان المسلحين من بني ثور، وقرروا التوجه في مجموعتين إحداهما تزيد عن ثمانين شخصاً بقيادة عبد العزيز السليم ذهبت إلى مقر الأمير، والثانية يقودها أحد أقاربه وتزيد عن مائة شخص اتجهت نحو مبنى كبير يسمى مجلس الإمارة ويقيم فيه رجل يدعى السبهان من أخوال الرشيد، ومعه فرقة من أهل حائل والبادية، وطوقوا المبنى ولم يهاجموه. صاح السليم منادياً على الأمير ليقابلهم، وأشرف عليهم من أحد النوافذ صالح اليحيا مستفسراً عن الأمر فأجابه: إنهم التزموا له بالحضور إليه قبل طلوع الشمس، وها قد وفوا بعهدهم وعلى الأمير الآن أن يبحث معهم سبل إخلائه المنصب الذي وضعه فيه ابن رشيد ضد رغبة أهل البلدة، وخيروه بين أن يخرج إليهم أو يدخلوا إليه، فأجابهم صالح: أن الأمير مازال نائماً وسأفيدكم بعد قليل.

أثناء ذلك أرسل حمد اليحيى أحد إخوته إلى ماجد ابن رشيد خارج البلدة يطلب منه سرعة الدخول بقواته لإنقاذه من ذلك الهجوم، كما أرسل أحد رجاله إلى السبهان ليسارع إليه للدفاع عنه. لم يتمكن المندوب من دخول مبنى المجلس المحاصر، وبدأ إطلاق نار بين الطرفين، وكانت عساكر الرشيد خارج البلدة قد رفضت الدخول، وتمكن أهل عنيزة من دخول المجلس والقضاء على كل مقاومة من السبهان ورجاله. أما اليحيى فقد خرج إلى آل سليم بني عمه وأفادوه بوجوب تسليم نفسه ومغادرة البلدة فورًا ولكنه رفض، وحدث شجار قام اثنائه أحد المرافقين مع آل سليم من غير أهل عنيزة بالتعدي على الأمير وإصابته. هرب أحد أعوان السبهان من مبنى المجلس وأسرع إلى خارج البلدة نحو معسكر آل رشيد، وعندئذ شعر ماجد بخطورة الموقف وأمر أخاه عبيد بأخذ مجموعة من المقاتلين والتوجه إلى داخل عنيزة لإنقاذ السبهان، وقد شاهد ذلك بعض الرجال المسلحين المتربصين فوق أسطح المنازل القريبة من مكان تواجد قوات الرشيد.

وصل عبيد ورجاله إلى حدود البلدة بعد طلوع الشمس بقليل، كانوا هدفاً سهلاً للقناصة في أعلى البيوت الواقعة جنوب غرب المدينة، وفي تلك الساعة بدأ هجوم الأمير عبد الله بن جلوي وفرقته على كتيبة عبيد الرشيد، وحدث اختلاط في الرماية بين ثلاثة أطراف هي: الرماة على أسطح منازل البلدة، وقوات الرشيد، والمهاجمين مع ابن جلوي، وطاشت الطلقات في كل اتجاه حتى أيقن عبيد بعدم إمكانية المقاومة أو الهرب.

في تلك الأثناء كانت القوة الرئيسية بقيادة آل سعود تشن هجومها على جيش ماجد بن رشيد الذي خشي أن يقع في أزمة وسارع للفرار باتجاه الشمال الغربي وبطريقة عشوائية، أدت إلى حدوث فوضى عارمة في صفوف رجاله ومصرع أكثر من مائتين منهم، وأسر عدد يزيد عن ذلك معظمهم مصاب بجراح متنوعة.

أفادهم الفضل أنه بحلول الساعة الثالثة ضحى ذلك اليوم سكنت الأمور تماماً داخل عنيزة، وأصبحت القيادة تحت السيطرة التامة للأمير عبد العزيز السليم، حيث أمر بسرعة مداواة الجرحى ودفن الموتى من الجانبين، ووجه المسلحين لتخزين أسلحتهم بعيداً عن مرأى العامة حتى لا تتكدر السكينة في البلدة. وتناول الكثيرون ذلك الطعام الذي بدأ إعداده ليلة البارحة، وليس ضيافة لأحد ولكن للتستر على عملية الهجوم الليلي (السطو) وتسهيل دخول أهل عنيزة لبلدتهم لاستعادة حكمها من قريبهم، الذي رفض النصح له بأن لا يستمر في العمل تحت إمرة آل رشيد ضد رغبة أهله وجماعته. كرر عبد الرحمن الدعوة للعم للحضور والإقامة في مسكن كبير معد لضيوف آل فضل، بدلاً من بيوت الشعر التي لا تحمي من غبار ذلك اليوم المضني، ولكن العم كرر اعتذاره فطلب منه أن يسمح لأبي وبعض أبناء عمومته بالذهاب معهم ومشاهدة معالم عنيزة، والاطلاع على مكتباتها ووسائل الحضارة فيها، فوافق على مضض.

حكمة عبد الله الفضل:

كانت الساعة العاشرة بعد العصر حينما غادروا المعسكر، يحثون السير للوصول إلى البلدة قبل انقضاء النهار ولكن المطايا لم تكن نجيبة فلم يصلوا إلا بعد غروب الشمس بقليل. أثناء الطريق انشغل أبي عن ملاحظة طبيعة الأرض التي يراها لأول مرة في حياته وعن المنشآت المقامة عليها، وركز كل اهتمامه على مراقبة مضيفهم وقائد المسيرة «عبد الله الفضل» الذي كان قليل الكلام كثير التطلع. سمعه يقول: أن الله قد وهبني أذنين وعينين ولسان واحد، لذا فعلي أن أركز على «ما أراه وأسمعه» ثم أتحدث في حدود ما يؤدي الغرض فقط. كانت أفكاره مرتبة وخلقه رفيع، له سمت وعليه ملامح الشيمة والمروءة، لا يحب التعالي ولكنه لا يتهاون في توقير نفسه ومن حوله، تتسم تصرفاته بالكرم وتعامله بالمناقب الحميدة لعلية القوم، لا يرفع صوته ولا يكثر الإشارة بيديه أو برأسه. لقد كانت تلك الرحلة بداية علاقة استمرت ما يزيد عن ستين عاماً من الاحترام المتبادل بين الرجلين، وعلاقات عمل وتعاون مشترك لما فيه مصلحتهما وينفع ديارهم وأهلهم. وسنتحدث لاحقاً عن ملامح تلك العلاقة النبيلة في مراحل عمر والدي المختلفة وحيث استمرت معرفتهم في الحجاز ثم في مصر، وهي وإن كانت علاقة متقطعة حيث تمضي شهور وأحياناً سنين دون لقاء

إلا أنها قائمة على أسس بعيدة عن المال الذي يفسد علاقة الأقارب قبل الأصدقاء.

لقد كانت معرفة خير ومودة لا يبحث فيها طرف عن فائدة من الصداقة، ولكنها ركن يأوي إليه من يصيبه القلق أو الحزن فيجد عند صديقه الوفي المواساة والنصح والحكمة، فرحمهما الله واسأله تعالى أن يجمعنا معهم في عليين مع الأخيار.

أثناء الطريق كان والدي يصيخ السمع للنقاش بين عبد الرحمن و الفضل, حيث أن الأول يعرف المنطقة جيداً لتردده عليها لإنجاز أعماله, أما أبي فأخذ يقلِّب ناظريه في معالم الطريق ويتفحّص طبيعة الأرض والنباتات والمباني. لاحظ عند اقترابهم من البلدة الفارق بينها وبين بلدته, حيث أن المزارع المحيطة بها شبه مهملة وقليلة الخضرة, ولا يبدو أنها تشكّل مصدرا رئيسيا للدخل لأهل المنطقة كما لا تظهر هناك العديد من القصور, أي المنازل الكبيرة المبنية داخل البساتين والمحاطة بالجدران لمنع الدخول إليها لغير أهلها. شاهد في مدخل البلدة بقايا سور بعضه متهدم, ولا يبدو أن هناك حصنا أو قلعة للحراسة، المنازل الكبيرة أقيمت على الطرقات والأزقة, وهي متلاصقة مع بيوت أخرى من ثلاثة جوانب, وتحصل على الهواء والضوء من باحات داخلية.

كان هناك بقية من ضوء النهار بعد المغيب, ولاحظ والدي أن عنيزة تشبه في وسطها حلة الحريق, ولكن بحجم أكبر بكثير, وتوجد كثير من المحلات التجارية والمشاغل الصناعية وجميعها مغلقة في ساعة الغسق, حيث أن ذلك النهار وليلة البارحة شهدا أحداثا مأساوية على الجميع. لاحظ أن الفضل قد أشار لأحد الفتية معه للإسراع قبلهم, وظن أنه ربما يريد إشعار أهلهم بقدوم ضيوف والتأهب لهم. في بدء عتمة الليل لاحظوا أحد المنازل الكبيرة, والملاصق له بيوت صغيرة, ويتجمع حوله عدد قليل من الرجال وحشد من الصبية, عندما اقتربوا منهم تطلع البعض نحوهم وشاهدوا ركائبهم الحربية, والأسلحة التي يحملوها معهم, وتفرق الجمع حيث دخل بعضهم تلك الدار الكبيرة، بينما اتجه البقية بعيداً. حينما وصلوا المكان لاحظوا آثار نيران على الأبواب والنوافذ وطلقات نارية متناثرة في المكان, بينما ينظر أشخاص من خلف النوافذ القليلة, أو الأبواب غير الموصدة, وسمعهم أبي يتبادلون كلمات خافتة مما أشعره بالوجل.

صوت امرأة مثيرة للفضول:

فجأة ارتفع صوت نسائي حاد, ودعاه أحد أبناء عمه للاطلاع نحو الركن العلوي لسطح ذلك البيت فشاهد امرأة شابة تنوح وتصرخ بصوت مرتفع وهي سافرة وتلطم نفسها وتنتحب وتصدر عبارات غير مفهومة

أحيانا، أشار إليهم الفضل للابتعاد عن المكان ومواصلة السير، ولكنهم استمروا في المشاهدة والاستماع في شغف بالغ، وطلب منه عبد الرحمن تركهم قليلاً حيث أن الشباب كالعادة مولعون بالأمور النسائية, تمكن الوالد من فهم قليل من عبارات تلك المرأة المشوشة، كانت أحياناً تتحدث عن غدر أقاربها بزعيمهم, وتسب أعضاء قبيلة سبيع الذين خذلوه, وفي عبارات أخرى بعد لحظات تغير صرخاتها المفزعة لكي تناشد قبيلة سبيع للتوجه لنصرة الزعيم. وأنشدت أبيات شعرية مضطربة, تدعو فيها فروع سبيع في المناطق العليا (شرق الطائف) أو في الوديان أو في الصمان أو الأفلاج لنجدة أميرهم في عنيزة, وبعد لحظات تصيح نثراً وتعيّر أعضاء قبيلة سبيع لخذلانهم إياه. صاح عليهم الرجال للكف عن الاستماع والمشاهدة واستئناف الخطى نحو الدار قبل زيادة الظلام. حينما دخلوا المضيفة لقوا ترحابا جما من أحد رجال آل فضل, كبير في السن وعليه سيماء البحبوحة والجزالة في الموجودات, حيث يزخر المكان بأثاث جيد مرتب, تفوح منه روائح البخور الهندي الفاخر, ويرتدي الرجل ملابس موشاة ويجلس على زرابي ثمينة على جوانبها أرائك مطرزة, وفي صدر المجلس كمر به أواني الضيافة اللامعة.

مائدة الطعام كانت ثرية ومترفة وتبادلوا أثناء تناوله الأحاديث حول ما شاهدوه عند ذلك البيت الكبير, فأفادهم الفضل أنه منزل آل يحيا الأمير السابق, وأن أحداثا مروعة قد حدثت عنده في مطلع ذلك اليوم, تأسف الجميع لحدوثها وأساءهم أن الجميع كانوا قد حذروا الأمير حمد وأخاه صالح من عواقب التمسك بإمارة هزيلة ليس فيها إلا الإساءة لأنفسهم أولا ثم لأسرتهم وأهل بلدتهم. لقد نصحوهما عندما تجمعت القوات الغفيرة في ضواحي عنيزة بوجوب سرعة المغادرة إلى الزبير حيث توجد لهم أملاك, وإذا يخشون وجود ابن رشيد بقربها في البصرة يمكنهما التوجه إلى درعا الشام حيث لديهم مزرعة في سهل حوران, ولكنهم رفضوا النصح.

وبعد أن دخل بنو عمهم من السليم ليلاً أعادوا النصح ولكنهم لم يرعووا, وجرى تدخل من أحد أفراد الجماعة من الحروب وحدثت المأساة الكريهة فإنا لله وإنا إليه راجعون, وما أسوأ «صراع الأقارب» وما يسببه من أضرار ومشاجرات لا داعي لها. سألوا عن المرأة التي تنتحب وتصيح من أعلى المنزل فأفادهم إنها قد تكون إحدى الخادمات أصيبت بصدمة واضطرب فكرها عند مشاهدة الدماء. قال أحد الخثالين إنها كانت امرأة بيضاء وشعرها طويل ناعم مسدل على منكبيها, نظر إليه الوالد شزرًا في إشارة إلى عدم لياقة ذلك الحديث، وانتقل بالكلام نحو الهمسات والإشارات من المتجمهرين حول البيت حينما شاهدوهم. قال لهم أن ملابسكم وركائبكم لا تشبه ما هو لدينا في القصيم, ولكنها من صنف لدى أهل

العارض وقد ظنوا أنكم من رجال آل جلوي, ذلك الأمير من آل سعود الذي لا أدري إذا كنتم تعرفونه؟

سارع عبد الرحمن للقول كيف لا يعرفونه ومسقط رأسه قريب من بلدتهم الحريق. اندهش الرجل وقال الذي أعرفه إنه ولد في مكان يقال له: «المجهول» يقع جنوب الحائر, أفاده أبي أن الأمير جلوي ولد في غار باسمه في «ظهرة عليا» القريبة من الحريق وتقع جنوب الحائر, وكل المنطقة الواقعة بين البلدتين هي من ديار قبيلة سبيع منذ قديم الزمان, أما بئر «المجهولة»، فهي أيضاً تابعة للحريق ولكنها بعيدة عن الغار وقد سبق أن اندثرت, حتى قام أحد أجدادنا بإعادتها وطيها وقال في ذلك شعراً معروفاً. واستفسر منه عن علاقة الأمير جلوي بتلك الأحداث الواقعة حول عنيزة, أفاده الفضل أن جلوي قد عين أميرًا لمدينتنا من قبل أخيه الأكبر الإمام فيصل بن تركي منذ أربعين سنة، واستمر فيها وقتاً غير طويل, ثم حدثت بينه والأهالي خلافات, كان يستخدم فيها أسلوب القسوة والبطش فانقلبوا عليه وعزله الأمام, وعندما سمع الناس في عنيزة أن جيش الإمام عبد الرحمن فيه عدد من أبناء وأحفاد الأمير جلوي, خشوا من عواقب الأمر، وطلبوا عدم دخولهم مسلحين لتلافي حدوث أي إشكالات لا داعي لها. بادر أحد شباب آل خثلان بالسؤال عما إذا كان لديهم معلومات عن الأمراء الستة, الذين أفادهم العم حمد أنهم كانوا مع قوات ابن رشيد وجرى إحضارهم للقيادة. أفادهم الفضل أن أحد العاملين لديهم ذو علاقة قربى مع أحد رجال الشيوخ, وأفادهم أن عددهم خمسة وهم اثنان من أبناء الأمير عبد العزيز بن سعود بن فيصل بن تركي، وواحد من كل من أبناء إخوته الثلاثة محمد وسعد وعبد الله, وأنهم بعد أن اقتادهم الرجال عند الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن, قد انفرد بهم في إحدى الخيام المعزولة, حيث رحب بهم وحمد الله على سلامتهم واستفسر منهم عن ابن عمه عبد العزيز بن سعود وقالوا له إنه يعاني من شدة المرض نتيجة كبر سنه وبقائه في الأسر بحائل أكثر من خمس عشرة سنة, وقالوا أن بقية إخوتهم بخير ولكنهم يعانون من الإقامة الجبرية في معية آل رشيد.

سألهم عن ظروف قدومهم مع ابن رشيد إلى القصيم، وأجابوه إنهم قد صحبوا ماجدا بناءً على أمر من عبد العزيز بن متعب, وأنهم وصلوا راكبين بغالا عراقية بليدة، وتحت مراقبة ورصد دقيق من جنود ابن الرشيد ,وقد كانوا في أحد البيوت (الشعر)حين بدأ الهجوم وعندما شعر مرافقوهم أن ماجدا قد لاذ بالفرار نحو الشمال الغربي تاركًا عشيرته وعساكره في المخيم قرر من كان معهم من أهل حائل الهرب أيضًا وتركوهم جلوسًا هناك, حتى جاء رجال آل سعود ودخلوا عليهم وعرفوهم بأنفسهم، ولكنهم ارتابوا من ذلك وقبضوا عليهم وساقوهم نحو أبناء الإمام

عبد الرحمن. كرر الترحيب بهم الأمير عبد العزيز وسألهم عما يزمعون القيام به الآن؟ أجابوه إنهم يريدون البقاء في القصيم والدفاع عنه, أجابهم الأمير أن هذا غير وارد, فإن نظام الحرب يوجب قتل الأسير إذا عاد لإشهار السلاح ضد محتجزيه, ولا نود أن تتعرضوا لذلك الخطر, ونحن بعون الله سنكفيكم هذه المهمة, والأمر الآخر هو أن أهلكم وإخوانكم ما زالوا «محابيس» في حائل, وإذا بلغه أنكم تقاتلون ضد قواته فسيبطش بهم ويسومهم مزيدًا من العذاب. لذا أقترح عليكم أن تتوجهوا إلى عمكم الإمام في الرياض, الذي انعقدت له البيعة من غالبية أهل العارض, وهو في الواقع عم آبائكم الأربعة الذين بقوا بعد وفاة عمي سعود (جدكم) وهناك يمكنكم التفكير فيما ترونه لصالح أنفسكم وأهلكم, وتبقوا بعيداً عن الصراع بيننا وآل رشيد, أفادوه إنهم: «سيشوفون» أمورهم خلال أيام أو أسابيع ويقررون العمل. قال لهم إذا أردتم نجهزكم بكافة ما يلزم وتتجهون لابن رشيد الذي خيم على مسافة خمس ساعات غرب بريدة، وتلتحقون من هناك بأهلكم ولا يلحقكم وإياهم أي أذى.

عنيزة مدينة التجارة والعلوم:

ظهر عليهم التردد والاضطراب، وقالوا: «نريد أن نشوف»، ثم صاح الأمير مناديًا العمال لإحضار القهوة. استيقظ الجميع عند الفجر بعد نوم عميق أزاح عنهم أكثر المعاناة التي لاقوها في ذلك اليوم العصيب، وعرض عليهم لفضل الذهاب في نزهة إلى أحد بساتينهم الواقعة خارج عنيزة، علها تروّح عن أنفسهم ما بقي من مشقة الأمس, ولكن أبي طلب أن يذهبوا إلى إحدى المكتبات التي سبق أن حدثوه عنها، أفاده عبد الرحمن أن الدماء لم تجف بعد، وربما أن الأسواق مقفلة، أجابه الفضل الحمد لله ليست هناك دماء، وإنما شجار طفيف وما قدره الله حدث وانتهى الأمر, وإن عنيزة مدينة التجارة والعلوم وعساها تبقى عامرة بهما أبداً, واقترح أن يتوجهوا إلى السوق فإذا وجدوا ضالتهم المكتبية كان بها، وغير ذلك يذهبون إلى البستان للتنزه. نصح الجميع بارتداء ملابس ثقيلة حيث لا يأمنوا البرد. أفاده أبي أنه إذا دخل «نوء الأخبية» فهم يعتبرون أن الشتاء قد انخلع، أجابه: أن ذلك صحيح في الجنوب (الحريق) أما عندنا هنا فلا نأمن غائلة البرد حتى ينقضي «نوء المقدم» بعد شهر من الآن. تعجب أبي حينما رأى أن الأسواق عامرة، رغم أحداث الأمس الدموية، كما تعرف فيها على معنى «أنت حر ما لم تضر» التي تروج هنا ولكنها غير مقبولة لديهم لتنافيها مع النهي عن السيئات حتى وإن كان ضررها خاصا وليس عاما، وكان ذلك من نتائج سياسة آل يحيا أعوان آل رشيد الذين هم أتباع الترك العثمانيون, وهذا من أسباب نقمة بعض أهل القصيم ضدهم. في محل كتب وأوراق تابع لقريب الفضل، اندهش آل خثلان من سعة المكان

وحسن ترتيبه وطرق صف المجلدات والكتب والمنشورات والمخطوطات اليدوية.

كما يسهل الحصول على الكتب المفهرسة في أقسام حسب كل موضوع، وبعضها يوجد في أكثر من قسم. استغرق أبي وهو يقرأ في كتاب المسعودي «مروج الذهب» حيث وجد منه عدة نسخ مكتملة الصفحات وذات طباعة جيدة ومجلدة بطراز أنيق ومتين، عكس ما هو متوفر لدى أحد الكتبجية في الحريق من نسخ ممزقة وينقص منها عدة أجزاء. وبذلك تعرف الجميع على كيفية اكتساب عبد الرحمن الخبرة في الترتيب المكتبي مما جعل محله في الحريق متميزاً على غيره. لم يشعر الوالد وهو في جلسته المريحة في دار الكتب، ينهل من المعارف إلا بصوت النداء لفريضة الظهر، فسارع الجميع إليها وبعد ذلك أخبرهم أبي برغبته في أخذ قيلولة قصيرة ثم العودة للعم حمد حتى لا يقلق عليهم وأنه يريد المغادرة مبكراً حتى يتمكنوا من الوصول في النهار، أفاده آل فضل بعدم إمكانية ذلك حيث أعدوا طعام العشية وسيشاركهم فيه بعض معارفهم وعليهم المبيت في عنيزة لأن عمه وبقية المتواجدين في المعسكر سيحضرون صباح الغد إلى مقر جديد للشيوخ يقام حاليًّا على مسافة أقل من ساعتين شمال غرب باتجاه ضواحي بريدة. عند المسامرة تطرق الحديث إلى عدة شؤون وشجون. وقال أحد آل فضل: «من عادات القصمان000000» فسأله أحد الخثالين: إذا كانت هذه العبارة مقبولة كمسمى لأهل القصيم؟ فأجابه أن لا محذور فيها، غير أن القلة ترى أنها تستخدم أحياناً في الحديث عن أمور سلبية، ولكننا نفتخر ونعتز بها. استفسر أحدهم أيضاً عما رواه البعض من أن بني ثور ليسوا من سبيع وإنما من تميم؟ فنظروا إليه بعدم الرضا وقالوا: بل نحن من جذورهم الأصلية، ولكن الناس يحبون إحداث الالتباس لأغراض خاصة عندهم، ثم يطورون ذلك إلى التشكيك، حتى يصلوا إلى الطور الثالث من طعن الأنساب المقيت. أجابهم: إننا قد سمعنا ذلك حتى من أحد فروع بني ثور عندما زارنا في الحريق. فجاءه التفسير أن أغراض البشر متنوعة وتختلف بتبدل الزمان والمكان. أوضح لهم أبي أنه قرأ في إحدى المنشورات المطبوعة في الخارج عن مثل روماني يقول: «في كل أسرة كبش أحمر».

والقصد من ذلك أن الفرد الذي يشعر بنقص لديه يحاول تقليل قدر البقية حتى يرفع نفسه، ويدعي أنه الأكثر فائدة، بينما يرى الجميع أنه ليس فيه خير لنفسه ناهيك بأن يكون ذا نفع لغيره، وبغض النظر عن «الجعجعة» الفارغة، وأيده في ذلك عبد الرحمن قائلاً: أن هذا صحيح ولكن الكبش قد لا يكون أحمر وإنما أسود وأبيض ولكن العبرة واحدة. قبل

ظهيرة اليوم التالي جاءهم نبأ قرب دخول آل سعود إلى عنيزة وهم في طريقهم نحو المقر الجديد، فخرجوا لمشاهدة ذلك الركب الحافل حيث كان في مقدمته الأمير عبد العزيز ابن الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي وإخوانه، ومعهم عدد من آل جلوي بن تركي وآخرون من آل عبد الله بن تركي، ولفيف من آل فرحان وآل ثنيان وآل مشاري وآل مقرن، وكانوا على صهوات جياد عمانية أصيلة وإبل نجيبة, وبدون سلاح سوى المعدات الشخصية ويرافقهم جمع غفير من حاشيتهم ورجاجيلهم وبعض الأخوياء.

أشار أهل عنيزة إلى الفارق الكبير بين ذلك الموكب الهادئ، حيث لا تصدر سوى أصوات خافتة من التكبير والتهليل والتسبيح بحمد الله واستغفاره، على عكس ركب آل رشيد الذي كان يمتلئ بالضجيج، وفي مقدمته «الدمام» يقرع الطبل على عادة الأتراك، بل أحياناً يرافق ذلك المزامير أو إطلاق الأعيرة النارية في الهواء لإثارة الرعب في نفوس الأهالي. كان عدد ذلك الركب لا يتجاوز المائة إلا قليلاً، وكان والدي يتوق لرؤية الأمراء القادمين من حائل (أحفاد الإمام سعود بن فيصل بن تركي)، ولكن أفادوه أنهم غائبون, وبعض الأمراء الآخرون مثل الصنيتان توجهوا مع بقية القوات نحو المعسكر الجديد جنوب بريدة. تبين أن ركب الأمراء وصحبهم متوجهون إلى دار السليم، حيث يتناولون القهوة والشاهي مع الأمير الجديد عبد العزيز السليم، ثم سيغادرون إلى الموقع الجديد للعشاء مع الجميع قبل صلاة المغرب. اقترح عبد الرحمن أن يركبوا مبكراً للذهاب إلى هناك قبل الازدحام، والبحث عن منزل العم حمد وبقية أسرة آل خثلان وأهل الحريق والحوطة.

عند العاشرة بعد العصر وصلوا إلى مشارف المخيم الذي أقامه آل سعود، وقد هالهم قدر الجزالة والوفرة فيه، وحسن التنظيم والترتيبات المعدة لمختلف المهام، حيث واجهوا في البداية مرابض الركائب من إبل وخيل، وجوارها مرابض أخرى للرواحل التي تحمل الأثقال والأمتعة من بغال وحمير، وعلى مسافة قريبة توجد حظائر بهيمة الأنعام من الضأن والماعز والعجول والقعدان المعدة للطبخ وإعاشة المقاتلين. في الجهة الأخرى من الموقع توجد أماكن الفراشين حيث تخزن الأرائك والوسائد والأبسطة، أما في شمال المعسكر فتوجد ساحة معدة للجلوس والعرض، بينما أقيم جوارها سرادق كبير لاستقبال كبار الزوار، ويحيط به مجموعة من الخيام وبيوت الشعر لسكن الأمراء ومرافقيهم وأعضاء القيادة. تنتشر حول المكان مقرات الحراسة والمراقبة التي يتولاها رجال من أهل الثقة والكفاءة. شعر الوالد بالفارق الجم بين هذا المكان وذلك المخيم الذي أقيم في الدلم قبل نحو سنتين.

«كل عجاجة وراها عجاج»:

قبل إتمام الجولة في محيط ذلك المعسكر شاهدوا في الأفق موكبا كبيرا قادما من جهة عنيزة، فأدركوا أن الشيوخ على وشك الوصول، لذا سارعوا للبحث عن مكان العم حمد. أفادهم أحد العمال عن مكان تواجد جماعتهم من أهل الحريق، وهناك سيدلونهم على الخبرة التي فيها أهلها، علموا أن المكان هذا قد راق لأهلهم حيث إنه أفضل من المعسكر السابق الذي أمضوا فيه أياماً متربة، وكلما ظنوا أن العجاج بعده غيث اتضح لهم أن «كل عجاجة وراها عجاج» وليس مطراً. تباحثوا حول الأنباء وتوقعات ما سيحدث لاحقاً، وأفادهم العم أن آل سليم قد استلحقوا كافة السبعان من الصملة والجمالين والجبور والخضران والعرينات وغيرهم، للمشاركة في لقاء مع أهل عنيزة وبريدة وبقية القصمان قبل مغرب اليوم.

أمر أبي العامل برية أن يعد له أحسن الثياب وعباءة داكنة اللون وخف ذا نعل مزدوج ليجعله يبدوا أطول من عمه، وقد أفاده ذلك حيث بعد انتهاء العشاء أشاروا للبعض أن يتوجهوا إلى خيمة كبيرة، وكان عند الباب مجموعة من رجال الشيوخ تسمح فقط للأعيان الولوج من الباب الجانبي، وتحيل البقية إلى بابين خلفيين. عندما أقبلوا عليهم طلبوا من أبي التوجه نحو الخلف، وأفادهم العم أنه ينوب عن والده وهو ملزوم به، ظهر أنهم غير مقتنعين ولكن أحد الأخوياء عرفهم وهو من بني عمر (سبيع) فأشار لهم بسبابته فتركوهم يدخلون. لاحظ أن المكان مرتب على نمط خاص، ففي الصدر أرائك وزرابي فاخرة تتسع لأكثر من عشرين شخصاً، ويليه مكان مفروش بالبساط مع مساند ويتسع لما يبلغ نحو ستين رجلاً، ثم في المؤخرة مكان متسع ليس مفروشاً ولكن أرضه رملية نظيفة قد جرى رشها سابقاً وبعض القوم مصطفين فيها وقوفاً أو يجلسون القرفصاء أو متربعين يتحادثون بينهم في همس.

لم تكد تمر لحظات إلا وحدثت رجة في المكان وساد الصمت ثم دخل الأمراء وكانوا أقل من عشرة ومعهم حشد يزيد على ثلاثين شخصاً، جلس نصفهم على ميمنة وميسرة الأمراء، والنصف الآخر تبين أنهم من الحراس والعمال ذوي الملابس الفارهة بقوا وقوفاً في انتظار إشارة لهم من القيادة. بعد التحيات واتخاذ كل من الحضور مكانه، بادر رجل بتهنئة الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن وإخوته بالنصر على أعوان الأعداء الترك، وسأل الله أن يبلغهم النصر القريب في بريدة على من تبقى منهم.

استفسر العم حمد من أحد مجاوريه وهو ثوري فأفاده أن ذلك الشيخ الكبير هو من آل البسام التميميين. شكره الأمير على كلامه الطيب وقال: أن بريدة علمها عند الله نسأله العون، وهؤلاء هم أبناء الأمير حسن عساهم يقومون ضد عساكر ابن رشيد الذين مازالوا داخل بلدتهم. تحدث رجل يقال له صالح المهنا، وأفادهم إننا نختلف عن عنيزة، فإن ابن رشيد عجز

أن يجد رجلا منا يضعه في منصب الإمارة، لذا كلف أحد رجال شمر (الضبعان) لكي يتولى قيادة الجند ومهام الإمارة، كما أن بلدتنا حصينة ويوجد بها قلعة ذات حماية جيدة، ولسنا مثل اليحيى الذي قبل أن يكون من مناصيب الرشيد، حتى سطا عليه بنو عمه في آخر الليل وفتكوا به، وكان رجال العدو في المجلس وليسوا في مكان محصن، لذا كان من السهل القضاء عليهم سريعاً. أردف قائلاً أن آل مهنا وجميع أهل بريدة رفضوا التعاون مع قوات الرشيد، وحتى الطعام والملابس رفض الكل أن يبيعوهم إياها، وكانوا يرسلون مناديبهم خلال السنوات الأخيرة إلى عنيزة لشراء الغذاء والكساء والدواء والتتن، وإذا رغبتم سيحضر إليكم بكرة الغد كافة أهل بريدة لمبايعة الإمام عبد الرحمن علي يديكم، كما لا يوجد محذور من التوجه إلى هناك ودخول بريدة، حيث أن رجال ابن الرشيد محاصرون في مكانهم.

قال الأمير عبد العزيز: أن ذلك أمر نبحثه فيما بعد. وسارع البسام لأخذ الحديث، حيث أشاد بآل سليم ومناقبهم، وأنهم وجميع أهل عنيزة يريدون أن يأخذوا العهد بأن تكون الإمارة في عنيزة لهم وفي عقبهم لاحقاً، أجابه الأمير بأن كل غرض الإمام هو راحة وسرور أهل الديار، ولا يكون ذلك إلا بإقامة «الأمن والعدل والخيرات» بين الناس، وكما قال الشاعر[1].

لا يَصْلُحُ الناس فَوْضى لا سَرَاةَ لهم ... ولا سَـــرَاة إذا جُهَّـــالُهمْ ســـادوا

تُهْـدَي الأمــور بأهــل الــرأي مــا صـــــــــــــــــــلحت ... فـــإن تولَّـــت فبالأشـــرار تنقـــادُ

وإذا كان أهل عنيزة يقبلون ذلك، ويلتزم آل سليم أن يقضوا بكتاب الله وسنة نبيه وعلى أن يكون «النظر والشور والدبرة» بشرط الإمام عبد الرحمن في الرياض أو من يقوم مقامه فلا بأس، ثم التفت إلى رجل من العرينات على ميسرته أو ترون يا سبيع غير ذلك فيهم؟

فأجابه سريعاً، أن آل سليم وجماعتهم هم شيوخ سبيع في القصيم، ويستحقون التقدير منكم ومنا جميعاً. بادر أحد آل مهنا أمراء بريدة قائلاً «ونحن أبو تركي من قبيلة عنزة مثلكم» ونريد مكتوبا على ذلك أيضاً. أجابه عبد العزيز بن سعود بحدة «هذا أمر ما فيه مكاتيب» وأنتم أخرجوا جنود ابن الرشيد من دياركم ثم يكون خيراً، أما جدنا مانع المريدي

(1) هو الشاعر الجاهلي: الأفوه الأودي.

فتعلمون أنه من بني حنيفة، وهم وعنزة شيء واحد من وائل، و الإمام لا يقبل التفريق بين المسلمين على أساس قبلي قط، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، ومن يدبر أمور البلاد بالتي هي أحسن هو من يتولى شؤونها. تلفت الأمير برهة قصيرة وصاح: «القهوة».

بعد أن ساد صمت قصير، وتردد في أطراف المجلس النداء، وخلال لحظات دخل عشرة صبابين ومعهم دلال وفناجيل القهوة العربية، وباشروا تقديمها لمن هم في المقدمة أولاً، همس أبي في أذن عمه مستفسرًا عن ذلك الأمير الجالس في ركن صدر الخيمة فلم يعرفه، ولكن أحد المجاورين أخبرهم أنه من أحفاد الأمير جلوي آل سعود، فقال إنه يبدو أصغر مني سناً، ويشارك في الأعمال الحربية، فلماذا منعوني عن الدفاع عن الديار وأنا في سن مقاربة له؟

أجابه عمه: «رحم الله فتى عرف قدر نفسه» أن الأمر يختلف باختلاف الشخص، وكما يقول العامة في العارض: «الذي كل الناس عنده سواء، به علة ليس لها دواء».

قال المجاور لهما: أن الأمراء يحظون أثناء الاشتباكات بمرافقين يصل عددهم أحياناً عشرة لكل فرد، يشكلون كتيبة هجومية دفاعية، وتتوفر لهم أفضل المعدات وأقوى الركائب. شرح لهم إنه شاهد شخصياً مجموعة من الأخوياء يسارعون إلى نجدة أحد الأمراء المقاتلين حينما تعثرت فرسه في إحدى الجثث وسقط من على صهوتها، فالتف حوله أربعة من الأشاوس حيث رفعوه من على الأرض ووضعوه على ذلول قوية، واندفعوا نحو منطقة آمنة لمعالجة الإصابات التي لحقت به، وأضاف إليهم: أن الأمراء يتلقون تدريبات كثيفة وعميقة لرفع قدرتهم على القتال بشكل جيد، ويتعلمون سبل تفادي الأخطار، كما يدرسون سبل التخطيط الحربي وإدارة معارك قتالية بحكمة وبصيرة، ولا يعتمدون فقط على البسالة والشجاعة، ويعرفون سبل البعد عن التهور والدخول في أوضاع مهلكة، ويعتمدون على توفيق الخالق وحفظه وهو خير الحافظين، ويسقط منهم شهداء في سبيل الدفاع عن كلمة الله وإعلائها وحماية الديار والأهل.

ظهور موكب متجه لبريدة:

أمضى ليلته تلك في هواجس حول ما استفاده من ذلك النقاش، بأن الواجب عدم الإقدام على أي عمل مهم إلا بعد الإعداد والتجهيز له والدراية بكافة جوانبه، وبعد ذلك فيلزم أن يسانده في أدائه رجال من أهل «الثقة والكفاءة» ممن لديهم خبرة جيدة في تلك الأمور، وعند مخالفة ذلك يتعرض المرء إلى خسائر جمة وتلفيات عديدة.

استيقظ في الصباح على جلبة وضوضاء وأصوات لغط ونقاش بين مرافقيهم من أهل الحريق، حول موعد رؤية هلال الشهر، وما إذا كان عليهم القيام بسنة تاسوعاء يوم غد أو الذي يلية؟ كان البعض مصرًّا على رأيه أنه عاينه قبل ثمانية أيام وآخرون يدعون أن هلال الشهر لم يشاهد إلا في الليلة التالية، وكل منهم يصر على دعواه وينافي ما يقوله زملاؤه حتى كثر الهرج في ذلك، فوبخهم أحد الكبار وقال: أن الرؤية تلزم من شاهد، ونحن على سفر ولا تكثروا المخاصمة حوله، بل يلزم مراجعة ولي الأمر لمعرفة ما انتهى إليه.

عشية ذلك اليوم (بعد العصر) لاحظ أبي ورفاقه موكبا يتجه من بريدة نحو المعسكر، حيث توجهوا إلى مجلس الأمراء، وقد علم فيما بعد أنهم آل عليان أمراء بريدة السابقون قبل أن يستولي عليها آل مهنا، وقد بلغهم بعض ما جرى من نقاش حول بلدتهم وحضروا لطرح وجهة نظرهم، وقد حمد الله أن بلدتهم ذات أوضاع ساكنة ولا توجد نزاعات حول المشيخة فيها، وبخاصة الأمور التي تصل إلى حد سفك الدماء.

بعد ثلاثة أيام لاحظوا ورود ركب غفير من بريدة للقاء القيادة، وعلموا أنهم من آل مهنا معهم أبناء عمومتهم من آل أبي الخيل وجمع كبير من أهالي البلدة، وأنهم قد أتوا لمبايعة الإمام عبد الرحمن عن طريق أكبر أبنائه، وإعلان وقوفهم ضد ابن الرشيد والأتراك. كان الجميع يشعرون بالملل والتوتر، حيث تنقضي الأيام في جلوس سلبي داخل الخيام أو بيوت الشعر، والجو دافئ ولكنه مثير للغبار والأمطار شحيحة، وأصبح الحصول على علوفة الدواب من الأمور الشاقة، كما أخذ ذهابهم (طعامهم وشرابهم) ينفد، وسبل التموين غير ميسرة. لم يكن أحدٌ متأكداً من أوضاع جيش ماجد بن رشيد الذي عسكر غرب البلدة قبل أيام، ولا أحوال حامية ابن رشيد المتحصنة في داخلها، والجميع يستفسر عما إذا كان هناك ما يستدعي بقائهم على تلك الحال؟ في اليوم التالي قرر جماعة من أهل الحريق التوجه إلى مجلس الشيوخ، وذهب معهم والدي والعم حيث وجدوا هناك اثنين من أبناء حسن المهنا يستحثونه للإسراع في دخول بريدة، حيث أن حامية آل رشيد قد أصبحت محاصرة كليا داخل مقر الإمارة حيث لا يسعهم الحصول على أي إمدادات، وبخاصة أن قوات ماجد الرشيد قد أخلت معسكرها غرب البلدة واتجهت نحو قرية في منتصف الطريق إلى حائل (الكهفة) وأرسلوا إلى عبد العزيز بن متعب يطلبون المدد، حتى يتمكنوا من العودة لدخول بريدة، كما قالوا أن التريث قد يؤدي إلى تدهور الوضع الحالي الجيد، وقد تسوء الأمور إذا جاءت قوات كبيرة من حائل أو البصرة لنجدتهم، أفادهم الأمير عبد العزيز آل سعود أنه يخشى حدوث

تبادل إطلاق نيران داخل المدينة، مما يوقع إصابات بين الأهالي لا داعي لها.

قال ابن جلوي: أن الأفضل استخدام أسلوب الرشيد نفسه، حيث ننذره بالاستسلام والخروج بأمان هو ومن معه، أو نشعل النار في المبنى كما يفعلون، ولكن ابن سعود خشي امتداد اللهب إلى منازل الأهالي وإصابتهم، وما دام أن قائد الحامية المحاصر (الضبعان) ليس معه إلا عدد قليل فإننا يمكن أن ندبر طريقة لإخراجهم بغير ذلك، استقر الأمر على التوجه صباح الغد لدخول بريدة، وتشديد الحصار على القلعة. لاحظ أبي عند دخولهم بريده ضخامة المباني فيها، ولكن الطرقات والأسواق أقل تنظيماً من عنيزة التي هي قاعدة القصيم، المساجد كثيرة ومتسعة، والحوانيت معظمها مقفل وبخاصة تلك المجاورة لموقع الحصار. تركوا الركائب وتوجهوا راجلين نحو الحصن، الذي يلاحظ علو حوائطه وعدم وجود أي نوافذ خارجية أو حتى نتوءات يمكن استخدامها للتسلق، أما الباب الكبير فعلموا أنه مردوم من الداخل، حيث أحضرت كميات كبيرة من الأتربة وصفت خلفه حتى ارتفاع يقارب السقف، وبالتالي يصعب كسره والولوج منه، فهموا من أحد أصدقاء العم حمد، وهو من قحاطين الدلم ويقال له «العماج» أن ابن ضبعان لديه طعام وفير يكفي لعدة شهور وكمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة، وأنه يؤمل أن يتمكن آل رشيد من جمع عدد كاف من القوات من شمر حائل ودومة والعراق والحضور لفك الحصار عنه خلال وقت قريب.

أفادهم الرجل أيضاً أن المبنى على ذروته ساتر مرتفع، توجد به ثلاث صفوف في كل منها فتحات على ارتفاعات ومسافات متباعدة، الصف السفلي للرجال الذين يفضلون الرماية وهم في وضع الانبطاح والصف الأوسط لمن هم على وضع الجلوس أما الأعلى فهو لإطلاق النار وقوفا، واختلاف الارتفاع حتى تناسب الثقوب قامة كل رجل، حيث يختار «المزغال» الذي يرتاح له، مما يمكن من تغطية كافة الجهات التي قد يأتي منها هجوم على الدار، التي قال لهم إنها تحوي أماكن للجلوس وأخرى للمبيت، مع باحة داخلية مكشوفة ومسجد وبئر ماء عذب. سألوه عن قائد الحامية، فقال إنه من قبيلة شمر ولكنه غير متأكد إذا كان من أقارب الرشيد، وهم عادة يفضلون إسناد القيادة لأهل الثقة، كما صرح لهم أن بعض الرجال في الداخل من قبيلة عتيبة ومطير، وإنه على علاقة سابقة مع أحد العتبان ومازال بينهم اتصالات حتى الآن بطرق خاصة، أوصى العماج العم حمد بعدم العودة للمعسكر لصعوبة المعيشة هناك لفترة طويلة، ويجدر بهم استئجار مكان على طرف البلدة والإقامة فيه مع إبقاء بعض العمال والدواب في المعسكر، وقد شاهد بالفعل أحد البيوت

الصغيرة والقديمة المعروضة للإيجار. ولكن العم لم يستسغ ذلك مادام أنهم جاءوا لأمر محدد فعليهم البقاء حيث تقرر لهم ذلك، ولا حاجة لهم لاستئجار منزل طيني متهالك للسكن فيه، فهم قد حضروا لمهمة الدفاع عن ديار المسلمين ولا مجال للراحة والدعة. تأسف الوالد لذلك حيث كان يتوق للبقاء في البلدة قريبا من محلات الكتب والمعارف التي يرغب أن ينهل من معينها، ويرفع قدراته العلمية، وبخاصة أن المعسكر يبعد كثيراً عن البلدة، وبرغم ذلك فقد حرص الوالد على السفر إلى بريدة بين آونة وأخرى وتحمل وعثاء الطريق في سبيل طلب العلم.

مرت الأيام ثقيلة والوضع يزداد كآبة والشوق للأهل والدار يزيد، وكانت رسائل الجد تصل من الحريق بأنباء طيبة عن إشراف العم زيد على أعمال تشويك وتلقيح وتسميد النخيل، والإعداد للمحاصيل الربيعية والصيفية، ويطمئنهم على سلامة وهناء أفراد العائلة وبقية الجماعة وأهل الديرة. ومع ذلك فقد كان العم حمد يزداد تململه وضيقه من الإقامة في أرض غريبة بدون أي إنجاز ملحوظ لذا فقد قرر فجأة العودة للحريق وإرسال أخيه عبد الرحمن بدلا منه للمشاركة في الدفاع عن القصيم من ذلك الهجوم التركي الذي يتحدث عنه الجميع كثيراً ولم يره أحد. نصحه البعض التريث وعدم المغادرة لحين وصول أخيه، ولكن أصر على رأيه وحزم أمتعته واصطحب أحد العمال وبعض الرواحل وتوجه جنوباً، يحث الخطى مسرعاً إلى قريته.

والدي ومداولات مجلس الجماعة:

كان أبي يحرص على المشاركة في مجلس الجماعة حيث تلتقي بعض الخبر من أهل الحريق والحوطة والخرج والأفلاج، ويتداول النقاش عدة جوانب تختلف من يوم لآخر، ولكن ثلاثة أمور تركز عليها الحديث:

المسألة الاولى: هي طول الانتظار لحين اقتحام حصن بريدة وعدم رضاهم عن تأخير ذلك حيث وردت الأنباء عن تجمع كبير لآل رشيد على مسيرة ثلاثة أيام باتجاه حائل، حيث انضم لفلول ماجد بن حمود عدد من المقاتلين، كما وصلت إليهم تعزيزات من البصرة أرسلها عبد العزيز بن متعب تتكون من مئات المقاتلين الأشداء والمسلحين بنوعيات مطورة من البنادق الألمانية الحديثة الواردة من إسطنبول، ويخشى أن تندفع تلك القوات لاستعادة السيطرة على بريدة ومساندة الحامية المتحصنة بداخلها. كانت الغالبية ترى عدم الانتظار لحدوث ذلك، وأن الأفضل اقتحام الحصن وإخراج قوات ابن رشيد ثم تحرير بقية مدن القصيم مثل البكيرية والرس والخبراء وغيرها، والتوجه نحو الشمال الغربي للهجوم على المحاربين

الموالين للدولة العثمانية أثناء وجودهم في الصحراء جنوب شرق حائل بمسيرة عدة أيام حيث تقل المياه والمراعي وتحيط بالموقع رمال قاحلة ويصعب على ابن رشيد التموين من قاعدته في الجبلين، بينما يسهل على القوات الموالية لابن سعود الحصول على المساندة من الخطوط الخلفية لهم في القصيم.

كان التريث لحين قدوم الأتراك إلى داخل القصيم سيؤدي إلى صعوبة صد هجومهم و الدفاع عن المنطقة. تحدث بعض الحكماء منهم بشأن اقتحام حصن بريدة وما يواجهه من صعوبات، فبادر المتعجلون بالقول: أن لدى كل منهم خطة لذلك تؤدي إلى الانتصار في ساعات. اقترح البعض ممارسة ما تم في عنيزة والعمل على إذابة الحائط الطيني بالماء الساخن وإحداث فجوات يدخل منها الرجال لمباغتة المدافعين عن ذلك المبنى ليلاً.

أجابهم العارفون: أن جدران تلك القلعة سميكة ومبطنة بالأحجار الصلبة، وليست مثل حائط أحد البساتين. استمر بعضهم في اقتراحات تتعلق بإعمال الفؤوس والمعاول من عدة جهات لإحداث فتحات، مع هدم أجزاء من الجدار الخارجي، حيث أن طلقات المدافعين من السطح يصعب عليها إصابة العاملين في ملاصقة المبنى، كان أبي يستمع للنقاش ولا يتسنى له المشاركة لأنه مكبور، وهو يؤيد القلق بشأن إعادة تجمع قوات ابن رشيد وهجومها لفك الحصار عن حامية بريدة، ثم التوجه لاستعادة السيطرة على عنيزة، وإخراج أهل العارض وآل سعود من كافة أرجاء القصيم، تحدث أحد العارفين مرة بكلام أثلج صدره، فقال: أن عبد العزيز ابن الإمام عبد الرحمن آل سعود رجل قد عرفنا خلال الفترة الماضية أنه «مظفر وموفق» وهو يعمل لما فيه خير الديار وأهلها، وعلينا عدم التشكيك في قدرته على «التفكير والتدبير» لذا يفضل التريث لحين تبين الأمر.

المسألة الثانية: التي كان يدور حولها الحديث كانت في مشكلة الإمداد والتموين، لقد كانت القيادة توفر لكل من المقاتلين، حصة من الطعام كل بضعة أيام تتكون من تمور محصول العام الماضي أو الذي قبله مع كمية من حبوب الحنطة (قمح) ووعاء جلدي صغير به دهن، كما تقدم إليهم أحياناً كمية من الأقط (اللبن الحامض المجفف) أو التمن (أرز عراقي مكسور) وذات مرة وصلهم رأس من الماعز. كان عدد من الرجال يشعرون بالضيق لنقص المخزون الذي لديهم من الطعام المجلوب معهم من بلدتهم، وتدني الحصص الموزعة من القيادة، مع نقص السيولة النقدية لديهم مما يؤدي إلى عدم تمكن بعضهم من شراء المستلزمات الأساسية الأخرى وبخاصة القهوة ومتطلباتها. والدي لم يشعر بنقص الزاد الذي

يعاني منه الكثيرون، فقد كان يذهب إلى بريدة مع أحد العمال كل بضعة أيام للاطلاع على الكتب والمنشورات، ثم شراء المواد الغذائية بما يتوفر لديهم من ريالات فضية والعودة بها إلى مقرهم في المعسكر. سره كثيراً ما تحدث به أحد أفراد أسرة آل خثلان للرفاق، بأنهم قد تركوا ديارهم وأهلهم وأملاكهم في سبيل رفع كلمة الله العليا والدفاع ضد هجوم العدو الأجنبي، وهم قد غامروا بأرواحهم ودمائهم وأموالهم لذلك، وقد يكون مصير أيا منهم الشهادة أو العودة لأهله مصاباً في بدنه أو فاقداً لأمواله، وعليهم احتساب ذلك عند الله وحده، ويكفيهم من الزاد ما يقيم أودهم، ويعينهم على ذكر الله ومجابهة الأعداء، كما أشار لهم أن من يعاني من قلة الطعام فعلياً فيمكنه التوجه إلى مقر القيادة حيث يتوفر ذلك لمن حضر.

المسألة الثالثة: محل النقاش كانت تتعلق بالطقس، وعدم تعود أهل العارض على الإقامة في فيافي القصيم، وبخاصة أن أيام الربيع قد دخلت والأرض قاحلة حيث كانت الأمطار شحيحة، والدواب تعاني من نقص العلف، كما ارتفعت الأتربة نتيجة قلة الغطاء النباتي، وازداد الأمر سوء في منتصف أحد الأيام، حيث شاهدوا منظراً غير معهود ومخيفا، حيث كان الأفق الشمالي مسدوداً بحائط يرتفع من الأرض حتى جو السماء ذي لون أصفر داكن يشبه الرمال المحيطة بهم ويتجه نحوهم بشكل وئيد، وبعد قليل وصلتهم ريح باردة قليلاً، ثم أظلمت السماء من شدة العجاج، وعندما بلغتهم عين العاصفة كانت سرعة دوران الرياح مرتفعة، وأخذت تقلب كل ما في المعسكر من تجهيزات، فتقطعت أطناب الخيام وتمزقت الأروقة وهوت البيوت الشعر على ما فيها. انقلبت أدوات الطبخ، وامتدت النار لتلتهم موجودات القوم سيء الحظ الذين كانوا يعدون غدائهم، بل أن البعض ادعى أن الريح قد رفعتهم عن الأرض وألقت بهم جانباً. لم تستمر شدة الإعصار سوى وقت قصير ثم غادر باتجاه الجنوب الغربي مخلفاً كما هائلا من التلفيات، ولكن الغبار الذي خلفه استمر نحو ساعتين، ومدخلا الضيق والحنق في الأنفس. أخذ الصالحون في الذكر والدعاء لله أن يجعلها رياحاً سالمة، وأن يكفيهم شرها وشر ما جاءت به وشر ما بعدها، وأخذوا ينصحون الملأ بعدم التذمر والسباب الشائع على ألسنتهم، وذكروهم أن لطف الله جعل هذه العاصفة مدة قصيرة، ولم يسلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، كما أصاب أمما قبلهم فجعلهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

حين دخل وقت العصر استجاب الله لنداء المخلصين من عباده فرحمهم بسكون الغبار ثم أغاثهم بماء من السماء ليطهرهم به ويثبت به الأقدام بذلك الرش الخفيف، الذي أعاد للمكان البهجة والطمأنينة. اندهش أبي من طبيعة تلك الرياح التي لم ير مثلها في الحريق، وإن كانت تأتيهم

هناك بعض العواصف الرملية الشديدة ولكنها لا تصل إلى هذا الحد، أوضح له بعض كبار الأقارب أن الجبال المجاورة تكسر من حدة الريح بأمر الله، كما أن السكن في المنازل الحجر تحجب كثيراً من آثارها، وأفاده أحدهم أن مثل تلك الأحداث تمر عليهم مرة كل عشر سنوات أو أكثر، وهي مشابهة لما يحدث في الكويت والعراق ويسمون المتوسط منها «طوز» وهي شائعة هناك، وتحرك الرمال من جهة إلى أخرى، ويرى البعض أنها مفيدة للتربة.

في اليوم التالي أرسلت القيادة عددا من العاملين الذين باشروا إصلاح الخيام والبيوت المصابة من أثر الرياح، فقاموا بإصلاح ما تمزق ورتق ما تفتق وخبن ما أصابه الضرر الطفيف، أما التالف فقد استبدلوه بجديد، وعادت إلى مساكنهم هيئة المأوى البري. كان أبي حريصاً على متابعة عملهم وهو معجب بمهارتهم والهمة والنشاط الذين يؤدون بها ما وكل إليهم من مسؤولية، ويتمنى لو اتسم الجميع بذلك. لاحظ وجود عبد الرحمن الحريقي وعبد الله الفضل، يتجولون في المخيم فتوجه نحوهم مرحباً وداعياً إياهم للمضيفة، ولكنهم أفادوه أنهم ما جاءوا إلا للاطمئنان على أحوال رفاقهم، بعد تلك العاصفة التي أصابت عنيزة أيضاً ولكن بقدر أقل. كما يريدون دعوته هو وأحد الخدم للإقامة عندهم، حيث أخبره عبد الرحمن أن بعض أهل الحريق قد استأجروا مبنى صغيراً، ويوجد لديهم أماكن شاغرة لثلاثة أشخاص، وأنه بحاجة إلى أحد العمال ليرافقهم ويتولى رعاية المسكن ونظافته، ولن يتقاضوا عنه أجرة. رد الوالد عليه شاكراً العرض، واعتذر لأنهم يتفقدون الأفراد في المعسكر بين آونة وأخرى، وهو حالياً يجيب عن عمه، كما أن حضوره أصلا هو نيابة عن والده الذي لم يحضر حتى الآن.

ألحوا عليه بالقول أن هناك احتمال هبوب مزيد من العواصف ومسألة التفقد ميسورة وهم بحاجة إلى وجودهم معهم، شعر أبي بالحرج لرد دعوتهم وكان يشعر برغبة كبيرة في التواجد قريباً من مصادر المعرفة المتنوعة والمتواجدة بشكل كثيف في عنيزة، لذا قرر الذهاب معهم شريطة أن يستلموا منه نصيب ثلاثة أشخاص من كراء البيت، وذلك ليتمكن والده من السكن معهم عند حضوره، رغم ما كان يلاحظه من تناقص النقود التي بقيت معه منذ مغادرة عمه متوجهاً للحريق.

غادروا المعسكر بصحبة اثنين من العمال، وقد وجدوا المكان بحاجة ماسه للترتيب وباشر العاملون في ذلك، ثم أذن لأحدهما بالعودة للمعسكر على أن يرجع إليه فور وصول والده.

رغم بساطة المنزل وقدم مبناه إلا أنه كان مثل الحديقة الغناء مقارنة بخيام وبيوت المعسكر، كما كان فردوس مكتبات عنيزة منهلا لا ينضب من المعارف والعلوم الشرعية والدنيوية، وأخبار العالم ترد مع قوافل التجار القادمين من مكة والبحرين والشام والعراق. بعد مرور بضعة أيام استراحوا فيها للإقامة في مسكن ثابت لا تعصف فيه الرياح، أقبل نحوه العامل بريه بأن قافلة والده قد وصلت المعسكر، وأنه تأخر عنهم قليلا وسيصل بعد العصر. هرول مسرعا لملاقاة والده حتى لا يستنكر غيابه عن جماعتهم، حيث حياه واطمأن على سلامته وعرف أحوال والدته وإخوته وأعمامه والأقارب .

لقمة و نقمة :

لم يفاتح أبي والده في مسألة السكن خارج مخيم الجنود أو ذهابه إلى عنيزة واستئجار مكان مع الجماعة، ولكنه لاحظ عدم وجود مستلزمات الإقامة معه، وعندما استفسر منه علم أنه قد ترك حاجياته والعمال في مكان يبعد نحو نصف ساعة جنوباً، على الضفة الشمالية لوادي الرمة، حيث وجد غديرا حوله بعض النباتات وترك «المنائح» التي معه ترعى فيها. لقد أوضح له أن أخاه حمد قد نصحه باصطحاب بعض الحيوانات المدرة للحليب، لأن القوم هنا يشتهون شربه ولا يجدوه إلا بصعوبة، لذا فقد أحضر معه عشرين من الماعز وثلاث من النوق المجاهيم وبقرتين، وأبقاهم بعيداً عن المعسكر وقريباً من الأعلاف، وقد سره أن لن تكون هناك حاجة للعودة بها، حيث عرض عليه البعض في المذنب شرائها بسعر طيب، لما يرونه من حسن رعايتها وما يعرفونه من حب أهل جنوب نجد لاقتناء المنائح المدرة بجزالة. عند تناولهم شيء من الطعام في خيمة المضيفة، أشار الجد عبد الرحمن أنه يود الذهاب إلى الشخص المكلّف بحفظ سجل المشاركين، حتى يقيدونه أنه حضر أصالة عن نفسه، وأن ابنه عبد الله مشارك نيابة عن عمه حمد الذي غادر بسبب أوضاع عائلية خاصة. أجاب العم سعود الخثلان بعدم الحاجة لذلك الآن، حيث سنقيم طعاما للبعض بعد عصر الغد، وسيحضره المباشر للسجل وهو رجل سبيعي من أهل البكيرية (العرينات) ويمكنه بحث ذلك معه حينذاك، وعليه أن يخلد للراحة بعد عناء الرحلة الطويلة. توجه هو وأبي إلى مخيم الوادي، وكان والدي يشعر بالحرج من عرض مسألة منزل عنيزة عليه.

أثناء الطريق أثنى والده على تصرفاته وقال له: أن عمه حمد قد أبلغ والدته وأعمامه وأخواله وإخوته عن دوره الفعال في الدفاع عن موجودات المقاتلين أثناء معركتهم في عنيزة، وتصرفاته الرجولية قبل ذلك أثناء الرحلة، كما أعطاه جنيها ذهبيا إنكليزيا مرسل له من عمه زيد إضافة إلى ثلاثة ريالات مجيدية من عمه، وخمس ريالات فرنسية من والدته كخرجية

له. لكنه بقي مشغولاً من مفاتحة والده في موضوع السكن، حيث سبق أن اعترض عمه عليه وفضل البقاء مع الجماعة في المخيم الأساسي الذي أعدته القيادة لأهل العارض. هبت عليهم أثناء المسير بعض الأتربة والغبار، وكان الجماعة قد حدثوا والده عن تلك العاصفة القوية التي آذتهم قبل وصوله بعدة أيام، وأفادهم أنهم تعرضوا في الطريق لشيء مشابه لذلك، وقد وجد تلك فرصة مناسبة لكي يشرح لوالده أن الرفاق قد عانوا المشقة من البقاء في خيام تشبه العراء وقد أخذوا داراً صغيرة قديمة، وأنه يود أن يصطحبه معه لمشاهدتها، وإذا راقت له يمكنهم الإقامة فيها سوياً، وبخاصة أن الحديث يدور حول تأخر اقتحام حصن بريدة لمدة تتجاوز بضعة أيام، بل إنها قد تبلغ الشهر، لم يبد والده أي امتعاض من ذلك بل أشار إلى أنه سينظر في الأمر بعد الاستماع إلى ما لدى كاتب السجل (العريني) يوم غد. عندما اقتربوا من مكان الدواب، أشار أبي إلى والده بأن ذلك هو وادي الرمة وهو من أكبر وديان البلاد، وقد وجد نسخة جيدة من كتاب وصف جزيرة العرب للهمداني في عنيزة، وهي متكاملة وذات طباعة أوربية جيدة تمت في البلاد المنخفضة والمحفورة والمسماة (هولاند) الواقعة بجوار الجرمن (ألمانيا)، وهي واضحة الخط على عكس تلك الأوراق المتناثرة التي وجدها في الحريق من ذلك الكتاب النفيس.

ولكن الهمداني لم يشر إلى هذا الوادي إلا بشكل خاطف حيث أفاد أنه يبدأ من نواحي خيبر وأنه يقطع وادي السرير الذي من وراء بلاد السر، وهو ما يسمى حالياً وادي الرشاء ولكن العارفين في بلاد القصيم وعالية نجد أفادوه أن الرمة ينبع حقاً من شمال شرق خيبر وحرتها والجبال البركانية التي فيها، ولكنه لا يتقاطع مع السرير أو الرشاء بل يقع شمالاً عنه. أفاده أبوه أنه يعلم أن هذا الوادي من أكبر أودية بلاد العرب وهو يفوق امتداد وادي نساح، إلا أنه ينقطع حين يصب في رمال وعروق المظهور، وحينما تشتد غزارة الأمطار كل خمسين سنة يفيض من تلك المنطقة ويتجه نحو الشمال الشرقي حتى يلتقي مع وادي الحفر منحدراً صوب الكويت، كما أفاده أن اسمه ينطق بكسر الراء نظراً لوجود كثير من رمم وجيف الحيوانات الميتة التي يجرفها السيل معه أثناء زيادة الأمطار، والبعض ينطق الاسم بضم الراء وآخرون بتشديد الراء وسكون الميم حسب لهجاتهم المختلفة، وعلى كل حال فإن وادي الرمة الذي وضعنا خيامنا ودوابنا على ضفته شبه جاف الآن، ونسأل الله أن يغيث بلاد المسلمين بالأمطار.

بمجرد وصولهم المخيم لاحظوا الارتباك فيه، حيث سقطت إحدى الخيمتين بفعل الرياح المتوسطة، كما كانت مرابط الدواب غير متينة، والفصائل الرضيعة التي معها في حالة توتر وانزعاج، قاموا بمساعدة

العمال في ترتيب أوضاع بهيمة الأنعام، وتمكن أبي من إقناع والده بجدوى الذهاب إلى الدار في عنيزة، وحيث يمكن الوصل إلي هناك بعد المغرب بقليل إذا حثوا السير بهمة، وبخاصة أنها تقع في شمال غرب المدينة ولا تبعد عن ضفة الوادي سوى مسافة يسيرة. حينما وصلوا هناك وجدوا العامل صقيه قد رتب مكان المبيت حسب ما وجهه به منذ الصباح، والرفاق يتسامرون، ورحبوا بالقادمين، وقد ترتبت لهم أمور الاغتسال وتغيير الملابس التي لوثتها رمال تلك الأرض القصماء العزيزة.

تناول كافة أهل ذلك البيت الإفطار مع قدر من حليب الماعز أحضروه معهم، وقام العامل بتسخينه مع قليل من السكر والهيل والزنجبيل لمن أراد، وكذلك بعض لبن البقر الخاثر وما زال بخيره لم تقشد زبدته، وحمد الجميع الله لما أفاض عليهم من نعم. وأشار الفضل إلي أنهم سيجهزون وليمة للجد عبد الرحمن وأفادهم أبي أن الجماعة في المعسكر قد أعدّوا طعام العشية بعد العصر ودعاهم للمشاركة في ذلك فوافقوا. في طريقهم نحو الشمال مروا بالمخيم ومراح المواشي، وأمروا العمال بحمل كافة ما توفر من حليب الماعز ولبن البقر معهم، والتوجه بالنياق الثلاث إلي مكان قريب من المعسكر، لكي يشرب منها الضيوف بعد حلبها بوقت قصير. اجتمع أبي وجدي مع كاتب السجلات (العريني) وهو من أسرة طيبة من قبيلة سبيع، ومن القدامى في إمارة البكيرية، وقد رحَّب بهم وضبط في بياناته معلوماتهم وما معهم من سلاح وذخيرة وركائب، وعندما سأله البعض عن أنباء المحاصرين داخل بريدة وقوات الرشيد الهاربة من القصيم، قال لهم: أن الوضع غير مريح ويبعث على القلق، كان العريني وجماعته قد بايعوا أبناء الإمام عبد الرحمن منذ البداية، وهم من أهل الثقة لدى الشيوخ، ويعرفون بعدم تقلب ولائهم حسب الأهواء والمصالح وإنما هم مثل أكثر قبيلة سبيع أولو نية صافية وعمل مخلص لله ثم لولاة الأمر، أفاد الجميع أن الكتيبة المحاصرة داخل القلعة بقيادة الضبعان، ما زالت متماسكة، ولديها المؤونة والذخيرة الكافية، ورغم قلة عددهم إلا أنهم في دار محصنة ويعلمون عدم رغبة آل سعود في شن هجوم قوي يؤذي أهالي بريدة المجاورين للمكان.

قام بعض القوم بحث الخدم والصبية على اقتناص بعض القوارض حية، ودفعها داخل الحصن حتى تتلف الأطعمة إلا أن ذلك كان غير ذي جدوى وأن الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن قد كلّف ثلاثة رجال أحدهم من العليان أمراء بريدة في الزمن السابق، وآخر عريني من البكيرية، وثالثهم العماج من قحاطين الخرج، وهم يتفاوضون مع الضبعان ويحثونه على المغادرة، قبل أن يقوم أهل بريدة بتسلق الحوائط وإشعال النيران في أسقف المبنى وإتلاف الجدران الشرقية، ولكنه أبى. بعد ذلك أدخل عليهم

أحد العيون محذراً بأن هناك نفقا يشق أسفل الطريق، وسيدخلون عليهم بواسطته، وأخذت أصوات المعاول ترتفع ليلاً في الحفر، ثم بعد ذلك منع أي شخص من الدخول عليهم قطعياً، ويسمح فقط لمن يريد الخروج وتوفر له السبل لوصوله آمنا إلى أهله في حائل، ويمنع من عودة أي شخص بأنباء للمحاصرين، وقد أدخل ذلك شيئا من الوهن في قلوبهم. أما بالنسبة لقوات ماجد الرشيد التي فرت من القصيم وتجمعت فلولها في الكهيفة على مسيرة ثلاثة أيام شمال غرب بريدة، فقد تجمعت معه أعداد من قبيلة شمّر والموالون لها سواء من الجبلين أو المناطق الواقعة شرق المدينة أو من عالية نجد الغربية، حيث تجاوز عدد من معه الثلاثمائة محارب، وهو ينتظر المدد من عبد العزيز بن رشيد حيث يتوقع أن يرسل له نحو خمسمائة مقاتل منهم الخيّالة وآخرون مع الإبل الصخرية مثل تلك التي قادت الهجوم على الدلم العام قبل الماضي، وهم يسيرون على عجل وفي خفة ويتوقع وصولهم إلى معسكر ماجد خلال خمسة إلى عشرة أيام. وهم يتحدثون بصفاقة أنه ما دام آل سعود قد عجزوا عن هزيمة الضبعان في حصنه، رغم إنه لم يتبق لديه سوى ستين رجلاً، فإنهم لن يتمكنوا من صد هجوم يبلغ قوام محاربيه نحو الألف.

أما عبد العزيز بن متعب فقد اجتمع معه عدة آلاف من عساكر العثمانيين وعدد من المدافع مع آلاف من قبائل شمَّر العراق وغيرهم، ويتوقع أن يغادر البصرة بعد أيام وسيضطر للسير على مهل، لأن المدافع التي تجرها البغال الفارسية والثيران الهندية قد تنغرس عجلاتها في الرمال وتبطئ من سرعتها، كما أنه سيضطر للتوجه جنوباً نحو الجهراء ثم الحفر متوجهاً مباشرة إلى بريدة، وليس إلى بلده حائل لتفادي السير في رمال النفود، ولا يتوقع أن يصل القصيم إلا بعد نحو عشرين يوماً. تعجب كل الحضور من تلك الأقوال، وبدأ البعض يتهامسون بينهم وآخرون تذمروا من ذلك، ورغم أن المجلس لم يكن كبيراً، ولا يتجاوز الحضور ثلاثين وكلهم من سبيع سواء من نعام أو الحريق والأفلاج وعنيزة والبكيرية، إلا أن انقسام الرأي بدا واضحاً للغاية. رفع أحد الأفلاجيين صوته قائلاً، لم نتمكن من مشاهدة الهلال بعد صلاة الفجر، مما يعني دخوله المحاق وقد يكون غداً أول أيام الشهر، وبذلك فقد انقضى شهران منذ أن غادرنا بلادنا وأهلنا، فهل سنبقى شهراً آخر على هذه الحالة البائسة؟

أجاب أحد العرينات قائلاً: أن حديثنا يستند إلى أمانة المجلس، ويجب عدم الخوض في ذلك عند العامة، لأن عيون الرشيد منتشرة في كافة نواحي القصيم، ولا يسلم الأمر أن يقوم ماجد الرشيد بعد أن يصله المدد

بالهجوم على بريدة خلال بضعة أيام، ويلزم التحوط والاستعداد لكافة احتمالات الهجوم من قبل العدو.

ساهم البعض في التعليقات السلبية أو الايجابية، وقال لي أبي أن جدي قد تحدث إليهم قائلاً: أيها الإخوان إننا هنا في رباط شرعي، نستعد للدفاع عن ديارنا ضد هجوم الطواغيت، الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه، والذين أدخلوا البدع والضلالات على الدين، وإن كل لحظة تقيمونها هنا لكم بها حسنة. أن لكم أجر المهاجرين من ديارهم وأهلهم وأموالهم في سبيل الله، إضافة إلى أجر المجاهدين لإعلاء كلمة الله، فالله الله أن تضيعوا ذلك بالتذمر والتململ من سوء الجو أو رداءة الزاد، فإن الله قد وعدكم أن لا يصيبكم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله إلا كتب لكم به عمل صالح، عند من لا يضيع أجر المحسنين. كما أنه سبحانه قد بشركم أنكم لا تنفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا تقطعون وادياً ولا تنالون من العدو نيلاً إلا كتبه لكم ليجزيكم بأحسن مما تعملون.

بعد تلك الكلمات ساد صمت للحظة، وتمتم أحد الرجال مثنياً على ذلك، ولكن آخرين رفعوا صوتهم معترضين، وقال كبيرهم: أنت يا بو عبد الله تركت أهلك ومالك قبل أيام وليس منذ أكثر من شهرين، فلتكن موعظتك على حال من يستمع إليك، ولا تكن ممن يعظ نفسه ثم يوجهه لغيره الذين في حال يخالف حالته. قال أحد سبعان الوشم أن ماجد وقواته التي تقل عن ألف لن يستطيع الهجوم على بريدة، مادام آل سعود معهم عدة آلاف وتأييد معظم أهل القصيم، ويمكن إرسال العيون لرصد حركة عبد العزيز الرشيد والأتراك من على مسيرة عدة أيام وإذا اقتربوا فيرسل لنا استدعاء ونحضر خلال يومين، بعد أن يؤذن لنا بالذهاب لأهلنا، ونكفيهم مؤونتنا. لم يسر ذلك الاقتراح معظم الحضور وقرر أبي وجدي القيام من المجلس، وغادروا هم وعدد آخر، وتركوا البقية في جدال حول ما يسمونه «الوضع الكسيف» الذي هم فيه.

اقترح أبي على والده التوجه مباشرة لمنزل عنيزة وترك المعسكر، ولكنه رفض وأفاد إنه يرغب مناقشة بعض الأمور مع معارف له من آل حشر (قحاطين الخرج) كما يرغب السلام على الأمراء صباح الغد، يضاف إلى ذلك أنهم لابد أن سيتفقدون تعديلات السجل بعد صلاة الصبح، ويود أن يكون كلاهما حاضراً للإجابة. والسبب الرابع هو عدم ملائمة التوجه إلى البيت وترك الآخرين في خيام المعسكر، وبخاصة وهم يشيرون بأصابعهم نحوه منتقدين وضعه المريح وموعظته الجافة لهم.

حينما اقتربوا من السرادق الكبير حيث يوجد مجلس الشيوخ، وجدوا أمة من الناس في حركة دائبة، فهؤلاء يأخذون دورهم للدخول وآخرون

يغادرون المكان بعد إتمام أغراضهم وغيرهم يتأهب لإلقاء قصيدة أو خطبة هو وجماعته عند القادة.

ابن صنيتان ينادي ابن خثلان:

وأثناء ذلك سمعوا رجلاً ينادي على «ابن خثلان» وكان فريقهم يضم عشرة من أعضاء الأسرة كلهم قدموا للسلام على الأمراء، والتعرف على ما لديهم، تبين أن المنادي هو الأمير «ابن صنيتان» الذي حيا الجميع، وسأل الجد عبد الرحمن عن أحوال أهله وبلدته وبخاصة تساءل عن أوضاع أخيه زيد بن عبد الله، ثم طلب من الجماعة اللحاق به للجلوس في إحدى الخيام المقامة على جنبات سرادق المجلس. وهناك أوصاهم بالتريث لحين تفرق الازدحام حتى يتسنى لهم الالتقاء مع القيادة في جلسة مختصرة. وعندما دخلوا هناك مع الأمير الصنيتان بعد انتظار تجاوز الساعتين، وجدوا المجلس شبه ممتلئ بشيوخ العشائر المختلفة سواء من أهل العارض أو القصيم وغيرهم. كانت هذه هي المرة الثالثة التي قابل فيها والدي الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن، بعد الحائر والدلم، وقد لاحظ عليه وإخوته مزيداً من مظاهر البهاء والفخامة، إلا أن الابتسامة الجذابة والنظرات الحادة والكلمات المختصرة المباشرة كانت على عهده، مع زيادة في الرونق والترف في المظهر الخارجي أو في المكان. بعد نحو ساعة من الاستماع إلى حديث الأمراء مع رؤساء القبائل، ومع بعضهم البعض، توجه الصنيتان إلى الأمير عبد العزيز بالإشارة إلى أن هؤلاء بعض أفراد أسرة «آل خثلان» مع إشارة إلى مواقفهم السابقة، وحسن استقبالهم له عند زيارته للحريق قبل سنتين.

رحب بهم الأمير وسأل عن أخبار بلدتهم وأحوال أهلها وأوضاع المزروعات والمواشي. ثم اندهش أبي حينما رآه يقلب يده اليسرى، وينظر إليها بحدة قائلاً: «عساكم ما عانيتم المشقة من طول الغربة؟» سارع أحد كبار الأسرة بالرد قائلاً: أن كل مشقة ومعاناة تهون علينا، ما دام إننا قريبون من تحقيق القصد من خروجنا من ديارنا، ونتمنى من الله أن يثبت أقدامنا وأن ينصرنا على القوم الذين جاءوا إلينا يريدون نشر الضلال والفساد في هذه البلاد التي أعزها الله منذ مدة بالعودة إلى الحكم بالكتاب والسنة، والبعد عن البدع والشركيات، ونسأل الله أن يكفينا شر هذا العدو

وأن يدحره بعيداً عن أرضنا وأهلنا، ويعيد لنا السكون والخيرات. انبرى أحد مرافقي الشيوخ منشدًا:(1)

إذا غــامَرْتَ فــي شَــرَفٍ مَــرُومِ فَــلا تَقنَــعْ بمــا دونَ النُّجــومِ

فطَعْــمُ المَــوْتِ فــي أمْــرٍ حَقِيــرٍ كطَعْــمِ المَــوْتِ فــي أمْــرٍ عَظــيمِ

يــرَى الجُبَنــاءُ أن العَجــزَ عَقْــلٌ وتِلــكَ خَديعَــةُ الطّبــعِ اللّئــيمِ

وكــمْ مــن عائِــبٍ قــوْلًا صَــحيحًا وآفَتُــهُ مِــنَ الفَهْــمِ السّــقيمِ

ولكِــنْ تأخُــذُ الآذانُ مِنْــهُ علــى قَــدَرِ القَــرائحِ والعُلُــومِ

كما تحدث آخرون عن الأوضاع الحالية، وأيدوا القيادة في خططها مع حث البعض على سرعة التخلص من حامية ابن الرشيد القابعة في حصنها داخل مدينة بريدة، وتشديد الحصار عليهم لحين التخلص منهم.

توجه جدي عبد الرحمن بالحديث نحو الأمير عبد العزيز آل سعود أكبر أنجال الإمام عبد الرحمن بن فيصل بن تركي قائلاً: «حفظك الله يا بو تركي ووفقك أنت وإخوتك وبني عمومتك في هذه المنازلة الحاسمة». وبعد ذلك أردف بالقول لقد تعرف أجدادنا قبل أكثر من مائة وخمسين سنة على جدكم الأكبر محمد بن سعود في الدرعية، قبل أن تدين له معظم بلاد العارض، وبايعناه حينما استشرفنا فيه حب العمل بكتاب الله وسنة نبيه والحرص على سلامة وسرور أهل البلاد، وقاتلوا معه المناوئين والمبغضين لأسلوبه في قيادة الديار، ومازلنا إلى اليوم نشعر أن الأمور في هذه الأرض لن تستقيم إلا بلطف الله أولاً ثم إذا تولاها الصالحون من هذه العشيرة، وأشار بيمناه نحو الأمير. إننا ما خرجنا من ديارنا البديعة مغامرين بأرواحنا ودمائنا وأموالنا، إلا في سبيل الله ولرفع كلمة الله ودحر المعادين له، وإننا نعلم أن البعض منا قد لا يعود إلى أهله بشيء من ذلك، فالشهداء عند ربهم يرزقون والجرحى تحت رحمة الله وفضله، والأموال من عنده وهو خير الرازقين، إننا يا بو تركي لم نلب النداء لدحر أعوان الترك، إلا طلبا لمرضاته ، وتعلمون رعاكم الله ووالدكم الإمام وأجدادكم فيصل وتركي أحفاد الإمام محمد بن سعود إننا نصون أنفسنا عن عرض الدنيا ومكاسبها لذلك فإن المشقة واحتمالها أمر عزيز علينا نرجو ثوابه

(1) من قصيدة للمتنبي.

من الله بأن يؤيدنا بنصره حيث وعدنا الله سبحانه وتعالى أن يؤيد الصابرين ، جعلنا الله وإياكم منهم ..

أومأ الأمير عبدالعزيز برأسه مشيرا إلى أنه قد أنصت لما تم قوله بشكل جيد ، وقال : يا آل خثلان لقد عرفناكم منذ بدء تأسيس دولتنا ورأينا منكم أربعة أمور طيبة ، أولها أنكم دائما على العهد ولم نرى منك تقلب الولاء حسب الهوى أوالمصلحة ، وثانيها أنكم لم ترفعوا قط بيرق مضاد لولاة الأمر ولم تحاولوا المنازعة أو الغدر ، وثالثها أنكم تقومون للجهاد لإرضاء الله ولا تعملون للحصول على المناصب أوالأموال ، ورابعها أنكم لم تشهروا سلاحكم ضد أحد من أقاربكم أو جيرانكم أو عامة المسلمين لتحقيق مصالح دنيوية ، وهذه ميزة قل أن تتوفر في الكثير من جماعتنا. وإضافة إلى ذلك عرفنا عنكم حبكم لشرع الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.. ثم التفت إلى يمينه وهو يهز رأسه ويده كأنه يسأل مجاوريه عن رأيهم، ولكن لم ينبس أحد بكلمة.. أكمل قائلا : إنني أيضا أنصحكم بالحرص دوما على تلك الخصال والاستمرار عليها ، كما أوصيكم بثلاثة أمور هي عمق التفكير وحسن التدبير وجودة التعبير، وأدعوه سبحانه وتعالى أن ينير بصائركم ويرشدكم إلى الصراط المستقيم.. شكره اثنان من أسرة الخثلان على إطرائه لهم وعاهدوه أن يستمروا أوفياء نحو التزامهم بالبيعة الشرعية للإمام، وأشار أحدهم أن الأمر لا يسلم من وجود قلة من الأسرة الذين قد يتصرفون بما يتعارض مع الخصال الحميدة، ولكنهم منبوذين لدينا ولا يساندهم أحد في أفعالهم السيئة. بادر الأمير ابن صنيتان القول أن أولئك القلة المستهجنة هم من يؤكد قاعدة الأغلبية الحسنة ولا ينفيها.

في الصفحات السابقة عرضت عليكم أيها الأحبة ، ما أرسله لنا الناشر قبل سنوات ، عن أول 200 ورقة من السيرة والتي أضاف لها كثير من الهوامش والتوضيحات ، التي رأيت عدم الحاجة لها ، حيث تجاوزت 300 صفحة ، فطلبت منه التوقف وسددت كامل مستحقاته . ومن يرغب منكم أي ايضاحات ففي هاتفه الذكي ما يؤدي الغرض ، ولتستمر السيرة كسرد نقي لما قاله رحمه الله.

في الجزء التالي ستجدون مسودة كامل السيرة ، حسب ما سمعته منه ، نقلا عن عمه زيد وقبله الجد حمد ، وما سمعته في مجلسه من بعض زواره ، وبعض معلوماتي الخاصة. وسيكون ذلك على عدة مراحل ، حسب ظروف المشاغل والوقت ، ونؤجل أعمال الطباعة والنشر ، حتى أتلقى منكم جميعا الملاحظات والمقترحات. كما يلزم عرض المسودة على "الدارة" للاستئناس بمرئياتهم حول بعض الأمور.

أسأله تعالى التوفيق والسداد ، والهداية للعمل الصالح.